المجلد الثاني

معالم تاريخ الإنسانية

في المسيحية والإسلام والعصور الوسطى وعصر النهضة

تأليف
هـ. ج. ولز
ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد

هـ. ج. ولز

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثاني

في تاريخ الإغريق والرومان
ومن عاصروهما

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

هذه ترجمة لكتاب:

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind from Primordial Life to Nineteen sixty-

By

H. G. Wells

Revised by

RAYMOND POSTGATE

With Maps and Plans by

J. F. HORRABIN

١- راجع الطبعتين الأوليين الأستاذ زكي علي، الأستاذ السابق للتاريخ القديم بجامعة القاهرة..

٢- وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة على طبعة ١٩٦٣ التي أشرف عليها الأستاذ رايموند بوستجيت الكاتب والصحفي الإنجليزي المعروف.

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثاني

ويحتوي الكتابين الرابع والخامس

الكتاب الرابع : بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند.

الكتاب الخامس : قيام الإمبراطورية الرومانية وانهيارها.

فهرس

كلمة المترجم

هذا هو المجلد الثاني من "المعالم"، أقدمه لقراء العربية راجياً أن يعود عليهم منه ما حفزني إلى ترجمته من نفع وفائدة. وسيجد فيه القراء ذكرا مفصلاً لمجتمعات ثلاثة مرت في مواكب التاريخ: أولها ذلك المجتمع الذي ابتدع لنفسه فكرة الوعد وأرض الميعاد، واتخذ التوحيد والخلود له عقيدة، وكتبه المقدسة رباطاً ومحتشدا. وأعني به مجتمع العبرانيين الذين يعرفون باسم اليهود.

وأما المجتمع الثاني فمجتمع يونان الذي عرفت فيه الإنسانية أن لها عقلاً يفكر، وأن هذا العقل ينبغي له أن يفكر وهو طليق من أغلال الماضي وتقاليده، وأن ما لا يستقيم على صراط العقل وهم مبطل وخيال خائل. في ذلك المجتمع عرف الناس أنهم سواسية لا فرق بين حاكم ومحكوم إلا بحسن السيرة واحترام القانون، وعرفوا أن الحاكم ليس ظلا ، وأن مشيئته ليست كما زعم الأقدمون قبسا من إرادة ا ؛ وإنما يستمد الحاكم قوته من فوق الأرض، من ذلك الشعب المحكوم الذي لا بد وأن تكون له إرادة وأن يكون له سلطان وأن تكون له أداة تعبر عن تلك الإرادة وذلك السلطان، وهي الديمقراطية التي اتخذها أولئك القوم مذهبا ومعتقدا، وأورثوها من جاء بعدهم من القرون.

هنالك قام أفلاطون ينشئ خيالاً ويعبر للإنسانية عن أمانيه العذاب فيما رسم لها في "جمهوريته" من خطط وما ارتضى لها من مثل، وقام أرسطو منقبا في ضوء عقله، باحثًا في طوايا نفسه وفي أسرار هذا العالم وخفاياه، وذلك بعد أن أتم لولون وضع القوانين التي تصون كرامة البشر وحقوقهم، وبعد أن جاء رجل الدولة بريكليس فوطد للديمقراطية أركانها بما آتاه ا من حصافة وحسن تدبير وتقديس للحرية.

أولئك قوم نعجب بهم لا لأنهم قاموا بما قاموا به من أعمال، بل لأنهم كانوا – فيما يرى ولز – البادئين بمعالجتها السباقين إلى التفكير فيها دون من تقدمهم من أجيال الإنسانية جميعا. تلك أمة قد خلت بعد أن خلفت للدنيا تراثًا جليلاً ما أحوج العالم العربي وهو في إبان نهضته الحديثة إلى تدبره والتفكر فيه.

وقبل انبثاق تلك البحوث الفكرية التي امتاز بها ذلك المجتمع تولدت أساطير اليونان جميلة جذابة ساذجة ونشأت الرطازات حلوة عذبة، تعبر عن ذلك الخيال البدائي المبكر الحافل بالشاعرية الهادية الرقيقة.

أما المجتمع الثالث فمجتمع روما الجامع بين النقيضين الوارث للضدين: جاهلية الإتروديين ومدنية الإغريق. ففي مجتمع روما اجتمع من أسباب الحضارة أرقاها ومن دلائل الهمجية أحطها وأدناها. وفي مجتمع روما تطور فن المال نافعا وضارا وتنوعت أساليب استعماله. وفي مجتمع روما ازدهر فن عمارة عظيم لا يزال الناس يعجبون به ويفيدون منه إلى يومنا هذا. وفي مجتمع روما تجمعت كل حضارة الغابرين وتكدس ترف الأولين. ومدت الطرق وأنشئت الجسور. وفيه بدأت أساليب التلاعب بالضعفاء، وأحابيل العبث بإرادة الكثرة من الشعب وتزييف اتجاهاته. على أن مجتمع الرومان كان بين تجاريب إنشاء الدولة العظيمة صورتها الأولى فتبدى فيما يتبدى فيه كل تجريبي من نقص شائه لسنا نشعر أن الدنيا قد نضته عن نفسها حتى في عصرنا هذا على الرغم من تأخر الزمان وجهود المصلحين. وفي مجتمع روما الضخم عرف الناس أن في الإمكان أن يحكم المجتمع نفسه بنفسه مهما أوتي من الضخامة ومهما كثرت مدنه ودساكره.

وعن مجتمع روما أخذت أوربا قانون الظفر والنّاب، ألم تكن روما قدوة الدول الغربية ومعلمتها الأولى فيما أخذت به هذه الدول من استعمار وأنانية واستغلال للشعوب المغلوبة وعدم اهتمام بمصالحها أو الأخذ بيدها إلى طريق النهوض والتقدم؟ ولعل في أسطورة روموولوس منشئ روما وأنه قد غذته ذئبة بلبنها، انسجاما مع ما اتسمت به هذه الدولة من جشع وغدر وذئبية. فلا عجب أن كانت الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر، قرن ثورة الاستعمار وفورته تضع روما موضع التقدير والإعجاب بسياستها الغشوم ونظمها الاستنزافية.

إن العالم لم يلق من روما وضريبياتها في العصر الحديث إلا كل شر ونكر، ولكن الشرق العربي الناهض الذي لا يزال يصلى أساليب الاستعمار الجهنمية خليق بأن يقلب الرأي في تاريخ روما عله أن يستفيد من سالف التجارب في رد ما يلقى من المحن في حاضره ومستقبله.

* * *

والمؤلف لا يقتصر في هذا السفر بالبداهة على التاريخ من الناحية السردية وحدها، بل يتناوله من نواحيه الاجتماعية ثم الإنسانية ومن زاوية الحياة وتنظيماتها.

وإنك لا تدري إذ تطالع هذا السفر من أي أقطاره يأخذك الإعجاب به وبمؤلفه؛ بل إن رمت التاريخ وجدت فيه ما يملك مشاعرك من أحداث وعبر؛ وإن التمست السياسة أو الاجتماع ظفرت بكل رائع أخاذ، في نهج علمي محكم وتناسق بين الأقسام فريد.

وها هو ذا المؤلف يحال بين يديك مقومات تلك المجتمعات ثم لا يقف عند هذا الحد بل يتقدم إلى الموازنات فيعقد الواحدة منها تلو الأخرى بين تلك المجتمعات وبين ما يشاكلها أو يجافيها في عصره، فتخرج من كل ذلك بأن تلك المجتمعات إنما هي هيئات إنسانية مركبة، تماثل أو – تكاد – معظم ما تنطوي عليه حياتنا العصرية من الظواهر. فإن ما كان يحرك عقول الرجال يومئذ من مشاكل وعواطف وشهوات، لا يزال يعتلج في صدور الناس إلى وقتنا هذا. ولم يفت ولز ألا يقصر حديثه على الوقائع مجردة، بل هو ينشئ للقارئ نسجا محبوكًا، لحمته آراؤه ومذاهبه التي خلقها وآمن بها، جاعلاً من أحداث التاريخ سدى لذلك النسيج. فأنت إذ تطالع الكتاب تتناول معه خمائر ثمينة، منها ما يبثّك الديمقراطية، ومنها ما يدعوك إلى تقديس الحرية وصون الكرامة البشرية والتحلل من قيود التعصب أيا كان مبعثه، ومنها ما يحفزك إلى تقدير الإنسان ووضعه في مرتبته الشريفة بين الكائنات بوصفه إنسانًا: العالم موطنه والإنسانية قوميته وجنسيته.

* * *

ولا يفوتني أن أسجل مزيد اغتباطي للتقدير الكريم الذي لقيه المجلد الأول من الأوساط العلمية ومن كثير من أساتذة الجامعة المحترمين وكبار رجال وزارة المعارف وخاصة أستاذي المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال بك الذي يعد بحق راعي الكتاب ونصيره – فلقد تلقيت من حضراتهم من عبارات التشجيع ورسائل الرضاء ما لا يسعني إلا أن أشكر ا عليه أجزل الشكر وأعظمه. ولقد أحسنت لجنة التأليف الموقرة كل الإحسان كدأبها إذ عنيت بمواصلة طبع هذا الكتاب وإذاعته في الناس فأسدت إلى المكتبة التاريخية في لغة

الضاد فضلاً جديدا. ذلك أني لست أعلم – ويشركني في ذلك حضرة الأستاذ المراجع وهو الأخصائي الثقة – بأنه قد صدر في العربية كتاب في تاريخ الإغريق والرومان انطوى على ما ينطوي عليه هذا المجلد من الإحاطة والشمول مع الدقة العلمية وصحة المعلومات ولذلك أشعر بالسعادة إذ أقدمه للأمة العربية مشفوعا بشكري العظيم لحضرتي صاحبي العزة الأستاذ الجليل أحمد أمين بك رئيس اللجنة والأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك سكرتيرها العام وحضرات أعضائها المحترمين.

ولقد بذل حضرة المراجع الأستاذ زكي علي أستاذ التاريخ القديم بجامعة الإسكندرية جهدا صادقًا في مراجعة الكتاب والإشراف على خرائطه حتى أصبح على ما يلمس القارئ من يسر ولين.

* * *

وبعد فتلك هي انطباعاتي لدن تقليب الفكر في هذا الكتاب وبعد مداومة النظر فيه، أقدمها للقارئ، وأنا أشعر أنني مهما نوهت بفضل الكتاب ومؤلفه فما أنا ببالغ ما يبلغ القارئ بمطالعته من التأثر والتزكي.

ع.ت. جاويد

الكتاب الرابع

بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند

الفصل الثالث عشر

الأسفار المقدسة العبرانية

والأنبياء العبرانيون

١- مركز الإسرائيليين في التاريخ
٢- شاول وداود وسليمان.
٣- اليهود شعب مختلط الأصل.
٤- أهمية الأنبياء العبرانيين.

١- مركز الإسرائيليين في التاريخ

في وسعنا الآن أن نضع الإسرائيليين ومعهم أعجب مجموعة من الوثائق القديمة في الموضـع الصـحيح اللائق بهم، بالنسبة إلى هذه المعالم العامة التي تؤرخ للإنسانية. وأعني بهذه المجموعة تلـك الوثـائق التـي تعرفها جميع الشعوب المسيحية باسم "العهد القديم". وإنا لنجد في هذه الوثائق أكثر المستندات طرافة وأعلاها قيمة في تبيان تطور المدنية، كما نجد فيها أنصع الدلالات على انبثاق روح جديدة أخذت تتدسس إلى شـئون البشرية أثناء المنازعات التي قامت بين مصر ومملكة آشور من أجل التسلط والسيطرة على العالم.

ولا شك أن جميع الأسفار التي يتكون منها العهد القديم كانت موجودة – وفي نفس صيغتها الحالية تقريبـا – في سنة ١٠٠ ق. م. على أقصى تقدير. والراجح أن معظمها كان يعتبر كتابات مقدسة في عصر الإسكندر الأكبر (٣٣٠ ق. م.)، وكانت هذه الأسفار هي الأدب المقدس للشعب اليهودي الذي نُقل قبل ذلك بزمن قصير – فيما عدا بقية صغيرة من الدهماء – من موطنه الأصلي إلى مملكة بابل عـام ٥٨٧ ق. م. بـأمر الملـك الكلداني نبوخذ نصر الثاني. وكانوا قد عادوا إلى مدينتهم "أورشليم" (بيت المقدس)، وأعادوا بنـاء معبـدهم هناك تحت رعاية قورش، ذلك الفاتح الفارسي الذي خلع نابونيداس آخر الحكام الكلدانيين في بابل (٥٣٩ ق. م.) كما ذكرنا آنفًا. دام الأسر البابلي قرابة خمسين سنة. ويعتقد كثير من الأعلام الثقات أن اليهود اختلطـوا بالبابليين في أثناء هذه الفترة، اختلاطًا عنصريا وفكريا عظيما.

ولا يخفى أن موقع أرض اليهودية [١] وعاصمتها أورشليم فريد في بابه، فهي بقعة مستطيلة الشكل تشـبه الشريط يحدها البحر المتوسط غربا والصحراء الواقعة فيما وراء الأردن شـرقًا. ويمـر خلالهـا الطريـق الرئيسي الطبيعي الذي يصل بين الحيثيين وسوريا وآشور وبابل شمالاً وبين مصر جنوبا. فكانت لذلك قطرا قدر له تاريخ مضطرب حافل بالأعاصير.

كانت هذه البلاد طريقًا لمصر وكل قطر عزيز الجانب إلى الشمال، وكانت الجيوش الزاحفة للفتح والتوسع تخترقها، كما يشنون على أهلها الحروب رغبة في شق طريق للتجارة. ولم يتوفر لها من سعة الرقعة ولا من القدرة الزراعية ولا الثروة المعدنية ما يكفل لها الأهمية. وقصة الشعب اليهودي التي حفظتها لنا تلك الأسفار المقدسة تجري كأنها تعليق مسطر على هامش التاريخ الأعظم شأنا، أعني به تاريخ نظامي الحضارة القائمين في الشمال والجنوب ومدنية الشعوب البحرية في الغرب.

---

(١) في هذا البيان التاريخي الدقيق الذي سطرته يد محايدة نزيهة ما يدحض كل مـدعيات الصـهيونية وإسـرائيل فـي أرض فلسطين العزيزة. فلم يكن اليهود فيها في يوم من الأيام إلا مغتصبين لأرض لا يملكونها، وإذا هم اليوم يقولون للجهلاء إنها كانت لهم مستقرا لملك عضود وموعد موعود.



(ش ٥٨) – خريطة بلاد العبرانيين

وتتكون هذه الأسفار المقدسة من عدة عناصر مختلفة. وكان الناس من قديم الزمان ينظرون إلى الأسفار الخمسة الأولى (توراة موسى) باحترام خاص. وهي تبدأ على صورة تاريخ عام يروي قصة مزدوجة تتناول خلق العالم والبشرية والحياة الأولى للجنس البشري، كما تتحدث عن طوفان عظيم قضى على البشر جميعا سوى بضع أفراد محظوظين. وقصة الطوفان هذه عظيمة الانتشار في الروايات القديمة. وقد تكون صدى لذلك الفيضان الذي اجتاح وادي البحر المتوسط والذي حدث في العصر الحجري الحديث (النيوليثي) من تاريخ الإنسان. ولعلها تعيد إلى الأذهان ذكرى إحدى الكوارث العظيمة التي حدثت ببلاد جورجيا وإقليم بحر قزوين. وقد عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية تروي كلا من قصتي الخليقة والطوفان، وهي نصوص ترجع إلى زمن يسبق عودة اليهود إلى وطنهم. ومن ثم فإن نقاد الكتاب المقدس يحاجون بأن اليهود استولوا في أثناء أسرهم على تلك الفصول الافتتاحية، وهي قوام الإصحاحات العشرة الأولى من سفر التكوين.

ويتلو ذلك تاريخ آباء الشعب العبراني ومؤسسيه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وهم يمثلون فيه على صورة رؤساء بدو يتبعون نظام الأبوة ويعيشون عيشة الرعاة الرحل في المنطقة الممتدة بين بابل ومصر. ويقول النقاد إن قصة التوراة الراهنة قد صيغت من نصوص عديدة سابقة. على أنه مهما يكن شأن مصادر القصة، فإنها بحالتها التي نجدها عليها اليوم ملأى بالحيوية وقوة التعبير. وكان ما يسمى اليوم باسم "فلسطين" يسمى في ذلك الحين "أرض كنعان" ويسكنه قوم ساميون يسمون الكنعانيين، وهم شعب وثيق القربى بالفينيقيين الذين أسسوا صور وصيدا، وبالعموريين الذين فتحوا بابل وأسسوا الإمبراطورية البابلية الأولى بقيادة حمورابي.

وكان الكنعانيون شعبا عرف الاستقرار في زمن معاصر تقريبا لحكم حمورابي – وقد مرت ببلادهم قطعان إبراهيم ورعلانه. وتقول رواية للكتاب المقدس إن رب إبراهيم وعده هو وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن العامرة. وعلى القارئ أن يرجع إلى "سفر التكوين" فيقرأ كيف أن إبراهيم الذي لم يكن له عقب قد ارتاب في هذا الوعد، ثم يقرأ أخبار مولد إسماعيل وإسحاق. وسيجد القارئ في "سفر التكوين" كذلك ترجمة حياة إسحاق ويعقوب، الذي تغير اسمه فأصبح إسرائيل، وسيرة أبناء إسرائيل الاثنا عشر وكيف أنهم هبطوا مصر أيام قحط عظيم. وبهذا ينتهي "سفر التكوين" أول الأسفار الخمسة الأولى ويختص الكتاب الثاني وهو سفر الخروج بقصة موسى.

وقصة استقرار أبناء إسرائيل في مصر واستعبادهم بها قصة عسيرة معقدة. وهناك سجل مصري يشير إلى نزول بعض الشعوب السامية بأرض "جاسان Goshen" بأمر الفرعون رمسيس الثاني، وجاء في هذا السجل أنهم لجئوا إلى مصر بسبب افتقارهم إلى الطعام. ولكن ليس هناك قط أي سجل مصري يتحدث عن حياة موسى وأعماله. ولم يصل إلينا أي بيان تاريخ عن إصابة مصر بالطاعون ولا عن أي فرعون أغرق في البحر الأحمر. وتحتوي قصة موسى على قدر كبير من شذى الأساطير. ومن أبرز الحوادث فيها، حادثة تخبئة أمه له في تابوت من الحلفاء، وهي قصة لها شبيه في أسطورة سومرية قديمة.

فالقصة السومرية المتحدثة عن سرجون الأول تجري كما يأتي: "هاأنذا سرجون الملك القوي ملك أكاديـا. كانت أمي فقيرة، وما عرفت أبي قط، وكان شقيق أبي يعيش بين الجبال... وقد ولدتني أمي الفقيـرة سـرا، ووضعتني في سلة من القصب، وأغلقت بابها بالقار، ثم ألقتني في النهر، فلم تبتلعني لججه بل حملتني مياهه حتى أوصلتني إلى (أكي) الموكل بالري. وقد تلقاني أكي هذا في طيب قلبه. ورباني أكـي حتـى أصـبحت غلاما يافعا. وجعلني أكي بستانيا. وأدخلت خدماتي كبستاني السرور على قلب (عشـتار) وبـذلك أصـبحت ملكًا".

إن هذا لأمر يحير اللب. ومما يزيدنا حيرة تلك اللوحة الطينية التي كشفت أخيرا والتـي كتبهـا الـولاة المصريون على إحدى مدن كنعان إلى فرعون "أمنحوتب الرابع" أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، فليس مـن الممكن أن يأسرهم ويضطهدهم رمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة قبل أن يتموا فـتح أرض كنعـان. ومن الجلي أن قصة الخروج (Exodus) – وقد كتبت بعد الحوادث التي ترويها بزمن طويل - ربما كانـت تركيزا وتبسيطًا، أو لعلها تمثيل ورمز لما كان في الحقيقة تاريخًا معقدا طويلاً لغزوات قبلية. ولعل كل مـا في الأمر أن إحدى القبائل العبرانية انحدرت إلى مصر وأصبحت مستعبدة، على حين كانت القبائل الأخـرى قد أخذت بالفعل تهاجم المدن الكنعانية النائية. بل إن في الإمكان ألا تكون مصر (واسمها بالعبرانية مصرايم) هي أرض الأسر بل (مسريم) في شمال بلاد العرب، على الجانب المقابل من البحر الأحمر. وقد بحثت هـذه المسائل بحثًا مستفيضا دقيقًا في "موسوعة الكتاب المقدس Encyclopedia Biblica فـي مـادتي موسـى والخروج"، فليرجع إليها القارئ المحب للاستطلاع إن شاء.

ويتناول كتابان آخران من الكتب الخمسة الأولى هما "سفر تثنية الاشتراع وسـفر اللاويـين"، الشـرائع والقواعد الكهنوتية. أما سفر الأعداد فيسرد تجولات بني إسرائيل في الصحراء وغزوهم كنعان.

ومهما تكن التفاصيل الدقيقة لغزو العبرانيين أرض كنعان، فمما لا ريب فيه أن ذلك القطر الـذي فتحـوه تغير تغيرا عظيما منذ أيام أسطورة "الميعاد" الذي وعد به إبراهيم قبل ذلك بقرون. ثم يصبح القطر من بعـد ذلك – فيما يلوح – أرضا سامية إلى حد كبير وتنشأ به كثير من المدن التجارية المزدهرة. على أن موجات كبيرة من شعوب غريبة نزحت على طول شاطئه. ولقد ذكرنا من قبل كيف هوجمـت الشـعوب الأيبيريـة البيضاء الداكنة أو شعوب البحر الأبيض القاطنة في إيطاليا وبلاد الإغريق، وشعوب المدنية الإيجيـة التـي بلغت الأوج في كنوسوس، Conssos، إذ هاجمتها موجة زاحفة جنوبا من أجناس ناطقة بالآرية من أمثـال الإيطاليين والإغريق، وأوضحنا كيف نهبت كنوسوس حوالي (١٤٠٠ ق. م.)، وكيف دمرت تـدميرا تامـا حوالي (١٠٠٠ ق. م.). ويدهي أن سكان هذه المواني الإيجية كانوا يجتازون البحر فرارا من الأعداء وطلبا لمستقرات أكثر أمنًا وسلاما. لذلك غزوا الدلتا المصرية وما يليها غربا من الشاطئ الأفريقي، وأنشئوا أحلافًا بينهم وبين الحيثيين وبعض الشعوب الآرية أو المصطبغة بصبغة آرية.

حدث هذا كله بعد عصر رمسيس الثاني أي في عهد رمسيس الثالث. وتسجل الآثار المصـرية معـارك بحرية عظيمة، كما تمثل مسير هؤلاء القوم إلى مصر على امتداد ساحل فلسطين. وكانت وسيلة النقل لـديهم هي العربات التي تجرها الثيران وهي إحدى خصائص القبائل الآرية. ومن الواضح أن هـؤلاء الكـريتيين كانوا يعملون متحالفين مع بعض الغزاة الآريين الأول. ولم يتم بعد الوصول إلى صورة متصـلة الحلقـات لقصة هاته المنازعات التي استمرت بين ١٣٠٠ ق. م. و١٠٠٠ ق. م. على أنه يتضح من روايـة الكتـاب المقدس أنه عند ما نهض العبرانيون تحت إمرة "يشوع" لمواصلة إخضاع أرض الميعـاد بـبطء اصـطدموا بشعب جديد هم الفلسطينيون الذين كانوا يستقرون على امتداد الشاطئ في سلسلة من المدن أصبحت أهمهـا وأعظمها غزة وجت (جات) وأشدود وعسقلان وعقرون [1]. وكان هؤلاء الفلسطينيون في الحقيقـة نـازحين جددا كالعبرانيين تماما. والراجح أنهم كانوا بوجه خاص هم أولئك الكريتيون اللاجئون من البحر والهابطون من الشمال. وعلى ذلك فإن الغزو الذي ابتدأ بشكل هجوم على الكنعانيين سرعان ما أصبح نزاعا طويلاً لـم يحالفه التوفيق التام، نشب من أجل تلك الأرض الموعودة التي كانت مطمع الأنظار، بيـنهم وبـين هـؤلاء الفلسطينيين النازحين الذين كانوا أكثر قوة وأشد بأسا.

ولا يستطيع أحد أن يقول إن أرض الميعاد وقعت يوما في قبضة العبرانيين تماما. ويلي الكتـب الخمسـة الأولى في الكتاب المقدس أسفار "يشوع" والقضاة وسفر راعوث (وهو اسـتطراد عـن سـياق الموضـوع) وصموئيل الأول والثاني والملوك أول وثان. مع سفر الأيام بجزءيه، وهو يكرر في شيء من التنويع كثيـرا من مادة سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك. وينطوي الشطر الأكبر من هذا التاريخ المتأخر على ظل للحقيقة يزداد على اطراد الأيام ظهورا. وفي هذه الأسفار نجد الفلسطينيين قد شددوا قبضتهم على ما امتلكـوه مـن أراضي الجنوب المنخفضة الخصبة، كما نجد الكنعانيين والفينيقيين صامدين فـي الشـمال ضـد أعـدائهم الإسرائيليين. وليست انتصارات يشوع الأولى مكررة.

وكتاب القضاة إنما هو سرد محزن لسلسلة من الهزائم والنكبات يفقد القوم بسببها شجاعتهم، ويتخلون عن عبادة ربهم الخاص "يهوه Jehovah" ويعبدون بعلا وعشتورث ويختلطون بالفلسطينيين والحيثيين وغيـرهم حتى صاروا شعبا مختلط الجنس، كما ظل هذا طابعهم فيما بعد. وكانوا يخوضون – وهم تحت إمرة سلسـلة من الحكماء والأبطال – غمار حروب اتسمت بالفشل على وجه العموم، ولم تتحد كلمتهم أثناءها قط. فقهرهم على التعاقب المؤابيون (Moabites) والكنعانيون والمديانيون والفلسطينيون. ويتحدث سفر القضاة عن قصة هذه الحروب التي خاضها جدعون وشمشون وغيرهم من الأبطال الذين يلقون بين الفينة والفينة بصيصا من أمل فيما كان يلم بإسرائيل من نكبات. ويروي سفر صموئيل الأول قصة الكارثة العظيمة التي حلت بهم عند حجر المعونة (Ebenezer) أيام أن كان "عالي" قاضيا.

---

(1) ضبطت هذه الأسماء وغيرها على ما ورد بالكتاب المقدس. (المترجم).

كانت المعركة حربا ضروسا أعد لها الطرفان عدتهما واشتبكت فيها جيوشهما برمتها وخسر فيها بنو إسرائيل ٣٠,٠٠٠ رجل (!) وكانوا قبل ذلك أصيبوا بهزيمة فادحة خسروا فيها ٤٠٠٠ رجلاً، وعند ذلك أبرزوا أقدس رمز لديهم، وهو تابوت عهد الرب [1].

"وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلّة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافًا عظيما حتى ارتجت الأرض، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا: ما هو صوت هذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين، وعلموا أن تابوت الرب جاء إلى المحلة. فخاف الفلسطينيون لأنهم قالوا قد جاء ا إلى المحلة. وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله. ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين؟ هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات في البرية. تشددوا وكونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم.

"فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل، وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جدا. وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل، وأخذ تابوت ا ومات ابنا عالي حفني وفينحاس.

"فركض رجل من بنيامين من الصف وجاء إلى شيلوه في ذلك اليوم وثيابه ممزقة وتراب على رأسه. ولما جاء فإذا عالي جالس على كرسي بجانب الطريق يراقب لأن قلبه كان مضطربا لأجل تابوت ا . ولما جاء الرجل ليخبر في المدينة صرخت المدينة كلها، فسمع عالي صوت الصراخ فقال ما هو صوت الضجيج هذا؟ فأسرع الرجل وجاء وأخبر عالي، وكان عالي ابن ثمان وتسعين سنة وغامت عيناه ولم يقدر أن يبصر.

"فقال الرجل لعالي أنا جئت من الصف، وأنا هربت اليوم من الصف. فقال كيف كان الأمر يا ابني؟ فأجاب المخبر وقال: هربت إسرائيل أمام الفلسطينيين، وكانت أيضا كسرة عظيمة في الشعب، ومات أيضا ابناك حفني وفينحاس وأخذ تابوت ا . وكان لما ذكر تابوت ا أنه سقط عن الكرسي إلى الوراء إلى جانب الباب فانكسرت رقبته ومات، لأنه كان رجلاً شيخًا ثقيل الجسم. وقد قضى لإسرائيل أربعين سنة.

"وكنته امرأة فينحاس كانت حبلى تكاد تلد، فلما سمعت خبر أخذ تابوت ا وموت حميها ورجلها ركعت وولدت لأن مخاضها انقلب عليها، وعند احتضارها قالت لها الواقفات عندها: "لا تخافي لأنك قد ولدت ابنا فلم تجب ولم يبال قلبها، فدعت الصبي إيخابود قائلة "قد زال المجد من إسرائيل لأن تابوت ا قد أخذ ولأجل حميها ورجلها".

وكان خلف (عالي) وآخر القضاة هو صموئيل، وقد حدثت في أواخر حكمه حادثة في تاريخ بني إسرائيل تتمشى مع ما مر بالشعوب العظمى المحيطة بهم من تجارب، بل هي التي أوحت بها إليهم، إذ نشأ بينهم ملك حكم فيهم وظهرت فيهم الملكية. وهم يقصون علينا بأوضح عبارة نبأ الصراع المحتدم بين طريقة الحكم العتيقة على يد الكهنة وبين الطريقة الأحدث منها في تصريف شئون البشر. ومن المستحيل علينا ألا نقتبس اقتباسا ثانيا فكم يبدو استياء الكاهن واضحا جليا في حديث الرب إلى صموئيل.

([1]) الإصحاح السابع من صموئيل الأول من الكتاب المقدس.

"فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة، وقالوا له: هو ذا أنت قد شخت وابنـاك لـم يسيرا في طريقك، فالآن اجعل لنا ملكًا يقضي لنا كسائر الشعوب.

"فساء الأمر في عيني صموئيل إذ قالوا: أعطنا ملكًا يقضي لنا. وصلى صموئيل إلى الرب. فقال الـرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم. وحسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم، وتركوني وعبـدوا آلهـة أخرى. هكذا هم عاملون بك أيضا. فالآن اسمع لصوتهم، ولكن اشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملـك الـذي يملك عليهم.

"فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكًا بجميع كلام الرب وقال: "هذا يكون قضاء الملك الذي يملـك عليكم: يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه. فيركضون أمام مراكبه، ويجعلهم لنفسه رؤساء ألـوف ورؤساء خماسين، فيحرثون حراثته، ويحصدون حصاده، ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه. ويأخذ بنـاتكم عطارات وطباخات وخبازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويعشر زروعكـم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشـغله. ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا. فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم. فـلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم. "فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا: لا بل يكون علينا ملـك، فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب، ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنـا". (صـموئيل الأول الإصحاح الثامن).

٢- شاول وداود وسليمان

على أن طبيعة بلاد العبرانيين وموقعها كانت عونًا عليها، لذا لم يكن ملكهم الأول شاول أوفر حظًا في النجاح من القضاة، هذا إلى أن المكايد الطويلة التي كان يدبرها المغامر داود ضد شاول مسرودة في الجزء الباقي من سفر صموئيل الأول. وكانت خاتمة شاول هي الهزيمة المنكرة التي أصابته على جبل جلبوع (Gilboa) إذ قضت بسالة رماة السهام من الفلسطينيين على جيشه قضاء تاما.

"وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنيه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع. فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه وأرسلوا إلى أرض الفلسطينيين في كل جهة لأجل التبشير في بيت أصنامهم وفي الشعب. ووضعوا سلاحه في بيت عشْتُورثَ وسمروا جسده على سور بيت شان.

(صموئيل الأول الإصحاح ٣١).

وكان داود (٩٩٠ ق. م. على وجه التقريب) أشد كياسة وأكثر نجاحا من سلفه. ويلوح أنه وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور. فثبتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه، وكانت العامل الجوهري في عظمة ابنه سليمان. وقصة داود بما تحوي من قتل وسفك دماء واغتيالات متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض [٤]، أشبه بتاريخ أحد رؤساء المتوحشين منها بتاريخ ملك ممدن. والقصة مسرودة بأسلوب رائع واضح في السفر الثاني من صموئيل[١].

ويبدأ سفر الملوك الأول بحكم الملك سليمان (٩٦٠ ق. م. على وجه التقريب) وأمتع ما في تلك القصة من وجهة نظر المؤرخ الذي يتناول التاريخ من الوجهة العامة، علاقة سليمان بالديانة القومية والكهانة وتصرفاته إزاء الهيكل والكاهن صادوق (Zadok) والنبي ناثان.

كانت بداية حكم سليمان مخضبة بالدماء كحكم أبيه سواء. وآخر ما سجل من حديث داود تدبيره لولده الوسيلة لقتل شِمعي (Shimei)، وآخر ما سجل من كلماته هي "الدم" إذ يقول لابنه "وأحدر شيبته بالدم إلى الهاوية [٢] " هكذا يقول مشيرا إلى أنه كان شمِعي الشيخ يحميه القسم الذي أخذه داود على نفسه للرب ما دام حيا، فما من عهد يرتبط به سليمان في هذا الشأن. ويغلو سليمان فيقتل أخاه، الذي حاول أن يغتصب العرش، ثم ما لبث أن تخاذل وقدم الطاعة. ومن ثم أخذ يتصرف بملء حريته في أنصار أخيه. وإن ضعف سلطان الدين على العبرانيين المختلطة أجناسهم والمبلبلة في ذلك الأوان عقولهم، ليتضح من السهولة التي يستبدل بها سليمان برئيس الكهنة المعادي له نصيره صادوق، كما يتضح ذلك بشكل أدعى للعجب من قتل يوآب (Joab) في الهيكل على يد بناياهو أعظم صنائعه إجراما، على حين لاذت الضحية بقدس حرم المعبد، واستمسكت بقرني مذبح يهوه (Jehovah) ثم شرع سليمان بعد ذلك يجد في العمل، بأسلوب كان يعد بالنسبة لذلك الزمان ذا روح عصرية حقة. فعمد إلى صوغ ديانة شعبه في قالب جديد. وقد استمر في تحالفه مع حيرام ملك صور، وطفق هذا يستخدم مملكة سليمان طريقًا عاما يسلكه لينفذ بوساطته إلى البحر الأحمر فيبني فيه السفن. ونتيجة لهذه الشركة بينهما تكدست في أورشليم ثروة لم يسمع بها من قبل.

---

(١) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول وصموئيل الثاني.

(٢) المصدر السابق.

وقد ظهرت فرق العمال عند بني إسرائيل، فكان سليمان يرسل أفواجا من العمال تحل إحداها محل الأخرى لقطع أخشاب الأرز من لبنان في عهد حيرام. كما أنه نظم في أرجاء بلاده مجاميع من الحمالين. (وفي هذا كله الكثير مما يذكر القارئ بعلاقات أحد الرؤساء في أفريقيا الوسطى بهيئة تجارية أوربية). وبعد ذلك بنى سليمان لنفسه قصرا ومعبدا ليهوه الرب لا يكاد يضارع قصره في الضخامة. وكان تابوت عهد الرب – ذلك الرمز المقدس لهؤلاء العبرانيين الأقدميين – قد استقر مقامه حتى ذلك الحين في فسطاط كبير. كان ينقل من مكان مرتفع إلى آخر، وكانت تقدم القرابين لرب إسرائيل في عدد من الأماكن المرتفعة المختلفة. فالآن أدخل التابوت بين الروائع الذهبية الموجودة في حجرة داخلية من معبد كسيت جدرانه الحجرية بخشب الأرز، ووضع بين تمثالين عظيمين لهما أجنحة، ومصنوعين من خشب الزيتون المذهب، وتحتم منذ ذلك الحين ألا تقدم القرابين على غير المذبح الذي بين يديه.

وهذا التجديد المنطوي على المركزية الدينية يذكرنا بكل من إخناتون ونابونيداس. ولا يتم لمثل هذه الأمور نجاح إلا متى هوت إلى الدرك الأسفل سطوة هيئة الكهنوت ونفوذها وتقاليدها وعلمها.

"وأوقف حسب قضاء داود أبيه فرق الكهنة على خدمتهم واللاويين على حراساتهم للتسبيح والخدمة أمام الكهنة عمل كل يوم بيومه والبوابين حسب فرقهم على كل باب. لأنه هكذا هي وصية داود رجل ا . ولم يحيدوا عن وصية الملك على الكهنة واللاويين في كل أمر وفي الخزائن".

بيد أن إقامة سليمان لعبادة يهوه في أورشليم على هذا الأساس الجديد، ورؤياه لربه ومحادثته له في مستهل حكمه لم تحل دون ابتداعه في أواخر أيامه ضربا من العبث بالأمور الدينية. فإنه أكثر من الزواج. وإن يكن ذلك لأسباب تتصل بالدولة وأبهة الملك. وكان يرفه عن زوجاته الكثيرات بتقديم الضحايا لآلهتهن القومية، فهو يقدم القربان لربة صيدا "عشتُورثّ" وكضموش (وهو رب مؤابي) ومولّك وهلم جر. والواقع أن وصف الكتاب المقدس لسليمان يصوره لنا ملكًا متقلبا كغيره من الملوك، لا يفضل البتة أيا منهم في تمسكه بأهداب دينه، كما يصور لنا في قومه شعبا معتقدا بالخرافات وذا عقلية مبلبلة ككل شعوب العالم المحيط بهم.

وفي قصة سليمان ناحية ذات أهمية كبيرة جدا لأنها تسجل طورا جديدا في الشئون المصرية وهي زواجه من ابنة فرعون. ولا بد أن هذا الفرعون كان أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين. ففي أيام عظمة أمنحوتب الثالث، كما تشهد بذلك رسائل تل العمارنة، كان من الجائز أن يتنازل فرعون فيقبل في حريمه أميرة بابلية. ولكنه كان يرفض رفضا باتًا أن يسمح لأميرة مصرية لها ما لها من قداسة، أن تصبح زوجة لعاهل بابلي. ومما يدل على انحطاط مهابة مصر واطراد تدهورها أن يحدث الآن بعد انقضاء ثلاثة قرون، أن ملكًا صغيرا كسليمان، يستطيع أن يتزوج من أميرة مصرية على قدم المساواة. ومع ذلك فإن مصر نهضت من كبوتها إبان حكم الأسرة المصرية التالية (الثانية والعشرين) يوم اغتنم الفرعون شيشنق مؤسس تلك الأسرة فرصة الانشقاق بين إسرائيل ويهوذا (Judah) وهو الانشقاق الذي ظل ينمو طوال حكم كل من داود وسليمان – فاستولى على أورشليم ونهب كلا من مستودعي الأبهة والعظمة القصيرة الأجل وهما المعبد الجديد وقصر الملك.

ويبدو أن شيشنق استطاع كذلك أن يخضع فلسطين. وجدير بالذكر أن الفلسطينيين ذوت أهميتهم منذ ذلك التاريخ. فنجدهم قد فقدوا لغتهم الكريتية واتخذوا لغة الساميين الذين كانوا أخضعوهم. ومع أن مدائنهم ظلت مستقلة إلى حد ما، فإنهم اندمجوا رويدا رويدا في غمار الحياة السامية العامة لفلسطين.

وهناك من الشواهد ما يدل على أن قصة حكم سليمان الأصلية على صورتها البدائية الأولى المقبولة عقلاً، وقصة ما أتاه من اغتيالات متنوعة، وارتباطه بحيرام، وابتنائه القصر والمعبد [1]، وذلك البذخ الذي أوهن مملكته ثم مزقها آخر الأمر شطرين – قد تعرضت (أعني القصة) لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر، كان مشغوفًا بالمبالغة في وصف رخاء عصر سليمان مولعا بتمجيد حكمته. وليس هذا مجال معالجة موضوع نقد أصول الكتاب المقدس ومصادره، وإن لم يتطلب الأمر منا إلا شيئًا عاديا بسيطًا من الإدراك دون تفقه في العلم – لندرك ما يتجلى في المادة الرئيسية لقصة داود وسليمان من حقيقة جلية وصدق واضح. وهي قصة يعمد كاتبها إلى الشرح والتوضيح آونة، وإلى التبرير أخرى، وإن كانت مع ذلك تسرد كل الحقائق مهما بلغ بعضها من القسوة، على نحو لا يفعله إلا كاتب معاصر أو كاتب يكاد يكون معاصرا، يقصها وهو مقتنع بأن لا سبيل إلى إخفائها. ثم يلاحظ الإنسان أيضا ذلك التحول المفاجئ إلى الإطراء والثناء ساعة ظهور الفقرات التي أضيفت إلى القصة. ومما يشهد بقوة تأثير القول المكتوب وتغلبه على الحقائق الماثلة في أذهان الناس، أن رواية الكتاب المقدس هذه استطاعت أن تحمل العالم المسيحي بل الإسلامي على الاعتقاد بأن الملك سليمان لم يكن من أشد الملوك عظمة وأبهة فحسب بل كان أيضا من أحكم الرجال. فإن سفر الملوك الأول يسهب في الكتابة عن أقصى ما وصل إليه مجده من أبهة وفخامة، وإذا قيست هذه إلى جمال وعجائب المباني والتنظيمات التي قام بها عاهل عظيم كتحوتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نفر من الفراعين الأخر، أو سرجون الثاني أو سردانابالوس أو نبوخذ نصر العظيم، فإنها تبدو من التوافه الهينات. كان بعد معبده من الداخل عشرين ذراعا عرضا أي ما يقرب من خمسة وثلاثين قدما (وهذا لا يزيد عن عرض فيلا للسكنى العادية)، وستين ذراعا أي مائة قدم طولاً. وتختلف الأقوال في تقدير الذراع، وهو على أكبر تقدير يعادل أربعا وأربعين بوصة. وعلى هذا الاعتبار يتسع العرض فيصبح سبعين قدما ليس غير ويصبح الطول مائتي قدم. فأما حكمته ومعرفته بأصول الحكم وتدبير السياسة، فما القارئ بمحتاج أن يجاوز الكتاب المقدس [2] لكي يعرف أن سليمان لم يتجاوز بالنسبة للملك التاجر حيرام منزلة المعاون له على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق، فأما مملكته فهي رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا. وترجع أهميتها في معظم أمرها إلى ضعف مصر الموقوت، ذلك الضعف الذي أثار طموح الفينيقيين وألزمهم باسترضاء القابض على مفتاح طريق آخر للتجارة إلى الشرق. كان سليمان في عين شعبه ملكًا مبذرا جائرا، وقد أخذت مملكته تتداعى قبل موته تداعيا ظاهرا وتتجزأ بددا.

---

(1) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول والأيام.

(2) يستطيع القارئ إذا شاء استزادة أن يرجع إلى أسفار صموئيل والملوك، الأول والأيام الثاني التي رجع إليها المؤلف من الكتاب المقدس. (المترجم).

وينتهي بانتهاء حكم سليمان مجد العبرانيين القصير الأمد، فإن القسم الشمالي من مملكته وهو الأكثر ثراء، والذي طال تحمله عبء الضرائب المفروضة في سبيل بذخه، انسلخ عن أورشليم وأصبح مملكة منفصلة هي إسرائيل. وقد فصم هذا الصدع تلك العلاقة التي كانت تربط بين صور وصيدا وبين البحر الأحمر، وهي التي مهدت السبيل لومضة الثروة التي هبطت على سليمان فجأة. وليس هناك بعد ذلك أي ثراء في التاريخ العبراني. فأما أورشليم فإنها ظلت قصبة قبيلة واحدة هي قبيلة يهوذا، وحاضرة أرض ملؤها التلال المجدبة، تحول فلسطين بينها وبين البحر ويحيط بها الأعداء من كل جانب.

ويظل هذا القطر بعد ذلك ثلاثة قرون مسرحا لحروب ومنازعات دينية واغتصابات واغتيالات وقتل الإخوة للإخوة طلبا للملك. وهي قصة سافرة في همجيتها. فإن إسرائيل تحارب يهوذا وما جاورها من دول، وتعقد المحالفات مع إحداها ثم تعقدها مع الأخرى، وتبدأ قوة سنوريا الآرامية في الصعود كنجم يؤذن العبرانيين بالشر والأذى. ثم تنهض من خلفها القوة العظيمة النامية، قوة الإمبراطورية الآشورية الأخيرة. لقد ظلت حياة العبرانيين طوال ثلاثة قرون شبيهة بحياة رجل أصر على العيش وسط سوق صاخب فكان مصيره أن تدهمه سيارات الجمهور والبضائع.

وكان "فول Pul" (وواضح أنه تَغْلَثَ فَلاسِر الثالث نفسه Tiglath Pileser) أول ملك آشوري فيما تقول رواية الكتاب المقدس، ظهر في أفق العبرانيين، فدفع له منحيم ألف تالنتوم talent [1] من الفضة (٧٣٨ ق. م.) ثمنًا لخلاص البلاد منهم. على أن قوة آشور كانت تتجه آنذاك قدما نحو أرض مصر التي شاخت وتدهورت. ويخترق طريق المغيرين أرض اليهودية ويعود تَغْلَثَ فَلاسِر الثالث أدراجه ويعقبه في الزحف شَلْمنَأسر فيتآمر ملك إسرائيل التماسا للعون مع مصر – تلك "القصبة المرضوضة"، وفي ٧٢١ ق. م. اجتيحت مملكته كما ذكر آنفًا ووقعت في ربقة العبودية وزالت من التاريخ تمام الزوال. وكانت يهوذا (Judah) عرضة لنفس المصير ولكنها نجت منه فترة من الزمان. ولقد ذكرنا لك من قبل مصير جيش الملك سنْحاريب أيام حكم الملك حزقيا [2] (٧٠١ ق. م.). وكيف قتله ابنه (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٩: ٢٧). وليس في الكتب المقدسة أية إشارة لما يلي ذلك من إخضاع الآشوريين لمصر. على أنه من الواضح أنه قبل حكم سنحاريب، كان الملك حزقيا يتبادل المراسلات السياسية مع بابل(٧٠٠ ق. م.)، التي كانت ثائرة على سرجون الثاني ملك آشور. وتبع ذلك غزو آسرحدون لمصر، ثم شغلت آشور فترة من الوقت بمشاكلها الداخلية. ذلك أن الاسكيذيين (الإشقوذيين) والميديين والفرس كانوا يتهددونها من الشمال، وكانت بابل نهبا للفتن. وقد أسلفنا كيف أن مصر خف عنها الضغط الآشوري فترة من الزمان فأخذت تنهض من كبوتها. وكان هذا أول الأمر في عهد أبسماتيك ثم في عهد نخاو الثاني.

---

(1) نص عبارة الكتاب المقدس "فأعطاه ألف وزنة من الفضة" الملوك الثاني ١٥: ٢٠. [المترجم].

(2) حزقيا بوزن زكريا. [المترجم].

وهناك خان التوفيق مرة أخرى القطر الصغير الواقع في الوسط فلم يحسن اختيار حلفائه. ولكن أين يجـد العبرانيون السلامة وعلى كلا جانبيهما عدو؟ فإن يوشيا (Josiah) وقف في وجه نخاو فـذبح فـي معركـة مجدو (٦٠٨ ق. م.) وأصبح ملك يهوذا تابعا يدفع الجزية لمصر. ولكن عندما سقط نخاو أمام نبوخذ نَاصـر الثاني بعد أن توغل حتى وصل إلى الفرات سقطت يهوذا معه (٦٠٤ ق. م.) حتى إذا نصب نبوخذ ناصـر ثلاثة ملوك خاضعين له كالألعوبة، ساق غالبية الشعب أسرى إلى بابل (٥٨٦ ق. م.)، أما البـاقون فقـاموا بثورة ذبحوا منها الموظفين البابليين، ثم التجئوا إلى مصر فرارا من انتقام كالديا.

"وجميع آنية بيت ا الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتي بها جميعـا إلـى بابل. وأحرقوا بيت ا وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتهـا الثمينـة. وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدا إلى أن ملكت مملكة فارس".

(سفر الأيام الثاني إصحاح ٣٦: ١٨، ١٩، ٢٠).

وهكذا انتهت القرون الأربعة التي عاشتها الملكية العبرانية وكانت من بدايتها إلى نهايتها مجـرد حـدث صغير على هامش أحداث تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الأكثر سعة وعظمـا. ولكـن جرى القدر بأن تنشأ عنه إذ ذاك نتائج أخلاقية وعقلية ذات أهمية كبرى للبشرية كافة.

٣- اليهود شعب مختلط الأصل

واليهود الذين عادوا بعد فترة تربو على الجيلين إلى أورشليم من بابل أيام الملك قورش كانوا شعبا مختلفًا جد الاختلاف عن أولئك المتقاتلين من عباد "بعل" وعباد "يهوه"، وعمن يقدمون القرابين في المرتفعات، ومن كانوا يقدمون القرابين في أورشليم في مملكتي إسرائيل ويهوذا. والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هي أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجا وعادوا منها ممدنين. خرجوا جمهورا مختلطًا منقسما على نفسه، لا يربطه وعي ذاتي وطني، وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال، جعلهم ينئون بجانبهم عمن عداهم، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة، إذ لم يحدث إلا قبل الأسر بأربعين عاما أن اكتشف الملك يوشيا كما يقال "سفر الشريعة" في المعبد (سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٢: ٨)، وفيما عدا ذلك فليست هناك أية إشارة في السجل إلى تلاوتهم أي كتاب، وعادوا إلى وطنهم ومعهم الشطر الأكبر من مادة "العهد القديم" وواضح أن اليهود وقد تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين وحجبوا عن السياسة، وعاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي، فإن العقل اليهودي ما لبث في أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة.

كان ذلك العصر في بابل عصر بحوث تاريخية ونهضة علمية، وكانت المؤثرات البابلية التي حملت سردانا بالوس على اقتناء مكتبة عظيمة من مخطوطات قديمة في نينوي، لا تزال تعمل عملها. ولقد أخبرناك من قبل كيف بلغ انشغال نابونيداس بالبحوث الخاصة بالآثار القديمة حدا جعله يهمل الدفاع عن مملكته ضد اعتداء قورش. ومن ثم كانت كل الظروف مما يحفز اليهود المبعدين على البحث في تاريخهم الخاص، ثم إنهم وجدوا في نبيهم حزقيال زعيما يستنهض هممهم. ومن أمثال تلك السجلات المخبأة والمنسية التي كانوا يحملونها معهم – ما بين تواريخ أنساب وتواريخ معاصرة تؤرخ لداود وسليمان وغيرهما من الملوك، وما بين أساطير وتقاليد قديمة – صاغوا قصتهم وأطنبوا فيها ثم قصوها على بابل وعلى أنفسهم.

وقصة الخليقة والطوفان، والكثير من قصة موسى، والشيء الكثير من قصة شمشون قد جمع شتاتها من مصادر بابلية. وهناك نصان، نص عن قصة الخليقة، ونص آخر عن قصة عدن، يلوح أنهما وإن كانا في أصلهما بابليين، كانا معروفين للعبرانيين قبل النفي، وعندما عاد اليهود إلى أورشليم، لم يكن قد اكتمل لهم بين دفتي سفر واحد غير الأجزاء الخمسة الأولى المسماة بالبنتاتويك [1]، ولكن لم يكن مفر من أن يتلو ذلك تجميع سائر الكتب التاريخية.

ولقد ظل سائر أدبهم قرونًا طويلة في صورة كتب منفصلة، كانت تلقى من الاحترام قدرا متفاوتًا جدا. ولا ينكر أحد أن بعض الكتب المتأخرة قد ألف بعد الأسر. هذا وأضيفت إلى كل هذا الأدب أفكار رئيسية بأعيانها. فثمة فكرة كانت هذه الكتب نفسها تدحضها في تفصيلها، وهي القول بأن كل الناس قاطبة أبناء إبراهيم الخالص الدماء. وثمة فكرة أخرى عن وعد قطعه يهوه لإبراهيم بأن يفضل الشعب اليهودي على جميع الأجناس

---

(1) وهي المسماة بتوراة موسى كما أسلفناه. [المترجم].

الأخرى. وثمة فكرة ثالثة هي ما كان يخالجهم قبل كل شيء من الاعتقاد في أن يهوه هو أعظم وأقـوى آلهـة القبائل طرا، وأنه كان على ذلك ربا يعلو كل الأرباب، وأخيرا أنه كان الرب الحق الوحيـد. وانتهـى الأمـر بالشعب اليهودي بأن اقتنعوا – على بكرة أبيهم – بأنهم الشعب المختار للرب الأوحد للأرض قاطبة.

وكانت هناك فكرة رابعة نشأت نشوءا طبيعيا جدا من هاته الفكرات الثلاث، وهي القول بزعيم منتظـر، مخلّص للعالم، ومسيح يحقق ما ترامى به الزمن من وعود ياهوه التي طال الأمد عليها.

ولا مراء أن هذا الالتئام الذي ضم شتات اليهود فأصبحوا في مدى هذه السنين السبعين شعبا تؤلف بينـه تقاليد مكتوبة متواترة، هو أول مثال في التاريخ للقوة الجديدة الكامنة بين القرطاس والقلم في شئون البشرية. كان ذلك الذي حدث تماسكًا عقليا لم يقف أثره عند توحيد الشعب الذي عاد إلى أورشليم، بل تجـاوز ذلـك كثيرا. وهذه الفكرة القائلة بالانتساب إلى شعب مختار قدرت له الرفعة من قبل، كانت فكرة خلابة. واستولت هذه الفكرة أيضا على لب اليهود الذين ظلوا في بابل ووصل الأدب الخاص بها إلى اليهـود الـذين كـانوا مستقرين في مصر إذ ذاك، كما أنها أثرت في الشعب المختلط الذي أسكن السامرة، (وهي العاصمة القديمـة لملوك إسرائيل) عندما أبعدت القبائل العشر إلى ميديا. وهي التي أوحت إلى عدد كبير من البابليين وغيـرهم أن يدعوا في إبراهيم أبا لهم، وأن يفرضوا أنفسهم علـى اليهـود العائـدين. وكـذلك أصـبح العمونيـون (Ammonites) والمؤابيون (Moabites) أنصارا لهم. وسفر نحميا (Nehemiah) حافل بأخبـار المحـن التي نجمت عن انتحال هؤلاء المتطفلين لامتيازات الشعب المختار. كان اليهود من قبل شعبا متناثرا في أقاليم ومدن كثيرة، يوم توحدت عقولهم وأمانيهم، ثم أصبحوا شعبا ذا نزعة انعزالية متباعدا عمـن عـداه، ولكـن نزعتهم الانعزالية كانت بادئ الرأي مجرد رغبة في حفظ التعاليم والعبادة سليمة مصونة خشية تكرار أمثـال تلك الكبوات المحزنة التي حدثت في عهد الملك سليمان. وظلت العقيدة اليهودية زمانًا طويلاً فاتحة ذراعيهـا مرحبة بمقدم كل من ينضوي مخلصا تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى.

ولا بد أن الفينيقيين بعد سقوط صور وقرطاجة كانوا يرون الدخول في العقيـدة اليهوديـة أمـرا يمتـاز بسهولته وجاذبيته. وكانت لغتهم وثيقة القربى بالعبرانية. ومن المحتمل أن الغالبية العظمـى ليهـود أفريقيـا وإسبانيا، كانت في حقيقة الأمر ذات أرومة فينيقية. كذلك دخل العرب في زمرتهم أفواجا. وكما سنلحظ فيما بعد، كان في جنوب الروسيا يهود من الجنس المغولي نفسه.

٤- أهمية الأنبياء العبرانيين

والأسفار التاريخية من سفر التكوين إلى نحميا، التي أقحمت عليها فيما بعد فكرة الوعد المقطوع للشـعب المختار، كانت ولا شك العمود الفقري الذي تقوم عليه الوحدة الفكرية ولكنها ليست البتة الفصل الختامي الذي يتم به الأدب العبراني، الذي تكون منه الكتاب المقدس آخر الأمر. وما هذا بمجال الكتابة عـن أسـفار مـن أمثال سفر أيوب Job (الذي يقال إنه محاكاة للمأساة الإغريقية) هذا إلى نشيد الإنشاد لسليمان، والمزاميـر، والأمثال وغيرها، على أن من الضروري معالجة الكتب المعروفة بأسفار الأنبياء في شـيء مـن التوسـع والاستيعاب. وذلك لأن هذه الأسفار تكاد تكون أقدم الشواهد، بل هي ولا مراء أفضل الدلائل علـى ظهـور صنف جديد من الزعامة في شئون البشر، هو زعامة الأنبياء.

وليس هؤلاء الأنبياء بطبقة جديدة في المجتمع، وذلك لأنهم ينتمون إلى أصول وطبقات متباينة إلى أقصى حد. فكان حزقيال مثلاً من طائفة الكهنة، وكان ذا عواطف كاهنية، وكان عاموس (Amos) راعيا، على أنهم يشتركون جميعا في كونهم يبثون في الحياة قوة دينية خارج نطاق القرابين والشكليات المرعية لدى الكهانات والمعبد. ويبدو أن الأنبياء الأول أشد الناس شبها بالكهنة الأول، فإنهم يستلهمون الوحي ويقـدمون النصـح وربما لم يكن هناك في البداية أي فارق كبير بين الكاهن والنبي إبان الأيام التي كانت العبادة فيها تقام علـى مرتفعات كثيرة في البلاد، والتي كانت الفكرات الدينية في أثنائها غير مستقرة نسبيا.

وكان الأنبياء يرقصون فيما يلوح بطريقة تشبه إلى حد ما طريقة الدراويش، وينطقـون بـالوحي. وكـانوا يرتدون على وجه العموم رداء يميزهم مصنوعا من جلد الماعز الخشن، وكانوا يتبعون تقاليـد البـدو الرحـل وينفرون من "بدع المستقرين الجديدة". على أن طراز الأنبياء ظل بعد بناء المعابد وتنظيم الكهانات عاملاً آخـر قائما ومنعزلاً عن الخطة الدينية الرسمية. والراجح أن الكهان لم يبرحوا يتبرمون بالأنبياء تبرما يتفاوت قـدره. إذ إنهم أصبحوا الناصحين غير الرسميين للناس في الشئون العامة، والنـاعين علـيهم الخطايـا والتصـرفات الغريبة، وهم قوم "نصبوا أنفسهم بأنفسهم" إن جاز مثل هذا القول، ولم يكن لهم من سند يستندون إليـه إلا مـا يحسون من نور باطني. وفي الكتاب المقدس صيغة ثابتة هي (وعند ذلك جاءت كلمة الرب إلى فلان).

وفي الأيام الأخيرة لمملكة يهوذا وهي أشد أيامها اضطرابا، ويوم أطبقت مصر وشـمال بـلاد العـرب ومملكة آشور ثم مملكة بابل إطباق المنجلة على البلاد، أصبح لهؤلاء الأنبياء شأن وقوة عظيمـان، وكانـت دعوتهم موجهة إلى العقول القلقة الوجلة، وقد ركزوا جل نصحهم وترغيبهم في بادئ الأمر على الندم خاصة وعلى هدم هذا المكان المرتفع أو ذاك وعلى إعادة العبادات إلى أورشليم وما شـاكل ذلـك. ولكـن بعـض نبوءاتهم كانت تحمل بين طياتها بالفعل نغمة تشابه النغمة التي تصـدر فـي أيامنـا هـذه عمـن نسـميهم (بالمصلحين الاجتماعيين). كقولهم "إن الأغنياء يسحقون وجوه الفقـراء"؛ وإن المتـرفين ليسـتنفدون خبـز الأطفال؛ وإن ذوي النفوذ والأثرياء ليقلدون بذخ الأجانب ورذائلهم ويضحون بالعامة على مذبح هـذه البـدع الجديدة، وهذا ما لا يرضاه الإله "يهوه"، ولا مراء أنه منزل بالبلاد من أجل سخطه وعقابه.

ولكن اتساع أفق الأفكار الذي نجم عن الأسر، أفضى إلى تغيير نغمة التنبـؤ وتوسـيع مجالاتهـا. فـإن الوضاعة المشوبة بالحسد والتي كانت تشوه الصورة القبلية الأولى للإله، قد حلت محلها صورة جديدة تقـول بإله كله بر وصلاح مطلق، وواضح أن سلطان الأنبياء المتزايد لم يقتصر على الشعب اليهودي، بل كان شيئًا يحدث في تلك الأيام في كافة أنحاء العالم السامي. فإن تفتيت الشعوب والممالك لتكوين إمبراطوريـات ذلـك العصر العظيمة الدائبة التغير، وتحطيم النحل ونظم العبادات والكهانات، وما كان يجري من تبادل التكـذيب والتحقير بين المعبد والمعبد في تنافسهما ومنازعاتهما، كانت كلها مؤثرات تفك عقال أذهان النـاس وتفـتح أمامها آفاقًا أكثر سعة وأشد حرية في النظرة الدينية. كانت المعابد تكدس كنوزا عظيمة من المواعين الذهبية ولكنها فقدت سيطرتها على أخيلة الناس.

ومن العسير علينا أن نقدر ما إذا كانت الحياة في ظلال هذه الحروب المستديمة قد صارت أقل اسـتقرارا وسعادة مما كانت عليه من قبل، ولكن مما لا سبيل إلى الشك فيه أن الناس أصبحوا أشد إدراكًا لما فيها مـن شقاوة وعدم اطمئنان. فلم يبق للناس إلا القليل من الارتياح والاطمئنان – اللهم إلا في قلوب الضعفاء والنساء – إلى تلك القرابين والطقوس وإلى عبادات المعبد الشكلية. هكذا كان العالم الـذي شـرع أنبيـاء إسـرائيل المتأخرون يحدثونه عن الرب الأوحد وعن الوعد بأنه لا بد أن يأتي يوم يسود العالم فيه السـلام والوحـدة والسعادة. وهذا الإله العظيم الذي شرع الناس إذ ذاك في الكشف عنه كان يعيش في معبد "لم تصنعه يد، وهو سرمدي في السموات". ولا يخالجنا إلا القليل من الشك في وجود مقدار كبير من أمثال هذه الأفكـار وتلـك القواعد في مملكة بابل ومصر وفي كل أرجاء الشرق السامي. وأسفار الأنبياء في الكتاب المقدس لا تعدو أن تكون نماذج لتنبؤات ذلك الزمان.

ولقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى تسلل الكتابة والعرفان تدريجيا من أفقهما المحدود المقصور على الكهنـة وخدم المعابد وحرمها المقدس، أعني من تلك القوقعة التي نمت فيها وترعرعت أول الأمر. ولقد اتخذنا مـن هيرودوت نموذجا شائقًا لما أطلقنا عليه اسم الذكاء الطليق للجنس البشري. وها نحن أولاء نعالج تدفقًا جديدا لآراء وأفكار أخلاقية تنساب في المجتمع العام. وإن في ظهور الأنبياء العبرانيين، وفي الانتشار المطرد الذي لقيته فكراتهم المتجهة إلى الاعتقاد بوجود رب واحد في هذا العالم بأسره، لتطورا آخر مماثلاً لـذاك، تهيـأ لضمير البشرية الحر. ومنذ ذلك الزمان فصاعدا، والفكر الإنساني تخالجه – إما في شـيء مـن الضـعف والخفاء، وإما على حالة من التآزر وحشد القوى – فكرة تهدف إلى إقامة حكم واحد في العالم، وفكرة أمـل ورجاء في سلام فعال بديع وسعادة رائعة يسودان شئون البشر. بذلك تحولت الديانة العبرانية من ديانة معبـد من الطراز القديم، وأصبحت إلى حد كبير ديانة أنبياء خلاّقة من طراز جديد. ويتعاقب الأنبياء نبيا بعد نبي.

ثم ولد فيما تلا ذلك من أيام – كما سنذكر لك – نبي ذو قوة لم يسبق لها مثيل، هو عيسى، الـذي أسـس أتباعه تلك الديانة العالمية العظيمة، وأعني بها الديانة المسيحية، وبعد ذلك ظهر أيضا نبي آخر، هو محمـد، وكان ظهوره في بلاد العرب، وقد أسس الإسلام، وعلى الرغم من انفراد كل منهما بما له مـن خصـائص مميزة، فإن هذين المعلمين قد نشآ بطريقة ما على شاكلة هؤلاء الأنبياء اليهود. وليس من عمل المـؤرخ أن يناقش صدق الدين أو كذبه، وإنما يقتصر عمله على تسجيل ظهور الآراء والفكر البنّاءة العظيمة. فمنذ ألفين وأربعمئة من السنين، وبعد أن انقضت ستة أو سبعة أو ثمانية آلاف من السنين على بنـاء حـوائط المـدن السومرية الأولى، ظهرت في العالم فكرتا الوحدة الخلقية للبشرية والسلام العالمي.

الفصل التاسع عشر

الشعوب الناطقة بالآرية

في عصور ما قبل التاريخ

١- انتشار الناطقين بالآرية.

٢- عن حياة الآريين الأصلية.

٣- العائلة الآرية.

١ - انتشار الناطقين بالآرية

تكلمنا عن اللغة الآرية بوصفها لغة نشأت على الأرجح في إقليم الدانوب وجنوب الروسيا ثم انتشرت من منطقتها الأصلية إلى مناطق أخرى. ونحن إنما نقول "على الأرجح" لأنه لم يثبت قط ثبوت محققًـا أن ذلـك الإقليم كان مركزها. ولقد أثيرت حول هذا الموضوع مناقشات واسعة النطاق وحدث بصدده اختلاف كبير في الرأي. لذا فنحن إنما نقدم إليك وجهة النظر السائدة. كانت تلك اللغة في الأصل لغة مجموعة مـن الشـعوب النوردية الجنس. فلما أن انتشرت الآرية انتشارا واسعا أخذت في التفرع والانقسام إلى عـدد مـن اللغـات الثانوية. فالتقت في الغرب والجنوب بلغة "الباسك" التي كانت سائدة في إسبانيا، ولعلها لقيـت أيضـا لغـات أخرى متنوعة على شواطئ البحر المتوسط.

وقبل انتشار الآريين من بلادهم الأصلية نحو الجنوب والغرب كان الجنس الأيبيري موزعا بين بريطانيـا العظمى وأيرلندا وفرنسا وإسبانيا وشمال أفريقية وجنوب إيطاليا، كما كان على حالة أكثر مدنية وتحضرا في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى. وكانت بينه وبين المصريين صلات وثيقة. وإذا حكمنا عليه بآثاره الباقية فـي أوربا، قلنا إنه كان صغير الحجم أو يكاد، وكان بوجه عام بيضاوي الوجه مستطيل الـرأس. وكـان يـدفن رؤساءه وذوي المكانة من أفراده في حجرات من الجندل [١] مغطاة بروابٍ عظيمة من التراب. ولما كانـت هذه الروابي أكثر طولاً منها عرضا، فإنها تعرف بالقبور [٢] المستطيلة، وكان هؤلاء الأقوام يحتمـون فـي بعض الأحيان في الكهوف، كما كانوا أيضا يدفنون بعض موتاهم فيها. ومن آثار العظام الإنسـانية، سـواء المحترق منها والمهشم والمقطع، بما في ذلك عظام الأطفال – نستنتج أنهم كانوا من أكلة لحوم البشر.

هذه القبائل الأيبيرية القصيرة الأجساد الداكنة اللون (يضاف إليهم الباسك إن كانوا جنسا مغايرا) قد دفعوا إلى الخلف جهة الغرب، ثم هزموا واستبعدوا على أيدي موجات تتقدم وئيدا من أولئـك النـاطقين بالآريـة الأطول قامة والأشد شقرة الذين نزحوا نحو الجنوب والغرب عابرين أوربا الوسطى، وهم الـذين نسـميهم الكلت. ولم يقف في وجه ذلك اللسان الآري القاهر غير شعب الباسك وحده. وشرع أولئك الناطقون بالكلتيـة يتخذون طريقهم رويدا رويدا نحو المحيط الأطلسي، وكل ما يتبقى اليوم من أعقاب الأيبيريين مختلط بالسكان الكلتيين. أما مدى تأثير الغزو الكلتي في سكان إرلندة فهو مثار جدل إلى وقتنا هذا. وربما كان الكلت في تلك الجزيرة مجرد طائفة من الغزاة فرضوا لغتهم على رعية من السكان أكثر عددا. وربما صح مثل هذا القـول عن إسبانيا. بل يشك بعض الناس فيما إذا كان شمال إنجلترة نوردي الدم أم يغلب عليه الدم السابق للكلتـى. فإن بين أهل ويلز من هو قصير داكن البشرة، كما أن بين الإرلنديين طرزات مماثلـة، وكلاهمـا أيبيـري الجنس. والبرتغاليون العصريون يغلب عليهم كذلك الدم الأيبيري.

([١]) الجندل: هو الصخر الضخم. (المترجم).

([٢]) وقد أسميناها أيضا في المجلد الأول باسم تلعات الدفن. (المترجم)

وكان الكلت يتكلمون لغة هي الكلتية، يقال عنها إنها كانت تجمع بين مفردات آرية، وبين أجرومية البربر Berbers (أي الأيبيريين)، وهي اللغة التي قدر لها أن تتفرع بدورها فتصبح لغة غالة واللغـات (Gallic) الويلزية والبريطونية (Briton) والاسكتلندية والإرلندية الغيلية (Gaelic) وألسنة أخرى. وكـان الكلتيـون يدفنون رماد رؤسائهم وعظمائهم في قبور مستديرة. وعلى حين كان هؤلاء الكلتيون النورديـون ينتشـرون غربا، كانت هناك شعوب آرية نوردية أخرى تضغط جنوبا على شعب البحر المتوسط ذي اللـون الأبـيض الداكن في أشباه الجزائر الإيطالية والإغريقية وتطور مجاميع الألسن اللاتينية والإغريقية. وثمة قبائل آريـة معينة كانت تندفع نحو البلطيق وعبره حتى تدخل اسكنديناوة، وهي تتكلم ضـروبا مـن الآريـة أصـبحت النورسية القديمة – وهي أصل السويدية والدانمركية والنرويجية والإيسلندية – والقوطية والجرمانيـة العليـا والسفلى [1].



٥٩ — خريطة توزيع الشعوب الناطقة بالآرية

(1) انظر اللغات البشرية ص ١٣٩ من المجلد الأول. (المترجم)

وفي نفس الوقت الذي كان اللسان الآري البدائي ينتشر فيه على هذا النحو، وينقسم إلى لغـات وليـدة فـي الغرب، كان ينتشر ويتفرع في الشرق كذلك. فإن القبائل الناطقة بالآرية كانت تستعمل في شمال جبال الربـات والبحر الأسود لهجة تميزها تسمى السلافونية (الصقلبية) التي منها جـاءت الروسـية والصـربية والبولنديـة والتشيكية وألسنة أخرى. وثمة لهجات أخرى للغة الآرية موزعة في آسيا الصغرى وبـلاد إيـران، تجسـمت ذاتيتها في صورة الأرمنية "والهندوإيرانية" وهي أم اللغتين السنسكريتية والفارسية. ولقد أطلقنا في هذا الكتـاب كلمة الآرية على كل هذه المجموعة الضخمة من اللغات، وإن كان اصطلاح "الهندوأوربية" مستعملاً في بعض الأحيان للدلالة على العائلة بأسرها، على حين اقتصر استعمال كلمة الآرية على حيـز أضـيق هـو اللسـان الهندوإيراني، ثم قدرت الأيام لهذا اللسان الهندوإيراني أن يتشعب فيما بعد فيصبح عددا من اللغات مـن بينهـا الفارسية والسنسكريتية، والأخيرة إنما هي لغة قبائل بعينها من الناطقين بالآرية ذوي البشرة الشـقراء، زحفـوا شرقًا ودخلوا الهند في زمان ما بين ٣٠٠٠ و١٠٠٠ ق. م.، وتغلبوا على الشعوب الدرافيدية السـمراء الـذين كانت تلك الأرض في أيديهم إذ ذاك.

ولقد انتشرت قبائل آرية أخرى من مجال جولانها الأصلي إلى شمال البحر الأسود وجنوبه، كمـا سـارت حول شمال وشرق بحر قزوين ملازمة شواطئ بحار تلك المنطقة أثناء انحسارها أمامهم وإفسـاحها الطريـق لهم. وبذلك أخذت تنشب المنازعات فضلاً عن الاختلاطات بينهم وبين الشعوب المغولية من مجموعـة الأورال آلتاي اللغوية، وهم القوم الذين يربون الخيل في سهوب آسيا الوسطى المعشبة. ويلـوح أن الآريـين اكتسـبوا طريقة استخدام الخيل في الركوب والحرب من هاته الشعوب المغولية. ولقد كانت هناك في عصـر مـا قبـل التاريخ ثلاثة أو أربعة أنواع أو أجناس مختلفة من الخيل في أوربا وآسيا. على أن أرض السهوب أو الأراضي شبه الصحراوية هي التي أعدت في مبدأ الأمر خيولاً ذات بنية مهيأة لغاية أخرى غير الانتفاع بها كغذاء.

وليكن مفهوما أن كل هذه الشعوب القاطنة في السهوب الروسية والآسيوية، كـانوا يغيـرون مـواطنهم بسرعة. ذلك أن تعاقب الفصول المتطرفة المناخ ربما قذف بهم مئات كثيرة من الأميال. ولـذا فلـيس فـي ميسورنا اليوم أن نستدل على مضارب أقدامهم وتنقلاتهم إلا على سبيل الظن والاستدلال. فكانوا ينزحون إلى الشمال في كل صيف، ثم يعودون أدراجهم إلى الجنوب من جديد عندما يحل الشتاء. وكان مدى هذا التأرجح السنوي يبلغ في بعض الأحيان مئات الأميال. ورغبة منا في التبسيط، تمثل خرائطنـا انتقـالات الشـعوب المترحلة بخط مستقيم، وإن كانوا في حقيقة الأمر يتحركون في تأرجحات سنوية مثلهم في ذلك مثـل خـادم يكنس دهليزا فتنتقل مكنسته من جانب إلى جانب آخر وهو يخطو إلى الأمام في عملـه. وكانـت المنطقـة الممتدة حول شمال البحر الأسود وربما كذلك شمال بحر قزوين، والمبتدئة من مجـال القبائـل التيوتونيـة الأصلية القاطنة في أوربا الوسطى وأوربا الشمالية حتى منطقة الشعوب الإيرانية التي تفرعت إلى الميـديين والفرس والهنود (الآريين)، - كانت هذه المنطقة كلها هي أراضي الرعي التي تنتجعها قبائل اختلط حابلهـا بنابلها اختلاطا يجعل الإبهام لا الدقة بالنسبة لها أقرب إلى الحقيقة، وهـي قبائـل مـن أمثـال الكمـريين، والسرماتيين وأولئك الإسكيذيين (الإشقوذيين) الذين اشتركوا مع الميديين والفرس في الاتصال بالإمبراطورية الآشورية اتصالاً له أثره الفعال قرابة سنة ١٠٠٠ ق. م. أو قبلها.

وإلى الشرق والجنوب من البحر الأسود بين الدانوب وبين الميديين والفرس وإلى الشمال مـن الشـعوب السامية وشعوب البحر المتوسط الساكنة على السواحل وفي أشباه الجزر، استقرت سلسلة أخرى مـن قبائـل آرية لا تقل عن الأخرى في عدم تحديد مستقراتها، وهي تتنقل تنقلاً سهلاً هينًا من مكان إلى آخـر وتخـتلط اختلاطًا حرا، وهو أمر يورث المؤرخين أعظم الحيرة والارتباك، إذ يلوح مثلاً أنهم مزقوا الحضارة الحثّيـة وتمثلوها، وهي حضارة كانت على ما يرجح سابقة للآريين في أصل نشأتها. وربما لم يكن هؤلاء الآريـون الأخيرون قد وصلوا إلى نفس المرحلة العالية من حياة الترحل التي بلغها اسكيذيو السهول العظيمة.

٢- عن حياة الآريين الأصلية

أي نوع من الحياة كان يعيشه هؤلاء الآريون في عصر ما قبل التاريخ؟ أولئك الآريون النورديون الـذين هم أهم أسلاف معظم الأوربيين ومعظم الأمريكيين البيض والمستعمرين الأوربيين في أيامنا هذه، كمـا هـم أسلاف الفرس والطائفة العليا من الهندوك، وربما كانوا أيضا أسلاف الأرمينيين، على أن هؤلاء الأخيـرين كانوا على الأرجح شعبا غير آري، ولعلهم شعب حيثي تعلم لغة آرية.

ولدينا في الإجابة عن هذا السؤال مصدر جديد من مصادر المعرفة يضاف إلى ما كشف عنه الحفر مـن الآثار والبقايا التي التزمنا أن نعتمد عليها في حالة أسلاف الآريين، لدينا ميدان اللغة نطرقه. ذلك أن دراسـة اللغات الآرية دراسة عناية وتمحيص تبين أن من الممكن استنتاج طائفة من النتائج عن حياة هؤلاء الشعوب منذ ٥٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سلفت من السنين.

فإن بين كل هاته اللغات مشابهة عامة، فإن كلاً منها كما سبق أن بينا تشتق الكلمـات المختلفـة بإدخـال تغييرات على عدد من الأصول أو (الجذور) المشتركة بينها. فمتى وجدنا نفس أصل الكلمة وجذرها متداولاً في كل هذه الألسن أو جلها بدا من المعقول أن نستنتج أن المعنى الذي يومئ إليه أصل الكلمة هذا، كـان لا ريب معروفًا للأجداد المشتركين. وبدهي، أنه إن وجدت بلغاتهم نفس الكلمة بالضبط فربما اختلف الحـال إذ إنها قد تكون اسما جديدا دالاً على شيء جديد أو فكرة جديدة انتشرت في العالم في زمان حديث جدا، فكلمـة "غاز" مثلاً لفظة صاغها "فان هلمونت" وهو كيماوي هولندي، حوالي سنة ١٦٢٥، فانتشرت في معظم الألسن الممدنة، وكلمة "التبغ" كذلك كلمة هندية أمريكية جاءت في أثر انتشار التدخين في كل مكان تقريبا. على أنـه إذا وجدت نفس الكلمة في عدد من اللغات وإذا كانت تتبع في تصريفاتها خصائص التصريف في كـل لغـة على حدة جاز لنا أن نوقن أنها كانت في تلك اللغة، وأنها ظلت جزءا من تلك اللغة. وإنا لنعـرف مـثلاً أن الكلمتين الدالتين على العربة والعجلة تتداولان على هذا المنوال في جميع الألسن الآرية، وبذلك نسـتطيع أن نستنتج أن الآريين البدائيين، وأعني بهم الآريين النورديين الخاص، كانت لديهم عربات، وإن كان يبدو مـن عدم وجود أي كلمات مشتركة دالة على برانق العجلة وإطارها ومحورها، أن عجلاتهم لم تكن مـن صـنع صانع عجلات ولا كانت ذات برانق، بل كانت تؤخذ من جذوع الشجر وتسوى فيما بين الأطراف ببلاطة.

وكانت هذه العربات البدائية تجرها الثيران، إذ لم يكن الآريون الأول يركبون أو يسوقون الخيل ولم يكـن للخيل عندهم كبير منفعة. وكان مغول العصر الحجري الحديث شعبا من الفرسان راكبي الخيل، على حـين كان آريو نفس العصر الحجري الحديث شعبا يستخدم البقر، فكانوا يأكلون لحم البقر، لا لحم الخَيل. وشرعوا بعد عصور كثيرة في استخدام الماشية في الجر، وكانوا يقدرون الثراء بعدد الأبقار، ويضـربون بهـا فـي الأرض طلبا للمرعى، ويحملون بضائعهم على عرباتهم التي تجرها الثيران كما يفعل بوير أفريقيا الجنوبية، وإن كانت عرباتهم بطبيعة الحال أقبح شكلاً من أية عربة توجد الآن في العالم، والراجح أنهم كانوا يتنقلـون في مناطق فسيحة مترامية الأرجاء، إذ كانوا شعبا نزوعا إلى الهجرة، ولكنه لا يدخل تحت المعنـى الـدقيق

لكلمة "الرحل" لأن انتقالاتهم كانت أبطأ وأثقل وأقل مهارة من الشعوب التي أصبحت فيما بعد هي الشعوب المترحلة الأكثر تخصصا. كانوا قوم غابات أو أحراش خفيفة (Parklands) لا خيل عندهم، وكانت حياتهم تتطور متجهة صوب الهجرة متحولة عن حياة العصر الحجري الحديث السابقة الأكثر استقرارا والمشتغلة بقطع الغابات، وقد تكون التغيرات المناخية التي كانت تحيل الغابات إلى مراع، وكذلك احتراق الغابات بالنار عرضا، من العوامل التي ساعدت على هذا التطور.

سبق أن وصفنا لك نوع البيت الذي يسكنه الآري البدائي، كما وصفنا لك حياته المنزلية بقدر ما سمحت لنا بقايا مساكن البحيرات السويسرية وكانت بيوته في معظم الأحوال رثة بالغة الضعف، كما كانت مصنوعة من الطين وفروع الأشجار المتشابكة، بحيث لم تقو على البقاء. ولعله كان يتركها لأتفه الأسباب، راحلاً عنها بعرباته التي تجرها الأبقار، وكانت الشعوب الآرية تحرق موتاها، وهي عادة لا يزالون يرعونها في الهند، على أن أسلافهم أصحاب القبور المستطيلة وهم الأيبيريون، كانوا يدفنون موتاهم راقدين على جنوبهم في هيئة الجالسين. وفي بعض ركام الدفن الآرية القديمة (وهي القبور المستديرة) كانت الأوعية المحتوية على رماد الراحلين مصنوعة على صورة المنازل، وهذه تمثل أكواخًا مدورة لها سقوف من القش.

وكان انتجاع الآري البدائي للمرعى أعظم أهمية لديه من الزراعة. وكان يزرع في مبدأ الأمر بفأس خشبي بدائي، ثم ما لبث حين اكتشف استخدام الماشية لأغراض الجر أن بدأ في الحراثة الحقيقية بالثيران متخذًا محراثه في مبدأ الأمر من فرع شجرة معوج اعوجاجا يفي بحاجته. وزراعاته الأولى التي ظهرت قبل ذلك، لا شك أنها كانت أقرب إلى صورة البساتين الصغيرة المجاورة لمباني المنازل منها إلى زراعة الحقول. وكانت معظم الأراضي التي تنزلها قبيلته أرضا مشاعة ترعى فيها الماشية بعضها مع بعض.

وهو لم يستعمل الحجر قط في بناء جدران المنازل حتى شارف حافة العصر التاريخي ذاتها. وكان يستعمل الحجر في المواقد (أمثال ما يوجد في جلاستونبري Glastonbury، كما كان يستعمل الحجر أحيانًا في الأجزاء السفلى من المباني. على أنه قد شاد بالفعل نوعا من البيت الحجري في وسط الركام العظيمة التي كان يدفن فيها رماد النابهين من موتاه، ولعله تعلم هذه العادة عن جيرانه وسابقيه الأيبيريين، فقد كان هؤلاء البيض الداكنون أصحاب الثقافة الجندلية [1]، وليس الآريون البدائيون هم أصحاب الفضل في إقامة معابد من أمثال ستون هنج (Stonehenge) في ولتشير (Wiltshire) وكارناك (Carnac) في بريتاني (Brittany).

وما كان هؤلاء الآريون يحتشدون في مدن، ولكن في مناطق الرعي في هيئة عشائر ومجتمعات قبلية، ويؤلفون فيما بينهم أحلافًا مفككة هدفها التعاون المتبادل بزعامة رؤساء مختارين. وكانت لهم مراكز يستطيعون أن يلجئوا إليها مع ماشيتهم إن دهمهم خطر، وكانوا يقيمون المخيمات المحوطة بالجدران الطينية والسياجات. ولا يزال من الممكن تقصي آثارها في طبقات ما عفا عليه التاريخ من معالم البلاد الأوربية. والزعماء الذين كانوا يقودون الناس في الحرب، هم في غالب الأمر نفس الأشخاص الذين يقومون بالتطهير من الرجس بتقديم القرابين، وهم كهنتهم الأول.

---

[1] انظر ص ١٠٢، ١٠٧ من ج١ (ط٣) من المعالم. (المترجم).

وقد انتشرت معرفة الإنسان للبرونز في أوربا في أوان متأخر. فإن الأوربي النوردي ظل يسير في سبيل التقدم البطيء جيلاً بعد جيل مدة ترامت إلى ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة قبل ظهـور المعـادن، وكانـت حياتـه الاجتماعية قد تطورت في تلك الفترة حتى لقد كان هناك رجال ذوو حرف مختلفة فضلاً عن رجال ونسـاء من مراتب مختلفة في المجتمع، فكان هناك رجال يعملون في الخشب والجلد، وكان ثم الفخرانيون والنحاتون. وكانت النساء يغزلن وينسجن ويطرزن، وكان هناك رؤساء عائلات تسنموا مراتب الزعامة والنبالة.

وكان الرجل من أفراد القبيلة الآرية يذهب عن نفسه سآمة حياة الرعي والتجول بأن ينـذر النـذور ويقـيم الحفلات ابتهاجا بالنصر، ويقيم الجنازات ويميز بين فصول السنة التقليدية بما يقيم من أعياد وولائم. ولقد مـر بنا من قبل حديث اللحوم التي كان يتناولها. وكان شغوفًا بتناول المشروبات المسكرة يصنعها من الشـهد ومـن الشعير. ثم عاد فصنعها من العنب مع انتشار القبائل الناطقة بالآرية جنوبا. فإذا شربها تملكتـه نشـوة السـكر والمرح. ولسنا نعرف ما إذا كان قد عرف الخميرة واستخدمها لتجفيف خبزه ورفعه أو لتخمير مشروباته.

وكان في ولائمه أفراد أوتوا موهبة المجون والسخرية يعمدون إلى ذلك لا جرم للفوز بضحك إخوانهم، على أنه كان هناك نوع آخر من الرجال أوتوا أهمية عظيمة في عصرهم وأهميتهم لدى المؤرخ أعظم وأكبر، أولئك هم بعض المغنين الذين كانوا يرجعون الأغاني وينشدون القصص، وهم المنشـدون أو الشـعراء المتجولـون. وكان هؤلاء الشعراء يعيشون بين ظهراني كافة الشعوب الناطقة بالآرية. جاء ظهورهم نتيجة لـذلك التطـور الذي أصابته لغة الكلام بل هم عامل آخر مساعد في تطور تلك اللغة التي كانت رأس كل ما أصابه الإنسان من تقدم في العصور الحجرية الحديثة.

وكانوا ينشدون أو يلقون أقاصيص عن الماضي، أو أقاصيص عن رئيسهم الراهن وشعبه، كما ينشـدون أيضا أقاصيص أخرى استحدثوها، وكانوا يستظهرون النكات والقفشـات. وهـم الـذين اسـتحدثوا الأوزان والقوافي وتمسكوا بها وحسنوها كما وفقوا إلى السجع وجناس الحروف الأولى من الكلمات وما شـابه ذلـك ومما يتهيأ في اللغة من احتمالات كامنة. والراجح أنهم بذلوا جهدا كبيرا في سبيل إحكام قواعد اللغة ووضعها على أسس ثابتة. وكانوا فيما يحتمل أول من أمتع الأذن من عظماء الفنانين على نحو مـا كـان مصـورو الصخور الأورينياكيون فيما بعد أول عظماء الفنانين الذين نعمت بآثارهم الأيدي والعيون. ولا ريـب أنهـم كانوا يأتون بالكثير من الحركات والإشارات. والراجح أنهم كانوا يتعلمون الحركات والإشارات المناسبة وهم يحفظون أناشيدهم. على أن ترتيب اللغة وعذوبتها وقوتها كانت لا جرم شغلهم الشاغل.

وهؤلاء الشعراء يؤذنون بخطوة جديدة خطتها إلى الأمام قوة العقل الإنساني وآفاقه. وإليهم يرجع الفضـل في توجيه أذهان الناس إلى شعور جديد "بكائن" أعظم من أشخاصهم هو القبيلة، وشعور آخر بحياة ترجع إلى الماضي البعيد. فلم يقتصروا على مجرد تذكير قومهم بقديم الإحن والمعارك، بل أخذوا يترنمـون بـذكرى المحالفات القديمة والتراث المشترك، فبعثت على أيديهم جلائل أعمال السالفين من الأبطـال. وبـذا صـار الآريون يعيشون بخيالهم قبل مولدهم وبعد انتهاء أجلهم.

وهذه التقاليد الشاعرية نمت في مبدأ الأمر نموا وئيدا، ثم ما لبث نموها أن زاد سـرعة كمعظـم أمـور الإنسان. حتى إذا حان الزمان الذي كان البرونز يدخل فيه إلى أوربا، لم يكن هناك شعب آري واحد لا يقوم فيه احتراف الشعر وتدريب الشعراء. وعلى أيديهم أصبحت اللغة كأجمل ما يمكن أن تكون فقد كان هـؤلاء الشعراء كتبا حية، وكانوا تواريخ في صورة رجال، وكانوا قوامين ومنشئين لتقاليد جديدة في الحياة الإنسانية أشد قوة. وكان لكل شعب آري سجله الشاعري الطويل يتوارثونه على هذا الوجه نقلاً وسماعا. فكان للألمان قصائد الساجا كما تسميها اللغة التيوتونية، وللإغريق ملاحمهم وللهنود الآريين شعرهم القصصي الفيـدانتي بالسنسكريتية القديمة. وأقدم الشعوب الآرية كانوا في جوهر أمرهم شعب صوت؛ إذ يلوح أن الإلقـاء كـان متسلطًا على كل شيء حتى على تلك الرقصات الطقوسية والدرامية وعلى "ارتداء ثياب الماضي" وهي أمور كان لها أيضا لدى معظم الشعوب الإنسانية الفضل في نقل التقاليد من السلف إلى الخلف.

ولم تكن هناك في ذلك الزمان كتابة. ولما أن تسرب فن الكتابة لأول عهده في أوربا – كما سنقص عليك نبأه فيما بعد – فلا بد أن الناس رأوا فيه طريقة تسجيل أشد ما تكون بطئًا أو سماجة وجمودا، حتى لأوشكوا آن يضنوا على القرطاس بهذه الكنوز الوهاجة الجميلة التي تعيها ذاكرتهم. وقصرت الكتابة في أول الأمـر على الحسابات والحقائق الواقعية. وازدهر شأن الشعراء والمنشدين المتجولين، حتى بعد إدخال الكتابة بزمن بعيد جدا، بل الواقع أنهم بقوا في أوربا حتى العصور الوسطى في صورة المغنين المتجولين. Minstrels.

ولم يكن لتقاليدهم لسوء الحظ ما للسجل المكتوب من ثبات. إذ إنهم كانوا لا ينفكون يصححون ويهـدمون ويبنون، وكانت لهم طرائقهم المتجددة وكانت لهم نواحي إهمالهم فترتب على ذلك أن لم يبق من ذلـك الأدب غير المسطور لعصور ما قبل التاريخ غير آثار ضئيلة دخلها الشيء الكثير من التحوير والتنقيح. ومن أمتـع تواليف الآريين قبل التاريخ وأحفلها بالمعلومات تلك الملحمة التي خلدتها الإلياذة الإغريقية. ويرجح أن صيغة أولى من الإلياذة كانت تتلى على الناس إبان ١٠٠٠ ق. م. ولكن لعلها لم تدون حتى (٧٠٠ أو ٦٠٠ ق. م.) ولا بد أن لكثير من الرجال يدا فيها، إما مؤلفين أو محسنين منقحين. على أن ما عقب ذلـك مـن متـوارث التقاليد الإغريقية تنسبها إلى شاعر ضرير يدعي هوميروس، كما ينحلونه كذلك الأوديسيا، وهي مؤلف شديد الاختلاف عنها في الروح والنظرة. ويحتمل أن يكون بين الشعراء الآريين كثير من المكفوفين. والشعراء كما يقول الأستاذ ج. ل. مايرز Myres كانوا يسلبون البصر لمنعهم من الشرود من القبيلة. ولقد رأى المستر ل. لويد في روديسيا موسيقارا لدى جوقة ممن احترفوا الرقص من الأهالي، وقد سلبه رئيسه بصره لهذا السبب عينه. وكان السلاف (الصقالبة) يسمون الشعراء باسم سليباك Sliepae، وهي الكلمة التي يطلقونهـا أيضـا على الرجل الضرير.

ونص الإلياذة الأصلي الذي كان الناس يتلونه أقدم من الأوديسيا عهدا. ويقول الأستاذ جلبرت مـري: "إن الإلياذة بوصفها أثرا شعريا نص كامل أقدم من الأوديسيا عهدا، وإن كانت مادة الأوديسيا (وهي إلى حد كبير من التراث الشعبي (Folk-lore) الذي لا يمكن تحديد تاريخه) أقدم من أية مادة تاريخية في الإلياذة. ويرجح أن كلاً من الملحمتين كتبت مرة ثانية، ثم أعيدت كتابتها في تاريخ لاحق، على نفس النحو الذي أعاد به لورد تنيسون أمير شعراء الملكة فكتوريا في كتابه "أناشيد الملك" كتابة قصة "مـوت آرثـر Morte d'Arthur"، وهي بذاتها التي أعاد كتابتها السير توماس مالوري قرابة ١٤٥٠ نقلاً عن الأساطير السابقة لعصره، وفيهـا

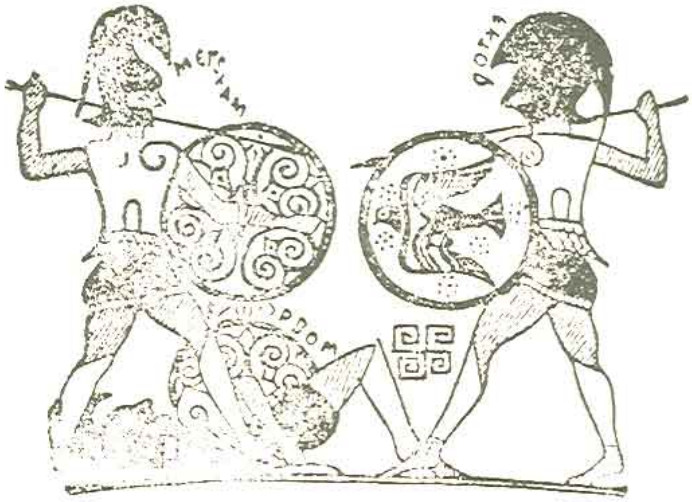
جعل الأقوال والمشاعر والشخصيات أقرب إلى الاتساق مع عصره. على أن حوادث الإليـاذة والأوديسـيا، وطريقة العيش التي تصفان، وروح الأفعال المدونة فيهما، تنتمي إلى القرون الختامية لعصر ما قبل التاريخ. ثم إن هاته الأشعار سواء منها الساجا والملاحم والفيدا تزودنا هي وعلم الآثار القديمة وعلم فقه اللغة بينبـوع ثالث للإحاطة بأنباء هاته الأزمان الغابرة. وإليكم مثلاً فقرة الإلياذة الختامية، وهي تصف على وجه الضـبط طريقة إقامة القبر قبل التاريخ [1]:

أسرعوا جملة لشـد البغـال   وقوي الثيران حول العجـال
ثم ساروا بهن فورا وجـدوا   وإلى السور أقبلـوا أسـرابا
أنهرا تسعة بجمـع الضـرام   لبثـوا ثـم عاشـر الأيـام
رفعوا الميت والعيون هوام
فوق ذاك الوقود ثـم النـارا   أضرموها بـه تـؤج أوارا
ولهم حين لاح ورد بنان الـ   فجر من حوله أقاموا عصابا
حيث هبت لواهب النيـران   أخمدوها بصرف خمر الدنان
ولفيف الإخوان والخلان
جمعوا كل أعظم الميت جمعا   بكئيب الفؤاد يـذرون دمعـا
أودعوها من ثم حق لجـين   وكسوه برفيرهم [2] جلبابـا
أنزلوها في حفرة حفروهـا   وبجلمود صخرهم طمروهـا
ثم شادوا الضريح إذ دفنوها
وحواليه أوقفـوا الأرصـادا   من سراة السرى قروما شدادا
خشية من عدوهم أن يفـاجي   بغتة حين غفلـة واحتسـابا
وإذا القبـر أكملـوا وأتمـوا   صرح ذاك المليك فريام أموا
حيث حواليه للعزاء انضموا
ولهم هيـأ المليـك طعامـا   كان في مأتم الفقيـد ختامـا
ذاك ما كان من مناحة هكطوا   والذي روض الجياد الصلابا

---

(1) اعتمد المؤلف في هذا الاقتباس على ترجمة تشابمان الشعرية للإلياذة مصححا بعض الكلمات بمساعدة ترجمة لانج وليـف ومايرز النثرية ونقلناه نحن عن ترجمة البستاني العربية لها ص ١١٤٨ (المترجم).

(2) البرفير والفرفير ضرب من الألوان مركب من الأحمر والأزرق، والثوب صبغ به ويعرف بالأرجوان. (المترجم).



ولا تزال هنا أيضا ملحمة إنجليزية قديمة (ساجا) هي بيوولف (Beowulf) وقد صنفت قبل عبور الإنجليز من ألمانيا إلى إنجلترة بزمن طويل. وهي تختم بوصف منظر للدفن شبيه بذاك. وهي تبدأ بالحديث عن إعداد كومة الحطب للإحراق. وقد علقت من حولها التروس والدروع، وتحمل الجثة وتوقد النار، وبعد ذلك يدأب المحاربون عشرة أيام على إقامة مقبرة ضخمة لكي يراها عن بعد كل مسافر بالبر أو البحر.

وملحمة بيوولف التي ظهرت بعد الإلياذة بألف سنة على الأقل شائعة هي الأخرى، وذلك لأن إحدى مغامراتها الكبرى تدور حول نهب كنوز مقبرة قديمة ترجع إلى عهد أقدم من ذلك.

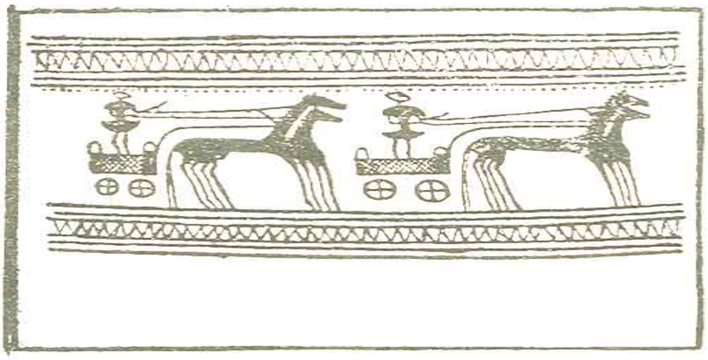
٣- العائلة الآرية

والملاحم الإغريقية تصور لنا الإغريق الأوائل على غير علم بالحديد، صفرا من كل معرفة بالكتابة، كما تصورهم قبل أن يؤسسوا أي مدن إغريقية في تلك البلاد التي تدل كل الدلائل على حداثة عهـدهم بفتحهـا. فأخذوا ينتشرون جنوبا من مواطن الآريين الأصلية، وكانوا فيما يلوح قوما من الشقر نازحين، حديثي عهـد ببلاد الإغريق أي حديثي العهد بأرض كان يتملكها إلى ذلك الحين شـعوب البحـر المتوسـط أو الشـعوب الأيبيرية.

وتوخيا للوضوح وإن تعرضنا لشيء طفيف من التكرار في هذه المسألة بالذات، نذكرك بـأن الإليـاذة لا تعطينا صورة حياة العصر الحجري الحديث البدائية بذلك الإقليم الآري الأصلي، بل تعرض علينا تلك الحياة وقد سارت حثيثًا صوب حالة جديدة، وكانت طريقة العيش الحجري الحديث قد انتشرت فيما بـين ١٥٠٠٠، ٦٠٠٠ ق. م. بانتشار الغابات ووفرة النباتات في الحقبة المطيرة – فوق الجزء الأكبر من العالم القديم مـن نهر النيجر إلى نهر الهوانج هو، ومن إرلندة إلى جنوب الهند. وبينما كان مناخ أجزاء عظيمة مـن الأرض يرتد من جديد إلى حالة أكثر جفافًا وأشد تعريا من النبات، كانت حياة العصر الحجري الحديث السابقة الأكثر بساطة تتطور في اتجاهين: أحدهما يؤدي بها إلى حياة أكثر تجوالاً وانتقالا، أي إلى حياة تنتهي آخر الأمـر إلى أن تصبح حياة هجرة مستديمة بين مراعي الصيف والشتاء وهي ما تسمى باسم "حياة الترحل أو البداوة"، والآخر يفضي بها في وديان لأنهار معينة تسطع عليها الشمس – إلى حياة ري يختزنون فيها المـاء. وهـي التي تجمع فيها الناس فكونوا المدن الأولى وأقاموا المدنيات الأولى. ولقد أسلفنا وصـف المـدنيات الأولـى وألمحنا إلى تعرضها من وقت لآخر لغزوات الشعوب المترحلة ولحظنا من قبل أنه في خلال آلاف عديدة من السنين ظلت المدنيات تتعرض للغزوات يتردد عليها المترحلون ترددا يكاد يكون إيقاعيا كخفق الطبول.

وينبغي لنا أن نلحظ أن الإغريق كما تصورهم لنا الإلياذة ليسوا مجرد رحل من العصر الحجري الحديث عارين من كل حضارة ولا هم بالقوم الممدنين، وإنما هم بدو مترحلون في حالة انفعال واضـطراب، لأنهـم كانوا التقوا من فورهم بمشهد الحضارة ورأوا فيه فرصا للحرب والمغنم والسلب.

وإغريق الإلياذة الأوائل محاربون شديدو المراس، ولكن يعوزهم النظام – وما معاركهم إلا فوضى قوامها النزال الفردي. ولديهم الخيل ولكن ليس لديهم فرسان، وهم يستخدمون الحصان وهو حيوان عرفه الآريـون في زمن حديث نسبيا، يتخذونه لجر مركبة حربية. بدائية في ميادين القتال. وكان الحصان لا يزال في ذلـك الزمان شيئًا جديدا حتى لقد كان في حد ذاته مبعثًا للرعب. فأما أغراض الجر العادية فكانت الثيران أنعامها، كما رأينا من الاقتباس الذي قدمناه لك من الإلياذة.



ولم يكن لهؤلاء الآريين من كهنة سوى سدنة المقاصير والأماكن المقدسة. ومن رؤساء العائلات من كان يقوم كذلك بتقديم القرابين، ولكن لا يبدو أن ديانتهم تنطوي على خفايا كثيرة أو شعور بأسرار مقدسة. فعندما يخرج الإغريق للقتال، يلتئم من هؤلاء الرءوس والأكابر مجلس ينصبون عليهم فيه ملكًا، يتمتّـع بسـلطات فضفاضة. وليست لديهم قوانين بل لديهم العرف وحده دون أي معايير مضبوطة للسلوك والأخلاق.

وكانت الحياة الاجتماعية لدى الإغريق الأوائل تدور حول دوارات [1] هؤلاء الزعماء. وكان هنـاك ولا ريب أكواخ للقطعان وما شابهها، ومبان "للعزب" منعزلة. على أن بهو الرئيس كان مركزا جامعا يؤمه الناس لحضور الولائم وسماع الشعراء والأخذ بنصيبهم من الألعاب والرياضة. وكان أربـاب الحـرف البـدائيون يتجمعون هناك. وكانت من حوله حظائر البقر وإسطبلات الخيل وما إلى ذلك من المرافق. وكان الدهماء من غير ذوي المكانة ينامون في أي مكان حول ذلك البهو على النحو الذي كان يفعله الخدم والأتباع فـي قـلاع القرون الوسطى، وكما يفعل الناس حتى الآن في الدوارات الهندية. وفيما عدا وجود الممتلكـات الشخصـية البحتة كان لا يزال يحيط بالقبيلة جو من الشيوعية القائمة على نظام الأبوة. فكانت القبيلة أو رئـيس القبيلـة يملك أرض المرعى، وكانت الغابة والأنهار مشاعا بين الجميع.

ويلوح أن النظام الاجتماعي الآري – بل في الحق كافة المجتمعات الأولى – لم يكن يقوم على المنـازل الصغيرة المنفصلة التي تتكون منها في الوقت الحاضر كتلة السكان في أوربا الغربية وأمريكا، بـل كانـت القبيلة عائلة كبيرة. وكانت الأمة جماعة من العائلات القبلية. وكان الدوار كثيرا ما يضم مئات مـن النـاس. وقد ابتدأ المجتمع البشري أمره على نفس الشاكلة التي ابتدأ بها تكوين القطعان والأسراب بـين الحيوانـات، وذلك بأن كانت العائلة تؤخر تفككها وانقسامها. وإنك لتجد الأسود في الوقت الحاضر في شرق أفريقيا جانحة بشكل واضح لأن تصبح حيوانات اجتماعية من هذه الناحية، وذلك في ملازمة الصغار لأمهاتها بعد استكمالها لنموها ثم في خروجها للصيد جماعة. وكان الأسد حتى حين أقرب شيء إلى حيوان منفرد. ولئن لم يتعلـق الرجال والنساء بعائلاتهم في الوقت الحاضر بالقدر الذي كانوا يتعلقون به في الماضـي، فـذلك لأن الدولـة والمجتمع يزودان الناس بالطمأنينة والعون والتسهيلات التي كانت في يوم ما في متناول جماعة العائلـة دون غيرها.

([1]) الدوار كما هو معلوم هو دار الوجيه الريفي. (المترجم).

ومجتمع الهندوك في الوقت الحاضر لا يزال يحتوي تلك الدورات الكبيرة التي كانت في المراحل الأولى للجماعة البشرية. وقد وصف (المستر بهو بندرانات باسو) من أمد قريب دوارا هندوكيا طرازيا، هو دوار آري تهذب وتلطف بمرور آلاف من سني المدنية. بيد أن تكوينه الاجتماعي هو عين تكوين الدوارات التي تتحدث عنها الملاحم الآرية.

قال: "إن نظام العائلة المشتركة قد وصل إلينا من أزمان سحيقة في القدم، ولا يزال النظام الأبوي الآري القديم مسيطرا في الهند. وهو على قدمه لا يزال زاخرا بالحيوية. والعائلات المشتركة إنما هي هيئة تعاونية فيها للرجال والنساء منزلة محددة المعالم، وعلى رأس تلك الهيئة أرشد أعضاء العائلة، وهو في العادة أكبر الذكور سنًا، غير أنه كثيرا ما تتسلم مقاليد السلطة أرشد النساء في حالة غيابه (راجع قصة بنيلوب Penelope في الأوديسيا).

"وعلى جميع القادرين جسميا من الأعضاء أن يكرسوا جهودهم وكسبهم إلى الحصيلة العامة سواء أكان ذلك عن طريق المهارة الشخصية أو الزراعة والتجارة. فأما الضعفاء والأيامى واليتامى وذوو القربى المعوزون، فقد كان لزاما أن تعولهم العائلة جميعا وتعينهم، وكان لزاما أن يعامل الأبناء وأبناء الإخوة والإخوة وأبناء العم جميعا على قدم المساواة، إذ إن أي تفضيل لا محل له ربما أفضى إلى تفكك العائلة. وليس لدينا (في الهند) أي كلمة للدلالة على أبناء العمومة. فهم إما إخوة أو أخوات. وليس في مصطلحنا لفظ يدل على أبناء العمومة الذين يبعدون في قرابتهم لنا درجتين، فإن أولاد ابن عمك لحا [1] إنما هم أبناء وبنات أخيك، مثلهم كمثل أولاد إخوتك أو أخواتك تماما. والرجل لا يستطيع أن يتزوج من ابنة عمه أو خاله مهما بعدت قرابتها منه إلا بقدر ما يستطيع التزوج من أخته لحا، اللهم إلا في أجزاء بعينها من "مدراس"، حيث يستطيع الرجل أن يتزوج ابنة خاله. والعواطف العائلية والروابط العائلية قوية جدا بينهم على الدوام. ولذلك كانت المحافظة على معايير المساواة بين هذا العدد الكبير من الأعضاء، لا تبلغ من الصعوبة ما تبدو عليه لأول وهلة. زد على ذلك أن الحياة هناك جد بسيطة، فلم يكن استعمال الأحذية حتى زمن قريب شائعا داخل المنازل، وإنما كانوا يستعملون الخفاف أي الصنادل غير ذات الشسوع الجلدية. وإني لأعرف عائلة ميسورة الحال من الطبقة الوسطى مكونة من عدد من الإخوة وأبناء العمومة، ولها زوجان أو ثلاثة من الأحذية الجلدية تتناوب استعمالها. إذ إن تلك الأحذية لا تستعمل إلا إذا حدث ما يستدعي خروجهم، ولا تزال تلك الطريقة عينها مرعية في حالة الثياب الغالية الثمن أمثال الشيلان التي تبقى أجيالاً عدة، والتي تلقى مع تقادم العهد بها عناية ملؤها التجلة لسابق استعمالها على يد أجداد كريمي الذكرى.

([1]) ورد في الوسيط: لحت القرابة بيننا لحا، دنت ولصقت. [المترجم]

"وتبقى العائلة المشتركة أحيانًا متجمعة مدة أجيال عدة، حتى تصبح كبيرة الجرم ثقيلة العبء عسيرة القياد فتتجزأ إلى عائلات أصغر منها. وإنك لترى على هذا النحو قرى بأكملها مأهولة بأعضاء عشيرة واحدة. قلت إن العائلة هي جماعة تعاونية، وربما أمكن تشبيهها بدويلة، ويحتفظ لها بأوضاعها وبمكانتها نظامها القـوي القائم على المحبة والطاعة، وإنك لترى في كل يوم تقريبا أفراد العائلة الصـغار، يتقـدمون إلـى كبيرهـا "ويأخذون تراب قدميه" علامة على التبرك، وكلما انطلقوا في مشروع لهم استأذنوه فيه وتقبلـوا بركاتـه...! وهناك روابط كثيرة تربط العائلة بعضها ببعض: أولها رابطة التعاطف والمسـرات المشـتركة والأحـزان المشتركة. فعندما تحدث في العائلة وفاة يشمل الحداد كل أفرادها، وإذا ولد مولود أو تزوج فرد عمت الأفراح كل العائلة. وهناك فوق كل شيء إله العائلة وهو تمثال لفشنو (Vishnu) الحافظ، وله حجرة خاصة، تعرف عادة باسم حجرة الرب. على أن بعض العائلات الميسرة الحال تخصص له معبدا ملحقًا بالمنزل تؤدي فيـه العائلة عبادتها اليومية، وترتبط العائلة بتمثال الرب بنوع من المحبة الشخصية، لأن التمثـال ينحـدر علـى العموم من الأجيال السابقة، وكثيرا ما يكون أحد الأجداد الأتقياء قد حصل عليه بمعجزة من المعجزات فـي بعض الأزمان السحيقة.. وكاهن العائلة وثيق الارتباط برب العائلة. والكاهن الهندوكي جزء من حياة أتباعـه العائلية لا يتجزأ، وقد دامت الرابطة بينها وبين شخصه مدة أجيال كثيرة. وليس الكاهن عادة رجـلاً واسـع العلم، وهو على كل حال ملم بتقاليد عقيدته. وليس الكاهن بالعبء الثقيل على العائلة إذ هو يرضى بالقليـل. فإن ملء حفنات قليلة من الأرز لتكفيه، وإن عددا قليلاً من أصابع الموز أو الخضر المزروعة في المنـزل، وإن قليلاً من السكر غير المكرر المصنوع في القرية، وإن قليلاً من قطع العملة النحاسية تعطى له في بعض الأحيان – لهي كل ما يلزمه.

"وكل صورة لحياتنا العائلية لا تتناول بالحديث خدم الدوار تكون صورة بتراء. فالخادم الأنثى تعرف فـي البنغال باسم "جهي" أي الابنة، فهي كابنة البيت، وهي تدعو رب البيت وربته أبا وأما، وتدعو شبان وفتيـات العائلة إخوة وأخوات، وهي تقاسم العائلة حياتها، وتذهب إلى الأماكن المقدسة مع سيدتها، إذ إنها لا تسـتطيع الذهاب بمفردها، وهي على العموم تقضي حياتها مع العائلة التي تبنتها، وتعنى العائلـة بأطفـال الخادمـة. والخدم الرجال يلقون معاملة مماثلة لهذه تماماً". وهؤلاء الخدم الرجال منهم والنساء هم في العادة قـوم مـن طوائف أدنى مرتبة. على أن شعورا بالتعلق الشخصي ينمو بينهم وبين أفراد العائلة، وحين تتقدم بهم السـن يسميهم الصغار من أفراد العائلة – في حنان ومحبة – إخوة كبارا وأعماما وخالات.

"ولكل بيت ميسر الحال مدرس مقيم على الدوام، يعلم أطفال العائلة كما يعلم أولادا آخرين من أبناء القرية وليست مباني المدارس كثيرة النفقة، فإن في أية شرفة "فراندة" أو مظلة في الفناء متسعا للأطفال ومعلمهـم، ويقبل أبناء الطوائف الدنيا في هذه المدرسة مجانًا. فهذه المدارس الأهلية لم تبلغ يوما مرتبة عالية جدا. بيـد أنها كانت مركزا لتعليم الجماهير لم يتيسر مثله في أي قطر آخر.

"ويرتبط بالحياة الهندوكية واجب الكرم الذي تحتمه التقاليد، فإن واجب صاحب الدار يقضي عليه بأن يقدم الطعام لأي غريب يحضر قبل الظهيرة، وإن ربة البيت لتمتنع عن تناول طعامها حتى يتناولـه كـل أفـراد العائلة – وإذ إن طعامها يكون في بعض الأحيان هو كل ما تبقى في المنزل، فإنها لا تتناول غداءها إلا بعـد وقت الظهيرة بزمن كاف خشية أن يأتي غريب جائع ويطلب الغداء".

لقد استمرأنا الاقتباس من المستر باسو في شيء من الإسهاب، لأننا بهذا نصل فعلاً إلى شيء يشبه الفهـم الحي لطراز الدوارات التي عمت المجتمعات البشرية منذ العصر الحجري الحديث، والتي لا تفتأ تعم اليـوم الهند والصين والشرق الأقصى. والتي أخذت في الغرب تخلي مكانها سريعا لنظام للتعليم تقوم بـه الدولـة ومجالس البلديات، ولنظام "تصنيع" واسع النطاق يتيسر فيهما من استقلال الفرد وحريته قدر لم تعرفه قط تلك الدوارات الكبيرة. ولنعد الآن إلى التاريخ الذي تحفظه لنا الملاحم الآرية.

تنبئنا الملاحم السنسكريتية بقصة شديدة الشبه بتلك القصة التي تنطوي عليها الإلياذة. وهي قصـة شـعب أشقر يأكل لحم البقر – فإنهم لم يصبحوا نباتيين إلا في زمن لاحق – ينحدر من بلاد الفرس إلى سهل الهنـد الشمالي ويشق طريقه في مهل إلى نهر السند. ومن السند ينتشرون في أنحاء الهند ولكن بينا هم في انتشارهم تراهم يقتبسون الشيء الكثير من الدرافيديين السمر الذين غزوا بلادهم، ويبدو أنهم فقدوا تقاليدهم الشـاعرية. ويقول المستر باسو: "إن الأشعار القديمة كانت تتناقل على الأخص في الدوارات على ألسنة النساء".

أما أدب الشعوب الكلتية الشفوي المحفوظ، وهم الذين اتجهوا غربا، فلم يبق سليما كما بقي أدب الإغريـق والهنود، وذلك لأنه سطر بعد انقضاء قرون عديدة، ولذلك فإنـه – شـأن ملحمـة البيوولـف (Peowlif) الإنجليزية البدائية – قد فقد كل شاهد واضح يشهد بوجود فترة هجرة إلى أراضي شعب سالف. ولئن ظهـر فيه أثر لمن سبقوا الآريين، فإنهم إنما يظهرون فقط ظهور (الفيري [1] Fairy) في القصص الإرلندية.

وظلت إرلندة – وهي أشد المجتمعات الناطقة بالكلتية انقطاعا عن العالم – محتفظة بحياتها البدائيـة إلـى أحدث الأزمان. وقصة التين (Tain) وهي الإلياذة الإرلندية تصف حياة قوم يربـون الماشـية ولا يزالـون يستخدمون العربات الحربية كلا تزال كلاب الحرب مستعملة لديهم، وتحمل رءوس القتلى معلقة حول رقاب الخيول. "والتين" إنما هي قصة غارة لسرقة الماشية، وفيها أيضا يبدو النظام الاجتماعي على نحو ما شـوهد في الإلياذة. فإن الرؤساء يجلسون في قاعات عظيمة رحيبة، ذلك أنهم يشيدون لأنفسهم القاعات ويقيمون فيها الولائم. وهناك ترفع أصوات الشعراء بالغناء وقص الأقاصيص على حين تدور الكأس بالشـراب وينتشـي الحاضرون. وليس هناك ما يدل دلالة واضحة على وجود كهنة، بيد أن هناك نوعا مـن الطبيـب السـاحر حارس التعاويذ والتنبؤات.

([1]) الفير – كائن أو روح خيالي كثير الورود في القصص الأوربي، له صورة إنسانية وقامته أقصر من الإنسان وله قدرة على عمل أشياء كثيرة خارقة لا يستطيع الإنسان عملها. (المترجم).

الفصل العشرون

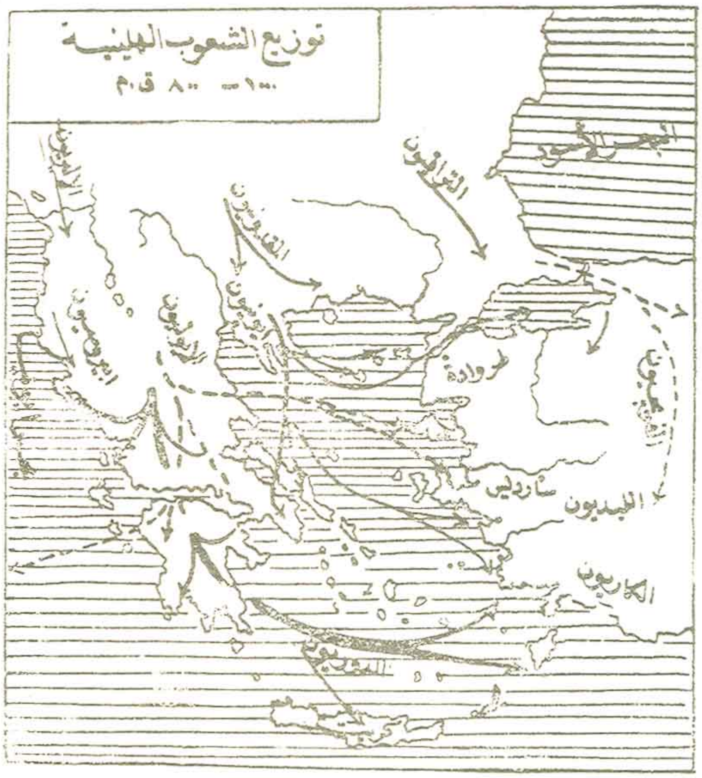
الإغريق والفرس

١- الشعوب الهيلينية.
٢- المظاهر المميزة للمدنية الهلينية.
٣- الملكية والأرستقراطية والديمقراطية في بلاد الإغريق.
٤- مملكة ليديا.
٥- نهوض الفرس في الشرق.
٦- قصة كرويس (قارون).
٧- دار يجتاح الروسيا.
٨- معركة ماراتون.
٩- ثيرموبيلا وسالاميس.
١٠- بلاتايا وميكالي.

١- الشعوب الهلّينية

يظهر الإغريق لأول مرة في ذلك الضوء المعتم السابق لفجر التاريخ (قبـل عـام ١٥٠٠ ق. م. علـى التقريب) بوصفهم أحد الشعوب الآرية الجوالة غير كاملة الترحل. وكانوا يوسعون نطاق رعيهم شيئًا فشـيئًا نحو الجنوب متوغلين في شبه جزيرة البلقان، ويقاتلون شعوب تلك المدنية الإيجية السابقة التي كانت مدينـة كنوسوس تاجا على مفرقها، ويختلطون بها.

وتنبئنا الأشعار الهومرية بأن هذه القبائل الإغريقية تتكلم لسانًا واحدا مشتركًا، وأن تقاليدها المشتركة التي تدعمها أشعار الملاحم تشدهم بعضهم إلى بعض في وحدة مفككة الأوصال. وهم يسمون قبائلهم المختلفة باسم مشترك هو الهلينيون. ولعلهم نزحوا على موجات متعاقبة، إذ يميز العلماء في لغة الإغريق القديمـة ثـلاث لهجات رئيسية: هي الأيوينة Ionic والأيولية Aeolic والدورية Doric. على أن لديهم أيضا أضربا كثيـرة من اللهجات المتنوعة. ويلوح أن الأيونيين سبقوا من عداهم من الإغريق إلى الميدان، واختلطـوا اختلاطـًا وثيقًا بالشعوب المتحضرة التي غلبوها على أمرها. وقد يكون سكان مدن من أمثال أثينا وميليتوس من ناحية الجنس أقل نوردية وأقرب إلى سكان البحر المتوسط. والظاهر أن الدوريين هم قوام آخر موجـات الهجـرة وأقواها منة وأقلها تمدينًا. فهاته القبائل الهلينية غزت المدنية الإيجية ودمرتها إلى حد كبير وهي المدنية التي سبقت وصولهم، وبنى الفاتحون على أنقاضها حضارة خاصة بهم. وهفت نفوسهم إلى البحر وعبروه إلى آسيا الصغرى بطريق الجزر. وبعد أن ركبوا السفن مخترقين الدردنيل والبسفور، نشروا مـواطنهم ومسـتقراتهم على امتداد سواحل البحر الأسود الجنوبية. ثم ما لبثوا أن مدوها على امتداد سواحله الشمالية. كذلك انتشروا في جنوبي إيطاليا، التي أطلقوا عليها آخر الأمـر ماجنـا جرايكيـا Mgna Graecia أي بـلاد الإغريـق العظمى)، ثم انتشروا حول الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط وأسسوا مدينة مرسيليا محل مسـتعمرة فينيقيـة قديمة. ثم أخذوا ينشئون لأنفسهم في صقلية المستقرات (المستعمرات) منافسين بذلك القرطاجنيين في زمـان يرجع إلى ٧٣٥ ق. م.



وجاء في أعقاب الإغريق الخلّص أقاربهم المقدونيون والتراقيون وعلى جناحهم الأيسر عبر الفريجيـون البوسفور إلى آسيا الصغرى.

وإننا لنجد هذا التوزيع كله يتم للإغريق قبل بواكير التاريخ المكتوب. حتى إذا حل القـرن السـابع ق. م. أعني إبان الأسر البابلي لليهود، كانت قد زالت من الوجود كل المعالم الدالة على العالم القديم عـالم المدنيـة السابقة للهلينية في أوربا. ألا ترى إلى تيرينز (Tiryns) وكنوسوس (Cnossus) كيف صارتا مواقع غيـر ذات بال، وإلى مسيناي (Mycenae) وطروادة (Troy) كيف لا تعيشان إلا في عالم الأساطير؟ فأما المـدن العظيمة في هذا العالم الإغريقي الجديد فهي أثينا وإسبرطة (عاصمة لاكيدايمون) وكورنثة وطيبة وسـاموس وميليتوس. ومن ثم يكون العالم الذي كان أجدادنا يسمونه باسم "بلاد الإغريق القديمة" قد قام علـى أطـلال منسية تنتمي لبلاد إغريق أشد إمعانًا في القدم من تلك، كما أنها تضارعها في تمدينها وتقدمها الفني من كثير من الوجوه. بل إننا اليوم لم نكد نتجاوز المرحلة الأولى في تعرف تلك المدنية السحيقة القدم تعرفًـا يرجـع الفضل فيه إلى جهود المنقبين عن الآثار.

بيد أن بلاد الإغريق القديمة هذه الأحدث من السالفة، التي نحن الآن بصدد الحديث عنها لا تزال تعـيش عيشًا ناصعا رائعا في أخيلة الرجال ونظمهم، لأنها كانت تنطق بلسان آري جميل أشد ما يكون بيانًا، قريـب الصلة باللغة الإنجليزية، ولأنها تناولت الأبجدية المستعملة عند شعوب البحر المتوسط وبلغـت بهـا مرتبـة الكمال بإضافة حروف الحركة إليها، وبذا أصبحت القراءة والكتابة عند ذاك فنين يسـيرين يسـهل تعلمهـا وممارستهما، وصار في ميسور عدد كبير من الناس إتقانهما ووضع سجل خالد للأجيال المقبلة.



ش ٦٢ – معركة بحرية إغريقية ٥٥٠ ق.م.

٢- المظاهر المميزة للمدنية الهلينية

إن هذه المدنية الإغريقية التي نراها تدرج في جنوب إيطاليا وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى في القرن السابع ق. م.، إنما هي مدنية تخالف من أوجه كثيرة هامة كلا من المدنيتين العظيمتين اللتين فقونا نموهما من قبل، وهما مدنية النيل ومدنية رافدي أرض الجزيرة. نمت هاتان المدنيتان حيث هما خلال عصور طويلة. نشأتا على مهل حول حياة مركزها المعبد، دارجتين عن زراعة بدائية. ثم قام الملوك الكهنة والملوك الآلهة يجمعون شمل دول المدن الأولى تلك [١]، في إمبراطوريات. على أن رعاة الإغريق المتبربرين شقوا طريقهم جنوبا مغيرين على عالم كانت مدنيته قد أصبحت قصة طال بها العهد، إذ كانت الملاحة والزراعة وإقامة المدن المسورة والكتابة أمورا معروفة بها من قبل. فلم ينشئ الإغريق مدنية خاصة بهم، بل حطموا مدنية وأقاموا من أنقاضها وعلى أطلالها مدنية أخرى.

وذلك هو السبب الذي يرجع إليه عدم وجود مرحلة دولة معبد في سجل الإغريق [٢] ولا مرحلة الملوك الكهنة، بل وصل الإغريق مباشرة إلى نظام المدينة التي لم تنبت في الشرق إلا حول المعبد، فعزفوا من الشرق فكرة ارتباط المعبد بالمدينة وتسلموها منه لقمة سائغة. ولعل أشد ما أثر فيهم من مظاهر المدينة أسوارها. وإنا لفي ريب من أنهم جنحوا من فورهم إلى حياة المدينة ومقتضيات المواطنية. فكانوا في بادئ أمرهم يعيشون في قرى مفتوحة طلقة خارج أطلال المدن التي حطموها، ولكن النموذج كان ماثلاً أمام أعينهم لا يبرح يوحي إليهم ويذكّرهم. وطبيعي أنهم فكروا في المدينة في بادئ الأمر كموضع أمين لهم في زمان حافل بالمنازعات. كما فكروا في المعبد في غير فحص ولا تمحيص، بوصفه مظهرا طبيعيا للمدينة. انتقل إليهم هذا الميراث الذي ورثوه عن حضارة سابقة بينما لا تبرح ذكريات الآجام وتقاليدها قوية ماثلة بقوة في أذهانهم. واستولى على زمام البلاد النظام الاجتماعي القائم على الأبطال والذي تمجد الإلياذة ذكراه. ولم يلبث أن تكيف ليوفق بين نفسه وبين ما يحوطه من ظروف جديدة. وبمرور الأيام أصبح الإغريق أكثر تدينًا وأشد اعتقادا في الخرافات على حين استمرت عقائد المغلوبين حية وإن توارت عن الأنظار.

ولقد ذكرنا آنفًا أن التركيب الاجتماعي للآريين البدائيين كان نظاما ذا طبقتين مكونًا من النبلاء والعامة، ولم تكن الطبقتان منفصلتين انفصالاً شديدا إحداهما عن الأخرى. كان يقودهما في الحرب ملك لم يكن إلا كبير إحدى العائلات النبيلة وهو الزعيم المقدم بين نظرائه Primus inter pares. بانتصار الإغريق على السكان الأصليين وابتنائهم البلدان أضيف إلى هذا التنظيم الاجتماعي البسيط المزدوج الطبقات، طبقة دنيا من عمال المزارع وحذاق الصناع وغير حذاقهم، وهي في جل أمرها من العبيد. على أن المجتمعات الإغريقية لم تكن بأجمعها من هذا الطراز القائم على الفتح. فكان بعضها مدنًا من "اللاجئين" تضم وتمثل مجتمعات محطمة خاضعة، ولم يكن بهذه المدن الأخيرة أية واحدة من الطبقات الدنيا المكونة من السكان الأصليين.

---

(١) دولة المدينة City State ويسميها بعض المؤرخين المدينة الحكومية. (المترجم).

(٢) دولة المعبد Temple state: دولة مركزها أحد المعابد ويرأسها الكهنة. (المترجم).

وفي كثير من الحالات السابقة كان من تبقى من السكان الأقدمين يكونون طبقة محكومة تتمثل في رقيق الدولة بوجه عام كما هو الحال في طائفة الهيلوطيين في إسبرطة، وأصبح النبلاء والعامة أصحاب الأراضي وأعيان الزراع. وكانوا هم المديرين لحركة بناء السفن والمشتغلين بالتجارة. على أن بعض المواطنين الأحرار الأشد فقرا احترفوا الفنون والصناعات الآلية، وكانوا – كما سبق أن لاحظنا – لا يأنفون حتى الاشتغال بالتجديف في إحدى السفن مقابل أجر معلوم. أما أولئك الكهنة الذين كانوا في العالم الإغريقي فهم إما سدنة للمقاصير المقدسة والمعابد أو موظفون يقومون بتقديم القرابين. واعتبرهم أرسطو في كتابه "السياسة – Politics" قسما فرعيا محضا في طبقة الموظفين. وكان المواطن يشتغل في شبابه محاربا وفي كهولته حاكما وفي شيخوخته كاهنًا. وكانت طبقة الكهان بالمقارنة إلى الطبقة المعادلة لها في مصر وبابل صغيرة لا يعتد بها.

أما آلهة الإغريق الخلّص الأبطال فكانوا كما أسلفنا كائنات بشرية ممجدة، كما كانوا يعاملون في غير كثير خوف أو رهبة. ولكن كان يستتر وراء آلهة الغزاة الأحرار آلهة أخرى للشعوب المقهورة تجد من يتبعونها خلسة بين الأرقاء والنساء. ولم يكن منتظرا من الآلهة الآرية الأصلية أن تأتي بالمعجزات، أو أن تتصرف في حياة الناس، بيد أن بلاد الإغريق كانت شديدة التعلق باستشارة مهابط الوحي (Oracles) أو العرافين، شأنهم في ذلك شأن معظم العالم الشرقي في السنوات الألف السابقة للميلاد. وكانت دلفي (Delphi) شهيرة بنبوءاتها على وجه خاص. وفي ذلك يقول جلبرت مري: "عند ما يعجز أسن شيوخ القبيلة عن إخبارك وإرشادك بما يجدر بك أن تعمله، فإنك تذهب إلى الأموات الميامين، إن مهابط النبوءات جميعها عند قبور الأبطال، فهم يطلعونك على المقدور (Themis) [1] وما يجدر بك أن تعمله، ويكشفون لك عن إرادة ا على حد قول رجال الدين اليوم".

ولم يكن كهنة هذه المعابد وكاهناتها يكونون طبقة واحدة، كما أنهم كطبقة لم يكونوا يمارسون أية سلطة في البلاد إذ الواقع أن قوام الدولة الإغريقية كله هو النبلاء والعامة الأحرار، وهما طبقتان اندمجتا في بعض الحالات في هيئة واحدة مشتركة من المواطنين. وفي كثير من الحالات وبخاصة في دول المدن الكبرى، كان عدد العبيد الأرقاء وعدد الغرباء غير المتمتعين بالحقوق يفوق عدد المواطنين الأحرار إلى حد كبير. على أن الدولة في نظرهم لم تكن لتقوم إلا عند تفضل منهم وتكرم، إذ هي موجودة من الناحية القانونية من أجل الهيئة المختارة، هيئة المواطنين الأحرار وحدهم، وهي حرة في أن تتسامح أو لا تتسامح مع الدخيل والرقيق. ولكن لم يكن لهؤلاء أي صوت قانوني في نوع المعاملة التي يلقون، الأمر الذي يجعل معاملتهم لا تفترق عما لو كانوا يعيشون في ظل أي نظام استبدادي.

وغني عن البيان أن هذا تكوين اجتماعي يختلف اختلافًا بعيدا عنه في النظم الملكية الشرقية. والأهمية الكبرى التي كان ينفرد بها المواطن الإغريقي الحر تذكرنا بعض الشيء بالأهمية الماحقة الساحقة التي كان يستمتع بها "أبناء إسرائيل" في الدولة اليهودية الأخيرة. بيد أن الجانب الإغريقي خلو من كل معادل للأنبياء والكهان، ومن فكرة وجود إله واحد مثل "يهوه" له السيطرة والسلطان على كل شيء.

([1]) Themis كلمة يونانية معناها القانون الوضعي أو العرف أو المقدور. (المترجم).

وهناك وجه آخر للتباين بين الدول الإغريقية وبين أي من المجتمعات الإنسانية التي وجهنا إليها اهتمامنـا حتى الآن، هو انقسامها المستمر الذي استعصى علاجه. ومدنيات مصر وسومر والصين ومعها دون ريـب مدنية شمال الهند أيضا ابتدأت كلها في شكل عدد من دول المدن المستقلة، كل واحدة منها تتكون من مدينـة يحيط بها بضعة أميال من القرى الزراعية التابعة ومن الأراضي والمزارع. ولكنها خرجت من هذا الطـور عن سبيل عملية تماسك التأمت بها أجزاؤها فأصبحت ممالك وإمبراطوريات. ولكن الإغريق لم يتحدوا قـط حتى انصرم تاريخهم المستقل بأكمله؛ ويرجع هذا بوجه عام إلى الظروف الجغرافية التي كانوا يعيشون فيها. فإن بلاد الإغريق قطر مجزأ إلى عدد كبير من الوديان، تقطعت أوصاله بفعل كتل جبلية وخلجان من البحر جعلت الاتصال فيما بينها أمرا عسير المنال. بل لقد بلغ من عسر الاتصال أنه قل من المدن من اسـتطاعت أن تحتفظ بكثير من المدن الأخرى تحت سيطرتها أي مدة من الزمان. وفضلاً عن ذلك فإن الكثير من المدن الإغريقية كانت تقع في جزائر، وكانت متناثرة على امتداد سواحل شاسعة. وظلت أكبر دول المدن الإغريقية حتى النهاية أصغر من كثير من المقاطعات الإنجليزية. وكانت مساحة بعضها لا تتجاوز بضعة أميال مربعة. وأثينا وهي واحدة من أكبر المدن الإغريقية كان فيها من السكان في أوج عزها عدد ربما بلغ ثلث المليـون. وقل من المدن الإغريقية الأخرى من تخطى سكانه الخمسين ألفًا. وكان نصف هذا العـدد أو مـا يتجـاوز النصف من الرقيق والغرباء، وكان ثلثا هيئة الأحرار من النساء والأطفال.

٣- الملكية والأرستقراطية
والديمقراطية في بلاد الإغريق

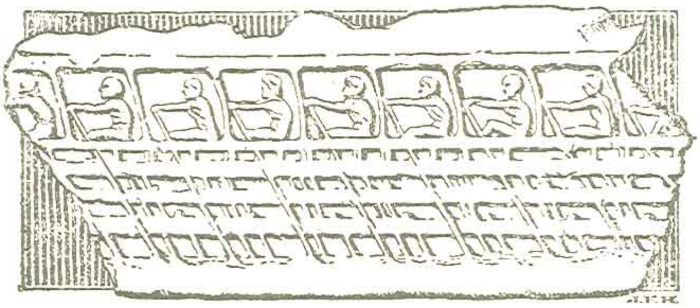
كانت حكومة دول المدن هذه تختلف في طبيعتها اختلافًا بينًا. فإن الإغريق عندما استقروا بعد فتوحاتهم احتفظوا إلى حين بحكم ملوكهم، ولكن هذه الممالك ما لبثت أن عادت رويدا رويدا إلى حكم الطبقة الأرستقراطية. وفي إسبرطة أي (لاكيدايمون) كان الملوك لا يزالون متمتعين بمنزلة رفيعة في القرن السادس ق. م. وكان لأهل لاكيدايمون نظام غريب في بابه ينطوي على ملكية ثنائية، إذ يولون عليهم ملكين من أسرتين ملكيتين مختلفتين يحكمان معا.

على أن معظم دول المدن الإغريقية أصبحت جمهوريات أرستقراطية قبل حلول القرن السادس بزمان بعيد. ومهما يكن من شيء، فإن غالب العائلات التي تتولى الحكم بالوراثة يتجلى فيها على الدوام نزوع إلى التواني وعدم الكفاية ومصيرها هو التدهور والزوال طال بها الزمن أو قصر. ولما أن خرج الإغريق إلى البحر وأسسوا المستقرات وانتشرت تجارتهم، برزت بينهم عائلات غنية جديدة، فزحزحت العائلات القديمة عن مكانتها وتسلمت مقاليد الأمور شخصيات جديدة. وأصبح هؤلاء الأغنياء الحديثو الثراء أعضاء في طبقة حاكمة كبيرة أقامت ضربا من الحكومة يعرف بالأوليجركية – تمييزا له من الأرستقراطية – وإن كان المعنى الدقيق للفظ الأوليجركية (وهو حكومة الأقلية) يجب أن يشمل الأرستقراطية الوراثية كحالة خاصة.

وفي كثير من المدن كان أشخاص من ذوي النشاط الفذ ينتهزون فرصة حدوث شيء من النزاع الاجتماعي، أو وقوع شيء من المظالم على بعض الطبقات ويقبضون على زمام سلطة ذات طابع استثنائي إلى حد ما بالفعل في الدولة، وهذا المزج بين الشخصية والفرصة قد حدث بالفعل في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال، حيث يسمى الرجال الذين يمارسون أنواعا مختلفة من السلطات غير الرسمية باسم "الرؤساء Bosses " وكان أمثال هؤلاء يسمون في بلاد الإغريق باسم "الطغاة Tyrants" على أن الطاغية يوشك أن يكون أكثر من الرئيس نفوذا وسلطانًا، فقد كان يعترف به ملكًا، كما أنه كان يطالب بسلطات الملك. ثم إن الرئيس في العصر الحديث يستتر وراء بعض الأوضاع القانونية التي "استحوذ عليها"، ويستخدمها في أغراضه الخاصة. وكان الناس يفرقون بين الطغاة والملوك الذين كانوا يدعون لأنفسهم بعض الحقوق، أعني ضربا من الأسبقية العائلية في أمور من أمثال تولي الحكم. وربما ناصر هؤلاء الطغاة الطبقات الفقيرة المظلومة. مثال ذلك أن بيزاستراتوس الذي كان طاغية من طغاة أثينا وتولى الحكم مدة تتخللها فترتان نفي أثناءهما ما بين ٥٦٠، ٥٢٧ ق. م.، كان يؤيده الأثينيون من سكان التلال الذين أضناهم الفقر، وربما حدث في بعض الأحيان كما حصل في صقلية الإغريقية أن وقف الطغاة في صف الأغنياء ضد الفقراء. وعندما أخذ الفرس فيما بعد في إخضاع المدن الإغريقية بآسيا الصغرى أقاموا عليها طغاة يناصرونهم.

وكان أرسطو المعلم الفيلسوف العظيم- وقد ولد أيام الملكية الوراثية المقدونية، وقضى بضع سنين مربيـا لابن الملك، - يفرق في كتابه "السياسة" بين الملوك الذين يحكمون بحق طبيعي مسلم به، كملك مقدونيا الذي كان يعمل في خدمته، وبين الطغاة الذين يحكمون بغير رضاء المحكومين. والواقع أن من العسير علينـا أن نتصور وجود طاغية يحكم بغير رضاء الكثير من رعاياه ودون مشاركة العدد الجوهري مـنهم المشـاركة الفعالة، وإن إخلاص "ملوكهم الحقيقيين" ونكرانهم الذات، قد عرفا بأنهما يثيران الامتعاض والتشـكك. وقـد استطاع أرسطو أيضا أن يقول إنه بينما يحكم الملك من أجل خير الدولة، كان الطاغيـة يحكـم لمصـلحته الخاصة. وكان أرسطو في هذا الموضوع، كما كان في قدرته على اعتبار الرق أمرا طبيعيا واعتبار النسـاء غير جديرات بالحرية والحقوق السياسية – متسقًا مع سير الحوادث حوله.

وكان الشكل الثالث للحكومة التي انتشرت في بلاد الإغريق انتشارا متزايدا في القرون السادس والخامس والرابع ق. م. معروفًا باسم الديمقراطية. ولما كان العالم المعاصر فـي هـذه الأيـام لا يفتـأ يـتكلم عـن الديمقراطية، وإذ إن الفكرة الحديثة عن الديمقراطية إنما هي شيء يختلف اختلافًا بينًا عن ديموقراطيـة دول المدن الإغريقية. فمن الخير إذن أن نعمد إلى أشد الوضوح في معنى الديمقراطية في بلاد الإغريـق، فقـد كانت الديموقراطية عند ذاك حكومة تديرها العامة، وهم الديموس (Demos). وكانت حكومة تديرها هيئـة المواطنين جمعاء وتديرها الكثرة تمييزا لها عن القلة. ولكن على القارئ العصري أن يلحظ كلمة (مـواطن) هذه فقد كان الرقيق مستبعدا منهـا، وكـان الرجل المعتوق "المحـرر" مسـتبعدا منهـا، وكذلك الغريب، وحتى الإغريقي المولود في المدينة والذي نزح أبوه إليها من مسافة ثمانية أو عشرة أميال عن المدينة التي تقـع وراء أحد الرءوس الممتدة في البحر، كان يسـتبعد



من عداد المواطنين. وكانت الديمقراطيات الأولى (وإن لم تكن كلها) تشترط في المـواطن [1] مـؤهلاً مـن الملكية العقارية، وكان قوام الملكية العقارية في تلك الأيام هو الأرض. على أنهم مـا لبثـوا فيمـا بعـد أن تسامحوا في هذا الشرط. بيد أن القارئ المعاصر سوف يدرك أنه يلمس هاهنـا شـيئًا مختلفًـا جـدا عـن الديمقراطية الحديثة. وفي نهاية القرن الخامس ق. م. كان هذا المؤهل العقاري قد ألغي في أثينا مثلاً. علـى أن بريكليس وهو السياسي الأثيني العظيم، الذي سوف نتكلم فيما بعد عنه في شيء من الإسهاب – سن قانونًا (٤٥١ ق. م.) يقصر حق المواطنية على أولئك الذين يستطيعون أن يثبتوا لأنفسهم الانحدار من أبوين أثينيين خالصين. ومن ثم يكون حال هؤلاء المواطنين الأحرار في الديمقراطيات الإغريقية كحالهم في الأوليجركيات تماما، إذ يؤلفون "هيئة متماسكة" تتولى أحيانًا – كما في حالة أثينا في أيام عظمتها – حكم عدد كبيـر مـن السكان الأرقاء والغرباء.

---

(1) المواطن Citizen هو كل حر يستمتع بالمواطنية أي الحقوق والواجبات المدنية كاملة. وإن كان الأولى أن يسمى بالممادن نظرا لطبيعة أوطان الإغريق المكونة من مدن. (المترجم).

فلو أن سياسيا عصريا عامر الذهن بفكرة الديمقراطية على وجهها الحديث المختلف تماما والقائلـة بـأن الديمقراطية في أكمل أوضاعها معناها أن لكل رجل بالغ وامرأة بالغة صوتًا في الحكومة، لو أنـه رد فجـأة إلى الديمقراطية الإغريقية المتطرفة لعدها ضربا من الأوليجركية. والفرق الحقيقي الوحيد بين الأوليجركيـة الإغريقية والديمقراطية الإغريقية هو أنه في الأولى لم يكن للمواطنين الأحرار الأفقرين والأقل أهمية صوت في الحكومة، بينما كان لكل مواطن حر في الثانية صوت. ويبين أرسطو في كتابه "السياسة" بغايـة الجـلاء النتيجة العملية لهذا الفارق. إذ كانت الضرائب خفيفة العبء على الأغنياء في الأوليجركيات. بينمـا كانـت الديمقراطيات من الناحية الأخرى تفرض الضرائب على الأغنياء، ويدفع في العادة للمواطن الحر المعدم مـا يقيم أوده من غذاء وكساء وغير ذلك من نفقات خاصة. وفي أثينا كان للمواطنين الأحرار جعل يـدفع لهـم، حتى على حضور مجالس العامة. على أن العامة والدهماء ممن هم خارج نطاق الطائفة السعيدة المحدودة من المواطنين الأحرار، كانوا يكدحون ويصدعون بما يؤمرون. فإن رغب أحدهم في حماية القانون، كان عليـه أن يبحث عن مواطن حر يتولى الدفاع عنه. إذ لم يكن لغير المواطنين الأحرار أي كيان أو حق في الالتجاء إلى المحاكم. أما الفكرة العصرية القائلة بأن أي فرد في الدولة يجب أن يكون مواطنًا حرا فلو أنها عرضـت على الديمقراطيين ذوي الامتيازات في أثينا لأزعجتهم كل الإزعاج.

وقد نشأت عن جعل الدولة حكرا موقوفًا على المواطنين لطبقة الأحرار نتيجة بينة واحدة، هي أن وطنيـة هؤلاء القوم الممتازين اتخذت شكلاً حادا ضيقًا. فكانوا يكونون الأحلاف مع "دول مدن" أخرى، ولكـنهم لـم يندمجوا أبدا بعضهم مع بعض، إذ كانوا في ذلك قضاء على كل امتياز يستمتعون به كما أن الحدود الجغرافية الضيقة لتلك الدول الإغريقية الصغيرة زادت شعورهم حدة وإرهافًا. وكان مما يشد من أزر حـب الرجـل لوطنه حبه لبلدته وهي مسقط رأسه، ولدينه وبيته، إذ كانت هذه جميعا أمرا واحدا. وبدهي أن الأرقـاء لـم يكونوا يشاطرونهم تلك المشاعر. وفي الولايات الأوليجركية كانت الطبقة المهيضة المحرومـة فـي الكثيـر الغالب تتغاضى عن كراهيتها للأجانب لشدة كراهيتها للطبقة التي تسومها العذاب في أرض الـوطن. ولكـن الوطنية الإغريقية في صميمها كانت عاطفة شخصية ذات حدة خطرة تبعث الإلهام، فهي كالحب المرفوض، سهلة التحول إلى شيء أقرب ما يكون إلى الكراهية. والمنفى الإغريقي كان على شاكلة المهاجر الفرنسي أو الروسي في استعداده لمعاملة بلاده المحبوبة معاملة لا تخلو من الخشونة لكي يقيها شر شياطين الإنس الذين تملكوها وأخرجوه هو من ربوعها.

وقد نظمت أثينا في القرن الخامس ق. م. علاقاتها بعدد من دول المدن الإغريقية الأخرى فأنشأت بـذلك نظاما، كثيرا ما يتحدث عنه المؤرخون باسم الإمبراطورية الأثينية. على أن دول المدن الأخـرى احتفظـت جميعا بحكوماتها الخاصة. وهناك "حقيقة جديدة" أضافتها هذه الإمبراطورية الأثينية، وهي القضـاء المبـرم على القرصنة، وثمة حقيقة أخرى وهي إقامة نظام هو ضرب من القانون الدولي. نعم كان القانون في واقـع الأمر هو القانون الأثيني، ولكن سهل بفضله إقامة القضايا ونشر لواء العدالة بين مواطنين ينتمون إلـى دول الحلف المختلفة. وبدهي أن هذا أمر لم يكن ميسورا من قبل.

كانت الإمبراطورية الأثينية في حقيقة الأمر وليدة حلف دفاع مشترك ضد فارس، وكانـت قاعدتـه فـي الأصل جزيرة ديلوس. وقد ساهم الحلفاء في رصيد مالي مشترك أو دعوة خزانة في تلك الجزيرة، ثم نقـل رصيد ديلوس إلى أثينا لأنه كان هناك عرضة للغارات الفارسية المحتملة الوقوع. وسرعان ما تقدمت مدينـة في أثر الأخرى تعرض دفعات من المال عوضا عن الخدمة العسكرية مما أفضى إلى أن أصبحت أثينا آخر الأمر تقوم بعبء العمل كله تقريبا، وتتلقى المال منهن جميعا تقريبا، ويعينها في النهوض بذلك العبء جزيرة أو اثنتان من كبريات الجزر. وبهذه الطريقة تحول "الحلف" بالتدريج إلى إمبراطورية. على أن مواطني الدول المتحالفة – اللهم إلا حيث كانت هناك معاهدات خاصة تنظم تبادل التزاوج وما شابهه – لبثوا مـن الناحيـة العملية أجانب بعضهم عن البعض. وقد وقع على كواهل أفقر المواطنين بوجه خاص في أثينا معظم أعبـاء هذه الإمبراطورية بما كانوا يبذلون من جهود جبارة وخدمات شخصية متواصلة. وكان كل مواطن عرضـة للخدمة العسكرية داخل موطنه أو خارجه بين سن الثامنة عشرة والستين. وكان يطلب آونة للذود عن موطنه في شئون أثينية محضة، ويتصدى آنًا آخر للذب عن مدن الإمبراطورية التي افتدى مواطنوها أنفسهم بالمال. ولم يكن هناك على الراجح بين أفراد مجلس الأحرار الأثيني رجل واحد تزيد سنه على الخامسة والعشرين لم يتمرس بالحرب في حملات عديدة في نواح مختلفة من البحر المتوسط أو البحر الأسود، ولم يكن يتوقـع أن يعود إلى الخدمة العسكرية ثانية. وخصوم الاستعمار العصري يأخذون عليه أنه استغلال الأغنياء للعالم، على أن الاستعمار الأثيني كان استغلال العالم على يد المواطنين من فقراء الأثينيين.

وثم فارق آخر عن الأحوال والظروف السائدة في العصر الحديث، يرجع إلى حجم دول المدن الإغريقيـة الصغير، وهو أنه كان لكل مواطن في النظام الديمقراطي الحق فـي حضـور مجلـس الأحـرار والـتكلم والتصويت فيه. وكان فحوى هذا أن يلتئم لحل المدن جمع لا يضم سوى بضع مئات من الناس. فلـم يكـن عددهم في أكبرها يزيد على بضع آلاف من المواطنين. وليس شيء من هذا القبيل بممكن فـي ديمقراطيـة عصرية فيها من الأصوات ما قد يصل عدده إلى ملايين عديدة. ويلاحظ أن صوت المواطن العصري فـي الشئون العامة مقصور على حقه في التصويت لواحد أو لآخر من مرشحي الأحزاب الـذين يقـدمون إليـه. ومفروض عند ذاك "موافقة" الناخب أو الناخبة على الحكومة التي يتمخض عنها ذلك الانتخاب. وهذا أرسطو الذي لو أنه عاصرنا لأثلجت فؤاده الأساليب الانتخابية التي تستخدمها ديمقراطياتنا العصرية، يوضح بطريقة جد بارعة، كيف أن طبقة المواطنين من الفلاحين الذين نأت مساكنهم يمكن فـي الديمقراطيـة القديمـة أن يحرموا حرمانًا فعليا من حقوقهم المدنية بسبب الإكثار من دعوة مجلس الأحرار دعوة متداركة متكـررة لا يستطيعون معها أن يحضروا الجلسات بانتظام. وفي الديمقراطيات الإغريقية المتأخرة (في القرن الخـامس) كان تعيين الموظفين العموميين، فيما عدا القواد الذين يجب أن تتوافر فيهم دراية خاصة جدا، يـتم بالقرعـة ورمي القداح، إذ كان المفروض أن في هذه الوسيلة ضمانًا يقي الهيئة العامة للمواطنين أرباب الامتيازات من دوام تسلط الأغنياء وذوي النفوذ والمبرزين من أهل الكفاية.

كان لدى بعض الديمقراطيات (مثل أثينا وميليتوس) نظام يسمى النفي السياسي (Ostracism) وهي كلمة مشتقة من أوستراكون (Ostrakon) ومعناها الشقفة إذ كان الناخب يستطيع إبان المنازعـات والأزمـات أن يكتب اسم أحد المواطنين على قطعة من الشقافة أو المحار فيصدر طبقًا لذلك قرار إما بإبعاد ذلك المـواطن لمدة عشر سنوات أو عدم إبعاده. وقد يبدو هذا للقارئ العصري نظاما قائما على الحسد، على أن الحسد لـم يكن صفته الجوهرية. إذ الواقع فيما يقول جلبرت مري إنه كان وسيلة للوصول إلى قرار حاسم في مسـألة انقسام الشعور السياسي بصددها انقساما ينذر بوقوع أزمة سياسية لا سبيل إلى حلها. وكان في الديمقراطيات الإغريقية أحزاب وزعماء أحزاب، ولكن لم يكن لديهم حكومة منتظمة بيدها مقاليد الحكم. ولم تكـن لـديهم معارضة منتظمة، فلم يكن هنالك إذن أية وسيلة لتنفيذ سياسة ما، وإن كانت هي السياسة التي تروق في نظر الشعب – إذا انبرى زعيم قوي أو جماعة قوية لمناهضتها. على أن النفي السياسي كان يلزم أقـل الزعمـاء الكبار منزلة في قلوب الشعب وأقلهم استمتاعا بثقته أن ينسحب من الميدان إلى حين دون أن يلحق أي ضرر بشرفه أو ممتلكاته.

وقد خلد نظام النفي السياسي هذا اسم عضو خامل من أعضاء الديمقراطية الأثينية يكاد يكون أميا؛ ذلك أن شخصا اسمه أريستيديس قد ذاع صيته في المحاكم لاستقامته ولمناصرته العدل والقانون – حدث ذات مرة أن نشب بينه وبين ثيموستوكليس نزاع بشأن موضوع يتعلق بالسياسة البحرية إذ كان أريستيديس مـن أنصـار تقوية الجيش على حين كان ثيموستوكليس من أنصار النهوض بالبحرية، فكان الجو منذرا بخطـب فـادح، وكان أن لجأت المدينة إلى النفي السياسي لحسم هذا النزاع بينهما. ويقص علينا بلوتارك أنـه بينمـا كـان أريستيديس يتجول في شوارع المدينة ساعة التصويت، استوقفه مواطن غريـب مـن الأصـقاع الزراعيـة المحيطة بالمدينة لا يعرف فن الكتابة وطلب إليه أن يكتب اسمه هو نفسه على قطعة من الشقافة قدمها إليه.

فسأله أريستيديس قائلاً: "ولماذا؟ فهل حدث قط أن أساء إليك أريستيديس؟".

فقال المواطن: "كلا، كلا، فإن عيني لم تقعا عليه أبدا ولكنني مع الأسف برمت جدا بما وصل إلى سمعي من أنه يدعى أريستيديس العادل".

وعند ذلك كما يقول بلوتارك – كتب أريستيديس ما أشار به الرجل دون أن يطيل عليه الكلام.

ومتى فهم المرء المغزى الحقيقي لهذه الدساتير الإغريقية وفهم بوجه خاص مسألة حصر جميع السـلطات سواء أكان ذلك في الديمقراطيات أم الأوليجركيات في يد طبقة ذات امتياز محلي، أدرك كيـف كـان مـن المحال قيام أي اتحاد فعال بين مئات المدن الإغريقية المتناثرة حول إقليم البحر المتوسط، أو حتى وجود أي تعاون منتج بينها يرمي إلى غاية مشتركة. فإن كل مدينة كانت في قبضة فئة قليلة أو بضع مئات من الرجال الذين كان أهم ما يعنون به ويحرصون على تحقيقه في حياتهم هو أن تظل مدينتهم منفصـلة عـن المـدن الأخرى. ولم تكن في العالم قوة تستطيع أن توحد الإغريق غير الغزو الخارجي. ولم تتحقق لهـم أي وحـدة سياسية حتى غزيت بلاد الإغريق، فلما أن غزيت بلادهم آخر الأمر، كان غزوها كاملاً بحيـث لـم تجعـل لوحدتهم أدنى قيمة حتى لهم أنفسهم، إذ اجتمعوا على وحدة الاستسلام والخضوع.

ومع ذلك فقد كان هناك على الدوام مقومات لوحدة بين الإغريق كافة في بعض التقاليد السـائدة بيـنهم، دعامتها لغة مشتركة وكتابة مشتركة وتراث مشترك من ملاحم الأبطال، هذا إلى اختلاطهم المتواصل الـذي يسره موقع دولهم من البحر، عدا روابط دينية بأعيانها كانت تدعو إلى توحيد البلاد. ولـو تأملـت بعـض المقاصير المقدسة – كمقصورة الإله أبولو بجزيرة ديلوس ومعبد دلفي مثلاً – لرأيت أن ما كانت تلقاه مـن تأييد وعون لم يقتصر أمره على دول بمفردها بل تجاوز ذلك إلى اتحـادات مـن الـدول "أو أمفكتيونـات (Amphictyonies) (والأمفكتيون هو حلف الجيران)، وهي اتحادات أمست واسعة النطاق جدا فـي حالـة "حلف دلفي" وما ماثله من أحلاف. وكان الحلف يحمي المقصورة المقدسة ويحافظ على سلامة من يؤمها من حجاج ويصون الطرق المؤدية إليها ويحفظ السلام إبان الأعياد الخاصة، ويسن قواعد معينة للحد من لجـوء أعضائه إلى الحرب. كما أن اتحاد ديلوس كان له بوجه خاص فضل القضاء على القرصنة. وثمـة رابطـة أخرى للاتحاد الهليني أكثر أهمية مما سلف وهي الألعاب الأولمبية، التي كانت تعقد في أولمبيا كـل أربـع سنوات. وكان سباق الجري والملاكمة والمصارعة وقذف الرمح وقذف القرص والقفز وسـباق المركبـات والخيول أهم الألعاب. وكانوا يحتفظون بسجل للفائزين وللزوار الممتازين، وظلت هذه الألعاب منذ ٧٧٦ ق. م. تقام بانتظام مدة تربو على ألف سنة. وكان أثرها كبيرا في الاحتفاظ بذلك الإحساس بوجود حياة إغريقيـة مشتركة ذات طابع هليني عام، يسمو على السياسات الضيقة التي تجري على سنتها دول المدن. وتعتبر ٧٧٦ ق. م. وهي أول سنة عقدت فيها الألعاب الأولمبية نقطة بداية قيمة في حساب التاريخ الإغريقي.

على أن أمثال تلك الروابط القائمة على العواطف وروح التـآلف كانـت قليلـة الجـدوى إزاء "الـروح الانفصالية" الحادة التي ترجع إلى النظم السياسية الإغريقية. وفي طوق طالب العلم أن يحس لـدى مطالعتـه "تاريخ هيرودوت" بمبلغ الحدة والعنف والإصرار واللجاجة في المنازعات التي ألمت بالعالم الإغريقـي فـي غمرة حرب مزمنة. وفي الأيام الخوالي (أي حتى القرن السادس ق. م. على وجه التقريب) كانت تسود بلاد الإغريق عائلات كبيرة نوعا ما احتفظت بشيء من نظام الدوارات الآري القديم بكل ما يلازمه من شـعور قوي واعتداد بالعشيرة. ومن قدرة على مداومة الاحتفاظ بالمنازعات وإن طال بها الأمد. ويدور تاريخ أثينـا مدى سنين عديدة حول منازعات حدثت بين عائلتين عظيمتين هما عائلتا الألكمايونيديين (Alcmaeonidae) والبيزستراديين (Peisistratidae) والأخيرة تعادل الأولى في الأرستقراطية بيد أنها أسست صـرح قوتهـا على مساندة الطبقة الفقيرة من الشعب وعلى استغلالها لما يحل بهم من الحيف والمظالم. وفيما عقب ذلك من الزمان أي في القرنين السادس والخامس أدى تحديد النسل ونقص أفراد العائلات إلى اثنين أو ثلاثة (وهـي عملية لحظها أرسطو وإن لم يدرك لها سببا) – إلى اختفاء العشائر الأرستقراطية القديمة. وكانت الحـروب التي وقعت بعد ذلك راجعة إلى المنافسات التجارية وإلى بعض المظالم التي سببها وأثارها بضع نفـر مـن المغامرين أكثر منها إلى الأحقاد العائلية وروح الأخذ بالثأر.

ومن اليسير علينا الآن أن نفهم في ضوء هذه الروح الانفصالية الحادة لدى الإغريق، كيف سـهل وقـوع الأيونيين بآسيا وبالجزيرة تحت سلطة مملكة ليديا أول الأمر ثم سلطان الفرس عنـدما قـام قـورش بخلـع كرويسوس ملك ليديا عن عرشه. ثم هب الأيونيون ثائرين وكأنهم لم يثوروا إلا لكي يعود إليهم الفرس ثانيـة بالبطش والإخضاع ثم جاء دور بلاد الإغريق الأوروبية فكان مما يدعو إلى الدهشة، بـل ممـا دهـش لـه الإغريق أنفسهم أن وجدوا أن بلاد الإغريق نفسها لم تقع تحت سلطان الفرس، أولئك الآريـين المتبربـرين قاهري المدنيات القديمة وسادتها في آسيا الغربية. على أننا قبل أن نتحدث عن هذا الكفاح نرى لزاما علينـا أن نلقى نظرة إلى هؤلاء الآسيويين الذين صمد الإغريق أمامهم ووقفوا لهم بالمرصاد وعلى الأخص للميديين والفرس، الذين ما كادت تحل بهم سنة ٥٣٨ ق. م. حتى كانوا قد استولوا بالفعل على حضارتي آشور وبابل القديمتين وكانوا على وشك أن يقهروا مصر.

٤- مملكة ليديا

سنحت لنا فيما سلف الفرصة لذكر مملكة ليديا وربما كان من المستحسن أن ندلي إليك ها هنا بنبذة موجزة عن الليديين قبل أن نواصل الحديث في قصتنا. وربما كان السكان الأصليون في معظم أجزاء آسيا الصغرى يمتون بالقرابة إلى السكان الأصليين ببلاد الإغريق وكريت؛ فإن كان الحال كذلك فلقد كانوا من جنس البحر المتوسط ولعلهم فرع آخر من أولئك القوم الضاربين إلى السمرة الذين هم أعم انتشارا وأقدم عهدا وأقرب إلى الجنس الأساسي، والذين نشأ منهم جنس البحر المتوسط في الغرب، والجنس الدرافيدي في الشرق. وهناك بقايا من نفس نوع الفن الذي امتازت به كنوسوس وميكيناي وجدت متناثرة في نواحي آسيا الصغرى. ولكن كما أن الإغريق النورديين انسابوا جنوبا إلى بلاد الإغريق فغزوها واختلطوا بالسكان الأصليين، فإن قبائل أخرى نوردية تمتّ إليها بصلة القربى فعلت ذلك سواء بسواء فتدفقت عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى.

وقد تغلبت هذه الشعوب الآرية على بعض المناطق تماما وصارت تكون الشطر الأكبر من السكان مع احتفاظها بلغتها الآرية، ذلك شأن الفريجيين وهم شعب لغته تكاد تكون شديدة الصلة بلغة الإغريق، شدة صلة اللغة المقدونية بالإغريقية. على أن بعض المناطق الأخرى لم يعمها الآريون إلى مثل هذا الحد: ففي ليديا حافظ الجنس الأصلي على نفسه وعلى لغته، فلم يهن ولم يخضع. وكان الليديون شعبا غير آري يتكلمون لغة غير آرية، لا يعرف منها في الوقت الحاضر سوى بضع كلمات قليلة. وكانت ساردیس (Sardis) عاصمتهم.

وكانت ديانتهم غير آرية كذلك. فإنهم كانوا يعبدون إلهة أنثى هي الأم العظيمة. وكذلك الفرجيون، فإنهم وإن احتفظوا بلغتهم شبه الإغريقية، انتقلت إليهم عدوى الديانة الغامضة ذات الأسرار الخفية. والواقع أن قدرا كبيرا من الديانات ذات الأسرار الخفية والطقوس السرية التي عمت أثينا في تاريخ تال، كانت فريجية (إن لم تكن تراقية) في أصلها.

وقد احتفظ الليديون بادئ الأمر بساحل آسيا الصغرى الغربي، ولكنهم طردوا منه نتيجة لرسوخ قدم الإغريق الأيونيين الذين جاءوا بطريق البحر وأسسوا المدن. ومع ذلك فإن هذه المدن الأيونية الإغريقية أخضعها فيما بعد الملوك الليديون.

وتاريخ بلاد ليديا هذه لا يزال غامضا غير معروف معرفة واضحة، ولو أنه كان معروفًا بالفعل ما بلغت أهميته قدرا يجعله جديرا بأن يذكر في هذه المعالم التاريخية. على أن القرن الثامن ق. م. يظهر لنا اسم ملك جدير بالذكر يدعى جيجيس. فإن البلاد تعرضت في أيامه لغزو آري آخر؛ ذلك أن قبائل مترحلة تسمى الكمريين جاءت تتدفق عبر آسيا الصغرى، فردهم جيجيس وابنه وحفيده بغاية الجهد والمشقة. واستولى هؤلاء البرابرة الهمج على مدينة ساردیس وأحرقوها مرتين. ويذكر التاريخ أن جيجيس دفع الجزية لساردانا بالوس (Sardanapalus). وهذا أمر يربط ما بينه وبين فكراتنا العامة عن تاريخ مملكة آشور وبنى إسرائيل ومصر. ثم ثار جيجيس فيما بعد ضد مملكة آشور، وأرسل الجنود لمساعدة أبسماتيك الأول في تحرير مصر من عبوديتها القصيرة الأجل للآشوريين.

وإلى ألياتيس (Alyattes) حفيد جيجيس يرجع الفضل في جعل ليديا قوة يعتد بها. وقد ظل في الملك سبع سنين، وهو الذي أخضع غالبية المدن الأيونية في آسيا الصغرى لحكمه. وأصبحت الـبلاد مركـزا لتجـارة عظيمة بين آسيا وأوربا وكانت على الدوام بلادا منتجة غنية بالذهب. واشتهر الملك الليدي بأنه أغنى ملـوك آسيا. وكان هناك بين البحرين الأسود والمتوسط وبين الشرق والغـرب حركـة غـدو ورواح لا تنقطـع. واشتهرت ليديا بأنها أولى أقطار العالم في إنتاج النقود المسكوكة، وفي إعداد الخانات (الفنـادق) للمسـافرين والتجار، ينزلون بها ويجدون وسائل الراحة والاستجمام. ويلوح أن الأسرة المالكة الليدية كانت أسرة تجارية من طراز أسرة مينوس في كريت وقد بلغ نظام المصارف (البنوك) والمالية فيها شأوا لا باس به. وفي هـذا القدر الكفاية من أخبار ليديا نقدمه على سبيل التوطئة للقسم التالي.

٥- نهوض الفرس في الشرق

وعلى حين كانت سلسلة من الغزاة الناطقين بالآرية تدرج وتنتشر، على الشاكلة التي وصفناها، في بلاد الإغريق الأصلية وبلاد الإغريق العظمى (أي جنوب إيطاليا) وما حول شواطئ البحر الأسود، فإن هناك سلسلة أخرى من الشعوب الناطقة بالآرية ربما كان دمها النوردي الأصلي مختلطًا من قبل بأحد العناصر المغولية، قد أخذت تستقر وتنتشر في شمال وشرق الإمبراطوريات الآشورية والبابلية.

ولقد أسلفنا الكلام عن تشتت الشعوب النوردية الآرية على صورة تشابه شكل القوس في شمال البحر الأسود وبحر قزوين. والراجح أن هذا الطريق هو الذي ملكته الأجناس الهندية الفارسية الناطقة بالآرية في نزولها التدريجي إلى ما يكون الآن بلاد فارس، وانتشرت شرقًا إلى الهند من ناحية (من نحو ٢٠٠٠ إلى ١٠٠٠ ق. م.) وازدادت من الناحية الأخرى وتكاثرت في المرتفعات الفارسية حتى بلغت من القوة حدا جعلها تهاجم مملكة آشور بادئ الأمر (٦٥٠ ق. م.) ثم بابل (٥٣٨ ق. م.).

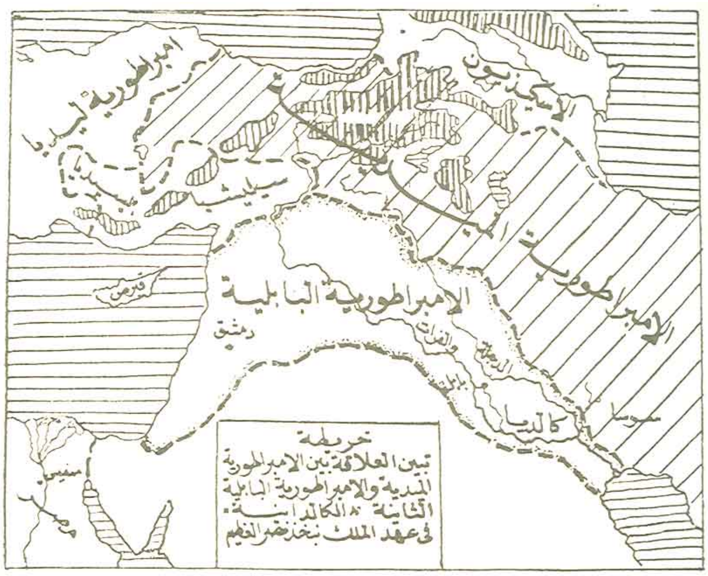
ويحيط الغموض الكثير بتغيرات المناخ التي كانت تحدث في أوربا وآسيا خلال عشرة الآلاف السنة الأخيرة. فإن ثلج العصر الجليدي الأخير تراجع تراجعا تدريجيا، وبذلك تحول سهل أوربا العظيم طوال فترة مديدة إلى سهوب وأحوال شبيهة بالبراري. ومنذ اثنا عشر ألفًا أو عشرة آلاف من السنين تقريبا كما يقدرون اليوم، كانت هذه الحالة آخذة في الزوال لتحل محلها الغابات والآجام. ولقد ذكرنا آنفًا كيف حدث نتيجة لهذه التغيرات، أن أخلي صيادو الحصان السوليوتريون (Solutreans) مكانهم لصائدي السمك المجدلينيين [١] (Magdalenias) ولصائدي غزال الغابات، كما أخلى هؤلاء أيضا مكانهم بدورهم لرعاة العصر الحجري الحديث وزراعه. ويلوح أن المناخ الأوربي لبث بضع آلاف من السنين أدفأ منه الآن. وكان هناك بحر عظيم يمتد من ساحل شبه جزيرة البلقان متوغلاً في آسيا الوسطى، ويصل امتداده شمالاً إلى وسط روسيا. وكان انحسار ذلك البحر وانكماشه وما نجم عن ذلك من اشتداد المناخ وقسوته في جنوب روسيا وآسيا الوسطى، معاصرا تماما لقيام المدنيات الأولى في وديان الأنهار ومتمشيا مع تطورها. ويبدو أن هناك حقائق كثيرة تومئ إلى وجود مناخ أكثر اعتدالاً في أوربا وآسيا الغربية، وتشير أيضا بشكل أقوى إلى ازدهار في حياة النبات والخضروات منذ أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف سنة خلت يفوق ما نشهده الآن. كانت هناك آنذاك غابات في آسيا الجنوبية وفي القطر الذي هو الآن التركستان الغربية، حيث تعم اليوم السهوب والصحارى. ومن ناحية أخرى كانت منطقة أورال وقزوين منذ مدة تتراوح بين ١٥٠٠ سنة و٢٠٠٠ سنة أجف فيما يرجح، كما كان هذان البحران أصغر منهما في الوقت الحاضر.

---

(١) راجع المجلد الأول ص ٨٩، ٩٣ الطبعة الثالثة.

ونلحظ في هذا الصدد أن تحتمس الثالث (في القرن الخامس عشر ق. م على وجه التقريب) صـاد فـي حملته التي امتدت إلى ما وراء الفرات قطيعا مكونًا من مائة وعشرين فيلا في ذلك الإقليم، وعدا ذلك فثمـة خنجر إيجي من ميكيناي يرجع تاريخه إلى حوالي (٢٠٠٠ ق. م) وعليه صورة منظر صـيد أسـد يحمـل الصائدون فيه تروسا كبيرة ويقفون في صفوف، الواحد منهم تلو الآخر، فيطعن الرجل الأول الأسد بحربته، فإذا وثب الوحش الجريح عليه، ارتمى الرجل على الأرض متوقيا بترسه الكبير، تاركًا للرجل الذي يليـه أن يكرر طعنته، وهكذا حتى يقضى على الأسد. وما برح شعب الماساي [1] (Masai) يمارس إلى اليوم طريقة الصيد هذه، على أنها لا تصلح إلا في أرض كثيرة الأسود. ولكن كثرة الأسود تشـير ضـمنًا إلـى كثـرة القنائص، وهذا بدوره ينم عن وجود وفرة من النبات. وكان اشتداد المناخ حوالي ٢٠٠٠ ق. م. في الأجـزاء الوسطى من العالم القديم، وهو الذي سبق أن أشرنا إليه، مدعاة لتغير اتجاه الشعوب الآرية المترحلة فجعلهـا تتجه جنوبا نحو الحقول والغابات بين الشعوب الأكثر استقرارا وتمدنًا.

([1]) هم شعب ذو أرومة حامية شبه زنجية يسكن في كينيا وتنجانيقا. (المترجم).



ومما هو جدير بالذكر أن الأسود بقيت في شبه جزيرة البلقان حتى قرابة القرن الرابع ق. م. إن لم يكن بعد ذلك. وربما كانت الفيلة اختفت من آسيا الغربية قبيل القرن الثامن ق. م.، ولكن الأسد – وكان أضخم من الأسد الحالي جثة – ظل في جنوب ألمانيا حتى العصر الحجري الحديث (النيوليثي). ولبث النمر الأرقط (Panther) يسكن بلاد الإغريق وجنوب إيطاليا وإسبانيا الجنوبية حتى بداية الحقبة التاريخية (قرابة ١٠٠٠ ق. م.).

وتنحدر الشعوب الآرية إلى التاريخ من الأقاليم القزوينية الشرقية قرابة الوقت الذي كانت فيـه طـروادة وميكيناي وكنوسوس تسقط في يد الإغريق. ومن الصعب فصل القبائل والأجناس المختلفة وتمييزها بعضـها عن بعض. وهي تظهر تحت حشد كبير من الأسماء في السجلات والمخطوطات التي تسجل أول ظهـورهم. على أنه من حسن الطالع أنه ليست بنا حاجة إلى هذه الفروق المميزة في "معالم" أولية كهذا الكتاب. ويظهـر شعب يسمى الكمريين في ناحية بحيرتي أوروميا (Urumiya) وفان (Van). وبعد ذلك بوقت قصير ينتشر الآريون من أرمينيا إلى عيلام (Elam). وفي القرن التاسع ق. م. تذكر المخطوطات الآشورية اسم شـعب يسمى الميديين (Medes) وثيق اللحمة بالفرس يظهرون إلى الشرق منهم، ويدعي كل مـن تغلـث فلاسـر الثالث وسرجون الثاني وهما اسمان غير جديدين على أسماعنا في هذه القصة، أنهما ألزماهم دفـع الجزيـة. والمخطوطات تشير إليهم بـأنهم "الميـديون الخطرون"، وهم – بعد – شعب قبلي لم يتحد تحت لواء ملك واحد.



وقرابة القرن السابع ق. م. يتوارى من سجل التاريخ فجأة عيلام والعيلاميون الذين كانت عاصمتهم سوسا وهم شعب له تقاليد ومدنية لا تقل عن تقاليد السومريين ومدنيتهم من حيث القدم. ولسنا ندري ما حدث لهـم. ويلوح أن الغزاة اجتاحوا السكان وامتصوهم ووقعت سوسا في قبضة الفرس.

وثمة شعب رابع يمت بصلة إلى هذه القبائل الآرية، يظهر في هذا الزمان في رواية هيـرودوت، وهـو الإسكيذيون أو الأشقوذيون (Scythians). فإن ملوك دولة آشور يوقعون الشحناء طرفًا من الزمـان بـين مختلف هذه الشعوب ذوات القربى ويغْرون الكمريين والميديين والفرس والإسكيذيين بعضهم ببعض وتتزوج أميرات آشوريات (بينهن بنت آسرحدون Esarhaddon مثلاً) من رؤساء إسكيذيين. ومن جهة أخرى نـرى نبوخذ ناصر العظيم يتزوج من ابنة كياكسارس (Cyaxares) الذي أضحى ملكًـا علـى الميـديين كافـة، والآريون الإسكيذيون يتجهون نحو الآشوريين الساميين، على حين ينزع الميديون الآريون صوب البـابليين الساميين. وكياكسارس هذا هو الذي فتح نينوي عاصمة آشور (٦٠٦ ق. م.) وبذا خاص بابـل مـن النيـر الآشوري. وبذا تأسست الإمبراطورية البابلية الثانية تحت الحكم الكلداني. ثم يعـود أحـلاف دولـة آشـور الإسكيذيون فيسقطون من القصة بعد هذا ويواصلون عيشهم في مكان بعيد في الشمال دون كثير تدخل فـي شئون الشعوب التي في الجنوب، وإن نظرة إلى خريطة ذلك العصر لتريك كيف أنه خلال ثلثي قـرن مـن الزمان استقرت الإمبراطورية البابلية الثانية استقرار الحمل بين ذراعي الأسد الميدي.

ولن نتدخل في معترك المنازعات الداخلية بين الميديين والفرس، وهي التي انتهت آخر الأمـر بـاعتلاء قورش (Cyrus) الفارسي "عرش كياكسارس الميدي عام ٥٥٠ ق. م. ففي تلك السنة كـان قـورش يحكـم إمبراطورية تمتد من حدود ليديا إلى فارس وربما وصلت إلى الهند. على حين كان نابونيداس آخر الحكـام البابليين، كما ذكرنا آنفًا يحفر منقبا عن السجلات القديمة ويبني المعابد في مملكة بابل (بابلونيا).

٦- قصة كرويسوس Croesus (قارون)

على أن هناك ملكًا واحدا في العالم تنبه لخطر تلك القوة الجديدة المجتمعة بين يدي قورش ذلك هو كرويسوس ملك ليديا. وقد قُتل ابنه بطريقة محزنة جدا ذكرها هيرودوت ولكننا لن نتعرض هنا لوصفها؛ قال هيرودوت:

"أقام كرويسوس بعد ذلك الحادث مدة سنتين في حداد عميق لفقد ولده، ولكن راعه بعد تلك الفترة ما رآه من خلع قورش لابن كياكسارس من الحكم ومن تزايد الفرس عظمة وسلطانًا، فأقلع كرويسوس عن أحزانه، وأخذ يعمل بكل ما أوتي من وسيلة على تقويض قوة الفرس وهي لا تزال في طور النمو وقبل أن تبلغ غاية العظمة. وعند ذلك أخذ يجرب مهابط الوحي المتنوعة.

وقد كلف كرويسوس الليديين الذين كان عليهم أن يحملوا العطايا إلى المعابد، بأن يسألوا الوحي هذا السؤال: "هل يهاجم كرويسوس الفرس، وإن كان الحال كذلك، فهل يجب عليه أن يضم إليه أي جيش من الرجال بوصفهم أصدقاء؟" ولما أن وصل الليديون إلى الأماكن التي بعثوا إليها ووزعوا العطايا وقدموا النذور استفسروا من الوحي قائلين: "إن كرويسوس ملك الليديين والشعوب الأخرى، إذ يعد هذه هي مهابط الوحي الصادقة الوحيدة بين الناس، يقدم لكم من العطايا ما يستحقه كشفكم أستار الغيب، ويسألكم الآن مرة أخرى هل قدر له أن يسير جنده على الفرس، وإن كان الأمر كذلك، فهل كتب عليه أن يضم أي جيش من الرجال بوصفهم أصدقاء؟" ولما أن وصل الليديون إلى الأماكن التي بعثوا إليها ووزعوا العطايا وقدموا النذور استفسروا من الوحي قائلين: "إن كرويسوس ملك الليديين والشعوب الأخرى، إذ يعد هذه هي مهابط الوحي الصادقة الوحيدة بين الناس، يقدم لكم من العطايا ما يستحقه كشفكم أستار الغيب، ويسألكم الآن مرة أخرى هل قدر له أن يسير جنده إلى الفرس، وإن كان الأمر كذلك، فهل كتب عليه أن يضم أي جيش من الرجال بوصفهم أحلافًا؟" هكذا استفسروا، واتفقت إجابات كل من مهبطي الوحي على أمر واحد، وهو تأكيدهم لكرويسوس بأنه إن زحف على الفرس فإنه سيحطم إمبراطورية عظيمة. وعلى ذلك لما نقلت الإجابة إلى الملك كرويسوس وبلغت مسامعه، سره الوحي، ولتوقعه أنه لا بد مدمر مملكة قورش، أرسل ثانية إلى بيثو (Pytho) وأهدى إلى رجال دلفي كافة، بعد أن استوثق من عددهم، قطعتين من الذهب لكل رجل منهم، (قيمة الواحدة منهما ستاتير Stater [1]). وفي مقابل هذا أعطى الدلفيون كرويسوس والليديين حق الأسبقية في استشارة الوحي والإعفاء من كل الرسوم وحق الجلوس في المقاعد الأمامية في حفلات الألعاب، مع منحهم امتيازا آخر يبقى لهم على مر الزمان: وهو أن يسمح لكل من يرغب منهم بأن يكون له حق المواطن الحر في دلفي.

([1]) ستاتير: عملة قديمة وهي أكبر عملة ذهبية كانت تستخدم قديما ببلاد الإغريق. (المترجم).

ومن ثم عقد محالفة دفاعية مع كل من اللاكيديمونيين (Lacedemonians) والمصريين. ثم يستطرد هيرودوت فيقول: "وبينما كان كرويسوس يتأهب للمسير إلى الفرس، نصح له أحد الليديين وكان من قبل هذا الزمان معروفًا بالحكمة والحصافة، على أن هذه النصيحة زادته شهرة على شهرته بالعقل والحكمة بين الليديين – نصح الملك بما يلي، قال: "أيها الملك، إنك تستعد للهجوم على رجال يرتدون سراويل من الجلد، وسائر ثيابهم من الجلد كذلك، وهم يأكلون طعاما ليس مما يشتهونه، وإنما مما يستطيعون الحصول عليه، ويعيشون في أرض وعرة، وفضلاً عن ذلك فإنهم لا يتناولون النبيذ بل يشربون الماء، وليس لديهم من التين ما يتخذونه حلوا بعد طعامهم، ولا أي غذاء طيب آخر. فمن ناحية، إن كانت الغلبة لك عليهم فماذا أنت آخذ منهم وليس لديهم شيء يستلب؟ ومن جهة أخرى إن غلبوك فتأمل كم من الأشياء الطيبة تذهب عنك حين ذاك. فإنهم لو ذاقوا خيراتنا لأول مرة تشبثوا بها لا محالة، ولن يستطاع بعد ذلك إقصاؤهم عنا. وأنا عن نفسي أشعر بالشكر للآلهة لأنهم لم يبثوا في عقول الفرس أن يزحفوا على الليديين". هكذا تكلم من غير أن يقنع كرويسوس، لأنه من المحقق أنه لم يكن لدى الفرس – قبل أن يخضعوا الليديين – شيء من وسائل الترف ولا من الطيبات".

واقتتل كرويسوس وقورش في معركة غير فاصلة في بتيريا (Pteria) تراجع منها كرويسوس، وتبعه قورش فالتحما في معركة خارج عاصمته سارديس، وكانت قوة الليديين تنحصر في فرسانهم، إذ إنهم كانوا فرسانًا ممتازين، وإن كانوا غير منظمين، يقاتلون برماح طويلة.

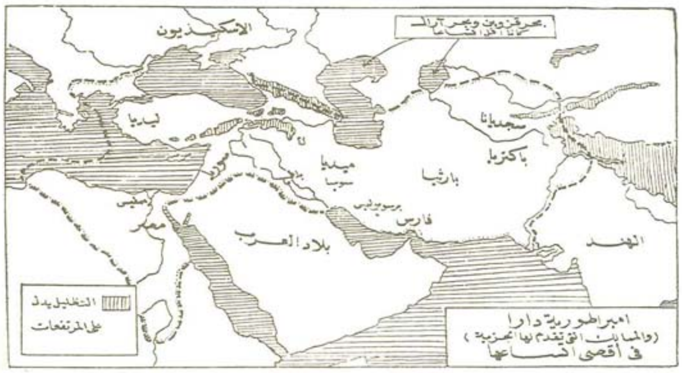
"أما قورش فإنه لما أن رأى الليديين مصطفين للقتال وخشي فرسانهم أقدم على ما يأتي تنفيذًا لمشورة هارباجوس (Harpagos) فقد جمع في صف واحد كل الجمال التي كانت في مؤخرة جيوشه تحمل المؤن والمتاع، ورفع عنها أحمالها وأقام عليها رجالاً مزودين بعتاد الفرسان، وبعد أن أعد عدتهم على هذه الشاكلة، أمرهم أن يكونوا في مقدمة سائر الجيوش وأن يتجهوا صوب فرسان كرويسوس، ومن خلف فصيلة الجمال، أمر المشاة أن يتبعوهم، ومن خلف المشاة وضع قوة فرسانه بأكملها، وعندما عبأ رجاله كلا في مكانه الخاص أمرهم ألا يتركوا فردا واحدا من الليديين الآخرين حيا، وأن يذبحوا كل من قد يقف في سبيلهم، على أنهم لم يكونوا ليذبحوا كرويسوس نفسه، وإن أبدى المقاومة ساعة القبض عليه. تلك كانت أوامره وقد وضع الجمال ضد الخيل لهذا السبب: وهو أن الخيل تخاف الإبل ولا تستطيع أن تطيق رؤيتها أو أن تشم رائحتها. فلهذا السبب إذن دبرت الحيلة، حتى تصبح فرسان كرويسوس عديمة الجدوى. وهي القوة نفسها التي كان يتوقع منها الملك الليدي كل التفوق والتبريز. وبينما الجانبان يتقدمان للالتحام في المعركة، وبمجرد أن اشتمت الخيل رائحة الجمال ورأتها دارت على أعقابها وانهارت آمال كرويسوس على الفور".

وهوجمت سارديس طوال أربعة عشر يوما ووقع كرويسوس في الأسر...

"ولما أن ظفر به الفرس قدموه بين يدي قورش، فجمع الملك كومة عظيمة مـن الحطـب وأمـر فجعـل كرويسوس من فوقها مشدود الوثاق، كما جعل معه أربعة عشر من أبناء الليديين، فهل كان يقصد أن يقدم هذا القربان ثمرة أولى لنصره إلى أحد الأرباب؟ أو هل كان يبغي تحقيق الوفاء بنذر قطعه على نفسـه؟ أو أنـه سمع أن كرويسوس رجل يخشى ا ، فأمر به أن يوضع من فوق قمة الحطب، لأنـه أراد أن يعـرف هـل ستنقذه إحدى القوى الإلهية فلا يحرق حيا؟ في قولهم إنه فعل ذلك ابتغاء تلك الغاية.

على أن كرويسوس، وهو واقف على كومة الحطب هبطت عليه على الرغم مما كان فيه من سوء الحـال ذكرى حكمة سولون (Solon) حين قال بوحي من الآلهة: "إنه ليس بين الأحياء من يدعى بالسـعيد"، فلمـا خطر ذلك الخاطر بباله، قالوا إنه تأوه تأوها عميقًا وأن أنينًا عاليا، بعد أن ظل صامتًا زمانًا طويلاً، ثم هتف باسم سولون ثلاثًا. فلما أن سمع قورش ذلك أمر المترجمين أن يسألوا كرويسوس عمن يكون ذلك الشـخص الذي يناديه، فاقتربوا منه وسألوه، ويقال إن كرويسوس لزم الصمت زمانًا عندما سئل في هذا، ولكـنهم لمـا ألحوا عليه بعد ذلك قال "إنه رجل وددت ـ وإن فقدت في سبيل ذلك ثروة طائلة – لو أنه تحدث إلـى كـل الملوك". وعند ذلك لما كانت كلماته ذات مضمون مبهم، سألوه من جديد عما قـال، وإذ كـانوا ملحفـين لا يعطونه أي سلام أو راحة، أخبرهم كيف أن سولون – وهو فرد أثيني – قد جاءه، وبعد أن فحص كل ثروته استخف بها بكلمات كيت وكيت، وكيف أن كل ما حدث له جاء مطابقًا لما قاله سولون، وهو لم يكـن يـتكلم البتة بالنسبة إلى كرويسوس نفسه بوجه خاص ولكن بالنسبة إلى الجنس البشري أجمع، وخاصة إلى أولئـك الذين يخالون أنفسهم رجالاً سعداء. وبينما كان كرويسوس يقص هذه الأمور، كانت النار أُضرمت في كومـة الحطب وكانت حوافيها قد اتقدت من كل النواحي. وعند ذلك يقال إن قورش عندما سمع من المترجمين مـا قاله كرويسوس، غير عزمه وأيقن أنه هو نفسه إن هو إلا إنسان، وأنه يقدم رجلاً آخر لا يقل عنـه سـعادة؛ ليكون وقودا للنار وهو حي، وفضلاً عن ذلك فقد خشي القصاص، ورأى أنه لا أمان لشيء مما تملكه الناس، ولذلك يقولون إنه أمرهم أن يطفئوا بأسرع ما يستطاع تلك النار التي كانت تتلظى وأن ينقـذوا كرويسـوس ومن معه من فوق كومة الحطب، وإذ أخذوا يبذلون الجهود لم يستطيعوا إذ ذاك أن يتغلبوا على لهيب النـار. ثم يقص الليديون بعد ذلك أن كرويسوس، وقد علم كيف عدل قورش عن رأيه ورأى كل إنسان جاهـدا فـي إطفاء النار، وأنهم لم يعودوا قادرين على الحد من امتدادها صاح متوسلاً إلى أبولون (Apollo): إذا كنـت يوما قدمت هدية تقبلها الإله أبولون، فإنه سيهب لنجدتي وسينقذني من الشر الذي هو الآن محيق بي. هكـذا تضرع إلى الرب والدمع ملء عينيه. وفجأة كما يقولون، وبعد أن كانت السماء مصحية والجو هادئًا مستقرا، تجمع الغمام وانفجرت العاصفة، وأمطرت السماء وابلاً مدرارا فأطفأت نار الحطب.

"ثم لما أدرك قورش أن كرويسوس محب للآلهة ورجل خير أمر به فأنزل من فوق كومة الحطب وسأله كما يأتي: "أخبرني يا كرويسوس من من الناس قاطبة أغراك بأن تزحف على أرضي وتصبح عدوا لـي بـدل أن تكون صديقًا ودودا؟"، فقال له: "أيها الملك لقد فعلت ذلك فكان فيه سعادتك وجر علي شقاوتي، والسبب في ذلك هو رب الهلينيين الذي حرضني على الزحف بجيشي، إذ ما من فرد بلغت به الحماقة حدا يجعله يختار بمحض إرادته الحرب دون السلم، لأن الأبناء يوارون آباءهم التراب في أوان السلم، على حين يواري الآباء أبناءهم في زمن الحرب. على أني أعتقد أنه كان مما يسر القوى الإلهية أن تقع هذه الحوادث على هذا النحو.".



ش ٩٨ — إمبراطورية دارا

على أن هيرودوت رفيق شائق جذاب يغري من يكتب معالم التاريخ بالإسهاب في الاقتباس منه، ولذا فإن بقية حياة كرويسوس وكيف أخذ يقدم إلى قورش نصائح حكيمة، يجب أن تقرأ علـى صـفحات هيـرودوت الزاخرة.

ولما أن أخضعت ليديا، وجه قورش التفاته إلى نابونيداس في بابل، فقهر الجـيش البـابلي تحـت قيـادة بِلْشَاصر (Belshazzar) خارج أسوار بابل، ومن ثم ألقى الحصار على المدينة فـدخلها عـام ٥٣٨ ق. م.، والراجح أن ذلك الفتح تم كما سبق أن أشرنا برضاء كهنة بعل وإغضائهم.

٧- دارا يجتاح الروسيا

خلف قورش على الملك ابنه قمبيز، الذي اقتاد جيشًا دخل به مصر (٥٢٥ ق. م.)، وحدثت معركة علـى أرض الدلتا اقتتل فيها مرتزقة من الإغريق في كل من الجانبين. ويصرح هيرودوت أنه رأى عظام القتلـى وهي لا تزال في الميدان بعد ذلك بخمسين أو ستين سنة. وهو يشير إلى صغر حجم الجماجم الفارسية نسبيا. ذلك أن هيرودوت لم يخفف قط من دعايته ضد الفرس. واستولى قمبيز بعد هاته المعركة على منف ومعظم أجزاء مصر.

ويقال إن قمبيز أصيب بمس من الجنون في مصر. فاستباح المعابد المصرية أيما اسـتباحة وظـل فـي ممفيس "ينبش المقابر القديمة ويفحص جثث الموتى". وكان قمبيز قد اغتال قبل وصوله إلى مصر كلا مـن كرويسوس ملك ليديا السابق وشقيقه نفسه سميرديس (Smerdis). ثم مات في سوريا أثناء عودته إلى سوسا متأثرا بجرح عارض ولم يترك عقبا يخلفه على العرش فخلفه في الحال دارا الميدي (٥٢١ ق. م.) وهو ابن هيستاسبس (Hystaspes) أحد كبار مستشاري قورش.

وكانت إمبراطورية دارا الأول أعظم من جميع الإمبراطوريات السابقة التي تتبعنا فيما سلف نموها، فهي تضم كل آسيا الصغرى وسوريا، أو بعبارة أخرى الإمبراطـوريتين الليديـة والحيثيـة القـديمتين، وكـل الإمبراطوريات الآشورية والبابلونية القديمة ومصر وبلاد القوقاز وإقليم قزوين وميديا وبلاد الفرس، ولعلهـا امتدت في الهند حتى نهر السند. دانت كل هذه البلاد لحكم دارا فأقام عليها حكاما إقليميين (ينعت الواحد منهم باسم ساتراب)، ولم ينج من دفع الجزية للساتراب الفارسي إلا العرب الرحل وحدهم دون سائر شـعوب مـا يسمى الآن باسم الشرق الأدنى التابعين لدارا. ويلوح أن تنظيم هذه الإمبراطورية العظيمة كان على مسـتوى من الكفاية أعلى كثيرا مما كان في الإمبراطوريات التي سبقتها. فكانت الطرق الرئيسـية العظيمـة تصـل الولاية بالولاية، وكان هناك نظام للبريد الملكي، وكانت خيول البريد تقف على مسافات مقررة وهي مستعدة على الدوام لحمل رسل الحكومة أو لحمل المسافر إن كان لديه تصريح من الحكومة – إلى المرحلة الثانيـة من مراحل رحلته. ويلوح أن الحيثيين رصفوا الطرق الكبرى الممتدة عبر بلادهم في زمن أبكر مـن هـذا بكثير. على أن هذا أول تنظيم للبريد معروف لدينا، وفيما خلا مسألة حق الحكومة المركزية فـي اسـتخدام الطرق الإمبراطورية والاستيلاء على الجزية، فقد كانت الحكومات المحلية تستمتع بقدر جسـيم جـدا مـن الحرية المحلية، وأفضت تبعيتهم للحكومة المركزية إلى الحيلولة دون وقوع نزاع داخلي قتّال بينهم، وهو أمر عاد عليهم جميعا بالخير العميم. وفي أول الأمر كانت المدن الإغريقية الواقعة في القـارة الآسـيوية تـدفع الجزية وتشترك في الاستمتاع بهذا "السلم الفارسي".

وقد استحث دارا على مهاجمة الإغريق في أوربا طبيب إغريقي في بلاطه وكان يحن إلى وطنه، ويريـد أن يعود إلى بلاد الإغريق بأي ثمن. وكان دارا قد رسم من قبل الخطط لحملة على أوربا وليس على بـلاد الإغريق. بل على ما هو في شمال الإغريق عبر البوسفور والدانوب (الطونة)، كان يريد أن يضرب جنوب روسيا التي كان يعتقد أنها موطن الإسكيذيين المترحلين الذين يهددونه على حدوده الشمالية الشرقية. على أنه أعار مستَحِثه أذنًا مصغية وأرسل الرسل إلى بلاد الإغريق.

وهذه الحملة العظيمة التي قام بها دارا توسع رحاب نظرتنا في هذا التاريخ. فهي ترفع الستار عن بـلاد البلقان من خلف بلاد الإغريق، وهذه أول مرة نذكر لك فيها البلقان. وهي تحملنا إلـى الـدانوب ومـا وراء الدانوب. سارت نواة جيشه من سوسا وهي تجمع الأحلاف وفرق الجند المساعدة أثناء تقدمها إلى البوسفور، وهنا كان حلفاء دارا من الإغريق "وهم الإغريق الأيونيون في آسيا" قد أقاموا جسرا مـن الـزوارق عبـر الجيش عليه، على حين واصل حلفاؤه الإغريق رحلتهم بسفنهم إلى نهر الدانوب، ثم رسوا على مسيرة يومين من مصبه ونصبوا جسرا طافيا آخر على حين كان دارا يتقدم بجيوشه بـإزاء السـاحل الـذي نسـميه الآن بلغاريا، والذي كان يسمى حينذاك تراقيا؛ فعبروا نهر الدانوب وأخذوا يستعدون لمنازلة الجـيش الإسـكيذي والاستيلاء على مدن الإسكيذيين.

على أن الإسكيذيين لم تكن لهم مدن، كما أنهم تجنبوا الالتحام معه في أية موقعة. وتحولت الحـرب إلـى عملية طراد مضنية موئسة قوامها اقتفاء أثر أعداء أكثر سرعة وأخف حركة. وكان المترحلـون يطمـرون الآبار ويدمرون المراعي. وكان فرسان الإسكيذيين يغيرون على أطراف الجيش المكون في معظمه من جنود من المشاة، فيتصيدون الشاردين منهم ويحولون دون المرعى وجمع الأعلاف. وبذلوا كل ما فـي مقـدورهم لحمل الإغريق الأيونيين – الذين أقاموا الجسر عبر الدانوب وقاموا على حراسته – على أن يفكوا الجسـر، وبذلك يضمنون تدمير "دارا" تدميرا محققًا لا ريب فيه. على أن إخلاص حلفاء دارا من الإغريق ظل ثابتًا لا يتزعزع ما داموا يرونه يتابع تقدمه.

ولكن ضروب الحرمان والتعب والمرض نالت من الجيش الفارسي وأعجزته عن التقدم، وفقد دارا عـددا كبيرا من الرجال ممن شردوا عن جيشه، واستنفدت كل مؤنه ثم ساوره أخيرا خاطر أليم بأن التراجع عبـر الدانوب كان أمرا ضروريا لإنقاذه من إعياء وهزيمة كاملين.

ولكي يجد مخرجا ينقذه من ورطته عول على أن يبدأ تراجعه بالتضحية بالمرضى والجرحى مـن رجالـه. فأخبرهم بأنه يتأهب لمهاجمة الإسكيذيين في أثناء الليل، وتسلل من المعسكر تحت هذه الدعوى مع نخبـة مـن جنوده المختارين وانطلق جنوبا تاركًا نيران المعسكر متقدة فضلاً عن الضوضاء والحركة العاديتين. وفي اليوم التالي أدرك الرجال المخلفون في المعسكر الحيلة التي لعبها ملكهم عليهم، فسلموا أنفسهم إلى رحمة الإسكيذيين، ولكن دارا كان حصل على ما يشتهي، فاستطاع أن يصل إلى جسر الزوارق قبل أن يلحق به مطاردوه. علـى أنهم كانوا أسرع من عسكره حركة، لولا أنهم ضلوا عن قنيصتهم في الظلام. وعند النهر "بلغ الخوف بـالفرس المتراجعين أقصى غايته" إذ وجدوا بعض أجزاء الجسر قد انهارت ولم يجدوا أثرا لنهايته الشمالية.

وفي هذه المرحلة يدوي في آذاننا صوت يتردد من القرون الخوالي. فهؤلاء جماعة من الفرس الوجلين يقفون حول الملك العظيم على شاطئ النهر المتدفق.. وهذه كتل الجيوش المتوقفة عن المسير وقد أنهكها الجوع وأضنتها الحرب... وهذا ذيل طويل من السفن المحطمة يمتد نحو الأفق الذي قد يظهر عليه في أي وقت جنود مقدمة المتعقبين... وليست هناك ضوضاء كبيرة على الرغم من الجمع الحاشد، بل يسودهم صمت القلق المتوجس. وكانت بقية من جسر الزوارق تمتد امتداد المرساة على الجانب الآخر من مجرى النهر العظيم، وكأنما هي لغز لا سبيل إلى حله. ولسنا نستطيع أن نميز هل هناك رجال عنده أم لا، فإن سفائن الإغريق الأيونيين تلوح كأنما لا تزال تُسحب على الشاطئ الآخر، ولكن كان كل شيء بعيدا بعيدا سحيقًا. "وكان مع دارا إذ ذاك رجل مصري له صوت أجهر من صوت أي رجل على الأرض. وقد أمر دارا ذلك الرجل أن يتخذ موقفه على شاطئ إيستر Ister (أي الدانوب) وأن ينادي هستيائيوس الميليطي (Histiaeus of Miletus)،.

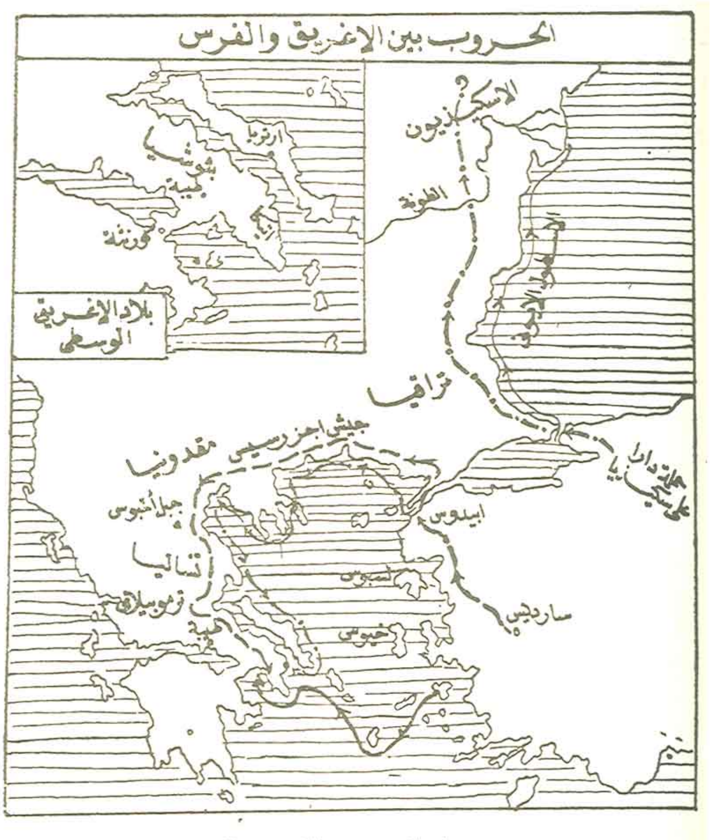
وإذا بهذا المبجل الذي كان موضع التكريم – وسيأتي يوم تُحمل فيه رأسه إلى دارا في سوسا كما سنفصل ذلك من تونا – يظهر عبر النهر مقتربا رويدا رويدا في قارب.

ويدور حديث يتبين منه أن "كل شيء على ما يرام".

والتفسير الذي قدمه هستيائيوس عن الأمر تفسير معقد، ذلك أن بعض الإسكيذيين حضروا ثم انصرفوا، وربما كان هؤلاء من الطلائع الكشافة. ويبدو أنه جرت مناقشة بين الإسكيذيين والإغريق، وكانوا يطلبون إليهم تحطيم الجسر ويتعهدون لهم بأن يهلكوا عند ذلك الجيش الفارسي ويقضوا على دارا وإمبراطوريته. وعندئذ يستطيع إغريق آسيا الأيونيون تحرير مدنهم ثانية. وكان ملتياديس الأثيني يدعو إلى قبول هذا المقترح، على أن هستيائيوس كان أشد منه دهاء. فإنه قال إنه يفضل ألا يتخلى عن الفرس تماما إلا بعد أن يراهم وقد دمروا تدميرا. فهل يوافق الإسكيذيون أن يعودوا أدراجهم ويدمروا قوة الفرس ليطمئن إليهم الإغريق، على حين يقوم الإغريق من ناحيتهم بتدمير الجسر؟ ومهما يكن الجانب الذي انحاز إليه الإغريق آخر الأمر، فقد كان من الواضح الجلي لهم أن من حسن التدبير تدمير نهاية الجسر الشمالية. فإن لم يفعلوا ذلك فإن الإسكيذيين قد يجتاحونه. والواقع أنه حتى حين كان الطرفان يتفاوضان، شرع الإغريق في العمل بأسرع ما يستطاع على هدم الطرف الذي كان يربطهم بالإسكيذيين. ثم انطلق الإسكيذيون بخيولهم باحثين عن الفرس، وبذا تركوا الإغريق مطمئنين على كلا الحالين. فإن فر دارا ونجا، استطاعوا أن يكونوا إلى جانبه، وإن دمر لم يكن للإسكيذيين موضع للشكوى.

ولم يعرض هستيائيوس الأمر على دارا على نفس هذه الصورة، ولكنه حافظ على الأقل على السفائن وعلى معظم الجسر. كما أظهر نفسه بمظهر صديق فارس المخلص. ولم يكن دارا ميالاً إلى شدة النقد والتدقيق. وجاءت السفائن الأيونية. وسرعان ما أخذت بقية الفرس المجهدة المكدودة تنظر من خلفها بشعور ارتياح لا حد له إلى لجج الدانوب الفولاذية القاسية وهي تنساب مترامية وفاصلة بينهم وبين متعقبيهم.

وزال عن نفس دارا كل سروره واهتمامه بالحملة الأوربية. فعاد إلى سوسا تاركًا في تراقيا جيشًا تحت إمرة قائد أمين هو ميجابازوس (Megabazus) فأخذ ميجابازوس هذا على نفسه إخضاع تراقيا. ومن بين الدول الأخرى التي أذعنت لدارا مكرهة مملكة تظهر في تاريخنا الآن لأول مرة، وهي مملكة مقدونيا. وهي بلاد يسكنها شعب وثيق الصلة بالإغريق إلى حد أن أحد أمرائها أذن له من قبل ذلك بأن يتبارى في الألعاب الأوليمبية ويحصه على جائزة فيها.



ش ٦٨ – خريطة الحروب بين الإغريق والفرس

وكان دارا ميالاً إلى مكافأة هستيائيوس بالسماح له بأن يبني لنفسه مدينة في تراقيا، لولا أن ميجابازوس كان له رأي مغاير لهذا في جدارة هستيائيوس بالثقة. فحمل الملك على أخذه إلى سوسا، وأن يحتفظ به هناك أسيرا يحمل لقب مستشار. ولقد غر هذا المنصب في البلاط هستيائيوس بادئ ذي بدء، ثم أدرك حقيقة مغزاه، فأضجره البلاط الفارسي وأخذ يحن إلى موطنه ميليتوس فنصب نفسه لعمل الشر واستطاع أن يقيم ثورة على الفرس بين الأيونيين من الإغريق في آسيا الصغرى. ولهذه القصة ملابسات ملتوية وتأويلات وتخريجات بلغت من التعقيد درجة لا يتسع لها هذا المقام. وهي تتضمن إحراق ساردیس على يد الأيونيين وهزيمة أسطول إغريقي في لادي (٤٩٥ ق. م.)، وهي قصة حالكة مليئة بالخيانة والقسوة والبغضاء. حتى ليبدو فيها مصرع هستيائيوس الماكر حدثًا ساطعا وضاء أو يكاد، فإن "ساتراب" ساردیس التي أخذ فيها هستيائيوس أسيرا وهو في طريقه إلى سوسا، كان له فيه رأي يطابق رأي ميجابازوس، كما كان يعرف مقدرته على الخداع والتهويش على دارا فقتله هناك في التو والساعة واكتفى بإرسال رأسه إلى مولاه.

ولقد أقحمت قبرص والجزر الإغريقية في هذا النزاع الذي أثاره هستيائيوس واشتبكت فيـه أثينـا آخـر الأمر. وأدرك دارا الغلطة التي وقع فيها حين اتجه يمينًا بدل أن يعرج يسارا عندما عبر البوسفور، ومن ثـم نصب نفسه لغزو كل بلاد الإغريق فبدأ بالجزر.

وكانت صور وصيدا المدينتان التجاريتان الساميتان العظيمتان خاضعتين للفرس. ومن ثم انضمت سـفائن الفينيقيين والأيونيين من الإغريق إلى الفرس، فصار لهم أسطول استطاعوا به إخضـاع الجـزر الإغريقيـة الواحدة تلو الأخرى.

٨- معركة ماراتون (Marathon)

شن الفرس أول هجوم لهم على بلاد الإغريق نفسها عام (٤٩٠ ق. م.) وكان هجوما بحريا على أثينا بقوة دربت بعناية تدريبا طويلاً لتلك الغاية. وكان الأسطول مزودا بنقالات بنيت خصيصا لراحة الخيول. وقد نزلت هذه الحملة العسكرية قرب ماراتون في أتيكا [١] (Attica). وأرشد الفرس إلى ماراتون رجل إغريقي من الخونة هو هيباس بن بيزستراتوس الذي كان طاغية على أثينا. واتفق المتآمرون أنه إذا سقطت أثينا، يصبح هيباس طاغية لها تحت حماية الفرس. وفي الوقت ذاته تمكن من نفوس القوم شعور بأن شئون هيلاس أخذت تستحكم فيها أزمة حرجة – تمكنًا جعل رسولاً من العدائين ينطلق من أثينا إلى إسبرطة ناسيا كل العداوات القديمة بين البلدين، لكي يقول لأهلها: "أيها اللاكيديمونيون إن الأثينيين ليهيبون بكم أن تهبوا خفاقًا لمساعدتهم، وألا تسمحوا لمدينة أقدم ما تكون بين الهلينيين بأن تقع في ربقة العبودية على أيدي الهمج البرابرة [٢]. ولا تنسوا أن إرتريا (Eretria) مستعبدة في يومنا هذا مما أضعف قوة هيلاس بفقد هذه المدينة الشهيرة".

قطع هذا الرجل واسمه "فيديبيدس Pheidippides" المسافة من أثينا إلى إسبرطة وهي قرابة مائة ميل، سالكًا كالغراب خطًا مستقيما، بل أقصر منه – إذا أدخلنا في حسابنا ما بالطريق من التعريجات والمنعطفات – قطعها فيما يقل عن أربعين وثمانية من الساعات.

على أنه قبل أن يستطيع الإسبرطيون الوصول إلى المكان، كان الفريقان قد التحما. فهاجم الأثينيون العدو وقاتلوهم "بطريقة جديرة بالخلود لأنهم فيما نعرف كانوا أول من تقدم من الهلتينيين لمهاجمة العدو جريا كما كانوا كذلك أولهم في الصبر على تحمل النظر إلى ثياب الميديين وملاقاة الرجال الذين يرتدونها، حين كان مجرد اسم الميديين حتى ذلك الزمان مما يرعب الهلينيين سماعه".

وتزعزع جناحا الفرس أمام ذلك الهجوم العنيف ولكن القلب صمد. على أن الأثينيين كانوا مع ذلك هادئي الروع مثلما كانوا أشداء. فحملوا الجناحين على الفرار. ثم أطبقوا على جانبي القلب. وعند ذلك فرت كتلة الفرس الرئيسية إلى السفن. وسقطت سبع سفن في أيدي الأثينيين ولاذت البقية الباقية بالفرار. وبعد أن قامت السفن بمجهود فاشل تروم به التقدم إلى أثينا والاستيلاء على المدينة قبل أن يعود إليها الجيش الإغريقي، تراجع الأسطول إلى آسيا.

---

(١) إحدى ولايات بلاد الإغريق القديمة وكانت عاصمتها أثينا. (المترجم).

(٢) البرابرة (أو الهمج) اصطلاح في التاريخ اليوناني أطلقه اليونان على كل من عداهم من الشعوب تحقيرا لشأنهم. (المترجم)



٦٩ – جندى أثينى من المشاة

ولندع هيرودوت يختم القصة بفقرة تلقى إلينا ضوءا ساطعا على مهابة الميديين الهائلة في ذلك الزمان.

"ومن اللاكيديمونيين حضر إلى أثينا ألفان بعد تمام القمر وبعد أن أسرعوا سرعة عظيمـة ليصـلوا فـي الأوان، حتى وصلوا إلى أتيكا في اليوم الثالث لخروجهم من إسبرطة وهم وإن حضروا بعد فـوات فرصـة المعركة بزمن طويل، إلا أنهم كانوا يرغبون في مشاهدة الميديين. فذهبوا وفقًا لهذا إلى مـاراثون وشـاهدوا جثث القتلى، ثم رحلوا بعد ذلك إلى وطنهم، وهم يثنون على الأثينيين وعلى العمل الذي أتوه".

٩- ثرموبيلاي وسالاميس

بذلك الفوز العظيم أحرزت بلاد الإغريق – وقد وحد الخوف كلمتها ردحا من الزمان – أول نصر لها على فارس. وترامت الأنباء بذلك إلى دارا في نفس الوقت الذي وصلت إليه فيه أخبار نشوب فتنة في مصر. ولكنه مات قبل أن يجمع رأيه على الاتجاه الذي ينبغي عليه أن يسلكه. واتجه ابنه وخلفه إجزرسيس (Xerxes) في بادئ الأمر إلى مصر فولى عليها واليا (ساتراب) فارسيا ثم استمر أربع سنوات يعد العدة لهجوم ثان على بلاد الإغريق. ويقول هيرودوت – وينبغي ألا يغيب عن بالنا أنه كان إغريقيا وطني النزعة – في مؤلفه التاريخي الذي أخذ يسمو آن ذاك إلى أوج الروعة والبهاء:

"فأي شعب لم يخرج به إجزرسيس من آسيا على هيلاس؟! وأي ماء لم ينضب معينه حين ينهال عليه جيشه شربا، اللهم إلا الأنهار العظيمة دون سواها؟ لقد كان بعض هذه الشعوب يزوده بالسفن كما كان بعضها مكلفًا بالخدمة في الجيش البري. وكان على بعضها أن يقدم الفرسان كما تعين على البعض الآخر أن يقدم سفنًا تحمل الخيل. على حين كانوا هم أنفسهم يشتغلون كذلك في الحملة، وكان أن أُمر آخرون بتقديم سفن حربية للجسور، وأمر آخرون كذلك بتقديم سفن محملة بالمؤن".

عبر إجزرسيس إلى أوربا، لا عند معبرة البوسفور التي عرضها نصف ميل كما فعل "دارا"، بل عند الهلسبونت (Hellespont): الدردنيل). وهيرودوت في وصفه لتجمع ذلك الجيش العرمرم ومسيره من سارديس إلى الهلسبونت، إنما تغلب نزعة الشاعر فيه على المؤرخ. ويمر الجحفل العظيم الجرار بكل أبهته بمدينة طروادة (Troy)، وإجزرسيس وإن كان فارسيا ومن الهمج إلا أنه يلوح في زي المتأدبين بأدب القدامى فهو يعرج على تلك المدينة، كما يقول مؤرخنا، لزيارة قلعة بريام (priam)،، وقد أقيم الجسر على الهلسبونت عند أبيدوس، وأقيم على قمة أحد التلال عرش من الرخام ليشرف منه إجزرسيس على عرض جيشه بأجمعه.

"حتى إذا نظر فرأى الهلسبونت تغطيه السفائن ورأى كل شواطئ سهول أبيدوس غاصة بالرجال، قال عن نفسه إنه لسعيد، وما لبث بعد ذلك أن همات عيناه بالدموع. فلما أن رآه عمه أرطبانوس (Artabanus) على تلك الحال – وهو نفسه الذي صرح برأيه بادئ الأمر في جرأة ناصحا إجزرسيس بأن لا يزحف على هيلاسي، - أقول إن هذا الرجل عندما لاحظ أن إجزرسيس كان يبكي، سأله كما يأتي: أيها الملك، ما أبعد الشقة بين الأمرين اللذين أتيتهما الآن وقبل الآن ببرهة وجيزة، فإنك وقد دعوت نفسك رجلاً سعيدا، تذرف الدمع الآن: فأجاب الملك: أجل إني بعد أن أحصيتهم عدا دار بخلدي إحساس الإشفاق والحسرة لتذكري كم حياة الإنسان كلها قصيرة. لعلمي أنه من بين هذا الجمع الحاشد لن يكون واحد حيا بعد أن تمضي مائة من السنين".

وربما لم يكن هذا من التاريخ الدقيق في شيء ولكنه على كل حال شعر رائع عظيم. إذ الواقع أنه يحـوي من الروعة ما تحويه ملحمة "الديناست [1] الدرامية " (The Dynasts).

ورافق الأسطول الفارسي هذا الحشد البري منتقلاً بحذاء الساحل من رأس إلى رأس. علـى أن عاصـفة هوجاء أنزلت بالأسطول أضرارا عظيمة، فأغرقت أربعمائة سفينة بينها الكثير من حاملات القمـح. وسـار الهلينيون بادئ الأمر وقد توحدت صفوفهم لملاقاة الغزاة في وادي تمبي (Tempe) في الشمال قرب جبـل أوليمبوس، ولكنهم تراجعوا بعد ذلك مخترقين تساليا، واختاروا آخر الأمر أن ينتظروا الفرس المتقدمين عند مكان يدعى "ثرموبيلاي" (Thermopylae)، حيث كانت هناك في ذلك الوقت صخرة عظيمة يقع البحر إلى الشرق منها، وبينهما ممر ضيق لا يكاد يتسع لمركبة واحـدة إلا بشـق الأنفـس – وقـد غيـرت الألفـان والأربعمائة من السنين التي انصرمت معالم كل شيء في تلك البقعة. والميزة العظيمة التي كانت للإغريـق من هذا الموقع في ثرموبيلاي هي أنه كان يمنع أعداءهم من استخدام كل من سلاح الفرسـان والمركبـات. وكان الممر يضيق جبهة المعركة إلى حد يقلل من شأن عدم التكافؤ بين الفريقين في العدد. وهنـاك الـتحم الفرس بهم في معركة في أحد أيام صيف ٤٨٠ ق. م.



٧٠ – جنديان من الحرس الفارسي

(1) الديناست ملحمة شعرية درامية لتوماس هاردي. وتصف الحروب النابوليوفية. (المترجم)

صد الإغريق هذا الجيش العظيم ثلاثة أيام، وأنزلوا بهم خسائر بليغة لقاء خسارة طفيفة نالتهم؛ ثم ظهرت في اليوم الثالث فصيلة من الفرس في مؤخرة الإغريق، بعد أن أرشدها فلاح إلى طريق فوق الجبل. وسرعان ما اشتد الجدل والخلاف بين الإغريق، فكان البعض يدعو إلى الانسحاب، والبعض يدعو إلى الثبات. وكان ليونيداس (Leonidas) قائد القوة جمعاء يرى وجوب الصمود، على أن يستبقى معه ثلاثمائة إسبرطي وفي الوقت نفسه يستطيع سائر الجيش الإغريقي أن يتقهقر إلى الممر الثاني الذي يمكن الدفاع عنه. ومع ذلك فإن الفرقة الثسبية (Thespian) وعددها سبعمائة رفضوا أن يتراجعوا مفضلين البقاء مع الإسبرطيين. وبقيت كذلك فرقة أخرى من أربعمائة محارب من طيبة. ولما كانت طيبة انحازت فيما بعد إلى الفرس. فإن هناك قصة تقول بأن الطيبيين أكرهوا على البقاء في هذا الموضع قسرا ورغم إرادتهم، وهو أمر ليس له ما يرجحه من أسس عسكرية أو تاريخية. وقد ثبت هؤلاء الألف والأربعمائة وذبحوا عن بكرة أبيهم بعد قتال تجلت فيه البطولة والبسالة. واتفق أن تخلف رجلان من الإسبرطيين لإصابتهما بالرمد. فلما أن سمعا الخبر، كان أحدهما على حالة شديدة من المرض لا يستطيع معها حراكًا، وأمر ثانيهما عبده (helot) أن يقوده إلى مكان المعركة، وهناك أخذ يضرب ضرب العميان حتى قتل. وأخذ الإسبرطي الحي أرستوديموس (Aristodemus) مع الجيوش المتراجعة وأعيد إلى إسبرطة حيث لم تنزل به أية عقوبة على سلوكه، ولكنه عرف باسم المتقهقر (Treasas). وكان ذلك كافيا لتمييزه عن سائر الإسبرطيين، وما لبث أن عمل على أن يقتل في معركة بلاتايا بعد ذلك بسنة، بعد أن أبدى ضروبا عجيبة من شجاعة المستهين بالموت.. ظلت تلك الفئة القليلة قابضة على الممر يوما كاملاً، يهاجمها من الأمام والخلف قوة الفرس بأجمعها. فاستطاعت أن تغطي تراجع الجيش الإغريقي الرئيسي، وأنزلت بالغزاة خسائر فادحة ورفعت مهابة المحاربين الإغريق على مهابة الميديين رفعا يعلو بها عما فعله النصر في معركة ماراثون (Marathon).

وأخذت فرسان الفرس ومركباتهم تنساب انسيابا بطيئًا خلال ممر ترموبيلاي الضيق، وتقدمت نحو أثينا بينما كانت تدور في البحر سلسلة من الالتحامات البحرية. وتراجع الأسطول الهليني أمام تقدم العمارة الفارسية، التي أصيبت بخسارة فادحة بسبب جهلها النسبي بالسواحل المعقدة الكثيرة التعاريج وبتقلبات الجو المحلي. على أن ضخامة العدد هي التي حملت الجيش الفارسي قُدما نحو أثينا، والآن وقد ضاع ممر ثرموبيلاي، لم يبق هناك من خط دفاع أقرب من برزخ كورينثة، وكان معنى هذا هو التسليم في كل الأراضي الواقعة بين منطقتي ثرموبيلاي وكورينثة بما في ذلك مدينة أثينا، وهذا معناه أنه لم يبق أمام السكان إلا أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يفروا وإما أن يستسلموا للفرس. خضعت طيبة ومعها بوءوتيا بأجمعها (Boeotia)، وارغمت على الانضواء إلى الجيش الفارسي فيما عدا بلدة واحدة هي بلاتايا (Plataea) التي فر سكانها إلى أثينا. وجاء دور أثينا بعد ذلك، وبذل الفرس جهودا عظيمة لإقناعها بالتسليم لهم. ولكن جميع السكان أصروا على التضحية بكل شيء والنزول إلى السفن. فحمل النساء وغير المحاربين إلى سالاميس (Salamis) والجزر المختلفة المجاورة. ولم يبق في المدينة غير عدد قليل من الناس ممن أقعدتهم السن عن الحركة أو ممن خالفوا الإجماع، فاحتلها الفرس وأحرقوها. فأما الأشياء المقدسة والتماثيل

التي أحرقت في هذه المرة فإنها دفنت فيما بعد في الأكروبول إذ تولى دفنها الأثينيون العائدون، وعثر عليها في عصرنا هذا وبها آثار الحريق ظاهرة. وأرسل إجزرسيس إلى سوسا رسولاً راكبا يحمل البشرى ودعـا أبناء بيزستراتوس (Peisistratus) الذين كانوا معه، أن يعودوا إلى تراثهم وأن يقدموا الضحايا مـن فـوق الأكروبول جريا على الطريقة الأثينية.

وفي نفس الوقت كان الأسطول الهليني الموحد انتقل إلى سالاميس وهناك انقسمت الآراء انقساما مريـرا بين أعضاء مجس الحرب. وكانت كورينثة، والدول التي وراء البرزخ تطلب أن يتراجع الأسطول إلى ذلـك المركز، أي إلى كورينثة تاركًا مدن ميجـارا (Megara) وآيجينـا لرحمـة القـدر. ولكـن ثميسـتوكليس (Themistocles) أصر بكل قواه على القتال في مضيق سالاميس. وظلت الغالبية تميل إلى التقهقر، حتـى جاءت الأخبار فجأة بأن خط التراجع قد قطع. فإن الفرس أبحروا حول سالاميس وقبضوا على ناصية البحر من الجهة الأخرى. وقد حمل هذه الأخبار أريستيديس العادل الذي أسلفنا عليك أمر نفيه مـن أثينـا، وأبلـت رجاحة عقله وفصاحته أحسن بلاء في معاونة ثميستوكليس على تشجع القواد المترددين. كان هذان الرجلان عدوين لدودين فيما سلف ولكنهما إزاء الخطر العام تناسيا شحناءهما في تسامح نادر في تلك الأيام. وخرجت السفن الإغريقية للقتال عند الفجر.

وكان الأسطول الآخر أكثر تخليطًا وأقل اتحادا وانسجاما من أسطولهم غير أنه كان يبلغ ثلاثـة أضـعاف أسطولهم تقريباً. وكان الفينيقيون في أحد جناحيه، والإغريق الأيونيون من سكان آسيا والجزر فـي الجنـاح الآخر. فحارب بعض هؤلاء الأخيرين حرب العتاة على حين تذكر الآخرون أنهم هم كذلك مـن الإغريـق. وكانت سفن الإغريق في الناحية الأخرى يديرها في غالب الأمر رجال من الأحـرار يقـاتلون مـن أجـل أوطانهم. واحتدمت المعركة في ساعاتها الأولى احتداما اختلط فيه الحابل بالنابل. ثم اتضح لإجزرسيس وهو يراقب النضال أن أسطوله كان يحاول الفرار. وتحول الفرار إلى كارثة.

وكان إجزرسيس اتخذ مجلسا في مكان يرقب منه المعركة، فرأى سفنه تدقها حيـازيم السـفن الأخـرى الحادة؛ ورأى رجاله المحاربين يصرعون، ورأى الأعداء ينزلون في سفنه. وكانت طريقـة حـرب البحـر الغالبة في تلك الأيام هي الصك والمصادمة. فكانت السفن الكبيرة تثقب السفن المعادية لها وتغرقها لتفوقهـا عليها في قوة الصدمة أو كانت تهشم مجاديفها وبذلك تقضي على مقدرتها على المـداورة، وتتركهـا قعيـدة مغلوبة على أمرها. ثم ما لبث إجزرسيس أن رأى بعض سفنه المكسورة تسلم للأعداء. وكـان يسـتطيع أن يرى في الماء رءوس الإغريق وهم يسبحون إلى البر؛ "فأما رجاله البرابرة فقد هلك العدد الأكبر منهم فـي البحر لجهلهم السباحة". ثم بذل الصف الأول من الأسطول الفارسي وهو محصور مضيق عليه جهدا تعـوزه المهارة ليتزحزح عن مكانه قليلاً فأفضى ذلك إلى ارتباك لا سبيل إلى وصفه، فاصـطكت بعضـها بالسـفن الفارسية الواقفة خلفها. وكانت هذه السفن القديمة أصنافًا ضعيفة هزيلة لا تصلح للبحر إذا قيسـت إلـى أي صنف حديث من السفن. وكانت الريح الغربية تهب، وكان كثير من سفن إجزرسيس المهشمة تسوقها الرياح حتى تتوارى عن مجال بصره وتتحطم على أحد الشواطئ البعيدة. وذلك بينما الإغريـق يسـحبون بعضـها الآخر إلى سالاميس على حين شرع البعض الآخر المصاب إصابة أقل وما زال كامل عدة القتال، ينسـحب

نحو السواحل القريبة من الملك لكي يصبح في حماية الجيش. وهناك أخذت السفن تتقابل متناثرة على الجزء البعيد من البحر فيما وراء الرءوس، وهي بعيدة غير واضحة المعالم لائذة بالفرار – تطاردها السفن الإغريقية. وقد أخذت الكارثة تتجلى لناظري الملك – في بطء – إذ يظهر له منها حدث بعد حدث. وإنا لنستطيع أن نتصور الحال وقد أخذ الرسل يغدون ويروحون ويصدر الملك أوامر عاجلة لا غناء فيها ويغير الخطط طيلة نهاره. وكان إجزرسيس قد خرج في الصباح مزودا بالمنصات لكي يلحظ من فوقها أحسن قواده بلاء في القتال فيكافئه على حسن بلائه، ولكنه رأى وذهب الأصيل يملأ السماء – قوة فارس البحرية تذهب بددا بين غريقة ومحطمة، ورأى الأسطول الإغريقي سليما مظفرا أمام سالاميس، وهو ينظم صفوفه، كأنما لا يزال غير مصدق بما أصاب من نصر.

ظل الجيش الفارسي عدة أيام على مقربة من مكان المعركة البحرية، كأنما لم يستقر على رأي، ثم أخذ يتراجع إلى تساليا، حيث أشار بعض الناس على الملك أن يقضي الشتاء ثم يواصل الحملة. بيد أن إجزرسيس شأنه شأن دارا الأول من قبله تملكه السأم والضيق من الحملات الأوربية، وخشي تدمير جسر الزوارق، فواصل المسير مع جزء من جيشه حتى الهسبونت (الدردنيل) تاركًا القوة الكبرى في تساليا تحت قيادة قائد اسمه ماردونيوس (Mardonius). ويروي لنا المؤرخ قصة تراجعه على النحو الآتي:

"إنهم أيان ساروا، وحيثما حلوا عند أي من الشعوب يأخذون حاصلات ذلك الشعب، ويستعملونها في مئونتهم، فإن لم يجدوا حاصلات، أخذوا الكلأ النابت في الأرض، وكم كانوا يسلبون الأشجار لحاءها، ويسقطون أوراقها ويلتهمونها، لا تمييز في ذلك عندهم بين الأشجار المزروعة والأشجار التي تنمو برية. وكانوا لا يتركون شيئًا من ورائهم، وقد فعلوا ذلك بسبب المجاعة. ثم فشا فيهم فضلاً عن ذلك الطاعون والدوسنتاريا التي أهلكتهم أثناء الطريق، والبعض منهم أيضا – وكان مريضا – تركه الملك من ورائه مكلفًا المدن التي قد يحدث أن يمر بها آنذاك أثناء مسيره بأن تعنى بهم وتعولهم، وترك بعض هؤلاء في تساليا، وبعضهم في سيريس (Siris) الواقعة في بايونيا (Paionia) وترك البعض في مقدونيا... وبعد أن اخترقوا تراقيا وصلوا إلى مضيق الهلسبونت فعبروه في سرعة إلى أبيدوس بالسفن، إذ إنهم لم يجدوا الجسر الطافي ممتدا عبر البحر، لأن إحدى العواصف حطمته. وأقام الجند هناك حينًا وزعت عليهم فيه جراية من الطعام أكثر مما كانوا ينالون في الطريق. فمات كثير من رجال الجيش الذين ظلوا سالمين حتى ذلك الحين، نتيجة لإشباعهم نهمهم بغير حساب وكذلك من تغيير الماء، ووصل الباقون مع إجزرسيس إلى سارديس".

١٠- بلاتايا وميكال

ظل سائر الجيش الفارسي في تساليا تحت قيادة ماردونيوس، الذي استمر سنة بأكملها يقـوم بـالحملات العدوانية على الإغريق. ثم هزم آخر الأمر وقتل عام ٤٧٩ ق. م في معركة أعد لها الطرفان عـدتهما فـي بلاتايا. وفي نفس ذلك اليوم أصيب أسطول الفرس وأحد جيوشهم البرية بكارثة مزدوجة تحت ظـلال جبـل ميكالي على أرض آسيا الصغرى بين إفيسوس ((Ephesus) وميليتوس. ذلك بأن الفرس غلبهم الخوف على سفنهم من الإغريق فسحبوها إلى الشاطئ وبنوا من حولها جدارا. ولكن الإغريق نزلوا إلى البر واقتحموا تلك الحظيرة عنوة، ثم أقلعوا إلى الهلسبونت ليدمروا ما تبقى من جسر الزوارق حتى لقد اضطر من فر عقيـب ذلك من الفرس الهاربيين من بلاتايا أن يعبروا بالسفن عند البوسفور مكابدين في ذلك أكبر مشقة.

ويقول هيرودوت إن المدن الأيونية في آسيا شجعتها تلك الكوارث التي أصـابت قـوة الإمبراطوريـة، فظهرت فيها للمرة الثانية بوادر العصيان ضد الفرس.

وبهذا ينتهي الكتاب التاسع من تاريخ هيرودوت الذي كان مولده قرابة (٤٨٤ ق. م) فهو إبـان معركـة بلاتايا كان طفلاً يناهز الخامسة. والكثير من مادة تاريخه قد جمعه هو بنفسه واستقاه ممن حضروا بأنفسـهم وشهدوا بأعينهم الأحداث العظيمة التي يقصها. واستمرت الحرب تجر أذيالها زمانًا طويلاً. فـإن الإغريـق ناصروا ثورة شبت ضد الحكم الفارسي في مصر، وحاولوا أن يستولوا على قبرص فلم يوفقوا. ولـم تنتـه الحرب إلا حوالي سنة ٤٤٩ ق. م. ثم أصبحت سواحل آسيا الصغرى الإغريقية والمدن الإغريقية في البحر الأسود حرة بوجه عام، على أن قبرص ومصر استمرتا تحت الحكم الفارسي، فأما هيرودوت الذي ولد رعية فارسية في مدينة هاليكارناسوس الأيونية، فكان يبلغ عند ذاك الخامسة والثلاثين، ولا بد أنه انتهز أول فرصة بعد ذاك السلم بين بلاده وبين الفرس ليزور بابل وفارس. والراجح أنه ذهب إلى أثينا ومعه تاريخـه معـدا للإلقاء حوالي (٤٣٨ ق. م).

ولم تكن فكرة إيجاد اتحاد عظيم للإغريق هدفه مهاجمة فارس، فكرة غريبة كل الغرابة على هيـرودوت. ويظن بعض قارئيه أنه كتب مؤلفه التاريخي لتقوية تلك الفكرة ورفع شأنها. ولا شك أن جو ذلك الزمان كان مشبعا بعبير تلك الفكرة. وهو ينسب إلى أرستاجوراس، زوج ابنة هيستيائيوس أنه عرض على الإسـبرطيين "لوحة من البرونز حفرت عليها خريطة العالم أجمع بما فيه من بحار وأنهار" وهـو يحكـي علـى لسـان أرستاجوراس قوله:

"إن هؤلاء البرابرة ليسوا شجعانًا في القتال، وأنتم من الناحية الأخرى، قد وصلتم إلى أقصـى درجـات المهارة في الحرب، وهم يحاربون بالقسي والسهام وبالحربة القصيرة، ويدخلون المعارك مرتدين السـراويل وقد وضعوا الكمات (أي القلانس) على رءوسهم، وأنتم قد استكملتم عدة قتالكم وأسلحتكم ونظامكم، فهم قريبو الغلبة هينوها، وليس لدى كل شعوب العالم ما يملكونه من الذهب والفضة والبرونـز والأثـواب المطـرزة والحيوانات والعبيد فكل هذا ربما تختارونه لأنفسكم لو أنكم شئتم ذاك".



٧١ - خريطة

وانقضت مائة عام قبل أن تؤتي هذه الآراء ثمارها.

ثم قتل إجزرسيس في قصره حوالي (٤٦٥ ق. م)، ومن بعدها لم تقم فارس بأية محاولة أخرى للغزو في أوربا. وليس لدينا من العلم بما كان يجري في إمبراطورية الملك العظيم من أحداث قدر ما لدينا عن أحداث الدول الصغيرة ببلاد الإغريق الوسطى، فقد شرعت بلاد الإغريق فجأة في إنتاج الأدب. وخلدت نفسها فـي سجل التاريخ على شاكلة لم يأتها من قبل أي شعب حتى ذلك الزمان. ويبدو أنه بعد (٤٧٩ ق. م) (أي عـام معركة بلاتايا) أخذت روح النشاط تفارق حكومة الميديين والفرس، ثم دخلت إمبراطورية الملك العظيم بعدها في فترة شيخوخة وانحلال، ويمر عبر المسرح أرتجزرسيس ثم إجزرسيس ثان ثم دارا جديد. وتحدث الفـتن في مصر وسوريا، ويثور الميديون، ويقتتل على الملك أرتجزرسيس آخر وقورش آخر وهما شقيقان. ويكاد هذا التاريخ أن يماثل تاريخ بابل وآشور ومصر في قديم الأيام، فهو صورة الأوتوقراطية، وقد عادت سيرتها الطبيعية الأولى من جرائم القصور والأبهة الملوثة بالدماء والفسوق والأرجاس الأخلاقية. على أن هذا الكفاح بين الشقيقين أنتج درة إغريقية يتيمة، لأن هذا الملك المسمى قورش الثاني جمع جيشًا من مرتزقة الإغريـق دخل به مملكة بابل. وهناك لقي مصرعه في ساعة نصره على أخيه أرتجزرسيس الثاني، وعند ذلك أصـبح عشرة الآلاف إغريقي فوضى ولا سيد لهم يستخدمهم، فتراجعوا إلى ساحل البحر ثانية (٤٠١ ق. م) وقد خلد هذا التراجع كتاب من أوائل ما سطر في صفة الحرب وسير أبطالها هو كتاب الصعود [1] الذي ألف قائـدهم زينوفون".

وتوالت جرائم القتل والثورات وحوادث القمع والتأديب، وتعاقبت المحالفات الخبيثة والخيانات الوضـيعة. ومن أسف أن الأيام لم تتح لنا مؤرخًا عظيما كهيرودوت يسجل أحداثها. ذلكم هو نسيج التاريخ الفارسـي!!! وجاءت حقبة من الزمن ازدهر فيها ازدهارا معتما ضعيفًا حكم ملك آخر هو أرتجزرسيس الثالـث الملطـخ بالدماء. "ويقال إن أرتجزرسيس الثالث قد قتله باجواس وولى على العرش مكانه أرسيس أصغر أبناء الملـك لكي يقتله بدوره عندما أظهر شيئًا من الاستقلال في التصرف.

([1]) الصعود (Anabaals) – وهي كلمة يونانية معناها التوغل والزحف من شاطئ البحر إلى هضبة آسيا الصغرى، والكتـاب يمتاز بأسلوبه السهل البسيط. (المترجم).

على هذا النهج تسير الأمور. فأما أثينا فإنها بعد أن أخذت بأسباب التقدم حينًا من الزمـان عقيـب صـد الفرس، ألم بها الطاعون الذي مات فيه بريكليس أعظم حكامها (٤٢٩ ق. م). ولكن تنهض في غمـرة هـذه الفوضى حقيقة جديرة بالتنويه: فإن عشرة الآلاف الذين قادهم زينوفون كانوا يتناثرون آن ذاك بين ظهرانـي المدن الإغريقية، مكررين على الأسماع ما لمسوه بأنفسهم من صـدق مـا أعلنـه أرسـتاجوراس مـن أن الإمبراطورية الفارسية إنما هي فوضى شاملة يخالطها الغنى والثراء، وأن أمر غزوها من السـهولة بمكـان على ذوي العزم من الرجال.

الفصل الحادي والعشرون

الفكر والأدب والفن عند الإغريق

١- أثينا في عصر بريكليس.

٢- سقراط.

٣- أفلاطون والأكاديمية.

٤- أرسطاطاليس والليسيوم.

٥- الفلسفة تصبح غير دنيوية.

٦- نوع الفكر الإغريقي وتحديداته.

٧- أول أدب خائل عظيم.

٨- الفن الإغريقي.

١- أثينا في عصر بريكليس

إن تاريخ الإغريق في الأربعين سنة التالية لمعركتي بلاتايا وميكالي إنما هو قصة سلم وهدوء نسبيين. نعم نشبت الحروب، ولكنها لم تكن حروبا ضروسا. وتهيأت لفريق من الموسرين في أثينا الفرص وأسباب الفراغ إبان فترة قصيرة من الزمان. فكان لهذه الفرص وهذا الفراغ أبعد النتائج أثرا وأطولها عمرا بسبب تفاعل الحوادث وتجمعها بعضها مع بعض والمسلك الذي سلكته فئة قليلة من الناس.



٧٣ — بركليس

وكان لوصولهم إلى طريقة للكتابة تستطيع أن تنقل الأصوات وتحمل دقائق لغة الكلام، أثر جعل نشوء الأدب أمرا ممكنا، فنتج الكثير من الأدب الجميل الرائع، وازدهرت فنون التشكيل، وثبتت دعائم العلم الحديث التي سبق أن وضعها من قبل فلاسفة المدن الإغريقية الأيونية الأول. ثم انقضت فترة امتدت خمسين عاما أو تزيد، انفجرت على أثرها العداوة التي ظلت نيرانها تسري تحت الرماد بين أثينا وإسبرطة، فأصبحت حربا عبوسا موهنة للقوى، امتصت آخر الأمر كل حيوية هذه الحركة الإنشائية الخلاقة.

وتعرف هذه الحرب باسم حرب البيلوبونيز، وقد استمرت قرابة ثلاثين عاما. واستنفدت كل قوى بلاد الإغريق. وقد سطع نجم أثينا في بادئ الأمر ثم تألق حظ إسبرطة. ثم قامت طيبة – وهي مدينة تقل المسافة بينها وبين أثينا عن خمسين ميلاً – تنافس إسبرطة وتبزها. وعادت أثينا مرة ثانية إلى الطليعة بوصفها رئيسة لاتحاد عقدته بين المدن. تلك قصة منافسات ليس لها من سبب معقول يبررها، وكانت حرية أن يتناساها الناس منذ أمد طويل، لولا أن الإغريق دونوها وصوروها في أدب رفيع.

وتبدو فارس طوال هذا الزمان ثم تختفي ثم تعود فتبدو من جديد حليفة لهذه العصبة أو لتلك. ثم يداخل بلاد الإغريق عند قرابة منتصف القرن الرابع ق. م شعور بوجود مؤثر جديد في شئونها، وهو فيليب ملك مقدونيا. فإن مقدونيا تنهض بالفعل في خلفية [1] بلاد الإغريق التي أعيا انقسامها من يداويه – نهضة الميديين والفرس من قبل خلف الإمبراطورية الكلدانية. ثم يأتي زمان يولي فيه العقل الإغريقي ظهره لمنازعاته (إن حق لنا استعمال هذا التعبير)، ويحدق ببصره شاخصا إلى ذلك المقدوني وقد شمله منه فزع عام.

---

(1) الخلفية (Back – ground) كلمة وضعها المجمع اللغوي لتدل على ما يظهر في مؤخرة أية صورة. (المترجم)

لا شك أن المنازعات الارتجالية الإجرامية تظل كذلك مهما قيل من أن ثوسيديدس [1] قام بقص القصة بحذافيرها على أسماعنا، ولن يزيدها إلا إمعانًا في الإجرام والارتجال – أنها انتهت إلى ما انتهت إليه من تحطيم بدايات عظيمة لحضارات جديدة بسبب ما تمخضت عنه من شامل الفوضى. ولسنا بمستطيعين في هذه المعالم العامة أن نفسح المجال لتفاصيل هذه المنازعات الداخلية وهذه الحروب والهزائم التي كثيرا ما أطاحت إلى عنان السماء بواحدة من المدن الإغريقية أولاً ثم بأخرى ثانيا وهي تتأجج نارا وتتسعر لهيبا. ولو تأملنا بلاد الإغريق لما وجدناها تعادل بالقياس إلى كرة أرضية مصغرة قطرها قدمان [2] إلا ذرة صغيرة لا تكاد العين تميزها لدقتها. كما أن كتابا موجزا في تاريخ الإنسانية لا بد أن يخفت فيه ضجيج هذا القرن المليء بالانقسامات الذي يمتد بين أيام سالاميس وبلاتايا وبين ظهور الملك فيليب، فيصبح وسوسة خفيضة لا تكاد تسمع لها نأمة، أو يصبح مجرد هينمة عابرة على صفحة الفرصة السانحة التي مرت سريعا بالشعوب والرجال على السواء.

على أن الشيء الذي لا تتناقص أهميته لأنه امتزج بثقافة الأمم اللاحقة كلها، ولأنه جزء من دعامتنا العقلية لا يمكن فصله عنها – ذلك الشيء هو الأدب الذي أنتجته بلاد الإغريق في أثناء فترات قصيرة من السلام ولمحات بارقة من الهدوء والطمأنينة التي أتاحتها تلك الأيام.

يقول الأستاذ جلبرت موراي:

"الواقع أن تاريخهم السياسي الخارجي كتاريخ كل الشعوب الأخرى مليء بالحروب والدبلوماسية وبالقساوة والخداع. وإنما العظيم حقًا هو التاريخ الداخلي، تاريخ الفكر والشعور والخُلق. كانت أمامهم بعض صعاب يناضلونها، وهي صعاب لا تكاد اليوم تعرض لنا. ولم تكن لديهم في الواقع أية خبرة ولا مرانة، بل كانوا يجربون كل شيء لأول مرة. وكانوا في غاية الضعف في مواردهم المادية، وكان ما يعتلج في نفوسهم من عواطف ورغبات ومخاوف وغضبات أشد جموحا فيما يرجح مما لدينا. ومع ذلك فإنهم أنتجوا أثينا بريكليس وأفلاطون".

([1]) ثوسيديدس سياسي وزعيم أثيني معارض لبريكليس؛ أعظم مؤرخي الإغريق كافة؛ ألف كتاب تاريخ حرب البيلبونيز. وهو سفر يمتاز بالدقة والتمحيص؛ كاتبه شاهد عيان مستقل محايد غير متحيز؛ وجيز النسج بارع السبك؛ يتصف أسلوبه بالتدفق والبساطة، رائع الخطاب. ولد ٤٦٠ ق.م. تقريبا، وأصبح قائدا بحريا في حرب البيلبونيز ونفي ٢٠ عاما وعاد وقتل ٣٩٥ ق.م. (المترجم).

([2]) يشير الكاتب بهذا إلى الصورة التي تصورها للكون في الجزء الأول من المعالم ص ١٧. (المترجم)

إن هذه الذرا العجيبة التي تسنمتها قوى العقل الإغريقي الخلاقة التي ظلت زمانًا طويلاً تتجمع والتي ظلت عشرين وثلاثة من القرون نبراسا منيرا من الماضي لذوي الألباب من الرجال يرشدهم ويبث فيهم الإلهام، قد ثارت حمياها بعد معركتي ماراثون وسالاميس، وجعلت من أثينا بلدا حرا لا يخشى شيئًا، وهيأت لها السيادة والسلطان في عالمها وإن لم يتح لها تفوقها العسكري والمادي ما يبرر تلك العظمة. كان ذلك عمل فئة قليلة جدا من الرجال تعد على الأصابع. فإن بضع نفر من مواطنيها قضوا معظم جيلهم في ظروف كانت ولا تزال في جميع العصور تبعث الرجال على أن ينتجوا من الأعمال كل ما هو جميل وخير. كانوا في أمنة وكانوا أحرارا، وكانت بهم كبرياء وما كانوا يعرفون ذلك الإغراء الذي يصاحب كل ذي سلطان ظاهر غير منازع، والذي يحملنا جميعا على إيقاع الأذى بإخواننا. ولما أن ضاق صدر الحياة السياسية مرة ثانية فهوت إلى دركات الفساد والضياع التي يقتل فيها الأخ أخاه – كما تجلى ذلك في الحرب مع إسبرطة – كان هناك لهيب متقد للنشاط الذهني بلغ من قوته واتساع رحابه وحسن تغذيته أن استمر على كل المحن العاصفة في تلك الحرب، وإن جاوز حياة الإسكندر الأكبر الوجيزة الأمد، فدام بذلك فترة من الزمان مجموعها الكلي يربو على مائة سنة منذ بداية الحروب.

وإذ كان أهل أثينا قد ملأهم النصر حمية، وتشبعت نفوسهم بشعور الحرية التي ظفروا بها عن جدارة فإنهم لبثوا يرقون مراقي النبل والعزة ردحا من الزمان. وعندما كانوا تحت قيادة الديماجوج [1] العظيم بريكليس كبير موظفي الجمعية العمومية الأثينية، وهو رجل دولة وسياسي خطير، يكاد يقارب جلادستون أو لنكولن في التاريخ العصري – هفت أنفسهم للقيام بواجب إعادة بناء مدينتهم وتوسيع تجارتهم. وانقضت فترة من الزمان تهيأ لهم أثناءها أن يتبعوا في سماحة زعيما كريم النفس مسماحا. وحباهم القدر بذلك الزعيم في شخص بريكليس. وكان يجمع بشكل نادر المثال بين المقدرة السياسية والإحساسات الحية نحو كل ما هو عميق ورفيع رائع، وظل قابضا على ناصية الحكم ما يربو على الثلاثين عاما. وقد أوتي قوة خارقة وحرية فكر تفوق ما ألفه الناس. فطبع زمانه بطابع تلك الصفات. وقد نوه وينكلر بأن وجه بريكليس وطابعه، ظلا حينًا من الدهر مطبوعين على الديمقراطية الأثينية. وكان بريكليس يعتمد على صداقة ربما كانت نبيلة سامية، عقدت أواصرها بينه وبين أسبازيا. وهي امرأة من ميليتوس عالية الروح ممتازة التربية، وكان لا يستطيع الزواج منها بسبب القانون الذي يقصر حق المواطنية الأثينية على المولودين في أرضها، ولكنها كانت في الواقع زوجة له. لعبت أسبازيا دورا عظيما في أن تجمع من حوله رجالاً لهم مواهب غير عادية. فكان يعرفها كل عظماء الكتاب في زمانها. وأثنى الكثير منهم على حكمتها. حقًا إن بلوتارك يتهمها بإضرام حرب خطيرة مروعة ضد ساموس وإن انتهت بالنصر ولكن الأمر كما بينه هو نفسه فيما بعد، كان أمرا تحتمه العداوة البحرية التي أظهرها أهل ساموس والتي كانت تهدد تجارة أثينا فيما وراء البحار، وكان يتوقف عليها كل رخاء الجمهورية ورفاهيتها. وأطماع الرجال عرضة على الدوام أن تعكس صورة المعايير التي عليها

---

(1) الديماجوج ومعناها زعيم الأحرار وهي مشتقة من ديموس Demos بمعنى الشعب وأجوجوس Agogos بمعنى قائد ومرشد. وكانت في البداية تدل على الزعيم المسيطر على الجماهير ثم حرفت فيما بعد فغدت تعبر عن زعيم الفوضى والتهريج. (المترجم)

قرناؤهم وخلطاؤهم. فقد كان بريكليس قانعا على كل حال، بأن يخدم أثينا زعيما عن أن يتسلط عليها طاغية. وبإرشاده وتدبيره عقدت المحالفات وتأسست مستعمرات جديدة ومحطات تجارية من إيطاليا إلى البحر الأسود. ونقلت كنوز الحلف من ديلوس إلى أثينا. ولما كان بريكليس واثقًا من منعته وعصمته من خطر فارس، فإنه أنفق مدخرات الحلفاء لحرب فارس في تجميل مدينته. ولم يكن هذا تصرفًا قويما إذا قيس بمعايير عصرنا هذا. على أنه لم يكن تصرفًا وضيعا أو قائما على الطمع، فإن أثينا تحملت بمفردها ما كان على حلف ديلوس من أعباء، أفليس العامل جديرا بنيل أجره؟ فاستيلاؤه على هذا المال هيأ له فرصا استثنائية لاستخدام مهندسي العمارة والفنانين. وما كان البارثينون (Parthenon) الأثيني الذي لا تزال على خرائبه مسحة الروعة والجمال. إلا الإكليل الذي توج مجد أثينا التي أعاد بناءها بريكليس. وإن أمثال تلك النحائت والتماثيل التي تركها فيدياس (Phidias) ومايرون (Myron) وبوليكليتوس (Polyclitus) والتي لا تزال موجودة، لتشهد بعظمة الفن في ذلك الزمن.

وعلى القارئ أن يتذكر تلك الملاحظة المشرقة التي أوضح بها وينكلار أن أثينا هذه المنبعثة بعثًا جديدا ظلت حينًا من الدهر تحمل طابع وجه بريكليس. فإن عبقرية هذا الرجل الفذة والجو الزاكي المحيط به هما اللذان أطلقا نبوغ من حوله من الرجال من عقاله، واجتذب إلى أثينا رجالاً ذوي عقليات جبارة. وقد تلثمت أثينا بوجهه فترة من الزمان، كما يرتدي المرء أحد الأقنعة، ثم داخلها الضجر وأرادت التخلص منه. وما كانت نفس الأثيني العادي تنطوي على مثقال ذرة من العظمة والسماحة. ولقد عرضنا عليك من قبل نموذجا لروح الأثيني الحر أثناء الاستفتاء في نفس أريستيديس نفيا سياسيا. ويصرح لويد في كتابه "عصر بريكليس" بأن الأثينيين لم يكونوا يطيقون سماع اسم ملتيادس مقرونًا بمعركة ماراثون. وسرعان ما دفع الاعتزاز الشديد بالكرامة عامة الناخبين إلى الثورة على تلك المباني الأنيقة التي ترتفع أمام أنظارهم إلى عنان السماء، وعلى ما كان يلقاه أمثال فيدياس من المثالين من حظوة وتكريم يفوقان ما يناله نظراؤهم في الصنعة المحبوبون من الشعب، وعلى المنح التي كانت تعطى لأجنبي محض مثل هيرودوت الهاليكارناسي، وعلى خدش بريكليس لكرامتهم بإيثاره لصحبة امرأة ميليطية وتفضيله حديثها. وكانت حياة بريكليس العامة منظمة تنظيما ملحوظًا أدى برجل الشارع أن يظن في حياته الخاصة الفساد الشديد والرشوة. على أن الدلائل كلها تنبئ أن بريكليس كان ممتازا مترفعا في سلوكه، وقد أظهر في بعض الأوقات احتقاره للمواطنين الذين كان يسهر على رعاية مصالحهم.

"ولم يوهب بركيليس فقط سموا في العاطفة ورفعة وتنزيها لأسلوبه يرفعه تماما عن تعبير السوقة الوضيع، بل كان كذلك وقورا عبوسا لا يلين، ولا يجنح إلى ضحك أو تبسم، كما كانت نبرات صوته ثابتة متزنة، وسلوكه هينًا سهلاً، وكان ذوقه في الثياب سليما فلم يؤثر عنه قط أنه تخلى عن حسن هندامه لحدة في الحديث، فهذه الأشياء وغيرها مما يماثلها في طبيعتها، قد استثارت إعجاب كل من رآه، وعلى هذه الشاكلة كان خلقه وسلوكه عندما ظل أحد الأوغاد يلاحقه يوما كاملاً بألوان التقريع والسباب. فتحمل الأذى بالصمت والصبر، واستمر يرسل الرسل أمام الملأ في بعض الشئون الماسة، ثم سار في المساء إلى منزله في هدوء يتبعه ذلك التعس الوقح، وهو يهينه أثناء الطريق بأقذع لغات السباب. ولما كان الظلام قد خيم عندما وصل

إلى باب داره، فإنه أمر أحد خدمه بأن يأخذ مشعلاً يضيء به للرجل الطريق حتى يعود إلى منزله. ومع ذلك يقول الشاعر أيون (Ion)، إنه كان متكبرا ومترفعا في حديثه، ويخالط وقاره وعزة نفسه قـدر عظـيم مـن الغرور والاحتقار لمن سواه، فكان لا يبدو في الشوارع إلا ساعة ذهابه إلى الفوروم (سـوق المدينـة [١]) أو دار الشيوخ [٢]. وكان يرفض دعوات أصدقائه، ويمتنع عن كل حفلات السمر والنزهات الاجتماعية إلى حـد أنه إبان توليته السلطة – وهو أمد طويل – لم يذهب قط ليتعشى مع أي صديق من أصدقائه إلا مرة واحـدة، وذلك يوم زواج ابن أخيه يوريبطليموس (Euryptolemus) ولم يلبث هناك إلا ريثما انتهى طقـس صـب النبيذ المقدس، وكان ممن يعتقدون أن حرية السمر تزيل كل جاه الوظيفة ووقارها، وأن الكرامة لا تستقيم مع رفع الكلفة...".

ولم يكن هناك حتى ذلك الحين أية صحافة وضيعة تظهر العالم على دنايا الخاصـة المبـرزين والعليـة الموفقين وخستهم. على أن الرجل العامي كان لما يدخله من الغرور والاعتداد بالنفس، يجد قدرا كبيرا مـن السلوى في فن الملهاة (الكوميديا) التي ازدهرت أيما ازدهار. وأشبع كتاب الكوميديا تلهف العامة الشديد الذي يكاد يشملهم جميعا على الحط من قدر أولئك الذين تجرح عظمتهم الظاهرة حب الناس لأنفسهم. لذا لم يكفـوا البتة عن رمي بريكليس وأصدقائه بكل نقيصة دنسة. وحدث ذات يوم أن صور أحد المثالين بريكليس وعلى رأسه خوذة، فأصبحت إشارة إليه ورمزا تهكميا عليه، ولعله ألم بطرف من تلك القصة. وأثارت قصة الخوذة مرحا ومزاحا لا نهاية له عندما اقترح بعضهم الاستعاضة عن الرأس ببصلة مشوهة تشويها مخيفًا. وكانـت "حركات أسبازيا وسكناتها" بالطبع كرمة مثمرة تنهشها تخرصات رجل الشارع.

ولطالما تمنت النفوس الحالمة حين تضيق ذرعا بوضاعة زماننا هذا وانحطاطه لو نقلـت إلـى عصـر بريكليس الرفيع. على أنهم لو قذفوا إلى أثينا المشتهاة تلك، لوجدوا أنفسهم في نفس الجو الوضيع الذي تتمرغ فيه الحياة في أدنى أنواع صالات الموسيقى العصرية، والذي يتجلى في الصـحف الشـعبية تجليـا كبيـرا، ولوجدوا أفحش لفحات السباب والقذف العلني الصاخب اللاذع، ولهبت عليهم نفس التهم الدنسـة والوطنيـة الشرهة والوضاعة العامة، ولظلت النغمة العصرية تتقفى آثارهم. حتـى إذا اضـمحلت ذكريـات بلاتاتـا وسالاميس، وألفت عيون الناظرين المباني الجديدة، أخذ بريكليس وفخامة أثينا يثيران ثائرة الجمهور وتفكهـه الوضيع شيئًا فشيئاً. أجل لم يحدث قط أنه نفي من أثينا نفيا سياسيا، لأن مكانته لدى المواطنين الأكثر اتزانًـا وقته غائلة ذلك. بيد أنه لبث عرضة لهجمات تتزايد على الأيام جرأة وإصرارا. وقد عاش ومات رجلاً فقيرا. ولعله أطهر وأنزه ديماجوج بين زعماء العامة. على أن هذا لم ينقذه من تهمة اختلاس الأموال فقدم من أجلها إلى محاكمة شوهاء عقيمة. فلما فشل أعداؤه في ذلك لجئوا إلى وسيلة أكثر ضلالة والتواء، فأخذوا يقصـون عنه أصدقاءه.

([١]) الفوروم (Forum) هو سوق المدينة عند الرومان، أما عند اليونان فيسمى ذلك السوق باسم الأجورا (Agora). المترجم.

([٢]) هو مجلس المشورة (Bonlê) عند اليونان ويقابله تقريبا السناتو عند الرومان. (المترجم).

والتعصب الديني والتهم الأخلاقية إنما هي الأسلحة الطبيعية لمن أكل الحسد قلوبهم غيظاً من زعماء الرجال. فنفى صديقه دامون نفيا سياسيا من المجتمع الأثيني. وهوجم فيدياس بتهمة عدم التقوى. فإن فيدياس اجترأ أن يضع على درع التمثال العظيم للربة أثينا صورا له ولبريكليس أضافها إلى صورة تمثل المتحاربين في قتال بين الإغريق والأمازون. وكانت عاقبة ذلك أن مات فيدياس في السجن. وهذا أناكساجوراس ذلك الأجنبي الذي رحب بريكليس بمقدمه إلى أثينا – يوم كان فيها عدد وفير من نزهاء الرجال فأقام فيها وهو على أتم الاستعداد لإشباع كل ما يخالج محبي الاستطلاع من رغبات كريمة – كان يقول أعجب الأشياء عن الشمس والنجوم ويلمح تلميحا لإخفاء فيه أنه لا وجود للآلهة، وإنما توجد في العالم روح تبعث الحياة هي نوس [1]. عند ذلك تبين كتاب الكوميديا على حين فجأة أن لهم مشاعر دينية عميقة، يمكن أن تنزعج انزعاجا شديدا، بل تنزعج بشكل خطر!!، ومن ثم فر أناكساجوراس مما كان يحاك من تدبير لمحاكمته. ثم جاء دور أسبازيا وتجلى في أثينا التصميم على طردها من المدينة. وكان بريكليس موزعا بين المرأة التي يهواها فؤاده وبين المدينة الناكرة للجميل والتي أنقذها ودافع عنها وجعلها أجمل شكلاً وأخلد ذكرا من أية مدينة أخرى في التاريخ. فوقف يدافع عن أسبازيا حتى غلبته عاصفة من العواصف الإنسانية الحقة. فانهلّت الدموع من عينيه وهو يتكلم، وأنقذت عبراته أسبازيا إلى حين.

وقنع الأثينيون بما لحاق بريكليس من إذلال، بيد أنه كان قد أسدى إليهم من الخدمات ما طال به الأمد حتى لم يعد في إمكانهم الاستغناء عنه. إذ مضى عليه وهو في مقام زعامتهم ثلث قرن.

وفي (٤٣١ ق. م) نشبت الحرب ضد إسبرطة. ويتهم بلوتارك بريكليس بأنه عمل على إشعالها، إذ إنه شعر أن حب الجمهور له قد ذوى بسرعة فأشب الحرب ليتمسك به الناس. قال:

"ولما كان هو نفسه قد أصبح لديهم بغيضا بسبب ما كان من فيدياس وكان يخشى أن يستدعي ليستجوب – فإنه عجل بالحرب وكانت حتى ذلك الوقت أمرا غير محقق. فنفخ بذلك في اللهيب الساكن تحت الرماد، وكان يأمل أن يزيل عن نفسه بهذه الوسيلة التهم التي كانت تهدده، وأن يخفف من ثورة الحاقدين عليه، ذلك أنه بلغ من مهابته وسلطانه، أنه كلّما اعترى الجمهورية خطب عظيم، أو تعرضت لخطر فادح كانت تودع كل ثقتها فيه دون سواه".

على أن الحرب كانت حربا بطيئة مخطرة حتى عيل صبر الشعب الأثيني. ونهض رجل طموح يدعى كليون (Cleon) يريد أن ينحي بريكليس عن زعامته. وقامت في المدينة ضجة تدعو إلى إنهاء الحرب عاجلاً. وبذل كليون جهدا لينسب إلى نفسه أنه صاحب الفضل في كسب الحرب". وأخذ الشعراء المحببون إلى الشعب يلعبون على هذه النغمة وينشدون:

---

[1] نوس (nous)، هي كلمة يونانية معناها العقل أو المواهب. (المترجم).



٧٣ – تمثال الربة أثينا في البارثنون

"وأنت يا ملك الساتير [١]... لماذا تفاخر بشجاعتك؟

ومع ذلك فأنت ترجف فرقًا لدى سماعك صليل السيوف المشحوذة، أعن غل ذلك منك على كليون المتوقد؟".

وفشلت إحدى الحملات تحت قيادة بريكليس، فانتهز كليون الفرصة وطالب بمحاكمته وأوقف بـريكليس عـن مباشرة عمله في القيادة وحكم عليه بالغرامة. وتقول القصة بعد ذلك بأن أكبر أبنائه – ولم يكن هذا ابن أسـبازيا، بل من زوجة سابقة – تنكر له وأخذ يكيل له اتهامات دنيئة لا يصدقها العقل. ثم قضى الطاعون على هذا الفتى، ثم ماتت شقيقة بريكليس ثم آخر أبنائه الشرعيين، وبينما هو يضع – على عادة ذلك الزمان – أكاليل الجنازة على جثمان ذلك الغلام أعول بالبكاء وسرعان ما انتقلت العدوى إليه هو نفسه فمات (٤٢٩ ق. م.).

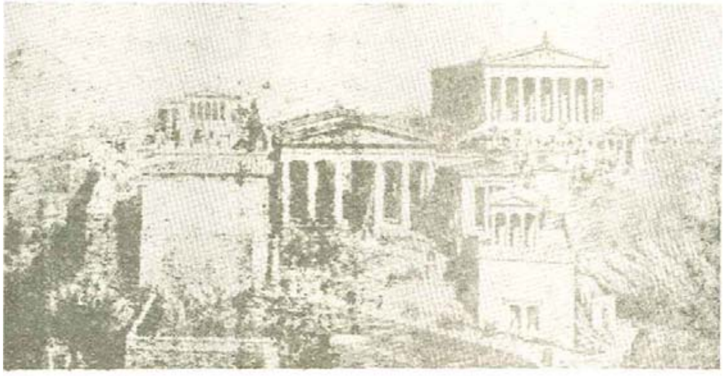
([١]) الساتير (Satyr): طبقة من الكائنات الـطازية (الميثولوجية) الإغريقية، التي ترتبط بعبادة الإله ديونيسوس وتمثـل هـذه الطبقة قوى الطبيعة الحيوية الوافرة. وتبدو الساتير بشعر خشن وأنف مستدير وأذن مدببة كآذان الحيوان وقرنين صغيرين وذنب وساقين كساقي الماعز. وهي تمثل دائما وبيدها الكأس (إيماء إلى حبها للنبيذ والملذات الحسية) أو راقصـة رقصـا تهتكيا أو ممسكة بإحدى الآلات الموسيقية، وكان الناس يخشون شرها. (المترجم).

والحقائق البارزة في هذه الخلاصة الوجيزة تساعدنا على تبيان مبلغ تنافر بريكليس وعدم انسـجامه مـع الشيء الكثير من حياة مدينته. على أن النهضة الذهنية والفنية التي غمرت أثينا كانـت تسـاعدها ولا شـك الظروف السائدة في ذلك الزمان. وهي لم تكن حركة عامة ولكنها ترجع كذلك في بعض نواحيها إلى ظهور بعض الشخصيات الفذة ممن أتيحت لهم فرص استثنائية وأوتوا مواهب فريدة.

٢- سقراط

ومن الشخصيات القيادية الأخرى البارزة في أثينا في هذه النهضة الأثينية رجل اسمه سقراط، وهو شخص أشد من بريكليس عدم انسجام مع حياة عصره كما أنه يعدله في كونه مصدرا اشتهر بالأصالة والابتكار، وكان عاملاً منبها له أثره في عظمة عصره الخالدة. وهو ابن أحد البنائين، ولد بعد هيرودوت بنحو ستة عشر عاما، وكان صيته آخذًا في الذيوع قرب الوقت الذي مات فيه بريكليس. وهو نفسه لم يكتب شيئًا. على أن عادته جرت أن يتكلم في الأماكن العامة. وكان يدور في تلك الأيام بحث عظيم عن الحكمة وكان بالبلاد جمهور مخلّط من المعلمين يسمى السفسطائيين، كانوا يفكرون في الصدق والجمال والحياة الصائبة، ويلقنون العلم عقول الشباب المستطلعة وأخيلتهم النامية. وكان هؤلاء يضطلعون بذلك العمل حيث لم تكن بالبلاد مدارس عظيمة الشأن يقوم عليها الكهنة. وإلى حلبة هذه المناقشات دخل هذا الرجل بسماجته وقبح منظره وتثاقله وحفاء قدميه فالتف من حوله حلقة من المعجبين والتلاميذ.

وكانت طريقته طريقة التشكك العميق. وكان يرى أن الفضيلة الوحيدة الممكنة إنما هي المعرفة الحقة. فهو لا يسمح بأي معتقد. ولا يجيز أي أمل لا يستطيع أن يصمد للامتحان النهائي المرير. وكان معنى ذلك في نظره هو الفضيلة، على أن ذلك كان معناه في عين الكثيرين من أتباعه الضعاف النفوس ضياع المعتقدات والعادات الأخلاقية التي كانت تحد من نزعاتهم ودوافعهم الجامحة. وقد أصبح هؤلاء الضعاف النفوس أنذالاً يتلمسون لأخطائهم المعاذير وينغمسون في الملذات. وكان من بين خلطائه الشبان أفلاطون، الذي خلد بعد ذلك طريقة أستاذه في سلسلة من المحاورات الفلسفية وأسس المدرسة الفلسفية "الأكاديمية"، التي استدامت تسعمائة سنة. وكان أحدهم زينوفون قائد العشرة آلاف الذي دبج وصفًا لموته سقراط. ومن بينهم كذلك إيزوقراط (Isocrates) وهو من أحصف المفكرين السياسيين عند الإغريق وأرجحهم عقلاً. ولكن كان منهم كذلك كريتياس (Critias) الذي أصبح عندما هزمت إسبرطة أثينا هزيمة نهائية – زعيما على الطغاة الثلاثين الذين عينهم الإسبرطيون ليمرغوا المدينة المقهورة في حمأة الحضيض الأدنى من المذلة وليدمروا نظامها التعليمي. ومنهم خارميديس (Charmides) الذي قتل إلى جانب كريتياس عندما خُلع الثلاثون وغلبوا على أمرهم، وألسيبياديس، وهو خائن عريق في الخيانة وقاد الذهن خبيث الطوية قام بدور كبير في دفع أثينا إلى القيام بالحملة على سيراقوزة، تلك الحملة الخاسرة التي انتهت بتحطيم قواها، فخانها عند ذلك وانضم إلى الإسبرطيين. ثم اغتيل آخر الأمر وهو في طريقه إلى البلاط الفارسي حيث كان يبغي أن يدبر الشر للبلاد الإغريق. ولم يكن هؤلاء التلاميذ الأخيرون هم الشبان الوحيدين الذين لاح عليهم من الدلائل ما يبشر بمستقبل حسن، والذين قضى سقراط على عقيدتهم السوقية ووطنيتهم وترك مكانها شاغرا في نفوسهم. وكان ألد خصومة أنيتوس وهو شخص أصبح ابنه وهو تلميذ مخلص لسقراط، سكيرا مدمنًا لا يرجى صلاحه، فسعى أنيتوس جاهدا حتى قدم سقراط آخر الأمر إلى المحاكمة بتهمة إفساد شباب أثينا، وقضى عليه بالإعدام بشرب جرعة سامة مستخرجة من نبات الشوكران (٣٩٩ ق. م).



٧٤ – الاكربوليس قديمه

وفي محاورة أفلاطون المسماة باسم فيدون (Phaedo) وصف لوفاته بالغ درجـة عاليـة مـن الروعـة والجمال.

٣- أفلاطون والأكاديمية

ولد أفلاطون في (٤٢٧ ق. م) وعمر ثمانين عاما.

وكان يخالف سقراط تماما من حيث المزاج الفكري. فقد كان كاتبا أشد الكتاب رقة وجمال ذوق، على حين لم يكن سقراط ليستطيع أن يكتب شيئًا متصل الحلقات. وكان يعنى بالجميل من الأشياء على حين كان سقراط يزدري الجمال.. وكان يعنى عناية فائقة بتنظيم الشئون العامة، وبتدبير الخطط لإقامة علاقات جديدة بين الناس تفضل ما في العالم، على حين كان سقراط يركز ذهنه وهو ساكن النفس في إماطة حجب الخداع والأوهام عن العقول غير آبه بحر أو قر ولا برأي من يحيط به من الناس. كان سقراط يقول بأن الحياة خداع، وأن الروح وحدها هي التي تعيش. وكان أفلاطون شديد التعلق بهذا المعلم الهرم الجاف الطبع. وقد وجد طريقته ذات قيمة قصوى في تنقية الآراء وتخليصها من التعقيد، فجعله الشخص الذي تدور عليه محاوراته الخالدة. على أن أفكاره ونزعاته الخاصة نأت به كثيرا عن الاتجاهات المتشككة التي عليها سقراط. ومن ثم يكون الصوت والاسم لسقراط ولكن الفكر هو فكر أفلاطون.

كان أفلاطون يعيش في زمان شك وتساؤل يدوران حول كل ما بين الناس من علاقات. والظاهر أن الناس في أثينا في أيام بريكليس العظيمة قبل (٤٥٠ ق. م) كان يخامرهم شعور الرضا التام عن النظم الاجتماعية والسياسية ولم يكن يبدو أي سبب للتشكك حين ذاك. إذ كان الرجال يشعرون بأنهم أحرار. وكان المجتمع في رخاء. وكان الحسد أهم ما يشكو منه الناس. ولا يكاد تاريخ هيرودوت ينم عن شيء من عدم الرضا عن النظم السياسية الأثينية.



٧٥ – أفلاطون

ولكن أفلاطون الذي ولد قرابة الزمان الذي مات فيه هيرودوت، والذي ترعرع في جو عسير تكاثرت فيه المحن ما بين حرب طاحنة وملمات اجتماعية شديدة وارتباكات عظيمة، واجه منذ نعومة أظفاره ما بين الإنسانية من تنافر وما بين النظم الإنسانية من عدم تجانس. وكان أن استجاب عقله لذلك التحدي. ومن ثم نجد في أول مؤلفاته وآخرها مناقشات جريئة نفاذة تستهدف إدخال التحسين على العلاقات الاجتماعية. وكان سقراط علّمه ألا يقبل شيئًا مسلما به، حتى ولا العلاقات المشتركة: علاقات الزوج والزوجة والوالد والولد. وكتابه "الجمهورية" وهو أول الكتب التي تبحث في اليوتوبيا [1] إنما هو بحث في المدينة التي يحلم بها خيال الشباب، وفيها تنظم الحياة الإنسانية على أساس خطة جديدة تفضل ما سلفها. ومؤلفه الأخير الذي لم يتمه وعنوانه "القوانين"، هو مناقشة تستهدف وضع قواعد يوتوبية أخرى شبيهة بتلك. وإن هناك لقدرا كبيرا من آراء أفلاطون لا نستطيع هنا أن نلقي إليه حتى مجرد نظرة عابرة، غير أنه – لا جرم – يمثل ركنًا من الأركان الأساسية في تاريخنا هذا، ذلك أن ظهور فكرة في عادة تشكيل ظروف مجتمعنا البشري وصياغتها صياغة كاملة تتجلى فيها الإرادة والقصد، كان شيئًا جديدا في تطور الإنسانية. فكان البشر حتى ذلك الحين يعيشون بالتقاليد المتوارثة في خشية من الآلهة. وها نحن الآن حيال رجل يقول للناس في جرأة، وكأنما قوله هذا أمر طبيعي معقول: "تناولوا حياتكم بالبحث فإنكم تستطيعون أن تجتنبوا معظم تلك الأشياء التي تؤلمكم وإنكم لتستطيعون أن تلقوا عن كواهلكم نير معظم الأشياء التي تتسلط عليكم، بل وإنكم لتستطيعون أن تفعلوا بها ما تشاءون".

وهناك شيء آخر ربما كان له – بالإضافة إلى منازعات ذلك العصر – الفضل في استثارة عقل أفلاطون في ذلك الاتجاه. فإن أثينا كانت أسست في أيام بريكليس مستقرات كثيرة وراء البحار؛ وكانت إقامة هذه المستقرات مما قرب إلى أذهان الناس كافة الفكرة القائلة بأنه لا حاجة بالمجتمع إلى النمو، بل إن في الإمكان خلقه وصنعه بأيدنا.

وكان بين خلطاء أفلاطون المقربين فتى أحدث منه سنًا. أدار فيما بعد مدرسة في أثينا؛ وعاش عمرا يكاد يربي على عمره. هذا الفتى هو إيزوقراطيس (إيزوقراط). وفي استطاعتنا أن نعد إيزوقراطيس هذا صحفيا وأن نعتبره كاتبا أكثر منه خطيبا. وقد اختص بمناصرة فكرة هيرودوت التي تنادي بتوحيد بلاد الإغريق ضد الإمبراطورية الفارسية واتخاذ ذلك علاجا لما تفشى في شئونها السياسية من اتضاع وفوضى، ولما منيت به من الخسارة من جراء الحروب الطاحنة. وكان أفقه السياسي أرحب من بعض النواحي من أفق أفلاطون. وكان يتطلع في سنيه الأخيرة إلى الملكية، وعلى الأخص ملكية فيليب المقدوني، بوصفها وسيلة لحكومة أكثر توحيدا للشعب أو أكثر اتساعا من ديمقراطيات المدن. وكذلك اتجهت نفس زينوفون صاحب كتاب "الصعود" إلى التفكير في الملكية. وكتب زينوفون وقد علت به السن قصة "الكيروبيديا Cyropeadia " [2] وهو دفاع وتزكية نظرية وعملية تدعمها البراهين للملكية المطلقة التي تتجلى في تنظيم الإمبراطورية الفارسية".

---

(١) اليوتوبيا (utopia) أو الطوبى: كتاب يدعو إلى المدينة المثالية الفاضلة. (المترجم).

(٢) "الكيروبيديا" كتاب من تصنيف زينوفون كتبه على شكل قصة سياسية اعتمد فيها على تاريخ ملك الفرس قورش. (المترجم).

٤- أرسطاطاليس والليسيوم

كان أفلاطون يعلم الناس في الأكاديمية وقد وفد عليه وهو في سن عالية فتى وسيم الطلعة قدم من استاجيرا في مقدونيا، هو أرسطاطاليس (أرسطو) ابن طبيب ملك مقدونيا، وهو رجل له عقلية صيغت من معدن مختلف جدا عن عقلية ذلك الأثيني العظيم أفلاطون. وكان بطبعه ذا شكوك في الإرادة التخيلية. وكان يكن عظيم الاحترام والفهم للحقائق الثابتة. وقد أنشأ بعد وفاة أفلاطون مدرسة في الليسيوم [1] بأثينا، وأخذ يعلم الناس منتقدا أفلاطون وسقراط في شيء من العنف. وبينما هو يلقي تعاليمه كان شبح الإسكندر الأكبر يلقي ظلاله مخيما على حرية بلاد الإغريق. وكان يحبذ وجود الرق ونظام الملوك الدستوريين. ذلك أنه اشتغل حينًا من الدهر قبل ذلك مربيا للإسكندر في بلاط فيليب المقدوني.

وكان الجزع قد استولى على النابهين من الرجال في تلك الأيام، إذ إن إيمانهم بقدرة الناس على صوغ ظروفهم الخاصة في الحياة أخذ يتناقص ويفتر. فلم تعد تظهر بين ظهرانيهم أية يوتوبيا. وتبين لهم بجلاء أن اندفاع الحوادث وتتابعها كان من القوة بحيث لا تستطيع أن تصده تلك الجهود المنظمة التي كان في الوسع أن ينفقها حينذاك ذوو الذكاء الممتاز من الرجال. فقد كان من المستطاع التفكير في إعادة صوغ الجماعة البشرية حين كانت الجماعة البشرية مدينة صغيرة تضم بضع آلاف من المواطنين. على أن ما كان يحدث من حولهم من أحداث كان طوفانًا عظيما لا سبيل إلى دفعه، هدفه صوغ شئون العالم المعروف كله في قالب سياسي ومعها شئون جمهور من الناس لا بد أن عدده بلغ حتى في تلك الأيام حدا يتراوح بين الخمسين والمائة مليون. وكانت عملية إعادة الصوغ هذه على مقياس لم يكن أي عقل إنساني مهيئًا بعد لإدراكه. فكانت من ثم تدفع الفكر أدراجه إلى فكرة "القضاء والقدر الهائل المحتوم. وصار الناس يحاولون التشبث بكل ما يخالونه عامل ترابط واستقرار. فقد كانت الملكية مثلاً رغم ما يشوبها من رذائل ظاهرة – نظاما للحكم في وسع الملايين قبوله عقلاً. وكثيرا ما وضعت من قبل موضع التنفيذ والاختبار إلى مدى معين. كانت تفرض إرادة حاكمة، حيث تتجلى استحالة وجود الإرادة الحشدية (الجماعية). فهذا التغيير الذي لحق مزاج الناس الفكري عامة، كان يتسق مع احترام أرسطو الطبيعي للحقائق القائمة. فلئن جعله من ناحية يستصوب الملكية والرق وإخضاع النساء بوصفها كلها نظما معقولة، فإنه جعله من الناحية الأخرى تواقًا إلى فهم الحقيقة والحصول على طرف من المعرفة المنظمة عن هذه الحقائق، حقائق الطبيعة والفطرة البشرية التي كانت آنذاك في حالة انتصار بين على ما ساور الحيل من أحلام خلاقة.

([1]) أو اللوقيون: كما وردت في الموسوعة العربية الميسرة. (المترجم)



٦ ٧ – أرسططاليس

وأرسطو سليم العقل ناصع الذهن واضح إلى حد رهيب. وتعوزه الحماسة المضحية بالنفس إعوازا رهيبا. فهو يناقش أفلاطون منكرا عليه دأبه على استبعاد الشعراء من مدينته الفاضلة اليوتوبيا، ذلك أن الشعر قـوة. وهو يوجه كل قوته في اتجاه يضاد على خط مستقيم تحقير سقراط لشخص أناكساجوراس. وكأني به توقعـا يمهد السبيل لباكون (Bicon) والحركة العلمية العصرية ويبشر بهما في إدراكه لأهمية المعرفـة المنظمـة. ذلك أنه نصب نفسه للقيام بواجب جمع المعرفة وتدوينها، فكان أول عالم بالتاريخ الطبيعي. أجل إن رجـالاً آخرين من قبله طالما أمعنوا النظر في طبيعة الأشياء. على أنه هو وكل شاب استطاع ضـمه إليـه أخـذوا أنفسهم بتصنيف الأشياء ومقارنتها.

أجل إن أفلاطون يقول "فلنتناول الحياة ولْنصغها في قالب جديد". أما خليفته هذا الأثبت جنانًا فيقول "علينا قبل كل شيء أن نزيد في معرفتنا بالحياة وعلينا في الوقت نفسه أن نخدم المالك وننتفع به". ولم يكن في ذلك القول مناقضة منه لأستاذه قدر ما كان تحديدا شديدا لآرائه.

تمكن أرسطو بفضل العلاقة الخاصة بينه وبين الإسكندر الأكبر من الحصول على موارد مالية لعمله لـم تتهيأ بعد ذلك لباحث علمي مدى عصور طويلة. إذ كان تحت تصرفه مئات من التالنتات الذهبية (والتالنـت يقارب في القيمة ٢٤٠ جنيها) – يستطيع أن ينفقها في أغراضه الخاصة. وجاء زمان كان تحت تصرفه ألف رجل متناثرين في أرجاء آسيا وبلاد الإغريق يجمعون المواد لتاريخه الطبيعي. وبدهي أنهم كانوا مشـاهدين تعوزهم الدربة تماما، بل كانوا جامعي أقاصيص أكثر منهم مشاهدين، ولكن أحدا لم يحاول قبله على مـدى الدهر شيئًا من هذا القبيل، بل لم يفكر فيه قبل زمانه أحد قط، على قدر ما وصل إليه علمنـا. وابتـدأ علـم السياسة كما ابتدأ علم التاريخ الطبيعي. فإن طلاب الليسيوم قاموا تحت إشرافه بتحليل مائة وثمانين وخمسين دستورا سياسيا.

وكان هذا أول بارقة للبحث العلمي المنظم في العالم. ولكن تلك الهبات ذات النطاق الضخم قضت عليهـا لمدة ألفين من السنين وفاة الإسكندر المبكرة وتقسيم إمبراطوريته وهي بعد في المهد. ولم يتواصـل البحـث العلمي إلا في مصر بمتحف الإسكندرية [1]، ولم يستمر هذا إلا بضع أجيال قليلة وسنحدثك عن ذلـك مـن فورنا. ولم تمض على وفاة أرسطو خمسون سنة حتى تضاءلت الليسيوم وأصبحت غير ذات شأن.

[1] ذلك المتحف هو الأكاديمية المشهورة. (المترجم)

٥- الفلسفة تصبح غير دنيوية

لم يكن الاتجاه العام للحركة الفكرية في السنين التي ختم بها القرن الرابع ق. م يساير أرسطو، ولا كـان يهدف إلى التجميع الضروري المتواصل للمعرفة المنظمة. وربما لم يتهيأ لأرسطو أن يكـون لنفسـه غيـر شخصية ضئيلة في التاريخ الفكري لولا تلك الهبات التي كان يتلقاها من الملك. فإنه استطاع بفضلها أن يبرز ذكاءه الباهر في صورة مادية ويجعل له أثرا محسوسا. فالرجل العادي يفضل الطرق السـهلة مـا دام فـي استطاعته سلوكها، وهو لا يكاد يأبه متعمدا بما تنتهي به تلك الطرق آخر الأمر حتى ولو أدت به إلى طريق مغلق. ولما أن وجد عامة معلمي الفلسفة أن تيار الحوادث أقوى من أن يسـتطيعوا ضـبطه علـى الفـور، انصرفوا في تلك الأيام عن إعداد خطط المدن النموذجية وتخطيط المناهج الجديدة للحياة، وتحولوا إلى إتقان أساليب التهرب الجميلة التي تبعث العزاء والسلوى إلى النفوس.

وربما كان في هذا القول ضرب من وضع الأشياء في صورة خشنة فيها شيء من التجني. والأولـى أن نترك المجال للأستاذ جلبرت موراي ليحدثنا عن هذا الموضوع.

"لم يكن الكلبيون يعنون إلا بالفضيلة وعلاقة الروح بالرب. وكان العالم وعلومه، ومراتب الشرف فيه في نظرهم خبثًا. وكان الرواقيون والأبيقوريون، وإن تباعدت الشقة بينهما لأول نظرة، متشابهين جد التشابه في غايتهم القصوى، وكان ما يعنيان به حقًا هو علم الأخلاق. وكان سؤالهما العملي: كيف يجب أن ينظم الإنسان حياته؟ وكلاهما، لا جرم، قد انصرف إلى بعض العلوم – فاتجه الأبيقوريون إلى الفوزيقي أو علم الطبيعـة، واتجه الرواقيون إلى المنطق وعلم البيان والبلاغة – ولكن بوصفها وسيلة توصـل إلـى غايـة. وحـاول الرواقيون أن يفوزوا بقلوب الناس واقتناعهم بمحض اللباقة في الجدل المجرد والتسـامي البـراق المتـألق بالفكرة والعبارة. ووطد الأبيقوريون العزم على أن يتركوا الإنسانية تشق طريقها دون الزلفى لآلهـة متقلبـة الأهواء ودون التضحية بالإرادة الحرة. ويلخص أبيقور إنجيله في مبادئ أربعة: " لا يجوز الخوف مـن ا . لا يمكن الشعور بالموت. يمكن الفوز بالخير. يمكن احتمال كل ما نخشاه والتغلب عليه".

وفي نفس الوقت كان تيار الحوادث ينساب في مجراه مبادلاً الفلسفة عدم اهتمام بعدم اهتمام.

٦- نوع الفكر الإغريقي وتحديداته

إذا أريد للدراسات الإغريقية القديمة أن تقرأ في العصر الحديث قراءة مجدية، وجب أن تقرأ بوصفها من تصنيف رجال يماثلوننا. وينبغي لنا أن نضع موضع الاعتبار تقاليدهم والفرص التي هيئت لهم والقيود التي حدت من جهودهم. ذلك أن الفطرة الإنسانية تنزع دوما إلى المبالغة في كل شعور بالإعجاب. ومعظم النصوص القديمة لدينا مهرأة مشوهة إلى حد كبير، وكلها في الأصل من عمل مخلوقات إنسانية اكتنفتها المصاعب وكانت تعيش في زمان يحوطها فيه من ظلمات الأفق وضيق حدوده ما يجعل زماننا بالقياس إليه زمنًا وضاء يكاد سنا ضيائه يخطف الأبصار. فكل ما سنفقده من احترامنا لهم فيما ستشهد وشيكًا من معالجة خالية من الكلفة، سنعوضه بالعطف على تلك المجموعة من العقول المضطربة القلقة العصرية الروح. ذلك أن الكتاب الأثينيين كانوا – لا جرم – أول الرجال العصريين. فكانوا يتناقشون في مسائل لا نزال نتناقش فيها، وهم الذين شرعوا يجاهدون في معالجة المشاكل الكبرى التي تواجهنا اليوم، وما كتاباتهم إلا مطلع فجر نهارنا.

ويجيد يونج (Jung) في كتابه "علم نفس اللاشعور Psycl dology of the Unconscious خير إجادة، حين يتكلم عن الفروق بين الفكر القديم (قبل الأثيني) والفكر الحديث. وهو يسمي الأول باسم "التفكير غير الموجه" ويسمى الثاني باسم "التفكير الموجه" وكان الأول تفكيرا بالأخيلة شبيها بالأحلام، بينما الآخر تفكير بالكلمات. وما العلم إلا تنظيم للتفكير الموجه. فأما الروح العتيقة (أعني قبل المفكرين الإغريق) فقد خلّفت الأساطير والرطازات (الميثولوجيا) لا العلم. وكان عالم الإنسان القديم عالم خيالات ذاتية (subjective) يشبه عالم الأطفال والشبان غير المتعلمين في أيامنا هذه، كما يشبه عالم المتوحشين ودنيا الأحلام. وأفكار الطفولة وأحلامها إنما هي ترديد لصدى طرق التفكير عند المتوحشين في عصر ما قبل التاريخ. ثم يقول يونج: "إن الرطازات هي كتلة الأحلام المتجمعة عند الشعوب، وإن الأحلام هي رطازات الأفراد. ولقد وجهنا نظر القارئ من قبل إلى التشابه بين آلهة الحضارة الأولى وبين أوهام الأطفال وخيالاتهم الغريبة. وغني عن البيان أن التفكير الشديد المنظم بواسطة الكلمات والجمل المحللة تحليل عناية، ذلك التفكير الذي بدأه المفكرون الإغريق، واستأنف العمل فيه الفلاسفة الذين اشتغلوا بالدرس والتحصيل في القرون الوسطى – كان تمهيدا ضروريا لتطور العلم الحديث".

بدأ الفلاسفة الإغريق البحث بيد أنهم لم يصلوا إلى أية حلول. ولسنا بمستطيعين أن ندعي اليوم أننا وصلنا إلى حلول لمعظم المسائل التي أثاروها. فإن عقل العبرانيين كما أوضحنا آنفًا، تنبه فجأة إلى التعاسات والاضطرابات اللانهائية التي تنغمس فيها الحياة، ورأى أن تلك التعاسات والاضطرابات كانت في معظم أمرها نتيجة للأعمال غير المشروعة التي يأتيها البشر، فاستنتجوا أن الخلاص لا يمكن أن يجيء عن غير طريق إخضاعنا أنفسنا لخدمة الرب الأحد الذي يحكم السماوات والأرض. فأما الإغريق فإنه وقد ارتفع إلى نفس المستوى الفكري ووصل إلى نفس ذلك الإدراك – لم يكن مزودا بنفس فكرة الألوهية الأبوية، لأنه كان يعيش في عالم لم يكن فيه إله واحد بل كانت فيه آلهة. فإن حدث أن أحس أن الآلهة أنفسهم كانوا محدودين، فإنه فكر عند ذلك في القضاء والقدر يقف من ورائهم جامدا لا يميز بين شخص وآخر. ومن ثم فإنه وضع مشكلته في صورة بحث عن ماهية العيش الصائب، دون أي ارتباط محدود بين الرجل الذي يعيش عيشة صائبة وبين إرادة الإله.

وعندي وأنا أنظر إلى الأمر من زاوية تاريخية بحتة، أن في الإمكان عرض هذه المشكلة العامة على صورة مزدوجة – خدمة للأغراض التاريخية – تكون شاملة للطريقتين اللتين صاغها فيهما كل من العبرانيين والإغريق على السواء. فلقد رأينا جنسنا البشري ينهض من حالة عدم الوعي التي عليها الحيوانات إلى حالة مستمرة من شعور بشرى بالإحساس بالذات، ويدرك التعاسة التي تعود على البشرية بسبب تعدد أغراضها الأهوج، ويعرف ما لا بد من حدوثه من مأساة انصراف الفرد إلى الجري وراء نفسه ومصالحه، وهو يتحسس طريقه في عماية نحو فكرة ما يرتبط بها الناس ولها يخضعون: فكرة يأمل أن تنقذه من الآلام والحوادث المترتبة على الفردية المحضة. فمن هذه الفكرات التي ادعت لنفسها الحق في ولاء الناس لها وظفرت به إلى حين فكرة الآلهة والملك الرب وفكرة القبيلة وفكرة دولة المدينة، وهي فكرات فقدوا من جرائها أنانيتهم الفردية شيئًا ما، ولكنهم أفلتوا بفضلها وفروا إلى إدراك حياة أكثر استدامة واستقرارا. ومع ذلك فكما تشهد حروبنا وكوارثنا بأجلى بيان، ما من واحدة من تلك الفكرات العظيمة بلغت حتى اليوم حد العظم الذي يكفل للناس الوقاية. فإن الآلهة فشلت في حمايتها لهم، وأثبتت القبيلة على نفسها الدناءة والقساوة، ونفت دولة المدينة خير أبنائها وأخلص أصدقائها نفيا سياسيا، وجعل الملك الرب من نفسه وحشًا.

ونحن إذ نقرأ الأدب [1] التأملي (أعني الفلسفة) في هذا العصر العظيم للإغريق، نلمس ثلاثة حواجز أقيمت من حول العقل الإغريقي، ولم يكد ينجو منها إلا في النادر، وإن كنا الآن فيما يحتمل موشكين على الخلاص منها.

فأول هذه القيود هو تشبع العقل الإغريقي بفكرة أن المدينة هي الغاية القصوى للدولة. ففي عالم تعاقبت فيه إمبراطورية إثر إمبراطورية، وكانت الواحدة منها أعظم من سابقتها، وفي عالم كان الناس والفكرات يزدادون تحررا وتفكك عرى وحرية سراح يوما بعد يوم، وفي عالم نزعة التوحيد فيه ظاهرة للعيان حتى في ذلك الزمان السحيق، كان الإغريق بسبب ما يكتنفهم من ظروف جغرافية وسياسية خاصة لا يزالون يحلمون بذلك الحلم المستحيل الذي يأمل في وجود "دولة مدينة" متماسكة لا تتطرق إليها المؤثرات الخارجية، وهي آمنة في شجاعة من العالم أجمع. وتقدير أفلاطون لعدد المواطنين الأحرار في الدولة المثلى قد تراوح بين ألف في كتابه "الجمهورية" وبين ٥٠٤٠ في كتاب "القوانين". ويقول أرسطو في كتابه "السياسة": "إنه من أجل إقامة العدل إقامة صحيحة ومن أجل توزيع السلطة، يجب أن يتعرف كل مواطن أخلاق أخيه، بحيث إنه إذا تعذر تنفيذ هذا في مكان ما، نجم عنه الشيء الكثير من الضرر والشر في ناحيتي مباشرة السلطات وتوزيع العدالة. فليس من العدل أن نفصل في الأمور بطريقة تعسفية، وهو الوضع الذي لا مفر منه في حالة وجود العدد الوفير من السكان". فهذا النوع من الدولة المحصورة النطاق التي فصلنا معالمها على هذه الشاكلة كان عليها أن تخوض الحرب وأن تحافظ على كيانها من غائلة المدائن الأخرى التي في مثل حجمها. وكان هذا كله ولما يمض غير جيلين اثنين على اجتياز جموع إجزرسيس معبرة الهلسبونت.

([1]) لفظة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام الذي يعبر عما ظهر في اللغة من مؤلفات بوجه عام. (المترجم)

وكأنني بهؤلاء الإغريق وقد زعموا أن أيام الإمبراطوريات العالمية ولت إلى الأبد. على حين لم تكن تلك الإمبراطوريات بعد إلا في مرحلة الابتداء وأقصى ما وصلت إليه أذهانهم هو المحالفـات والأحـلاف. ولا مراء أن بلاط إجزرسيس كان به رجال يتجاوز تفكيرهم إلى أبعد حد دائرة هذه الأفكار الصغيرة المحصورة في نطاق الخور الصخري أو الجزيرة المنعزلة أو الوادي المحوط بالجبال. على أن الحاجة إلى الاتحاد ضد القوى العظمى التي كانت تتحرك خارج نطاق العالم الناطق بالإغريقية، قد تجاهلها العقل الإغريقـي عمـدا. فإن هؤلاء الأجانب كانوا في نظرهم برابرة وهمجا، لا يجوز التفكير فيهم تفكيرا أليس إليه ضرورة. وها قد حال الآن بينهم وبين بلاد الإغريق حاجز أبدي لا يزول. فكان الواحد منهم يقبل النقود الفارسية، بـل كـان الجميع يقبلون تناول تلك النقود الفارسية. فأي ضير في ذلك؟ أو ينضوي ردحا مـن الزمـان تحـت لـواء جيوشهم (كما فعل زينوفون) مؤملاً أن يسعده الحظ باصطياد أسير غني. وتدخلت أثينا في الشئون المصـرية فناصرت مصر، وأشبت نار حروب قليلة الأهمية ضد فارس. ولكن لم تكن هناك فكرة تدعو إلـى سياسـة موحدة، أو تهدف إلى مستقبل مشترك لبلاد الإغريق...

حتى أخذ صوت يصيح في أثينا آخر الأمر قائلاً: "مقدونيا!" وأن يجلب إجلاب الكلاب صائحا: "مقدونيا!". وكان هذا صوت الخطيب والديماجوج ديموستنيس. وهو يقذف بالتحذيرات والتهديدات، وينهال بالتهم علـى فيليب ملك مقدونيا الذي تعلم سياسته لا من أفلاطون وأرسطو فحسب، بل من إيزوقراط وزينوفـون كـذلك، ومن بابل وسوسا، والذي كان يعد أهبته في هدوء ومقدرة وثبات للسيطرة على كل بلاد الإغريق، وليستطيع بوساطة الإغريق أن يغزو العالم المعروف.

وثمة أمر آخر شل العقل الإغريقي وهو نظام الرق المنزلي، إذ كان الاسترقاق أمرا مسلما به متغلغلاً في الحياة الإغريقية.

فلم يكن الناس يستطيعون أن يتصوروا الراحة أو الكرامة والمهابة من غير وجود الرقيق. على أن الـرق يحول دون عطف الإنسان، لا عن طبقة من إخوانه في الوطن فحسب، بل يضع مالك الرقيق في طبقة وهيئة مضادة لكل غريب، وذلك لشعور الفرد بأنه من قبيلة مختارة. ولو أن أفلاطون استجاب لما يدفعه إليه ذهنـه الصافي وسلامة روحه النبيلة من تجاوز أوضاع حاضره، لألغى الرق. وكان الشيء الكثير من شعور الرأي العام وألوان الكوميديا الجديدة معاديا للرق. وكان الرواقيون والأبيقوريون، وجلهم من العبدان يتهمون الـرق بأنه نظام غير طبيعي. على أنهم لما أن وجدوه من القوة بحيث لا يستطيعون القضاء عليه، قالوا إنه لا يؤثر في الروح وأن في الإمكان تجاهله وأن العاقل لا يفرق بين من هو مقيد ومن هو حر. فأما أرسطو الـواقعي ومعظم الرجال العمليين فيما يرجح، فكانوا يرون أن إلغاءه أمر لا يمكن تصوره. ولذا صرحوا بأن من الناس من هو "عبد بالفطرة".

وأخيرا كان يعوق الفكر الإغريقي افتقاره إلى المعرفة افتقارا لا نكاد نتصوره اليوم. إذ لم يكن لدى الإغريق أية معرفة البتة بماضي البشرية. وهم قوم كان كل ما لديهم في أحسن الأحوال بضع تخمينات تنم عن فكر صائب. ولم تكن معرفتهم بالجغرافيا تتعدى دائرة حوض البحر المتوسط وحدود فارس. ونحن ندري اليوم ما كان يجري في سوسا وبرسيبوليس وبابل وممفيس أيام بريكليس أكثر بكثير مما كان يعرفه الإغريقي نفسه. وكانت آراؤهم الفلكية لا تزال في حالة تأملات وتخمينات بدائية. ولقد كان أناكساجوراس عظيم الجرأة حين زعم أن الشمس والقمر كرتان هائلتان، يبلغ من ضخامتهما أن الشمس كانت فيما يرجح "قدر البيلوبونيز[1] بأجمعها حجما". وكانت آراؤهم في الفوزيقي والكيمياء نتيجة للتأمل العميق. ومن عجب أنه كانت لهم بالفعل تخمينات عن التركيب الذري.

ولا بد للإنسان أن يتذكر إعوازهم الشديد في الأجهزة التجريبية. وقد لونوا الزجاج للزينة، ولكنه ليس بالزجاج الصافي. وليس لديهم وسيلة دقيقة لقياس فترات الزمن الصغرى، ولا أي ترقيم عددي يتسم بالكفاية الحقة، ولا أي مقاييس شديدة الضبط، ولا أي مبادئ أولية للتلسكوب أو الميكروسكوب فلو دفع عالم عصري إلى أثينا في زمن بريكليس لوجد أقصى الصعوبة في شرح عناصر علمه مهما عمد إلى التبسيط للرجال الذين كان يلتقي بهم هناك، فعندئذ يضطره الحال إذن أن يعد أبسط الأجهزة في ظروف غير ملائمة تماما. على حين يتصدى سقراط لتبيان مبلغ سخافة البحث عن "الحقيقة" بقطع من الخشب والخيط والمعدن أمثال تلك التي يستعملها الصغار في صيد السمك. والفيلسوف يترفع عن الصانع ترفعا أبعد يده من أن تصل إلى أي جهاز. وما كان أي سيد إغريقي ليقبل أن يدقدق في الزجاج أو المعدن. ولم يكن بد لأستاذ العلوم العصري المذكور من التعرض للمحاكمة بتهمة الزندقة والإلحاد. فلم تكن ديمقراطية أثينا لتتسامح مع "دارون" إلا بالقدر الضئيل الذي تسامحت به معه ديمقراطية مقاطعة تنسي (Tennessee) بالولايات المتحدة).

وينتهل عالمنا اليوم من أكداس هائلة نسبيا من المعرفة بالحقائق. فأما في أيام بركيليس فإن الحجر الأول من صرحنا العلمي الهائل نسبيا – ذلك الصرح المشيد من مواد مدونة ومثبتة بالبرهان – لم يكد يوضع في مكانه بعد. فإذا تأملنا هذا الفارق، لم يعد عجيبا لدينا أن الإغريق مع كل ميلهم للتأمل السياسي كانوا صما وعميانًا عن تقلقل مدنيتهم وعدم أمنتها من الخارج والداخل، وعن ضرورة الاتحاد بطريقة فعالة وعن اندفاع الحوادث السريع الذي كان مقدرا له أن يأتي على هذه الحريات الأولى التي نعم بها العقل الإنساني فترة قصيرة الأمد ويحرمه منها عصورا طويلة.

([1]) البيلوبونيز: هي شبه الجزيرة اليونانية المكونة من عدة أشباه جزائر تتخللها الخلجان والمسماة في التاريخ الحديث باسم شبه جزيرة المورة، وتنسب إليها تلك الحرب الطاحنة التي نشبت ٤٣١ – ٤٠٤ ق.م. بين إسبرطة وأثينا. (المترجم).

وليست قيمة هذه الجماعة من متحدثي الإغريق وكتّابهم في النتائج التـي حصـلوا عليهـا، ولكـن فـي المحاولات التي قاموا بها. وليس فضلهم في أنهم أجابوا عن الأسئلة، بل في أنهم اجترءوا على توجيههـا. إذ لم يحدث قط من قبل، أن تحدى الإنسان عالمه وأسلوب معيشته التي أوجده فيها مولده. ولم يحدث من قبل أنه قال إنه يستطيع أن يغير الظروف المحيطة به، لأن التقاليد والضرورة كما تبدو له – ربطتـه بالحيـاة كمـا وجدها مشتدة العود متمركزة في قبيلته منذ أزمان سحيقة القدم. ولقد كان حتى ذلك الحين يتقبل العالم، كما لا يزال الأطفال يتقبلون المنازل والعادات التي ينشّئون عليها.

هكذا تتبين لنا بغاية الوضوح إبان القرنين الخامس والرابع ق. م بأرض اليهودية (Judea) وأثينـا – وإن لم يقتصر الأمر على هذين المركزين بأي حال – بدايات لعملية خلقية وفكرية عند الجنس البشـري قوامهـا مناشدة الناس البر والصلاح، ومناشدتهم الصدق والحق، والإقلاع عن الشهوات والارتباكات وعن المظـاهر المباشرة للوجود. وكأني بذلك عملية بزوغ فجر الشعور بالمسئولية في صدر أحد الشبان حين يكتشف فجـأة أن الحياة لا هي باليسيرة ولا هي بالخالية من الهدف. فالجنس البشري في تقدم مستمر، وظلت خيوط بقيـة التاريخ على مر عشرين وثلاثة من القرون تنتسج سدى ولحمة بانتشار تلك الفكرات الأساسـية المسـيطرة ووضعها في القالب الأوضح بيانًا والأشد تأثيرا. أخذ الناس على مهل يفهمون شيئًا فشـيئًا حقيقـة الأخـوة الإنسانية، وأن لا داعي للحرب والقساوات والتعسف، ويفهمون ما يكمن وراء الهدف المشترك من إمكانيات بالنسبة لكل جنسنا البشري. وإنك لتشهد في كل جيل جاء بعد ذلك ما يدل على وجود رجال ينشـدون ذلـك النظام الأفضل الذي يشعرون أنه لا بد لعالمنا من الوصول إليه.

على أنك لو تأملت الناس في كل مكان وحيثما تملكت الأفكار البنّاءة العظيمة زمام أي إنسـان، لشـهدت المطامع الحادة والحسد والريبة والشبهات والجزع التي تنضح بها طبيعة كل فرد منا – في نضال وكفاح ضد ما يجيش في صدورنا من السعي إلى تحقيق غايات وأهداف أكبر وأوسع مـدى. وكـأن القـرون الثلاثـة والعشرين الأخيرة من التاريخ مجهود فرد مخلد متعجل يروم استباق الحوادث، ويريد أن يفكر تفكيرا صافيا ويعيش عيشًا صالحا ويعقب الزلل الزلل، وتنتهي البدايات المبشرة بالخير بخيبات أمل شـوهاء تـدعو إلـى السخرية، بينما ينابيع ماء الحياة يسممها الكوب الذي يحملها إلى شفاه الجنس البشري المتلهفة عطشًا. بيد أن أمل الرجال لا يلبث أن ينتعش ثانية آخر الأمر إثر كل كارثة ملمة...

٧- أول أدب خائل عظيم

سبق أن أشرنا في هذه "المعالم " إلى أن تطور الأدب كان لابد له من انتظار تطور طريقة للكتابة تبلغ من المرونة حدا يؤهلها لنقل اتجاهات التعبير ومراميه وجمال الأصوات. وما كان الأدب المكتوب ليستطيع قبل هذا الزمان أن ينقل غير المعاني. فإن الشعوب الآرية الأولى، كان لها كما أسلفنا، أدب شعري موزون محفوظ في الصدور قبل أن تعرف الكتابة. فكانت لهم أغنيات المنشدين والشعراء المتجولين وأقاصيصهم وتواريخهم ونواميسهم الأخلاقية تحفظها طبقة اجتماعية خاصة، هي الشعراء. ولم تصبح هذه المقتنيات المتواترة ثابتة حتى دونت في أثبات [1] ويبدو أن الملحمتين الإغريقيتين الرئيسيتين وهما "الإلياذة والأوديسيا" دونتا في ثبت مكتوب حوالي سنة ٧٠٠ ق. م، وكلتاهما مكتوبة باللغة الإغريقية ذات اللهجة الأيونية. ويقال إن "بيزستراتوس" هو الذي بدأ في جمع القصائد الهوميرية، وكانت لهذه الملاحم روايات متنوعة كثيرة. ولم يستقر النص الموجود الآن إلا في القرن الثاني ق. م، وهناك ملاحم أخرى لا تخرج عن ذيول وإطنابات "للإلياذة والأوديسيا". هذا إلى قصص مغامرات منفصلة كادت اليوم أن تبيد تماما.

وكان الإغريق عامة مجمعين على أن "الإلياذة والأوديسيا" من عمل شاعر واحد هو "هوميروس". وهو رجل تقول الروايات إنه ولد في سبع مدن مختلفة، وفي تواريخ متباينة تتراوح بين ١١٠٠، ٨٠٠ ق. م ولا يجمع التواتر إلا على حقيقة واحدة فقط، هي أنه كان ضريرا. وكانت هاتان الملحمتان تنزلان من قلوب الإغريق منزلة الحب والاحترام إلى حد أنه لم يحدث حتى القرن الثاني ق. م، أن واحدا من الإغريق لاحظ الحقيقة الظاهرة، حتى في الترجمات نفسها، وهي أن هذين المؤلفين العظيمين مختلفان تماما في الروح والأسلوب والنوع، اختلاف صوت البوق عن صوت الناي. ولكن كما كان من المقبول لديهم عقلاً أن يولد هوميروس في أمكنة متعددة على مثل هذا المحال المتباعد ويمثل هذا المدى الزمني المديد، لم يكن في امتلاكه لعقلين وصوتين في وقت معا ما يزيد ما له من تفرد بالعجائب والمعجزات إلا قليلاً! هذه مباحث تخص دارسي الأدب القديم. فهو وحده الذي يستطيع أن يقدر هذه المؤلفات حق قدرها. وهو يؤكد لنا أن لها من الروعة والجمال والحكمة وحسن النغم والإيقاع ما لا تستطيع أن تنقله إلينا أية ترجمة. وما من ترجمة يمكن أن تنقل شيئًا يبرر نشوة العلماء وطربهم لهذه الدرر النفيسة الأولى في الأدب الأوربي. فإن ضربا معينا من الإملال يتسرب إلى عمل كل مترجم كما يتسال إليه ضرب معين من التفاهة، بل إن الألحان الإغريقية الرائعة البهجة لتبدو للأذن حين يرتلها عشاقها المتحمسون لها على مسامع غير المثقفين من المتشككين المرتابين سقيمة الجرس نابية النغم تذكرنا بتلك الأصوات الكريهة التي تصدر عن أجهزة الماء الساخن المختلة. ومع كل هذا فإن هذه الملاحم تحوي الشيء الكثير من الجمال والإمتاع. وهي مشوبة بشيء لذيذ من الروح الصبيانية، وفيها لمحات بارقة بأشد المشاعر حدة، وأشد الملاحظات نصوعا وإشراقًا. ومن الأسف أن الدارسين المعجبين الذين يتحدثون عنها بأنها شيء رفيع سامٍ لا يلحق ولا يداني وما إلى ذلك من قول، يسرفون في القول إسرافًا مضحكًا جلب عليها إهمال القارئ العادي الذي أرهبه الفزع منها.

---

[1] الأثبات جمع ثبت وهو السجل الذي يدون فيه. (المترجم)

وإلى جوار اسم هوميروس يذكر التاريخ اسم هسيود الذي كان على الأرجح شخصا حقيقيا. وتاريخ ميلاده معروف في مدى قرنين هما القرن التاسع والسابع ق. م. وملحمتاه وهما "الأعمال والأيام" ثم "البحـث فـي منشأة الآلهة" تخلد إحداهما الشيء الكثير من حياة الفلاح البوءوتي وكدحه، وتبقى لنا الأخرى ما تواتر مـن الأخبار الجارية عن أصول آلهة الإغريق، وعلاقاتها بعضها ببعض.

وكان شعر الملاحم في بلاد الإغريق أساس كل ضروب الشعر الأخرى، وانقضت قرون عدة لـم يكـن القوى يعنون أثناءها إلا بهذا الشعر. فهو الشعر الآري الأصلي، ثم ظهرت أنواع أخرى بأعيانها. فكان هناك شعر المراثي وهو لطيف رقيق، ويغنّى بمصاحبة موسيقى الناي الليدي، والشعر الغنائي وهـو يغنـى إلـى الكنّارة ذات السبعة الأوتار. ومن المستحيل التوسع في الكلام عن هذه الأشكال والضروب هاهنا. ومن العبث أيضا أن نسرد لك أسماء الشعراء دون بعض الإشارة إلى طبيعة أشعارهم وكنهها. ولا يمكن أن يكون لاسمي بندار (Pindar) وسيمونيدس (Simonides) معنى إلا عند أولئك الذين يستطيعون أن يخصصوا قدرا كافيا من وقتهم للا يزال في متناول الأيدي من مؤلفاتهما. وربما جاز لنا أن نذكر الآن أن من بين أعظم شـعراء الغزل الأولين ببلاد الإغريق امرأة هي سافو (Sappho) من أهل لسبوس.

وقد ابتدأت الدراما [1] المكتوبة مثلما ابتدأ الشعر المكتوب في العالم الإغريقي. فنشأت المسرحية بوصفها جزءا من الاحتفال الدوري لديونيسوس (Dionysus) إله الخمر. وكان الاحتفال في الأصل أغنية جماعيـة ترتلها جوقة تشيد بأعمال الإله. ثم يتقدم قائد الجوقة وهو (الكوريفيوس) (corypheus) وينشد وحده وتجيبه الجوقة. ثم أدخل إيسكيلوس (Aeschylus) (المولود في ٥٢٥ ق. م) ممثلا ثانيا، كان يتقدم عـن الجماعـة ويجيب الأول. وأخيرا جاء الممثل الثالث على يد سـوفوكليس (Sophocles) (المولـود فـي ٤٩٥ ق. م). وتطور الحوار والتمثيل وأصبحت الجوقة في المحل الثاني من التمثيل. وكانت المسرحيات حتى ذلك الحـين تمثل من فوق منصات خشبية. ولكن أخذت دور المسارح تبنى في القرن السادس. وفي هذا القدر الكفاية في "معالم تاريخية" كهذه. كذلك يسجل التاريخ أنه لم يكد يمضي قرن واحد، حتى ظهرت أعظم أيـام (الـدراما) الإغريقية. وأسماء إيكسيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس (Euripides) (المولـود سـنة ٤٨٠ ق. م)، هـي الأسماء التي بلغت الذروة بالمأساة الإغريقية. ولكنها ليست إلا أسماء مجردة هنا، لا يمكن أن يكون لهـا أي مغزى عند القارئ الذي لا يبحث عن مؤلفاتهم – إما في الأصل أو في الترجمات الشهيرة الموثـوق بهـا – والذي لا يحاول أن يشهد تمثيل مسرحياتهم.

[1] يقصد بالدراما الأدب المسرحي بجميع أنواعه. (المترجم).

وكان يدارج تطور المأساة وهي الناحية الحدية في عبادة ديونيسوس شكل آخر للتمثيل أكثر سخرا وتسلية هو الملهاة (الكوميديا). وكانت الملهاة منذ البداية أكثر مرونة من المأساة. وكانت تمسخ المأساة وتهزأ بها في بعض الأحايين، ولكنها في البعض الآخر، كانت تتحول إلى صور (اسكتشات) صريحة لطباع الناس وللنواحي المسلية من مظاهر الحياة. وقد ابتدع أرسطوفانيس (Aristophanes) في القرن الخامس ق. م. خليطًا بهيجا من الخيال والتهكم السياسي. وكان ميناندر (Menander) بعد ذلك بمائة سنة، الأستاذ المبرز في الكوميديا الأخلاقية. وكانت المأساة الإغريقية لونًا موقوتًا ذا طابع شكلي، وقد تطورت حتى وصلت إلى أقصى إمكانياتها فيما يتجاوز القرن بقليل. على أن الكوميديا لازمة للجماعات البشرية ولا غنى لها عنها. وإنك لتجد التهكم والمحاكاة والكوميديا أنى اجتمع اثنان أو ثلاثة من بني الإنسان منذ أن ابتدأ ظهور الجماعات الإنسانية. ولم يحدث قط أن وقف بالفعل تيار الكوميديا المكتوبة في العالم، منذ أن أمكن تدوين أول محاورة. ولم تبدأ القصة المكتوبة أن تنافس الكوميديا منزلتها من قلوب الناس إلا مع انتشار فن الكتابة. وكانت هناك في بلاد الإغريق مجموعات من "القصص الصالحة" وما إليها. على أن تطور فن القصة والرواية (Fiction) بوصفها فنًا عظيما كان ينتظر جمهورا واسع القراءة وينتظر تكاثر الكتب وانتشارها السريع. ومن سوء الطالع أن العدد الأكبر من كل من صنفي التراجيديا والكوميديا الإغريقية باد من العالم مرة أخرى.

وابتدأ الأدب النثري لأول عهده على صورة التاريخ والمناقشة الجدية. ولعلك تذكر ما أسلفناه عن هيرودوت وما اقتبسناه من مؤلفه في أول هذا الكتاب. ولسوف يلحظ القارئ أن "أبا التاريخ" زار أثينا زمن بريكليس وأنه عندما كان يصنف كتابه، كانت المأساة الأثينية قد جاوزت من قبل أوج ذروتها. ثم تكلم ثوسيدياس (Thucydices) بعد ذلك التاريخ فروى قصة حرب البيلوبونيز. كذلك أشرنا إلى زينوفون، وكتابه "الصعود" (Anabasis) وهناك شق هام آخر من الأدب الإغريقي لا يزال باقيا لنا، وهو الخطب التي دونت عن مختلف الخطباء المفوهين النابهين. وأخيرا يجب أن نشير إلى البيانات النثرية الجدية والجدل النثري الذي يتجلى في الأدب العلمي على نحو ما دونه أرسطو، وأن نلحظ تحوله إلى حوار مسرحي فني في محاورات أفلاطون...

وعلى هذا النحو من الاختصار نسجل هنا ألوان أول أدب عظيم في العالم. وهذا كل ما نستطيع أن نعمله في النطاق الذي تحت تصرفنا. فمن رغب من قراء الإنجليزية في المزيد فليطلبه ومعه قدر وفير من الاقتباسات الموصولة به وصلاً يدل على المهارة في كتاب "الإغريق والبرابرة" تأليف ج. أ. ك. تومسون (J.A.K. Thomson) على أن الطريقة المثلى للإحاطة الحقة بأي أدب، إنما هي في القراءة الدقيقة لكتب خاصة فيه ومؤلفين معينين.

٨- الفن الإغريقي

لبث العالم الحديث بين عصر النهضة ونهاية القرن التاسع عشر أي قبل اكتشاف فن الشـعوب الإيجيـة السابق على الفن الإغريقي، وقبل المعرفة بالإنتاج الفني الهائل لدى الإمبراطوريات الأولـى – يـولي فـن التشكيل [١] الإغريقي تقديرا لا يتناسب وما أنتجه ذلك الفن. فكان يرتسم وحده في أخيلة الناس، كأنمـا هـو شيء قفز إلى الوجود من العدم، وكأنما كان كل ما جاء قبله قبيحا مرذولاً، وكل شيء جـاء بعـده سـوقيا وضيعا. ولكم ولّد ذلك الفن في عقول المثقفين طربا، يملؤنا اليوم بالعجب أكثر مما يشيع في أنفسنا العطف.

وإنا لنعرف الآن أنه بينما تدل مبتكرات الإغريق الأدبية والفكرية على بداية مظهر جديد مميز من مظاهر الخبرة الإنسانية، فإن فن النحت الإغريقي لا يخرج عن كونه حلقة في تطور المدنيات التي مضت قبله. ذلك أن صوغ الذهب والجواهر والأختام والدمى الصغيرة والزهريات وما إليها مما صنعه الإغريـق فـي هـذا العصر المجيد يضارع تلك التي صنعها السكان الإيجيون السابقون وتلك الخاصة بالأسرة الثامنة عشرة فـي مصر وإن لم يتفوق عليهما، وإن في فنهم المعماري لرشاقة وإتقانًا اختص بهما. والظاهرة الغالبة فهي هـي مجاميع الأعمدة (Colonade) في شكلها الوقور النبيل بإكليلها (Capital) الـدوري الضـخم (Doric) أو منظرها الرشيق بإكليلها الأيوني (Ionic) وهيئتها الزهرية بإكليلها الكورنثي (Corinthian). وأصبح العمود الكورنثي بشعبه وتفريعاته في الأزمنة الرومانية وحدة عالمية في فن العمارة، وهي وحدة كانـت ولا تـزال تنبت في ذلك الفن كالعشب الطفيلي حيثما وجدت فروع المصارف أو الفنادق الفاخرة.

ومهما يكن من شيء فإن فن النحت الإغريقي هو وحده الذي كان علما على ما يمتاز به ذلك العصر من إبداع. كان في بادئ الأمر شكليا متكلفًا، ثم وصل فيما بين عهدي بيزستراتوس وبريكليس إلـى حالـة مـن الحرية والمطابقة للطبيعة لم يسبق لها مثيل. وفي أيام إخناتون اتخذ النحت المصري اتجاها وتحـولاً نحـو اليسر والمسابقة للواقع، ولكن الناس لم يبلغوا في فن النحت قبل ذلك درجة يمكن أن تقارن بما بلغـه الفـن الإغريقي من حرية انطلاق فيها سراحه. ويحدثوننا أن معظم النحائت الإغريقية كانت مصـبوغة بالأصـباغ. فذلك الجمال الخاص الأبيض الصارم الذي أضفت عليه لمسة الموت والكمال نبلاً، والذي يملـك علينـا الآن مشاعرنا عندما يواجهنا خير ما تبقى من الإنتاج الإغريقي، لم يكن جزءا من غاية الفنان. وكذلك المعابد فإنها على ما بها من خرائب ذات سحر رائع يشبه سحر ضياء القمر، كما أن لها إبداعا سماويا كان ينقصـها ولا ريب إبان شبابها الغض البهيج.

---

[١] فن التشكيل (plastic art) هو فن صوغ الأشكال ويطلق على النحت وما شابهه من فنون تمييزا لهـا عـن التصـوير أو الدهان (Painting) وما إليه من فنون الرسم. (المترجم)



٧٧ – ڤينوس



٧٨ – آلهة يونانية

ولسنا نعرف عن فن الرسم والتصوير الإغريقي إلا القليل الطفيف. أجل ورد ذكر دررهم اليتيمة، بيد أنهـا فنيت جميعها. لذا فلسنا نستطيع أن نقضي فيه برأي إلا بسبيل ما نلقاه باقيا منـه أيـام رومـا فـي عصـر الإمبراطورية في صور تعتبر استمرارا لتيار التقاليد الفنية المتدهور والتصوير الملون في مدينتي بمبيـاي، (Pompeii) وهركولانيوم (Herculaneum) بهيج ممتع تتجلى فيه المهارة، وهـو أقـرب إلـى الطبيعـة والوثوق بالنفس، إلى درجة لا تسمح بمقارنته إلى أي من الإنتاج المصري أو البابلي.

وكانت موسيقى ذلك الزمان عاملاً ثانويا وتابعا مساعدا للأغنيـة، وكـان يعوزهـا الانسـجام اللحنـي (الهارموني). ويتحدث السير و. هـ. هادو (Hadow) عن "قبح نماذج الموسيقى الإغريقيـة التـي ظلـت محفوظة وأمكن استجلاء كنهها".

الفصل الثاني والعشرون

سيرة الإسكندر الأكبر

1- فيليب المقدوني.
2- مقتل الملك فيليب.
3- أول فتوح الإسكندر.
4- تجولات الإسكندر.
5- أكان الإسكندر عظيما حقًا؟
6- خلفاء الإسكندر.
7- برجاموم ملاذا للثقافة.
8- الإسكندر كبشير وداعية للوحدة العالمية.

١- فيليب المقدوني



٧٩ – فيليب المقدونى

ليس البطل الحقيقي في قصة الإسكندر، هو الإسكندر نفسه قدر ما هو أبوه فيليب. فإن مؤلف التمثيلية لا يتألق في ضياء المسرح تألق الممثل. ففيليب هو الذي دبر الشيء الكثير من العظمة التي بلغها ابنه، فهو الذي وضع أسسها وصاغ وسائلها وأدواتها وهو الذي أعد في الحق العدة للبدء في الحملة الفارسية قبيل وفاته. ولا ريب في أن فيليب كان واحدا من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم على كر العصور. وكان رجلاً على أقصى غايات الذكاء والكفاية. فأما مجال فكراته فيتجاوز دائرة زمانه تجاوزا بعيدا فاتخذ من أرسطو صديقًا له. ولا بد أنه تناقش وإياه في تلك الخطط المرسومة لتنظيم المعرفة الحقة التي قدر للفيلسوف أن يحققها فيما بعد بواسطة هبات الإسكندر. ويبدو أن فيليب على قدر ما نستطيع أن نجزم، كان "أمير" أرسطو ومولاه، وإليه كان يشخص أرسطو ببصره كما يرفع الرجال بصرهم إلى مقام أولئك الذين يعجبون بهم ويثقون. وإلى فيليب أيضا لجأ إيزوقراط بوصفه القائد العظيم الذي كان ينبغي عليه أن يوحد الوطن الإغريقي وأن يسمو بالحياة العامة لدى الإغريق بعد إذ شملتها الفوضى.

وتذكر الكثير من الكتب أن فيليب كان رجلاً اتصف بالاستخفاف إلى درجة لا يصدقها العقل. وكان على شهوات لا ضابط لها. حقًا إنه في الولائم شأنه شأن كل معاصريه من المقدونيين، كان يكثر من الشراب، وكان يغدو في بعض الأحيان مخمورا ثملا – إذ الراجح أن عدم الإكثار من الشراب في الولائم كان يعد أمرا غير ودي. ولكن لم يقم دليل ثابت على التهم الأخرى الموجهة إليه. وليس بين أيدينا لدليل عليها إلا قدح خصومه من أمثال ديموستنيز (Demosthenes)، الديماجوج والخطيب الأثيني، وهو رجل ذو بيان لا يأبه

بالعواقب. وقد يساعدنا اقتباس فقرة أو ما إليها على تبيان إلى أي حد كانت غضبة ديموسثنيز الوطنية تحمله. فهو ينفث عن نفسه في إحدى "فيليبياته" – كما تسمى تنديداته بفيليب – على هذا الأسلوب.

"وفيليب، ذلك الرجل الذي لا يقتصر أمره على أنه ليس إغريقيا، ولا يمت بحال ما بصلة إلى الإغريـق، بل ليس هو حتى همجيا من قطر محترم – كلا، وإنما هو شخص فاسد من مقدونيا، ذلـك القطـر الـذي لا نستطيع قط أن نحصل منه حتى على عبد لائق". إلى غير ذلك من المثالب. ونحن نعرف على وجه التحقيق أن المقدونيين كانوا شعبا آريا شديد القرابة للإغريق، وأن فيليب كان فيما يرجح أوسع رجال زمانـه علمـا. ولكن كانت هذه هي الروح التي كتبت بها القصص المعادية لفيليب.

ولما آل إلى فيليب ملك مقدونيا (٣٥٩ ق. م.)، كانت بلاده قطرا صغيرا ليس فيه مرفأ على البحر ولا أية مدينة هامة. وكان سكانها جميعا من الفلاحين، وتكاد لغتهم أن تكون إغريقية، هذا إلى أنهم على أتم اسـتعداد لأن يكونوا إغريقًا في عواطفهم وميولهم، ولكنهم خلّص في دمهم النوردي أكثر مـن أي شـعب يقـع إلـى الجنوب منهم. ولقد حول فيليب هذه الدويلة الهمجية الصغيرة إلى دولة عظيمة. وأنشأ أكفـأ وأفضـل نظـام عسكري رآه العالم حتى ذلك الحين، وتمكن قبيل وفاته أن يضم شمل غالب بلاد الإغريق في عصبة واحـدة بقيادته. على أن قوة تفكيره التي سما بها عن مألوف أفكار زمانه وما اتسم به من صفات خارقة للعـادة، لا تتجلى في تلك الأمور العظيمة قدر ما تتجلى في العناية التي جعل المربين يدربون بها ولده حتى يواصل من بعده السياسة التي ابتدعها. فهو واحد من أولئك الملوك القليلين في التاريخ الذين عنوا بخلفهم. وكان الإسكندر – على صورة لم يصل إليها غير عدد قليل من الملوك في الدهر كله – ملكًا قد تربى تربية خاصـة تؤهلـه لتولى شئون إمبراطورية. ولم يكن أرسطو غير واحد من بين كثير من المربين الأكفاء الذين اختارهم أبـوه له. وقد استودعه فيليب سياسته وولاه الإمرة والحكم عندما بلغ السادسة عشرة، فقاد الفرسـان فـي موقعـة خيرونيا (Chaeronea) تحت بصر أبيه فهو قد درب على السلطة تدريبا كريما لا تشوبه شبهة أو ريبة.

ويتضح لكل من يقرأ تاريخ حياته بعناية، أن الإسكندر تولى عمله مزودا بعدة من التدريب ومن الأفكـار القيمة التي لم يسبق لها نظير. فلما أن تجاوز حد الحكمة التي أهلته لها تربيته، أخذ يقع في الزلـل ويظهـر ألوانًا من سوء السلوك – مع حماقة مروعة في بعض الأحيان. وتبدت غلبة نقائصه الخلقية على تربيته قبـل وفاته بزمن بعيد.

كان فيليب ملكًا من الطراز القديم، أي ملكًا قائدا، وهو المقدم على نبلائه ذوي الطراز النـوردي القـديم. وكان الجيش الذي أوجده في مقدونيا يأتلف من حشد عام من الجند المشاة، وطبقة نبيلة من الفرسان تسـمى "بالرفقاء". وكان الشعب فلاحين وصيادين، ألفوا بعض الشيء تناول الشراب، على أنهم كانوا على اسـتعداد لقبول النظام وتعلم استخدام وسائل القتال الحسنة. ولئن كان القوم على الفطرة وفيهم سذاجة، فلقـد عرفـت الحكومة بالفطنة واليقظة. وظلت لغة البلاط عدة أجيال هي الإغريقية ذات اللهجة الأتيكية (أي الأثينية). وبلغ من حضارة البلاط أن كان يئوي ويرحب بشخصيات عظيمة من أمثال يوريبيديس الذي مات هناك (٤٠٦ ق. م)، وزيوكسيس (Zeuxis) الفنان. وفضلاً عن ذلك فإن فيليب قبل ارتقائه العرش، أقام بضع سنين رهينة في

بلاد الإغريق. وقد نال من التربية والتعليم خير ما يمكن أن تقدمه إليه بلاد الإغريق في ذلك الزمان، فكـان لذلك ملما كل الإلمام بما نستطيع أن نسميه فكرة إيزوقراط – وهي فكرة إنشاء اتحاد عظيم للدول الإغريقيـة في أوربا للسيطرة على العالم الشرقي. وكان يعرف أيضا مبلغ عجز الديمقراطية الأثينية بسـبب دسـتورها وتقاليدها عن انتهاز الفرصة الماثلة بين يديها. إذ إنها فرصة لا بد له من الإسهام فيها. فأما مغزاهـا لـدى الأثينيين أو الإسبرطيين فهو السماح "لعدد جم من الأجانب" بالتمتع بمزايا المواطنية. وإن في هـذا لتحقيـرا لأنفسهم وإنزالهم إلى حد المساواة والزمالة مع المقدونيين – "وهم شعب لا نحصل منه حتى على عبد لائق".

ولم تكن هناك أية وسيلة للحصول على إجماع الإغريق على ذلك المشروع الذي أزمع عمله إلا بوسـاطة القيام بعمل سياسي ثوري. ولم يكن حب السلام هو الذي يمنع الإغريق عن مثل هذه المغامرة، بل هو تفرقهم وانقسامهم السياسي. وكانت موارد الدول العديدة مستنفدة في سلسلة من الحروب الطاحنة فيما بينهـا، وهـي حروب طالما نشبت لأتفه الأسباب، وزادت الخطب الرنانة في تلهب أوارها. مثال ذلك أن حراثة الفـوكيين (Phocians) لبعض الأرض المقدسة بالقرب من دلْفي، كانت ذريعة انتحلت لإشباب نـار حـرب دمويـة مقدسة.



ش (٨٠) اتساع رقعة مقدونيا فى حكم فيليب

وكرسي فيليب سني حكمه الأولى لتنظيم جيشه. وحتى ذلك الحين، كان القتال الرئيسي في أية موقعة يقوم بمعظمه في أرجاء العالم قاطبة جند المشاة وهم منتظمون في تشكيلات. وإنا لنرى في المعـارك السـومرية السحيقة القدم، حاملي الرماح في نظام متراص مكونين كتلة الجيش الرئيسي على نحو ما كان المشاة يفعلون في جيوش الزولو في القرن التاسع عشر. وكانت الجيوش الإغريقية في زمان فيليب لا تزال تحارب علـى نفس ذلك الأسلوب. وكان الفيلق الطيبي كتلة من المشاة حاملي الرماح تطعن الصفوف الخلفية منهـا العـدو برماح أطول تخترق الصفوف الأمامية. وكانت مثل هذه التشكيلة تستطيع أن تخترق كل ما يعترضـها مـن جيش يكون أقل منها تنظيما. وكان الفرسان من الناشبة (حاملي القسى) يستطيعون طبعا أن ينزلـوا خسـائر جسيمة بمثل هاته الكتلة من الرجال، فلما أن استخدم الحصان في الحرب ظهر الراكبة على كـلا الجـانبين بوصفهم عاملاً ثانويا مساعدا لهذا الجيش الرئيسي. ويجدر بالقارئ أن يتذكر أن الحصان لم يستخدم بطريقة فعالة تماما في حروب الغربيين حتى قيام الآشوريين، ولم يتجاوز استخدامه في مبدأ الأمر جـر المركبـات. وكانت المركبة تطعن بنفسها وبكل قوتها كتلة المشاة محاولة تحطيمها وكان التوفيق حليف المركبات ما لـم يكن نظام كتلة المشاة قويا متينًا. والقتال الذي يصفه شعر هوميروس قتال مركبات. ولا يبدأ ظهور الفرسـان كقوة متميزة عن جنود المركبات وقائمة بدور خاص في خوض المعارك والحروب إلا في الألف سنة السابقة على الميلاد. ويبدو أنهم كانوا يقاتلون في مبدأ الأمر متناثرين، إذ يبلي كل رجل بمفرده أحسن ما يستطيع من بلاء. هكذا حارب الليديون قورش. ولكن يلوح أن فيليب كان أول من استحدث هجوم الفرسان فأمر "رفقاءه" أن يتدربوا على الهجوم حاشدين. كذلك قوى فيلقه بتزويد الرجال في الصفوف الأخيرة برماح أطول مما كان بأيديهم حتى آنذاك. وبذلك زاد في عدد صفوف فيلقه ولم يكن الفيلق المقدوني إلا مجرد صورة للفيلق الطيبي أقوى تماسكًا وأشد صلابة ترادف. وإن واحدة من تشكيلات المشاة المحشودة هذه، لم تكـن مرنـة مرونـة تجعلها تصمد أمام هجوم من الجناح أو الخلف، فإن قوتها على المداورة (المناورة) طفيفة جدا. ومن ثم كانت انتصارات فيليب وابنه ثمرة اتباعهما – مع شيء من التغيير والتعديل – خطة عامة من التعاون بين هـذين السلاحين فيتقدم الفيلق في الوسط ويشتبك مع جيش العدو الرئيسي. وتجرف هجمات الراكبـة علـى أحـد الجناحين أو الآخر راكبة الأعداء أمامها، ثم تدور فتنقض على جناح فيلق العدو ومؤخرته، بينما يكون الفيلق المقدوني قد أنزل من قبل ضربته على مقدمته. وعند ذلك تتحطم قوى جند العـدو الرئيسـية وتعمـل فيهـا السيوف عملها. ولما ازدادت خبرة الإسكندر العسكرية، أضاف كذلك استعمال المجانيق في الميـدان، وهـي أداة كبيرة تقذف الأحجار لتمزيق مشاة العدو. وكانت المجانيق قبل زمانه تستعمل في الحصار ولكنهـا لـم تستعمل في المعارك أبدا. فهو إذن أول من استحدث عملية "التمهيد بالمدفعية".

حتى إذا أيقن فيليب من جدارة هذا الجيش الجديد شرع في استخدامه، فاتجه بنظره بادئ بدء إلى شـمال مقدونيا. فأنفذ الحملات العسكرية إلى إليريا (Illyria) وإلى الدانوب ومد سلطانه أيضا على طول الشـاطئ حتى الهلسبونت واستولى على ميناء أمفيبوليس (Amphipolis) وبعض مناجم الذهب المجاورة لها. وبعـد أن قام بحملات عديدة في تراقيا أخذ يوجه اهتمامه الجدي نحو الجنوب. فنصر قضية الحلف (الأمفكتيـوني) الدلفي ضد أولئك الفوكيين الذين انتهكوا حرمة معبد دلفي وبذلك ظهر بمظهر راعي الديانة الهللينية.

ويجدر بنا أن نتذكر أن فريقًا قويا من الإغريق كان ينادي بالكتلة الهللينية التي تلم شمل الجميـع، مؤيـدا زعامة فيليب للإغريق. وكان رأس كتاب هذه الحركة الداعية للكتلة الهللينية الشاملة هو إيزوقراط. وكانـت أثينا من الناحية الأخرى، على رأس جبهة المعارضة لفيليب وشيعته. وكانت تربطها بفارس صلات المـودة الصريحة، حتى لقد أرسلت البعوث إلى "الملك العظيم" تحذره الخطر المحدق به من اتحاد بـلاد الإغريـق. وليس لنا في هذا المجال الضيق من سبيل إلى سرد قصة الغدوات والروحات التي دامت زهاء اثنتي عشـرة سنة. وفي ٣٣٨ ق. م. وصل النزاع بين دعاة الانقسام ودعاة الكتلة الهللينية إلى نتيجة حاسمة يـوم أوقـع فيليب بأثينا وحلفائها هزيمة منكرة بمعركة خيرونيا. ثم عقد مع أثينا صلحا منحها شروطًا سخية سخاء يبعث على الدهشة. فأظهر نفسه بمظهر العازم عزما أكيدا على إرضاء تلك المدينـة التليـدة. وفـي ٣٣٨ ق. م. اعترف به مؤتمر من الدول الإغريقية قائدا عاما في الحرب ضد فارس.

وكان عند ذلك قد بلغ السابعة والأربعين. وكأنما كان العالم مطروحا تحت قدميه. إذ جعل مملكته الصغيرة الدولة المتزعمة في اتحاد مقدوني إغريقي شامل وطيد، وقدر لهذا التوحيد أن يكون مقدمة لتوحيد آخر أعظم منه، هو توحيد العالم الغربي والإمبراطورية الفارسية في دولة عالمية واحدة تضم كل الشعوب المعروفـة. فمن ذا يستطيع أن يرتاب في أن هذا الحلم كان يخالج فؤاده؟ وكتابات إيزوقراط تقنعنا بأنه كان يملأ جوانب نفسه. ومن ذا يستطيع أن ينكر أنه ربما تمكن من تحقيقه؟ وقد يخالجه أمل معقول في أن تتاح له فسحة مـن الأجل لعلها تبلغ ربع قرن آخر من الزمن المليء بالنشاط. وفي ٣٣٦ ق. م. عبرت جنوده الأمامية إلى آسيا. على أنه لم يلحق بها لا هو ولا كتلة قواته الرئيسية؛ إذ إنه قتل غيلة.

٣- مقتل الملك فيليب

من الضروري الآن أن نلم بطرف من حياة الملك فيليب المنزلية. فإن حياة كل من فيليب وابنـه، كانـت تخالطها شخصية امرأة قلقة شريرة لا يستقر لها قرار هي أوليمبياس (Olympias) أم الإسكندر.

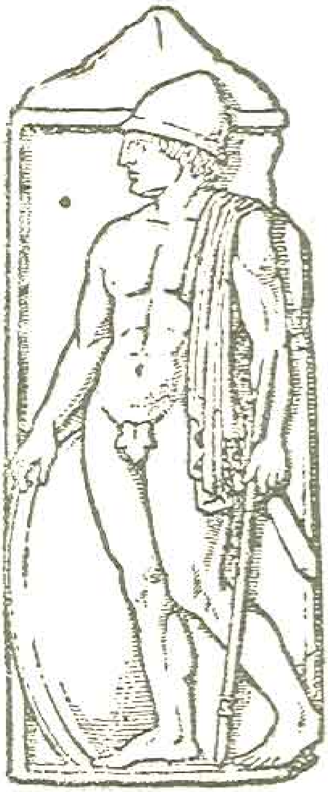
كانت ابنة ملك إبيروس (Epirus) القطر الواقع إلى الغرب من مقـدونيا، وهـو كمقـدونيا أرض شـبه إغريقية. التقت بفيليب أو لعلها قذفت في طريقه في أحد الاجتماعات الدينية في ساموترافيا (Samotharce). ويصرح بلوتارك بأن هذا الزواج كان يقوم على الحب المتبادل. ويبدو أن هذه على الأقل إحدى المآخذ على فيليب، وهي أنه شأن الكثيرين من الرجال ذوي النشاط الجم والخيال الرحب كان ميالاً إلى هـوائج الحـب الجامح. تزوجها بعد أن اعتلى العرش، وولد له الإسكندر بعد ذلك بثلاث سنوات.

ولم يمض طويل زمن حتى دب الخلاف بين فيليب وأوليمباس عنيفًا مريرا. فإنها كانت تغار منه، ولكـن كان هناك مصدر ثان للمتاعب أشد خطورة من هذا، هو شغفها الشديد بالأسرار الدينية ذات الطقوس الخفية. ولقد بينا من قبل أن ديانة الإغريق النوردية الممتازة ذات النطاق المحدود، كانت البلاد غاصة مـن دونهـا بنحل وعبادات من نوع أقتم وأقدم، وهي عقائد أصيلة في البلاد لها أسرار ومراسيم يلقّنها من يمارسها ولهـا حفلات تهتكية خليعة وكثيرا ما تصحبها طقوس قاسية فاحشة. فعقائد الأشباح هذه، وما كان يمارسه النسـاء والفلاحون والعبيد من أمور، هي المصدر الذي تستقي منه بلاد الإغريق معتقداتها الأورفيـة [١] (Orphic) والديونيسية [٢] (Doonysiac) والديميترية [٣] (Demeter). وهي قد كمنت في ثنايا تقاليد أوربا حتـى مـا يداني أزماننا هذه، وما أعمال السحر في القرون الوسطى وما بها من لجوء إلى دم الأطفال وإلى أجزاء مـن أجسام المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام والرقي والتعاويذ السحرية إلا المظاهر المتخلفة عن تلك الاحتفالات الدينية لدى البيض الداكنين. وكانت أوليمبياس حاذقة في هذه الأمور، خبيرة بهـا ومتحمسـة لهـا. ويـذكر بلوتارك أنها حازت شهرة واسعة لاستخدام الثعابين المستأنسة في هذه الممارسات والطقـوس الورعـة!!!! وكانت الحيات تجتاح جناحها المنزلي. ولم يوضح لنا التاريخ هل كان فيليب يجد فيها مادة تثيـر سـخطه أو تبعث فيه الرهبة الدينية؟!!!... ولا بد أن أعمال زوجة فيليب هذه كانت مصدر مضـايقة خطيـرة لـه، لأن الشعب المقدوني كان لا يزال في تلك المرحلة الحاسمة من مراحل التطور الاجتماعي التي لا يستحب فيهـا التحمس في الورع والإفراط في التدين ولا الزوجات العسيرات القياد.

([١]) أورفيوس: شخصية خرافية لشاعر قبل هوميروس عاش في تراقيا وصحب الأرجونوتس وهم البحارة الأبطال الذين أبحروا للبحث عن الجزيرة الذهبية (راجع المجلد الأول). وهبه أبوللو قيثارة وعلمته آلهة الفن التاسوعية Muses كيـف يلعـب عليها وسحرت لسماعه الحيوانات والأشجار والصخور وكانت تتحرك من أماكنها لتستمع إلى قيثارته الذهبية. (المترجم)

([٢]) ديونيسوس: إله شاب بهي الطلعة متخنث، كان يعتبر إله الخمر ويسمى أيضا باكخوس وهو ابن زيوس. وينسب إلى هـذا الإله أنه هو الذي علم الإنسان صناعة النبيذ؛ والخمر هي رمز فتوته. (المترجم).

([٣]) دميتر: هي إحدى الربات العظيمات عند الإغريق هي حامية الزراعة وما تخرجه الأرض من ثمار. ويقـال إن مختـرع المحراث ومن عرف القمح المبذور هو من أحب الناس إليها. وهي ابنة أخت زيوس. (المترجم).



(٨١)
مقاتل مقدونى
فى عهد فيليب
(عن صورة محفورة من بيلا)

وإن الدلائل على وجود عداوة مريرة بين الوالدة والوالد، لتبدو لنا من خلال الكثير من الأشياء الصـغيرة في كتب التاريخ. وواضح أنها كانت تغار من فتوح فيليب. إذ كانت تكره له ذيوع الصـيت. وهنـاك مـن الشواهد كثير عن أن أوليمبياس كانت تبذل قصارى جهدها لتنفر ابنها من أبيه وتضمه إلـى جانبهـا ضـما كاملاً. ويروي لنا كتاب (السير لبلوتارك" قصة تقول بأنه كلما وردت الأنباء بانتصار لفيليب مثل فتح مدينـة أو الفوز في بعض المعارك الكبيرة، لم يكن يبدو على الإسكندر أي فرح عظيم لسماعها، بل كان على العكس يقول للداته وأترابه "سيحصل أبي على كل شيء مقدما يا صبيان. ولن يترك أي عمل عظيم أشرككم معـي فيه".

وليس أمرا طبيعيا أن يحسد ولد أباه على هذه الشاكلة دون بعض الإيحاء. وكأني بهذه العبارة تـرن فـي الأذن رنين الصدى المردد.

ولقد أوضحنا من قبل كم كان تدبير فيليب لمسألة تولية الإسكندر من بعده أمرا بينا جليا للعيان، وإلـى أي حد كان تواقًا إلى جلب الشهرة والسلطان إلى يد الغلام. فكان الأب دائب التفكير في البناء السياسـي الـذي يعمل على تشييده – ولكن الأم كانت تفكر فيما تصيبه تلك السيدة العجيبة، أوليمبياس، من مجـد وكبريـاء. ولكنها أخفت كرهها لزوجها وأحاطته بستار من قلق الأم على مستقبل ابنها. ولما تزوج فيليب ٣٣٧ ق. م. – على عادة الملوك وأسلوبهم في تلك الأيام – زوجة ثانية مقدونية الأصل اسمها كليوبطرة "وكان يحبها حبـا شديدا" أثارت أوليمبياس شيئًا كثيرا من المتاعب.

ويحدثنا بلوتارك عن منظر محزن حدث في حفل زواج فيليب من كليوبطرة فلقد عاقر القـوم الخمـر فـي الوليمة ما شاءوا. وإذ كان أتالوس (Attalus) والد العروس قد ثمل من الشراب، فإنه كشف النقاب عـن تلـك العداوة التي كان يكنها الناس عامة لأوليمبياس وإبيروس بقوله: "إنه يأمل أن ينتج ذلك الزواج طفلاً يكون وارثًا مقدونيا قحا للعرش". وعندها صاح الإسكندر وكان متوثب النفس سائر الأعصاب لمثل هذه الإهانة "فمـاذا أنـا إذن؟" ثم قذف أتالوس بكأسه. ونهض فيليب وقد ثارت ثائرته، ويقول بلوتارك إنه جرد سيفه ولكنه عثر ووقع. وقام الإسكندر وقد أعماه الحنق والحسد فعير أباه وأهانه بقوله: "أيها المقدونيون، انظروا ها هنا إلى القائد الذي يريد أن يزحف من أوربا إلى آسيا، كيف!!؟... إنه لا يستطيع أن ينتقل من منضدة إلى أخرى!".

فكم لا يزال هذا المنظر حيا عالقًا بالأذهان، من ارتماء الملك على الأرض والوجـوه المحمـرة انفعـالاً وسكرا، وصوت الغلام الغاضب. وفي اليوم التالي رحل الإسكندر مع أمه – ولم يحـاول فيليـب منعهمـا. وذهبت أوليمبياس إلى وطنها إبيروس – ورحل الإسكندر إلى إلليريا ومن هناك أقنعة فيليب بالعودة.

ثم لم يلبث أن نشب بينهما شغب جديد فقد كان للإسكندر أخ به ضعف في قـواه العقليـة اسـمه أريـدايوس (Aridaeus) [١] رغب حاكم كاريا الفارسي في أن يتخذه صهرا له. "هنالك أخذ أصدقاء الإسكندر وأمه يغرونه بأبيه ويبثونه الهواجس من جديد، وإن لم يكن لها ظل من الحقيقة. مدعين بأن فيليب بتدبيره هاته الزيجة النبيلـة وما يترتب عليها من المساعدة، كان يرمي إلى إعطاء التاج إلى أريدايوس، ومن ثم أرسل الإسكندر – وقد أقلقته تلك الشبهات – شخصا اسمه تسالوس (Thessalus) وهو ممثل مسرحي، إلى كاريا ليطلب مـن عظيمهـا أن يعرض عن أريدايوس غير الشرعي المولد، والناقص الإدراك؛ وأن يتخذ وريث التاج الشرعي حليفًا له وصهرا. وبلغ سرور بكسوداروس (Pixodarus) بهذا المقترح أقصى غايته. ولكن لم يكد فيليب يسمع بالخبر، حتى ذهب إلى جناح الإسكندر مصطحبا معه فيلوتاس (Philotas) ابن بارمنيون (Parmenio) وهو من أشـد أصـدقائه ورفقائه إخلاصا، وعنف الإسكندر بمحضر هذا الصديق على انحطاطه ودناءة روحه في تفكيره أن يكون ختنًا [٢] لرجل من كاريا، هو أحد عبيد ملك همجي. وكتب في الوقت نفسه إلى الكورنثيين مشددا عليهم بإرسال تسالوس إليه مكبلاً بالقيود. وعمد الملك إلى هاربالوس (Harpalus) ونيارخوس (Niarchus) وفرجيوس (Phrygius) وبطليموس Ptolemy وهم بعض رفقاء آخرين للأمير فنفاهم. على أن الإسكندر استدعاهم فيما بعد، وعـاملهم معاملة ملؤها التقدير".

---

(١) يسمى في كتب التاريخ التي تتناول ذلك العصر فيليب أريدايوس (Philip Aridaeus) (المترجم).

(٢) الختن بفتح التاء هو زوج الابنة. (المترجم).

وهناك شيء مؤثر جدا في هذه القصة، قصة الوالد وهو يحاج الولد الذي كان حبه الأبـوي لـه ظـاهرا ملحوظًا، وقد حيره ذلك المقترح الوضيع الذي نسج حول خيال الفتى.

أصيب فيليب بطعنة في حفل زواج ابنته من خالها ملك إبيروس وشقيق أوليمبياس. إذ كـان يسـير فـي موكب إلى أحد المسارح وهو أعزل من السلاح وعليه ثوب أبيض، فطعنه أحد رجال حرسه. وكـان هنـاك حصان ينتظر القاتل الذي حاول أن يفر، لولا أن اشتبك حافر حصانه في كرمة برية، فألقته عثرة الجواد من سرجه، وقتله متعقبوه.

وهكذا أصبح الإسكندر ملكًا على مقدونيا في سن العشرين وانتهى قلقه على تبوئه العرش.

وعند ذلك عادت أوليمبياس فظهرت في مقدونيا كامرأة بررت موقفها تبرير المتكبرين، ويقال إنها أصرت على أن تقدم لذكرى القاتل نفس مظاهر التكريم الجنازية التي أقيمت لذكرى فيليب.

وسرى في بلاد الإغريق سرور عظيم بذلك الحادث السعيد. فأما ديموستنيز فإنه لما أتاه هذا النبأ العظيم، خرج إلى الجمعية العمومية بأثينا في ثياب بهيجة وعلى رأسه إكليل من الزهر، ولما يمض على وفرة ابنتـه ما يجاوز السبعة أيام.

ومهما يكن أمر ما فعلت أوليمبياس بشأن قاتل زوجها، فما تحيط أية شكوك تاريخية بتفاصـيل معاملتهـا لضرتها كليوبطرة. إذ لم يكد الإسكندر يغادر مقدونيا (حين شغلته على الفور ثورة رجال التلال في الشمال) – حتى قتل ابن كليوبطرة الحديث الولادة بين ذراعي أمه، ثم خنقت كليوبطرة بعد أن وجهت إليها عبـارات السباب والتقريع ولا ريب. ويقال إن هذا الغلو في المشاعر النسوية، هال الإسكندر ولكنه لم يمنعه من بسـط يدي أمه بسلطان عظيم في مقدونيا. وقد كتبت إليه رسائل في موضوعات دينية وسياسية وأظهر لها ابنها من الوفاء والبر ما جعله يرسل إليها على الدوام نصيبا كبيرا من الأسلاب التي كان يغنمها.

٣- أول فتوح الإسكندر

اضطررنا إلى سرد هذه الأقاصيص اضطرارا إذ لا يستطاع فهم التاريخ بدونها. وها هو ذا عالم واسـع الأرجاء يعج بالناس ممتد بين الهند والبحر الأدرياتي وهو مستعد للوحدة متأهب إلى حد لم يسبق لـه مثيـل للانصياع لحكم من يلم شمله. وها هي ذي الدولة العظيمة – دولة الإمبراطورية الفارسية بطرقاتهـا ونظـام بريدها وسلمها المخيم على أرجائها وشامل رخائها – مهيأة تماما للتأثر بما يشعه العقل الإغريقي وما ينتجـه من قطوف دانية. ومع ذلك فهذه هي القصص التي تصور طبيعة المخلوقات البشرية التي أتيحت لهـا تلـك الفرص العظيمة. فها هو ذا فيليب، ذلك الرجل العظيم البالغ النبل، ومع ذلك فهو سـكير مـدمن، وهـو لا يستطيع أن يضبط نظام داره. وهاكم الإسكندر وهو إنسان موهوب من كثير من النواحي، مواهب أعلى ممـا لدى أي رجل في زمانه، ولكنه مغرور متشكك في الناس، نزق حاد العواطف، وله ذهن أحـدثت أمـه بـه انحرافًا وزيغًا.

وقد شرعنا الآن في فهم شيء مما عسى أن كان يئول إليه العالم، وشيء مما عسى أن كان يصـير إليـه جنسنا، لولا طبيعتنا البشرية التي لا تزال فجة غريرة، ولم يكد يتجاوز ما مضى بين عصرنا وبين الإسكندر ما يزيد على سبعين جيلاً؛ كما لا يكاد يفصل بيننا وبين أجدادنا الصائدين المتوحشين الذين كانوا يضهبون (1) طعامهم على الجمر أو يأكلونه نيئًا، - ما يتجاوز الأربعمائة أو الخمسمائة جيل. ولن يتهيأ مجال كبير لدخول التعديل على نوع من الأنواع الحية في مدى أربعمائة أو خمسمائة جيل. وما عليك إلا أن تثير فيمن حولـك من الرجال والنساء مشاعر الغيرة أو الخوف أو السكر أو الغضب إلى درجة كافية حتى تبدو لك فيهم عيون رجال الكهوف الحمراء محملقة إليك اليوم. وقد تهيأت لدينا الآن المعرفة بالكتابة وتـوفر التعلـيم والعلـوم وتسخير القوى. وقد روضنا الوحوش وسخرنا البرق. ولكننا لا نزال ندلف (2) نحو النور وئيدا فـي تعثـر. أجل روضنا الوحوش وربيناها. ولكن بقي علينا أن نروض أنفسنا ونربيها.

---

(1) من ضهب اللحم إذا شواه قليلا ولم ينضجه . (المترجم)

(2) دلف دلوفًا: مشى كالمقيد وقارب الخطو في مشيه. (المترجم)

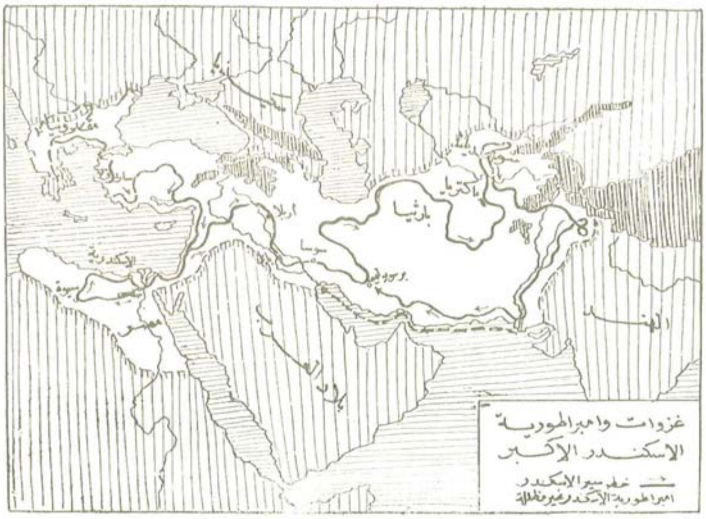


(٨٢) الإسكندر الأكبر

أظهرت أعمال الإسكندر منذ أول بدايات حكمه، إلى أي حد كبير تمثل خطط أبيه وسار على نهجها، وإلى أي حد كانت كفاياته عظيمة. ولا بد لنا من خريطة للعالم المعروف لتبين مجرى حياته. ففي أول الأمر بعـد أن حصل على التأكيدات من بلاد الإغريق، بأنه سيكون القائد العام للجيوش الإغريقية، سار مخترقًا تراقيـا إلى نهر الدانوب، وعبر النهر وأحرق إحدى القرى، وبذا أصبح الملك العظيم الثاني الذي أغار على الـبلاد الإسكيذية فيما وراء الدانوب، ثم عاد فعبره واتجه غربا وبذا قفل بطريق إلليريا. وفي ذلك الوقت كانت مدينة طيبة أعلنت العصيان عليه، فكانت ضربته التالية في بلاد الإغريق. فإن طيبة – ولم تساعدها أثينا بالطبع – قهرت ونهبت وعوملت معاملة عنف مسرف. إذ هدت كل مبانيها اللهم إلا المعبد ومنـزل الشـاعر بنـدار (Pindar) وبيع ثلاثون ألف نسمة من سكانها رقيقًا في أسواق النخاسة. فصعقت بلاد الإغريق. وأصبح فـي ميسور الإسكندر بذلك أن ينطلق حرا للقيام بالحملة الفارسية.

وكشف تدمير طيبة على هذا النحو عن مسحة من القسوة والعنف في سيد أقدار البشرية الجديد. إذ كانـت تلك ضربة أثقل من أن يقدم عليها إنسان بل كان إتيانها عملاً وحشيا غشوما. فلئن قضـي بهـا علـى روح العصيان، فقد قضي كذلك على روح العون. فإن دول المدن الإغريقية ظلت جامدة منذ ذلك الحين، فلا هـي تشغب عليه ولا هي تعينه. وأبت تلك المدن أن تمد الإسكندر بسفائنها، وهو أمر كانت نتيجته مضايقة خطيرة له.

وهناك قصة يرويها بلوتارك عن هذه المذبحة الطيبية بوصفها أمرا يشرف الإسكندر. لكنها لعمري تبـين كيف أن جوانبه السليمة التي تنم عن التعقل وجوانبه الأخرى التي بها مس من الجنون كانت فـي صـراع. وهي تحدثنا عن ضابط مقدوني وسيدة من طيبة. كان هذا الضابط ينهب مع الناهبين، فدخل إلى منزل هاتـه المرأة، وأوقع بها من الإهانات والأضرار ما لا يمكن التعبير عنه، ثم سألها آخر الأمر عما قد يكون لـديها مخبأ من كنوز الذهب أو الفضة. فأخبرته بأن كل كنوزها مخبوءة في البئر وقادته إليه، وبينما هو مائل يتأمل قاعه، قذفته فيه على الفجاءة ثم قتلته بإلقاء الأحجار الضخمة عليه. ووصل إلـى المكـان بعـض الجنـود الموالين، وأخذوها إلى الإسكندر ليقضي فيها برأي.



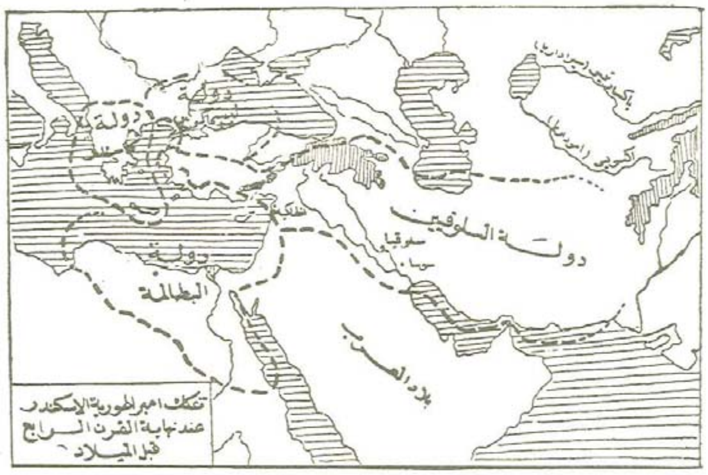
ش (٨٣) غزوات الإسكندر الأكبر وإمبراطوريته

فتحدته، وكان دافع الغلو والتطرف الذي حدا به إلى القيام بالمذبحة قد أخذ في التناقص والتضـاؤل. فلـم يكتف الإسكندر بالعفو عنها، بل أمر برد عائلتها وممتلكاتها وحريتها إليها. ويفسر بلوتارك هذا بأنه كرم خلق وسماحة نفس ولكن المسألة أعقد من ذلك. إذ إن الإسكندر هو الذي كان ينهب ويستعبد وينتهك حرمات طيبة بأكملها. فذلك الوحش المقدوني المسكين المتردي في البئر. ما كان يفعل إلا ما قيل له إن له ملء الحرية أن يفعله. فهل يجوز لقائد أن يصدر في مبدأ الأمر أوامر قاسية، ثم يعود فيعفو عمن يقتلون أعوانه بل ويكافئهم؟ إن هذه البارقة من وخز الضمير في حالة امرأة واحدة ربما لم يكن يعوزها مظهر الكرامة الحزينة والجمـال الأسيف، إنما هي عوض زهيد في مقابل هلاك مدينة عظيمة.

وقد اجتمع في نفس الإسكندر خليط من جنون أوليمبياس الذي ورثه عنها وما أخذه عن أبيه من رجاحـة عقل وما تلقاه عن أرسطو من تعاليم. ولا مراء أن حادث طيبة هذا أزعج خاطر الإسكندر. فكان كلما لقـي الطيبيين فيما بعد حاول أن يظهر لهم عطفًا خاصا. ومما يذكر له بالفضل أن شبح ما جنت يداه في حق طيبة كان دائم الملاحقة له.

ومع ذلك فإن ذكرى طيبة لم تنقذ ثلاث مدن أخرى عظيمة من مثل تلك العاصفة العقلية الهوجـاء. فإنـه دمر صور (Tyre) وغزة ومدينة ببلاد الهند، سقط أثناء فتحه إياها عنوة وجرح في قتال شريف، ولم يـنج من هذه المدينة الأخيرة نفس واحدة، حتى الأطفال. فلا بد أن ما استولى عليه من الذعر كان شـديدا حتـى اجترح مثل هذا الانتقام الذريع.

وعند ابتداء الحرب كان للفرس عليه ميزة فائقة. إذ كانوا في واقع الأمر سادة البحر. لأن سفن الأثينيـين وحلفائهم كانت معرضة غاضبة لا تعين الإسكندر. ولكي ينتقل الإسكندر إلى آسيا، اضطر أن يطوف معرجا حتى عبر عند الهسبونت. فلو أنه تقدم متوغلاً في الإمبراطورية الفارسية، لتعرض لخطر قطـع مواصـلاته تماما عن قاعدته. وعلى ذلك كان أول واجب عليه أن يقصم العدو في البحر. ولم يكن هذا في مسـتطاعه إلا بالمسير على محاذاة ساحل آسيا الصغرى والاستيلاء على الميناء تلو الميناء، حتى يتم تدمير كـل القواعـد البحرية الفارسية. فلو أن الفرس تجنبوا الالتحام معه في المعارك وانصرفوا إلى غشـيان خـط مواصـلاته الطويل، لقضوا عليه فيما يرجح ولكنهم لم يفعلوا ذلك. فإن جيشًا فارسيا لا يزيد عن جيشه كثيرا اشتبك معه في معركة على ضفاف نهر جرانيكوس (Granicus) (٣٣٤ ق. م.) فباء بالتدمير. وبذلك أصبح الإسـكندر مطلق اليد في الاستيلاء على سارديس وأفيسوس وميليتوس ثم بعد قتال عنيف على هاليكارناسـوس. وفـي الوقت نفسه كان الأسطول الفارسي عن يمينه يفصل بينه وبين بلاد الإغريق، وهو يهدده أكثر التهديد ولكنـه لا يفعل شيئًا.



ش (٨٤) تفكك إمبراطورية الإسـكندر

وفي (٣٣٣ ق. م.) وحين كان يتابع هجومه هذا على القواعد البحرية، سار بمحاذاة الشاطئ حتـى رأس الخليج المسمى اليوم "خليج إسكندرونة". وكان هناك جيش فارسي جرار تحت قيادة الملك العظيم دارا الثالث متغلغل في داخلية البلاد إلى جوار خط سيره، تفصله عن الشاطئ الجبال. وتقدم الإسكندر عن هـذه القـوة المعادية قبل أن يدرك هو أو يدرك الفرس ما بينهما من تدان، إذ كانت أعمال الاستطلاع – كما هو واضح – على أسوأ حال لدى الإغريق والفرس على السواء وكان الجيش الفارسي حشدا هائلاً سيئ النظام: من الجنود

والدواب ووسائل النقل ومنتجعي المعسكرات [١] ومن إليهم. ونذكر على سبيل المثال، أن دارا كان مصحوبا بجريمة، وكان هناك عدد حاشد من إماء الحريم والموسيقيين والراقصين والطباخين. وكان الكثيرون من كبار الضباط قد أحضروا عائلاتهم ليشهدوا مصرع الغزاة المقدونيين. وقد جمعت الجيوش من كل ولاية في الإمبراطورية، ولم يكن لديهم تقاليد متعارف عليها أو مبدأ يجمعهم ويؤلف بينهم في عمل موحد. وتملكت "دارا" فكرة قطع السبيل على الإسكندر إلى بلاد الإغريق فساق هذا الجمع الحاشد من فوق الجبال حتى البحر، ومن يمن طالعه أن اجتاز الممرات دون أن يعترض سبيله معترض، ثم عسكر في سهل إيسوس (Issus) بين الجبال والساحل. وهناك هزمه الإسكندر وكان قد عاد ليلاقيه. إذ كر الفرسان وحطم الفيلق هذا الجيش العظيم الهش كما يهشم الحجر الزجاجة، فتفرق بددا. وفر "دارا" من مركبته الحربية – تلك الآلة العتيقة الطراز – ممتطيا صهوة جواده، تاركًا كل شيء حتى حريمه في أيدي الإسكندر.

وكل الأقاصيص التي تروى عن الإسكندر بعد هذه المعركة تصوره على خير ما يكون الخلق الكريم فتظهره متحرزا مسماحا. فعامل الأميرات الفارسيات بأقصى ما يكون من الأدب، وتملك ناصية رشده، واستمسك استمساكًا وثيقًا بخطته، وترك دارا يهرب إلى سوريا ولم يتعقبه. ثم واصل مسيره على قواعد الفرس البحرية – أي على ميناءي صور وصيدا الفينيقيين؛ فسلمت صيدا، وقاومته صور.

فلئن أتيح لنا أن نجد في مكان ما دليلا على مقدرة الإسكندر الحربية الفائقة، فهاهنا موضعها ومجلاها. كان جيشه من صنع أبيه، ولكن فيليب لم يظهر في حصار المدن نبوغًا أبدا. ولما كان الإسكندر غلاما في السادسة عشرة رأى مدينة بيزنطة الحصينة على البوسفور تصد أباه. وها هو ذا يواجه مدينة منيعة صمدت لحصار بعد حصار، وقاومت نبوخذ ناصر العظيم أربعة عشر عاما. إذ إن الشعوب السامية صاحبة قصب السبق في احتمال الحصارات. وكانت صور عند ذلك جزيرة تبعد عن الشاطئ نصف ميل، وأسطولها سليما لم يصب بسوء، وكان الإسكندر من الناحية الأخرى، قد سبق فتعلم الشيء الكثير أثناء حصاره قلعة هاليكارناسوس، وضم إليه هيئة من المهندسين من قبرص وفينيقيا، وكان أسطول صيدا معه. وما لبث ملك قبرص أن انضم إليه بمائة وعشرين سفينة جعلت سيادة البحر في يده. وفضلاً عن ذلك فإن قرطاجة الكبيرة لم ترسل أي عون – إما اعتمادا منها على قوة المدينة الأم أو خروجا منها عن الولاء لها – فضلاً عن أنها كانت مشتبكة في حرب في صقلية.

وكان أول ما اتخذه الإسكندر من تدابير أن بنى جسرا من أرض القارة إلى الجزيرة، ولا يزال هذا السد باقيا إلى يومنا هذا. وأقام الإسكندر على طرفيس هذا الجسر عند اقترابه من أسوار صور أبراجه ومجانيقه وأكباشه [٢]. ثم شد كذلك إلى الأسوار سفنًا، أقيمت عليها الأبراج والمجانيق. واستخدم أهل صور الحراقات (سفن النيران) ضد هذا الأسطول الصغير، وأخذوا يلاحقونه بالخروج المباغت من مينائهم. وحدث في إحدى

---

(١) يراد بها من يتعقبون المعسكرات من رجال ونساء للاستفادة من الجند. (المترجم)

(٢) الكبش: المنطاح (battering ram) آلة كانت تستعمل قديما في هدم أسوار الأماكن المحاصرة، تتكون من عرق عظيم من الخشب برأس من حديد قريبة الشبه برأس الكبش، ومنه اتخذ اسمها. (المترجم).

غاراتهم المفاجئة على السفن القبرصية أن أمسك بهم المغيرون وأوقعوا بهم أضرارا جسيمة، وأصيب الكثير من سفنهم بقذائف المجانيق. ووقعت فورا في أيدي قوات الإسكندر سفينة كبيرة مخماسة، أي ذات خمس طبقات من المجاديف، وأخرى ذات أربع طبقات – ثم فتحت آخر الأمر ثغرة في الأسوار – وبعد أن تسلق المقدونيون الأنقاض من سفنهم فتحوا المدينة عنوة.

استمر هذا الحصار سبعة أشهر، وقاومته غزة شهرين. وحدثت في كلتا الحالتين مذبحة كما حدث أن نهبت المدينة وبيع الأحياء من أهلها بيع الرقيق. ثم دخل الإسكندر مصر قرب نهاية (٣٣٢ ق. م.) وثبتت له سيادة البحر. فأما بلاد الإغريق – وكانت طيلة ذلك الزمان تتأرجح في سياستها – فإنها انتهت آنذاك إلى التصميم على الانحياز إلى جانب الإسكندر. وقرر مجلس دول المدن الإغريقية المنعقد في كورنثة إهداء تاج نصر من الذهب "لقائده العام". ومنذ ذلك الحين ظل الإغريق منضمين إلى المقدونيين.

وكان المصريون أيضا في صف المقدونيين، على أنهم كانوا مع الإسكندر منذ البداية. فإن الحكم الفارسي أظلهم قرابة مائتي سنة. ولم يكن لمجيء الإسكندر من معنى عندهم سوى ذهاب سيد وقدوم آخر، ولكنه تغيير كان في جملته تغيرا إلى أفضل. فسلمت البلاد من غير قتال. وأظهر الإسكندر الاحترام البالغ نحو شعورها الديني، فلم يكشف اللفائف عن أي مومياء كما فعل قمبيز، ولم يعتد على حرمة آبيس عجل ممفيس المقدس. وفي تلك البلاد لمس الإسكندر في نفسه في ظلال المعابد الضخمة وعلى نطاق واسع كثيرا من الشواهد والأدلة على وجود ميل إلى تدين خفي غير منطقي يذكره بأسرار وخفايا طالما اعتنقتها والدته وأثرت في طفوليته أيما تأثير. وظل أربعة أشهر في مصر يداعب العواطف الدينية وتداعبه.

ولا بد لنا أن نتذكر أنه كان لا يزال شابا يافعا، منقسما على نفسه. أجل إن سلامة العقل القوية التي ورثها عن أبيه جعلت منه جنديا عظيما. وحبته تعاليم أرسطو بشيء من النظرة العلمية إلى العالم. أجل إنه دمر صور. بيد أنه أنشأ في مصر عند أحد مصبات النيل مدينة جديدة هي الإسكندرية، لتحل محل ذلك المركز التجاري القديم. وأنشأ إلى الشمال من صور وبالقرب من إيسوس، مرفأ ثانيا هو الإسكندرونة. ولا تزال كلتا هاتين المدينتين زاهرة إلى يومنا هذا. كما أن الإسكندرية انقضى عليها دهر ربما كانت فيه أكبر مدينة في العالم. فلا بد إذن أن موقعيهما اختير اختيارا حكيما. على أن الإسكندر كانت لديه كذلك روح التخيل العاطفية الهوجاء التي كانت لأمه. فإنه إلى جانب هذا العمل الإنشائي كان مستغرقًا في مغامرات دينية إذ استحوذت آلهة مصر على لبه. وإذا هو يسافر أربعمائة ميل إلى واحة قصية لزيارة وحي آمون. ذلك بأنه كان يريد أن يبت في شكوك معينة كانت تساوره عن حقيقة نسبه ومولده. فإن أمه طالما ألهبت ذهنه بالتلميح والإشارة والألفاظ المبهمة عن سر عميق يكتنف حقيقة أبوته. فهل كان إنسان عادي مثل فيليب المقدوني أباه حقًا؟

وقد لبثت مصر قرابة أربعمائة سنة وهي قطر لا يعتاد به من الوجهة السياسية، يغزوها الإثيوبيون آونة ويغزوها الآشوريون أخرى والبابليون تارة والفرس طورا. ولما أن أصبح تفكير المصريين فيما هم فيه من حاضر المهانة والاتضاع أمرا بغيضا إلى نفوسهم، أصبح الماضي والعالم الآخر أكثر روعة في نظرهم. وما تنشأ الدعاية الدينية المتبجحة بالمفاخرة والاغترار بالماضي إلا عن طول شعور الشعوب بالمذلة المزمنة الأليمة. فإن المقهور

يستطيع أن يقول للظافر "ليس هذا الظفر بشيء ذي بال في نظر الآلهة الحقة". وهكذا اضطر ابن فيليب المقـدوني وسيد بلاد الإغريق العام إلى أن يحس صغاره وضآلة قدره بين المعابد الضخمة المشمخرة. وكان للإسكندر نصيب غير عادي مما هو مألوف من طموح الشباب الطبيعي إلى التأثير في كل من يحيط بهم من الناس. فكم كان ارتياحه واطمئنان نفسه عظيما إذن حين يكتشف لتوه أنه ليس مجرد مخلوق موفق، وليس واحدا من أولئك السوقة من هؤلاء الإغريق العصريين وإنما هو قديم أزلي قدسي ابن إله، وهو الإله فرعون بن آمون رع!!!...

ولقد سبق لنا أن قدمنا لك في فصل سابق وصفًا لتلك المقابلة في معبد الصحراء.

ولم يقتنع الشاب تمام الاقتناع. نعم أطافت به في بعض الأحايين لحظات الاقتناع. كما كانت تنتابـه فـي أحيان أخرى أطوار من سلامة العقل، عند ما كان الأمر أقرب إلى مزاح. فأبدى فـي حضـرة المقـدونيين والإغريق الشك في أنه إله حقًا. فلما انطلق دوي الرعد القاصف، أقدم السفيه أريستارخوس (Aristarchus) على سؤاله "ألا تنوي" أن تفعل شيئًا من هذا القبيل يابن زيوس"، ولكن الفكرة الجنونية جعلت مع ذلك تطيف بذهنه منذ ذلك الحين وهي مستعدة لأن يلهب أوارها النبيذ أو الملق.

وفي الربيع التالي (٣٣١ ق. م.) عاد إلى صور، وزحف من هناك نحو مملكة آشور جـاعلاً الصـحراء السورية عن يمينه، فوجد في انتظاره عند خرائب نينوي المنسية جيشًا فارسيا عظيما، طفق دارا يجمعه منـذ معركة إيوس. وكان يتألف من خليط هائل آخر من فرق الجند، ويعتمد في قوته الرئيسية على ذلك السـلاح البالي العتيق حتى في ذلك الوقت: وهو المركبة الحربية. وكان لدارا من هذه قوة عدتها مائتان، وقد ربطـت بعجلات كل مركبة وإلى عريشها وجسمها مناجل. ويبدو أنه كان بكل مركبة أربعة خيول، فبات واضحا أنه إذا جرح أحد هذه الخيول بنبل أو سهم، تعطلت المركبة. وكانت الخيول الخارجية تعمل أكثر ما تعمل كوقاية لخيول العجلة الداخلية. ولذا كانت تشبك إلى المركبة بسير خارجي مفرد يسهل قطعة، ولكـن إصـابة أحـد خيول العجلة (أي الخيل الداخلية) كان يفضي إلى تعطيل العربة كلية. ولمثل هذه العربة أثر ساحق عظيم إذا هي استعملت ضد جيش مفكك من المشاة أو نفر من المحاربين الفرادى. ولكن دارا ابتدأ المعركة بقذفها على الخيالة وعلى المشاة الخفاف، فبلغ القليل منها هدفه وسرعان ما تم القضاء على هذه أيضا بسهولة. وأجريت المناورات لتخير مواقع أفضل والاعتصام بها، وانطلق المقدونيون المدربون أحسن تدريب يسيرون في خـط مائل صوب الجبهة الفارسية محتفظين بحسن نظامهم. فأما الفرس فإنهم في تعقبهم لهذه الحركة حتى الجناح، فتحوا في صفوفهم ثغرات. وعلى حين بغتة كر الفرسان المقدونيون المنظمون فـي أحـد هاتـه الصـدوع وصدموا قلب الجيش الفارسي. وعلى أثر كرتهم مباشرة تقدم المشاة يتبعونهم، فتمزق قلب الفرس وميسرتهم. وقد تقدمت الراكبة الخفيفة في الميمنة الفارسية فترة من الزمان فاكتسبت من ميسرة الإسكندر أرضا، وكأنها لم تفعل ذلك إلا لكي تمزقها فرسان تساليا إربا. وكانت في ذلك الوقت أصبحت تقارب فـي حسـن دِربتهـا نموذجها المقدوني المحتذى، ولم تعد القوات الفارسية تشبه الجيش بالمعنى المعروف. فإنها انحلت إلى جمـع غفير من الفارين تنساب ثلله تحت غمامات عظيمة من القتام. وليس بينها سبب واحد يلم شعثها وهي تسـير عبر السهل الحار نحو أربيل (Arbela). وانطلق المنتصرون بخيلهم خلال الغبار والجمهور الهارب وهـم يقتلون ويذبحون حتى خيم الظلام ووضع للمذبحة حدا. وقاد دارا المتقهقرين.

تلك هي معركة أربيل (أربيلا) التي حدثت في اليوم الأول من أكتوبر (٣٣١ ق. م.). وإنا لنعرف تاريخها بمثل هذا الضبط الشديد، لأن التاريخ سجل لنا أنه اتفق قبل حدوثها بأحد عشر يوما أن كان المنجمون على كلا الجانبين في شغل شاغل بخسوف القمر.

وفر دارا شمالاً إلى بلاد الميديين، وتقدم الإسكندر إلى بابل.

وكانت المدينة القديمة مدينة حمورابي (الذي حكم قبل ذلك بسبع عشرة مائة من السنين) ومدينة نبوخذ ناصر العظيم ونابونيداس، لا تزال على العكس من نينوي مركزا هاما ناجحا. والبابليون شأنهم في ذلك شأن المصريين، لم يكن ليعنيهم كثيرا أمر انتقال الحكم من الفرس إلى المقدونيين. وكان معبد بعل – مردك قد أصبح حطاما وخرائب ومحجرا تؤخذ منه مواد البناء، بيد أن تقاليد الكهنة الكلدان كانت لا تزال باقية، وقد وعد الإسكندر بإعادة بناء المعبد.

ومن ثم سار إلى سوسا، التي كانت يوما ما مدينة العيلاميين البائدين المنسيين، والتي أصبحت العاصمة الفارسية.

ثم سار إلى برسيبوليس حيث أمر – وقد بلغ انتشاؤه بالخمر في إحدى المآدب ذروته – بإحراق بيت ملك الملوك. ثم أعلن فيما بعد أن هذا هو انتقام بلاد الإغريق لإحراق إجزرسيس أثينا.

٤- تجولات الإسكندر

هنا يبدأ طور جديد من أطوار قصة الإسكندر. فإنه ظل السنوات السبع التالية يتجول بجيش معظمه من المقدونيين، في شمال وشرق الجزء الذي كان عند ذلك يعد العالم المعروف. ابتدأ أولاً بالسير في أعقاب دارا، ثم لا ندري بعد ذلك ماذا أصبح...؟ فهل كان الأمر أمر مسح منظم لعالم كان ينوي أن يوحد أجزاءه ويؤلف منه دولة كبرى، أم هو مجرد سير على غير هدى كطراد الإوز البري في صيد؟ لقد كان جنوده أنفسهم بل خاصة أصدقائه يعتقدون في الرأي الأخير، وأخيرا أوقفوا مدرجه وراء السند. والواقع أن عمله هذا يبدو على الخريطة أشبه الأشياء بطراد إوز برى، وكأنني بهذا الطراد لا يهدف إلى شيء بوجه خاص ولا يرمي إلى الوصول إلى مكان ما.

وسرعان ما انتهى به تعقبه دارا الثالث إلى مسرح خاتمته المحزنة. إذ يلوح أن قواد الملك العظيم أنفسهم ثاروا عليه بعد معركة أربيلا، ناقمين منه ضعفه وعدم كفايته. فسجنوه وأخذوه معهم على الرغم من رغبته في أن يلقي بنفسه بين يدي سماحة قاهره، واتخذوا من بيسوس (Besst) حاكم باكتريا قائدا لهم. وانتهى الأمر بالإسكندر إلى طراد جدي حامي الوطيس يتعقب آثار القافلة الهاربة التي كانت تحمل ملك الملوك الأسير. وعند الفجر، وبعد مطاردة دامت الليل كله، لاحت القافلة في الأفق البعيد، وأصبح الفرار جموحا جنونيا، فإن بيسوس وقواده تركوا المتاع والنساء وكل شيء آخر، كما تركوا من خلفهم أيضا عائقًا آخر، فإلى جوار بركة ماء منعزلة عن الطريق العام سرعان ما وجد جندي مقدوني عربة متروكة لا تزال بغالها مشدودة إليها، في تلك العربة كان يرقد دارا صريعا، وهو مطعون في عشرات الأماكن من جسمه والدم يتدفق منه حتى الموت، ذلك أنه رفض أن يواصل المسير مع بيسوس، وأبى أن يمتطي الجواد الذي قدم إليه. ولذا طعنه قواده بحرابهم ثم تركوه، فسأل آسريه بعض الماء. ولسنا ندري إن كان قد قال شيئًا آخر غير هذا. على أن المؤرخين رأوا من اللائق أن يلفقوا عليه حديث النزع الأخير، وهو ما لا يقبله العقل. ولعله لم يقل إلا الشيء القليل الطفيف.

ولما أن وافى الإسكندر بعد شروق الشمس بقليل كان دارا قد قضى نحبه...

ولتجوالات الإسكندر عند مؤرخ العالم أهمية خاصة بها، منفصلة تماما عن الضوء الذي تلقيه على أخلاقه. فكما أن حملة دارا الأول رفعت الستار من خلف بلاد الإغريق ومقدونيا، وأظهرتنا على شيء مما يقع خلف الأستار الشمالية الصامتة من وراء تاريخ المدنيات الأولى الذي تنقله إلينا السجلات، فإن حملات الإسكندر تنقلنا كذلك إلى أقاليم لم يكن أحد دون عنها حتى ذلك الوقت أي شيء جدير بالثقة.

فيتكشف لنا أنها لم تكن مناطق صحراوية، بل كانت زاخرة بحياة جماعات ذات طابع خاص.

سار الإسكندر إلى شواطئ بحر قزوين، ومن ثم اتجه شرقًا عبر ما يسمى الآن باسم "التركستان الغربيـة"، وأسس مدينة تسمى الآن هيرات (Herat) ومنها سار شمالاً بطريق كابول وما يسمى الآن باسم سمرقند، حتى وصل إلى جبال التركستان الوسطى، ثم عاد أدراجه جنوبا وانحدر إلى الهند مخترقًا ممر خيبر، والـتحم فـي معركة عظيمة على السند الأعلى مع ملك شجاع مديد القامة، هو الملك بوروس (porus) وفيها التقت المشـاة المقدونية بجمع من الأفيال وهزمته. ولعله كان يرغب في مواصلة السير شرقًا عبر الصـحراوات إلـى وادي الجانج، بيد أن جنوده أبت مواصلة السير، ويحتمل أنهم لو لم يفعلوا ذلك في تلك الآونة أو بعدها، لواصل السير حتى يبيد من التاريخ شرقًا، ولكنه اضطر أن يحول وجهته مرتدا، فبنى أسطولاً انحدر به إلى مصـب السـند. وهناك قسم قواته، فأخذ الجيش الرئيسي وسار على امتداد الشاطئ القاحل قافلاً به إلى الخليج الفارسي، وقاسـى الجيش في الطريق متاعب وأهوالا جمة، ومات منه الكثير من الرجال عطشًا، وتبعه الأسطول بحرا، ولحق به عند مدخل الخليج الفارسي. وكان في خلال رحلته أثناء هذه السنوات الست يشتبك في معـارك، وتـدين لـه بالخضوع كثير من الشعوب العجيبة، وينشئ المدن. ولقد رأى جثة دارا في يونيـه (٣٣٠ ق. م) وعـاد إلـى سوسا (٣٢٤ ق. م.) فوجد الإمبراطورية في اختلال. ووجد ولاة الأقاليم (الستاربة) ينشئون لأنفسـهم جيوشًـا خاصة بهم. وألفى باكتريا وميديا في ثورة، ووجد أوليمبياس جعلت مهمة الحكومة في مقدونيا أمرا مسـتحيلاً. كما أن هاربالوس خازن الملك فر بكل ما خف حمله من الخزانة الملكية، وأخذ يشق طريقه إلى بلاد الإغريـق وهو يرشو الناس في رحيله. ويقال إن بعض أموال هاربالوس وصل إلى جيب ديموستنيز.

على أننا قبل أن نعالج الفصل الختامي لقصة الإسكندر، نرى أن نقول كلمة عن تلك الأقاليم الشمالية التي تجول فيها. وواضح أنه من إقليم الدانوب وعبر جنوب روسيا قدما، وعبر القطر الواقع إلـى شـمال بحـر قزوين قدما، والقطر الواقع إلى شرق بحر قزوين فما تلاه حتى الكتل الجبلية في هضبة البامير، ثم شرقًا إلى حوض نهر تاريم بالتركستان الشرقية، - كانت تنتشر آنذاك سلسلة من قبائل وشـعوب همجيـة (متبربـرة) متشابهة كلها وهي جميعا على مرحلة واحدة من الثقافة تقريبا، وهي في معظم أمرها آرية في لغتها، ولعلهـا نوردية في جنسها. وكانت مدنهم قليلة العدد إذ هم في الكثير الغالب من المترحلين، وقد يستقرون في بعـض الأحيان استقرارا موقوتًا رغبة في زراعة الأرض. ولا ريب أنهم كانوا قبل ذلك يختلطون في آسيا الصغرى بالقبائل المغولية. بيد أن تلك القبائل المغولية لم تكن آنذاك منتشرة هناك.

وقد تعرضت تلك الأجزاء من العالم لعملية هائلة مستمرة من جفاف الجو وارتفاع السطح ظلـت تحـدث طيلة العشرة آلاف سنة الأخيرة. فمنذ عشرة آلاف سنة كاملة كان هناك – فيما يرجح – حاجز مياه متصـل الحلقات يمتد بين حوض نهر الأوبي (Obi) وبين بحر آرال – قزوين. وإذ إن هذا البحر قد جف، وأصبحت أراضي المستنقعات قطرا شبه سهوبي، فإن الرحل النورديين القادمين من الغرب والرحل المغول من الشرق التقوا واختلطوا وعاد حصان الركوب إلى العالم الغربي. وواضح أن هذه المنطقة المترامية أخذت تتحول إلى مركز تتجمع فيه هذه الشعوب البربرية. وكان ارتباطهم بالأرض التي يحتلونها ارتباطًا مفكـك الأوصـال، فكانوا يعيشون في خيام وعربات أكثر منهم في منازل. وكانت دورة وجيزة من سني الوفرة وانتشار الصحة أو انقطاع الحروب بين القبائل أثناء عهد أحد الحكام الأقوياء، تؤدي إلى زيادة جسيمة في عدد السكان فـإذا أتت سنتان أو ثلاث من العسيرات العجاف فإنها تكفي لعودة القبائل إلى تجوالها من جديد التماسا للغذاء.

ومن قبل بزوغ فجر التاريخ المدون، كان إقليم التجمع البشري هذا بين الدانوب والصين، يلقى على التناوب قبائل تنهال مثل شآبيب المطر المتتابع زاحفة جنوبا ونحو الغرب. فكانت تلك المنطقة من خلف المناطق المأهولة بالسكان أشبه بسحب الغمام المتراكم، يتجمع فيها الغزاة ثم ينفذون كالسيل الطامي. ولقد لاحظنا كيف هبطت الشعوب الكلتية غربا كطل [1] خفيف، وكيف أن الإيطاليين والإغريق وذوي قرباهم من سكان إبيروس والمقدونيين والفريجيين انحدروا جنوبا. ولاحظنا كذلك حركة الكمريين من الشرق وهي تندفع عبر آسيا الصغرى كشؤبوب فجائي من البرابرة؛ كما شهدنا انحدار الإسكيذيين والميديين والفرس جنوبا وهبوط الآريين إلى الهند. وحدثت قبل عهد الإسكندر بما يداني القرن غزوة آرية جديدة لإيطاليا على يد شعب كلتي، هو الغال الذين سكنوا وادي نهر بو (Po)، فهؤلاء الشعوب، على اختلاف أجناسهم، هبطوا من غمرات الحجب الشمالية إلى ضياء التاريخ. وفي الوقت ذاته كان المستودع، أعني إقليم التجمع، خلف ذلك الضياء لا يفتر عن تجميع الشعوب استعدادا لفيضانات جديدة. فمسير الإسكندر في آسيا الوسطى يدخل الآن في تاريخنا أسماء جديدة على أسماعنا، هي أسماء البارثيين (Parthians) وهم شعب من الراكبة الرماة بالقسي، كتب لهم أن يمثلوا دورا هاما في التاريخ بعد ذلك بقرن تقريبا. والباكتريين، الذين كانوا يعيشون في الموطن الرملي للجمل. ويبدو أنه حيثما طاف الإسكندر لقي شعوبا تنطق بالآرية، وكان البرابرة المغول في الناحية الشمالية الشرقية لا يزالون مجهولين. ولا أخال أحدا كان يتصور أن هناك أيضا مستودعا آخر عظيما من السكان فيما وراء الإسكيذيين وأقربائهم مقره شمالي الصين، قدر لهم أن ينسابوا هم أيضا من توهم متدفقين تدفقًا جديدا، نحو الغرب والجنوب، ويختلطوا أثناء مجيئهم بالإسكيذيين (الأشقوذيين) النورديين وبكل من يلتقون به من شعوب أخرى ذات عادات مماثلة لعاداتهم. وحتى ذلك الحين لم يكن أحد غير أهل الصين يعرف شيئًا عن الهون (Huns). ولم يكن هناك أتراك في التركستان الغربية أو في أي مكان آخر آنذاك. ولم يكن ثمة أي تتار في العالم.

إن هذه اللمحة عن الأحوال السائدة في التركستان في القرن الرابع ق. م. لمن أمتع مظاهر تجولات الإسكندر. وهناك غارة أخرى، هي غارته على أرض البنجاب. فإن مما يستثير غضب رواة القصة البشرية، أنه لم يواصل مسيره حتى إقليم الجانج (الكنج)، وأننا لم نحصل نتيجة لذلك على أوصاف وتفاصيل قائمة بذاتها دبجها كتاب الإغريق عن الحياة في البنغال القديمة. على أن هناك مجموعة ضخمة من المؤلفات في لغات هندية متنوعة تعالج تاريخ الهند وحياتها الاجتماعية، وهي لا تزال في حاجة إلى من ينفض عنها الغبار، ويقدمها إلى القراء الأوروبيين.

---

[1] الطل: المطر الخفيف؛ والوابل الثقيل؛ والشؤبوب: الدفعة الواحدة من المطر. (المترجم)

٥- هل كان الإسكندر عظيما حقًا؟

ظل الإسكندر ست سنوات يمتلك الإمبراطورية الفارسية غير منازع، وكـان عنـد ذلـك بلـغ الحاديـة والثلاثين. ولم يستحدث في هذه السنوات الست شيئًا يذكر. فاستبقى معظم نظم المقاطعات الفارسية، وعـين حكاما (Satraps) جددا أو استبقى السابقين منهم. وكانت الطرق والمواني ونظم الإمبراطورية لا تزال على ما تركها سلفه الأعظم قورش. واكتفى في مصر باستبدال حكام جدد بحكام الأقاليم القدماء، وقهر في الهنـد بوروس ملكها ثم تركه على قدر من القوة لا يقل عما وجده عليه؛ اللهم إلا أن بوروس أصبح يسميه الإغريق ساتراب. وخطط الإسكندر عددا من المدن، قدر لبعضها أن تنمو وتزدهر فتصبح مدنًا عظيمة. فإنه أسس ما يبلغ في مجموعة سبعة عشر إسكندرية تعاورت على أسمائها تغيرات شتى – مثال ذلك قنـدهار (إسـكندر) وسيكندر أباد. على أنه دمر صور، ودمر مع صور كل أمن وطمأنينة تستظل بها الطرق البحرية التي كانت حتى ذلك الحين المنفذ الرئيسي لبلاد ما بين النهرين نحو الغرب. ويقول المؤرخون إنه "هلـن" الشـرق، أي صبغه بالصبغة الهللينية. على أن مملكة بابل ومصر كانتا تعجان بالإغريق قبل زمانه. فهـو إذن لـم يكـن السبب في هذ العملية بل كان أحد عواملها. وبفضله ظل العالم بأسره ردحا من الزمان، من البحر الأدريـاتي إلى نهر السند تحت لواء حاكم واحد. وبذا يكون قد حقق أحلام إيزوقراط وآمال فيليب أبيه. ولكن إلى أي حد كان يسعى إلى جعل هذا الاتحاد مستديما وطيد الأركان؟ وهل كانت إمبراطوريته حتى آنذاك إلا زخرفًا براقًا يبهر الأبصار ورواء مؤقتًا لشخصه العظيم الأخاذ؟.

لم يعمد إلى إنشاء طرق عظيمة، ولا إقامة مواصلات بحرية آمنة مضمونة ومن السخف أن نتهمه بأنـه أهمل التعليم، لأن الفكرة القائلة بأن الإمبراطوريات يجب أن يربط التعليم أجزاءها، كانت لا تزال غريبة عن الفكر البشري. بيد أنه لم يحط نفسه بأية طائفة من الساسة ولا كان يفكر في أي خلف له، ولم يعمـل علـى ابتداع أي تقاليد، بل إن ما أنشأه لا يعدو أن يكون أسطورة تدور حول شخصه. ويلوح أنه لم يدر بخلـده أن الفلك سوف يواصل الدوران من بعده، وأن العالم لن تشغله أمور أخرى عدا التحدث بفخامته وروعته. كـان لا يزال صغير السن لا جرم. ولكن ألا ترى أن فيليب قبل أن يصل إلى الحادية والثلاثين من عمره بـزمن بعيد كان يفكر في تعليم الإسكندر؟

وقد يتساءل الإنسان عما إذا كان الإسكندر صاحب فكرة في السياسة على الإطلاق؟

إن بعض دارسي تاريخ حياته يؤكدون أنه كان من أرباب السياسة والتدبير، وأنه شغل يوم كان في سوسا بوضع الخطط لإقامة إمبراطورية عالمية؟. وأنه كان لا يرى فيما يعمل مجرد فتح مقدوني للعالم، بل صهرا ومزجا لتقاليد الأجناس البشرية بعضها ببعض. ومهما يكن من شيء فإنه فعل شيئًا واحدا، يلمح إلـى هـذه الفكرة تلميحا خفيا، إذ أقام وليمة عرس كبرى، تزوج فيها هو وتسعون من قواده وأصـدقائه مـن عـرائس فارسيات. فأما هو فقد تزوج بنت دارا، وإن كانت لديه من قبل زوجة آسيوية هي روكسانا (Roxana) ابنة ملك سمرقند. وأقام لهذا الزواج الجماعي حفلاً رائعا جدا. وفي الوقت نفسه، قـدم هـدايا العـرس للجنـود

المقدونيين الذين تزوجوا من عرائس آسيويات، والذين كان يبلغ عددهم عدة آلاف. وقد سـمي هـذا "زواج أوربا وآسيا". إذ كان لا بد للقارتين من الارتباط على حد قول بلوتـارك "بربـاط زواج شـرعي وبجـامع الاتصال والاشتراك عن طريق الذرية والنسل". ثم أخذ بعد ذلك يدرب المجندين من فارس ومن الشمال، أي من الفرس والباكتريين ومن على شاكلتهم – على فنون الحرب التي تتميز بها الأنظمـة الخاصـة بـالفيلق والفرسان. فهل كان ذلك أيضا لكي يتم مزج آسيا وأوربا؟ أم كان يرمي من وراء ذلك إلى الاستقلال بنفسـه عن رجاله المقدونيين؟ لقد اشتموا منه رائحة الفكرة الثانية على كل حال، فتمردوا عليه، واستطاع في شـيء من الصعوبة أن يرجعهم في حال من الضراعة والندم، واستمالهم إلى الاشتراك في وليمة عامة جمعت بينهم وبين الفرس. ولقد أجرى المؤرخون على لسانه حديثًا بليغًا مستفيضا لهذه المناسبة... كان بيت القصيد فيـه أنه أمر رجاله المقدونيين أن يرحلوا، ولم يوضح لهم الطريقة التي يرى أن يخرجوا بها مـن فـارس إلـى وطنهم. فبعد أن قضوا ثلاثة أيام في هلع، خضعوا له والتمسوا منه الصفح والغفران.

والواقع أن هذا الموضوع يمكن أن يكون موضع بحث شائق. فهل كان الإسـكندر حقًـا ينـوي إدمـاج الأجناس ومزجها بعضها ببعض، أم أن كل ما في الأمر أن قلبه تعلق بحب ما يستمتع به الملك الشرقي مـن عظمة وقدسية؟ وكان لذلك يريد أن يتخلص من هؤلاء الأوربيين الذين لا يعدونه إلا ملكًا قائـدا؟ علـى أن كتّاب عصر الإسكندر، والكتاب الذين عاشوا في زمن قريب من عصره أميل كثيرا إلى الأخذ بالفكرة الثانية. وهم يؤكدون لنا أنه كان مغرورا غرورا لا حد له، ويقصون كيف أنه أخذ يرتدي أثـواب ملـوك الفـرس وتيجانهم، "يرتديهما أولاً أمام البرابرة وعلى انفراد وبين خاصته، ولكنه ما لبث حتى أخذ يرتديهما على الملأ عند جلوسه لتصريف الأمور" وسرعان ما طلب من أصدقائه مظاهر الخضوع والخشـوع علـى الطريقـة الشرقية.

ولعل هناك شيئًا واحدا يقوي الظن بوجود غرور شخصي عظيم في الإسكندر. فإن صورته نقشت ونحتت مرارا كثيرة، وهو يبدو فيها على الدوام في صورة الشاب الجميل ذي الذوائب المدهشة التـي تتـدلى إلـى الخاف كاشفة عن جبين عريض. وكان معظم الرجال في سالف الزمان يرخون لحاهم، ولكن الإسكندر الذي فتن بجماله وغضارة شبابه كان يأبى أن تفارقه نضرة الصبا. لذا ظل غلاما زائفًا في سن الثانيـة والثلاثـين فكان حليق الوجه وبذلك استن للإغريق وإيطاليا سنّة دامت قرونًا كثيرة.

وقصص العنف والغرور في سنيه الأخيرة تتجمع متكاملة حول ذكراه. فإنه أصغى ذات مرة إلـى هـذر نمام وشى له بفيلوتاس بن بارمينيون أحد أشد قواده إخلاصا وفوزا بثقته. إذ أبلغه أن فيلوتاس، قال متفـاخرا بنفسه أمام امرأة كان يغازلها: "إن الإسكندر إنما هو مجرد غلام. وإنه لولا رجال من أمثال أبيه وأمثاله لمـا تم له غزو فارس وأشباهها من البلدان". ومثل هذه الروايات تنطوي علـى عنصـر معـين مـن الصـدق. وأحضرت المرأة بين يدي الإسكندر، فأصغى إلى غدرها وخيانتها. واتهم فيلوتاس للساعة بالتآمر عليه، ثـم أمر به فعذب وأعدم بناء على أدلة بتراء ناقصة. ثم فكر الإسكندر في بارمينيون، الذي مات ولداه الآخـران من أجله (أي الإسكندر) في ميدان القتال. فأرسل رسلا سراعا ليقتلوا الشيخ المسن قبل أن يبلغه مقتل ولـده وكان بارمينيون هذا من أكثر قواد فيليب تمتعا بثقته، وبارمينيون هذا هو القائد الذي قاد الجيوش المقدونيـة

إلى آسيا قبل مصرع فيليب. وليس هناك أقل شك في صحة جوهر هذه القصة وصدق ما تـروي. ولا فـي إعداد كاليسثنيز ابن أخت أرسطو الذي رفض أن يقدم للإسكندر مراسم التقديس. ثم "أخذ يسير فـي كبريـاء واختيال كمن دك طغيانًا، على حين كان الشبان يتبعونه بوصفه الرجل الحر الأبي الوحيد بين آلاف الرجال". ويختلط بأمثال هذه الحوادث تلك القصة التي لها دلالتها – قصة الشجار الذي قتل فيه الملك كليتـوس أثنـاء معاقرتهما الخمر. ذلك أن الملك ورفاقه أكثروا ذات ليلة من الشراب. فأطلق الشراب الألسنة وجعل الحـديث عاليا حرا وانطلقت ألسن بالملق الكثير "للإله الصغير" مع الإسراف في الحط مـن قـدر فيليـب، وابتسـم الإسكندر لذلك ابتسامة الرضا. وكان ذلك الاغتباط النفسي المخمور فوق ما يطيقه المقدونيون، فثـارت لـه ثائرة كليتوس – وهو أخوه في الرضاع – ثورة جنونية. فلام كليتوس الإسكندر على ارتدائه الثياب الميديـة وأثنى على فيليب. وعقب هذا شجار صاخب، ودفع أصدقاء كليتوس به إلى خارج الحجرة لوضع حد لهـذا الشجار. على أنه كان مع ذلك في حالة السكر التي تبعث العناد فعاد من مدخل آخر وسمع في الخارج وهـو ينشد مقتبسا هذه الأبيات من شعر يوريبيدس في نبرة جريئة مليئة بالازدراء "أهذه عـاداتكم؟ أهكـذا بـلاد الإغريق تكافئ مقاتليها؟ أيدعي رجل واحد الغنائم التي غنمها الآلاف؟".

وعند ذلك اختطف الإسكندر حربة من أحد حراسه وأنفذها في جسم كليتوس وهو يرفع الستار ليدخل...

والإنسان مضطر إلى الاعتقاد بأن هذا هو الجو الحقيقي لحياة الفاتح الشاب. ثم إن قصة مظـاهر حزنـه الجنوني الشديد على هيفايستيون Hephaestion لا يمكن أن تكون كلها اختلاقًا ولا من نسج الخيال تمامـا، فلئن صحت كلها، أو كانت صحيحة في بعض أجزائها، فإنها تكشف عن ذهن مضطرب لا يعرف الاتـزان، ومحصور تماما في صغائر الأمور الشخصية، ذهن لم تكن الإمبراطورية لديه إلا مجالاً للمظهر الأناني، ولا موارد العالم بأسرها إلا مادة لنوبات من ذلك النوع من السماحة والكرم الذي يسرق ألف إنسان لكي ينتـزع إعجاب شخص واحد مبهور بما يجزل له من عطاء.

فإن هيفايستيون الذي كان مريضا فرضت عليه تغذية خاصة دقيقة – عمد أثناء غياب طبيبه في المسـرح إلى دجاجة محمرة فتناولها، واحتسى قنينة من النبيذ المثلوج فمات على الأثر. وعند ذلك آلى الإسكندر علـى نفسه أن يقيم مظاهر الأسى والأحزان. وكان حزنه هذا حزن مجنون معتوه. فأمر بالطبيب فصـلب، وأمـر بقص شعر كل حصان وبغل في بلاد فارس وهدم جميع حصون وطوابي المدن المجاورة، ومنع الموسـيقى بتاتًا في معسكره مدة طويلة. ولما أن استولى على قرى معينة من قرى القوزيين (Cusaeans) أمـر بكـل البالغين فيها فذبحوا قربانًا لروح هيفايستيون، ثم خصص ما لا يقل عن عشـرة آلاف تـالنتوم (talentum) لإقامة قبر له. وكان هذا بالنسبة لتلك الأيام مبلغًا هائلاً من المال. وليس في واحد من هذه الأمور أي تكـريم حقيقي لهيفايستيون، بيد أنها أظهرت للعالم المأخوذ فرقًا ورعبا كم يكون حزن الإسكندر هائلاً مروعا!!

وقد تكون هذه القصة الأخيرة والكثير من أمثالها ترهات وأكاذيب أو تشويهات أو مبالغات، بيد أن بينهـا سببا يجمعها. وبعد حفل صاخب في بابل اشتد فيه الشراب، ألمت بالإسكندر حمـى مباغتـة (٣٢٣ ق. م.) فاعتل ومات وهو بعد في الثالثة والثلاثين لم يتجاوزها. ومنذ ذلك الحين تجد الإمبراطورية العالميـة، التـي كان اختطفها وأمسك بها بين يديه، كما يفعل الطفل بزهرية ثمينة، قد سقطت إلى الأرض وتحطمت إربا.

فاختفى بموته كل ما لاحت بوارقه في مخيلة الناس من نظام حكم عالمي شامل، ووقعت البلاد من بعده بين براثن حكم استبدادي مطلق أو أوتوقراطي همجي يغشاه الاضطراب. وأخذ كل حاكم من حكام الأقاليم يشيد لنفسه ويعمل لحسابه. ولم تمض أعوام قليلة حتى أبيدت كل عائلة الإسكندر بأسرها فقد سارعت روكسانا زوجته الأعجمية إلى قتل ضرتها ومنافستها ابنة دارا. ثم وضعت – للوقت – ابنًا للإسكندر ولد بعد وفاته، وكان يسمى هو أيضا الإسكندر. ثم ما لبث أن لقي مصرعه معها بعد ذلك ببضع سنين (٣١١ ق. م.). وقتل أيضا هرقل (Hercules) الابن الآخر الباقي للإسكندر؛ وكذلك قتل أيضا أريدايوس أخو الإسكندر غير الشقيق الضعيف العقل. ولم يفت بلوتارك أن يلقي لمحة أخيرة إلى أوليمبياس في أثناء فترة وجيزة استمتعت فيها بالقوة والسلطان في مقدونيا. وقد أخذت تتهم هذا الشخص أولاً ثم ذاك، بتهمة دس السم لولدها الرائع، فقتلت الكثيرين في ثورة حنقها، وأمرت بجثث بعض خاصته الذين ماتوا بعد وفاته، فاستخرجت من قبورها. ولسنا ندري هل ألقى هذا البحث والنبش لجثث الموتى أي ضياء جديد على وفاة الإسكندر. وأخيرا قتلت أوليمبياس في مقدونيا، إذ اغتالها أصدقاء أولئك الذين قتلتهم.

٦- خلفاء الإسكندر

وسرعان ما برزت من حمأة الإجرام هذه شخصيات رئيسية ثلاث. فإن شطرا كبيرا من الإمبراطورية الفارسية القديمة يمتد حتى السند شرقًا، وحتى ما يكاد يداني ليديا غربا، تملكه قائد واحد اسمه سلوقوس (Seleucus) أسس أسرة مالكة هي الأسرة السلوقية. وانتقلت مقدونيا إلى يد قائد مقدوني آخر هو أنتيجونوس (Antigonus). واستحوذ على مصر مقدوني ثالث هو بطليموس (Ptolemy)، فجعل من الإسكندرية قصبة لبلاده، وأسس قوة بحرية متفوقة تكفل له الاحتفاظ بقبرص ومعظم ساحل فينيقيا وآسيا الصغرى في حوزة يده. ودامت إمبراطوريتا بطليموس وسلوقوس زمانًا طويلاً. على أن أوضاع الحكم في آسيا الصغرى والبلقان كانت أقل استقرارا. وإنا لموردون للقارئ خريطتين لتساعداه على تفهم ما كان يطرأ على الحدود السياسية في القرن الثالث ق. م. من التقلبات الكثيرة. وهزم أنتيجونوس وقتل في معركة إبسوس (Ipsus) (٣٠١ ق. م) تاركًا ليسيماخوس (Lysimachus) والي تراقيا، وكساندر (Cassander) والي مقدونيا وبلاد الإغريق، خلفين له وإن لم يمكثا في الحكم طويلاً.

واقتطع حكام أقل شأنًا ولايات صغرى لأنفسهم. وفي نفس الوقت كان البرابرة يتدفقون من الغرب والشرق إلى عالم المدنية المفكك الأوصال الواهن القوي. وجاء الغال من الغرب، وهم شعب وثيق القرابة بالكلت، فأغاروا مجتاحين مقدونيا وبلاد الإغريق حتى دلفي (٢٧٩ ق. م.) وعبر فرعان منهم البوسفور إلى آسيا الصغرى. كانوا في مبدأ الأمر يستخدمون جنودا مرتزقة، ثم أخذوا يعملون لحسابهم الخاص كناهبين مستقلين. وبعد أن مضوا في غاراتهم حتى جبال طوروس تقريبا، استقروا في أرض الفريجيين (Phrygians) القديمة ملزمين من حولهم من الناس بدفع الجزية. (وقد أصبح غال فرجيا هؤلاء هم الغلاطيين (Galatians) المذكورين برسالة القديس بولس) وأصبحت أرمينيا والسواحل الجنوبية للبحر الأسود منطقة مضطربة لكثرة من تقلب عليها من حكام. وظهر في كبادوكيا (Cappadocia) وفي بلاد بونتش (Pontus) وهي الساحل الجنوبي للبحر الأسود وفي بيثونيا (Bithynia) وفي برجامة، ملوك شبوا متشبعين بالأفكار الهللينية. ومن الناحية الشرقية تقدم كذلك نحو الجنوب الإسكيذيون والبارثيون والباكتريون. واستدامت هناك دول باكتيرية يحكمها الإغريق لم تنفك تتحول تدريجيا إلى الطابع الشرقي. وفي القرن الثاني ق. م.، أغار بعض مغامري الإغريق من باكتيريا منحدرين حتى شمال الهند. وأسسوا هناك ممالك قصيرة الأجل، وهي آخر موجة للإغريق نحو الشرق، ثم أخذت الهمجية (البربرية) تتدلى تدريجيا كالستار وتحجب الهند عن المدنيات الغربية [1].

([1]) عن تفاصيل العصر بعد وفاة الإسكندر، انظر للمترجم: "الحضارة الهللينسية"، الألف كتاب والأنجلو.

٧- برجامة ملاذًا للثقافة

هناك دويلة صغيرة تنهض بارزة بين أشلاء هذه الإمبراطورية الهللينية المحطمة وتطالبنا بأن نفـرد لهـا قسما وجيزا على الأقل – تلك هي مملكة برجامة (Pergamun). وقد سمعنا باسم هذه المدينـة لأول مـرة بوصفها مركزا مستقلاً إبان النزاع الذي انتهى بمعركة إبسوس. وبينما كان سيل غزو الغالة يرغـي ويزبـد ويدور جيئة وذهابا في آسيا الصغرى بين سنتي ٢٧٧ و ٢٤١ ق. م.، ظلت برجامة تدفع الجزية للغالة حينًا من الزمان، على أنها احتفظت باستقلالها العام. وانتهى الأمر في موقعتين فاصلتين. وظلت برجامـة بعـدها حرة طليقة مدة تزيد على قرن من الزمان (أي حتى ١٣٣ ق. م.)، ولعلها كانت خلال تلك المدة أسـمى دول العالم مدنية. وقد أقيمت على تل الأكروبوليس مجموعة فخمة من المباني والقصور والمعابد، كما أقيم متحف ومكتبة ينافسان متحف ومكتبة الإسكندرية اللذين سنتكلم عنهما من فورنا، ويكادان يكونان أول ما ظهر مـن نوعهما في العالم. وقد ازدهر الفن الإغريقي للمرة الثانية بفضل رعاية أمراء برجامة. وإن فيما صنع هنـاك من النقوش البارزة بمذبح معبد زيوس، ومن تماثيل الغالة المقاتلين، وتماثيل الذين في النزع الأخير لجـزءا خالدا من ذخر الإنسانية الفني.

ولم يمض طويل زمن كما سنبين ذلك فيما بعد، حتى أخذ الناس يشعرون في شـرقي البحـر المتوسـط بسلطان قوة جديدة، هي الجمهورية الرومانية، التي كانت ترتبط ببلاد الإغريق وبالمدنية الإغريقية بشـعور المودة. ووجدت الجاليات الهللينية ببرجامة ورودس، في تلك الجمهورية الرومانية حليفًا طبيعيا نافعا ومعينًـا لها على الغلاطيين والإمبراطورية السلوقية المصطبغة بصبغة شرقية. وسنقص عليك فيما بعد كيف انتهـى الأمر بأن امتد نفوذ الدولة الرومانية إلى آسيا، وكيف أنها هزمت الإمبراطورية السلوقية في معركة ماجنيزيا (١٩٠ ق. م) وطردتها من آسيا الصغرى إلى ما وراء جبال طوروس وكيف انتهى الأمر (١٣٣ ق. م.) بأن استسلم أتالوس الثالث آخر ملوك برجامة إلى إحساسه بالمصير المحتوم، فجعل الجمهورية الرومانية وارثـة لمملكته التي أصبحت عند ذلك ولاية "آسيا" الرومانية.

٨- الإسكندر كبشير
وداعية للوحدة العالمية

يكاد كل المؤرخين تقريبا ينزعون إلى اعتبار سيرة الإسكندر الأكبر مؤذنًا بعهد جديد في الشئون البشرية. فإنها ضمت شتات العالم المعروف كله باستثناء الجزء الغربي من البحر المتوسط فجعلت منه مسرحية واحدة. على أن الآراء التي كونها الناس عن الإسكندر ذاته، تتفاوت تفاوتًا بعيدا. فإنهم ينقسمون في غالبيتهم إلى مدرستين رئيسيتين. ففريق من العلماء يسحره شباب ذلك الفتى وبهاؤه وجلاله. ويبدو أن هؤلاء القوم من عباد الإسكندر ميالون لقبوله على أساس التقدير الذي يقدره هو لنفسه متغاضين عن كل جريمة ارتكبها وكل طيش ونزق بدر منه، إما بِعدها مجرد ثوران لطبيعة خصبة أو أشياء اقتضتها الضروريات المريرة التي حتمتها إحدى الخطط الهائلة، واعتبار حياته مصوغة في خطة مرسومة من الحنكة والسياسة والتدبير بصورة لا تكاد معها معرفتنا الواسعة وأفكارنا الفسيحة الآفاق في هذه الأيام الحديثة تكفي لإدخالها في مجال فهمنا وإدراكنا!!؟!... وهناك من الجانب الآخر، من يرون فيه مجرد محطم لما كان يتكون ويستحصد من احتمالات لتحقيق عالم حر هادئ مهان.

ويحسن بنا قبل أن ننسب إلى الإسكندر أو إلى أبيه فيليب وضع خطط للسياسة العالمية جديرة بأن يقرها المؤرخ الفيلسوف في القرن العشرين، أن نتأمل بغاية العناية أقصى ما كان في إمكان المعرفة والفكر أن يبلغاه في تلك الأيام. فإن عالم أفلاطون وإيزوقراط وأرسطو، لم يكن لديه بالفعل أي تراث تاريخي ينتهي منه على الإطلاق، فإلى ما قبل العصر الحديث بقرنين، لم يكن لدى العالم ذلك الشيء المسمى بالتاريخ، وأعني به التاريخ مميزا عن مجرد المدونات التاريخية الكهنوتية. ولم يتهيأ لأوسع الناس علما ومعرفة إلا أضيق الفكرات عن الجغرافيا والبلدان الأجنبية. إذ كان العالم لا يزال في نظر معظم الناس مسطحا لا تُعرف له نهاية. وكانت الفلسفة السياسية الوحيدة المنسقة تقوم على تجارب دويلات مدن صغيرة، فلم تأبه بالإمبراطوريات ولم يكن أحد ليعرف شيئًا عن أصول المدنية، ولم يسبق لأحد قط أن تأمل في الشئون الاقتصادية قبل ذلك الزمان. ولم يكن أحد قط استنبط نتيجة تفاعل إحدى الطبقات الاجتماعية في الأخرى. وإنا لنسرف ميلنا إلى اعتبار حياة الإسكندر وأعماله تاجا على مفرق بعض عمليات كانت قائمة على قدم منذ زمان بعيد، وأن نعتبرها أوج رفعة وصعود، ولا شك أنه كان كذلك من ناحية ما. بيد أننا نكون أقرب كثيرا إلى الصدق حين نقرر أنها لم تكن نهاية قدر ما كانت بداية. فكانت أول وحي أوحى إلى الخيال الإنساني عن وحدة الشئون البشرية. وكان أقصى ما بلغه فكر بلاد الإغريق قبل زمانه، هو النظر في فكرة صبغ الإمبراطورية الفارسية بصبغة هللينية، وفي بسط سيادة المقدونيين والإغريق على العالم ولكن قبل أن يقضي الإسكندر نحبه، بل وبعد أن مات وتهيأ للناس الزمن لإعادة التفكير في أمره، كانت فكرة إيجاد قانون ونظام للعالم أصبحت فكرة عملية تستطيع عقول الناس أن تتمثلها.

وظل الإسكندر الأكبر بضعة أجيال وهو في عين العالم رمز النظام والسلطان العالمي وعنوانهما الماثـل، فأصبح كائنًا خرافيا. وإن رأسه المزدانة بالرموز المقدسة لهرقل نصف الإله أو للإله آمون رع، لتظهر على عملة كل من استطاع من خلفائه أن يدعي لنفسه أنه وارثه. ثم حمل لواء فكرة السيادة العالمية، شعب آخـر عظيم هو الرومان، وهو شعب أظهر طوال عدة قرون نبوغًا سياسيا يعتد به. وقد حجبت شخصـية مغـامر بارز آخر هو قيصر، ضياء الإسكندر في أنظار النصف الغربي من العالم القديم.



(٨٥) سلوقوس الأول



وعلى هذا فإنا عند مستهل القرن الثالث ق. م.، نجد أن ثلاثًا من الفكرات البناءة العظيمة التي تتسلط على عقل الجنس البشري المعاصر، قد أخذ عودها يشتد في المدنية الغربية للعالم القديم. ولقد تتبعنا فيمـا سـلف تحرر الكتابة والمعرفة وتخلصهما مما كان يحيطهما به كهنة العالم القديم من أسرار وخفايا، وأشـرنا إلـى تدريج المبتدئين في الكهنوت في درجات الأسرار المقدسة خطوة خطوة، كما تعقبنا تطور فكرة جعل المعرفة في متناول الجميع وفكرة التاريخ والفلسفة اللذين يمكن فهمهما ونقلهما بين الناس كافة. واتخذنا من شخصـي هيرودوت وأرسطو شاهدين نموذجيين على هذه الفكرة العظيمة الأولى، فكرة العلم، مع استعمال كلمة "العلم" بأوسع معانيها وأصحها لتشمل التاريخ وتدل على صورة واضحة للإنسان في علاقته بالأشياء المحيطة بـه. وقفونا أيضا تعميم الديانة عند البابليين واليهود وغيرهما من الشعوب السامية، أي نقلها من العبادة الخفية في المعابد والأماكن المقدسة لبعض الأرباب المحليين أو القبليين إلى عبادة علنية "لإله واحد للكون كلـه نـدعو للصلاح والبر" معبده العالم بأسره. وتتبعنا أيضا منذ هنيهة كيف نبتت لأول مرة فكرة "سياسة عالمية". أمـا باقي تاريخ الجنس البشري فهو في معظمه تاريخ لهاته الفكرات الثلاث: فكرة العلم، وفكرة البـر والصـلاح الشامل، وفكرة إقامة حكومة عامة للجنس البشري كافة – في أثناء ذيوعها وانتشارها من أذهـان النـادرين الأفذاذ من الأفراد والشعوب التي نبتت فيها لأول مرة، إلى أن استقرت في الوعي العام للجـنس البشـري؛ وحين أسبغت عليه في مبدأ الأمر لونًا جديدا، ثم أعارته روحا جديدة، ثم وجهته توجيها جديدا فـي الشـئون الإنسانية.

الفصل الثالث والعشرون

العلم والديانة في الإسكندرية

١- علم الإسكندرية.

٢- فلسفة الإسكندرية.

٣- الإسكندرية مصنعا للديانات.

٤- الإسكندرية والهند.

١- علم الإسكندرية

كانت مصر من أشد أجزاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر العالمية الوجيزة الأمد، نجاحا ورفاهة. وكانـت من نصيب بطليموس الذي عرفنا فيه من قبل صديقًا من أصدقاء الإسكندر الذين نفاهم الملك فيليـب. وكـان القطر على بعد يجعله في حرز حريز من الغالة السالبة وبارثيا الناهبة. وكان تدمير صور والقضـاء علـى البحرية الفينيقية وإنشاء الإسكندرية، قد أتاحا لمصر سلطانًا ورفعة بحرية موقوتة في شرق البحر المتوسـط. فنمت الإسكندرية نموا هيأ لها أن تنافس قرطاجة وأصبح لها في الناحية الشرقية تجارة خارجية عن طريـق البحر الأحمر مع بلاد العرب والهند.؟ ونافست تجارتها في الناحية الغربيـة التجـارة القرطاجيـة. وكتـب لأهميتها التجارية أن تعمر قرونًا عديدة قدر لها كذلك أن تبلغ بالفعل أقصى حد لنموها فـي ظـل أبـاطرة الرومان.

ووجد المصريون في حكام البطالمة من مقدونيين وإغريق حكومة أشد عطفًا وأكثر تسامحا من أية حكومة عرفوها منذ أن انتهى عهدهم بحكومتهم الإمبراطورية المستقلة. وفي الحق إن القول إن مصـر هـي التـي غلبت البطالمة سياسيا وضمتهم إليها أدنى إلى الصواب من القول بأن المقدونيين هم الـذين سـادوا مصـر وحكموها.

والحق إن الذي حدث كان عودة إلى الأفكار السياسية المصرية أكثر منه محاولة لصبغ حكومـة الـبلاد بصبغة هللينية. وأصبح بطليموس هو الفرعون، الملك الإله، كما أن نظامه الإداري كـان امتـدادا للتقاليـد القديمة من عهد بيبي وتحتمس ورمسيس ونخاو. وكان للإسكندرية مع ذلك دستور من طراز دساتير المـدن الإغريقية يصرف الشئون الداخلية للمدينة مع خضوعها لسيادة فرعون الإلهية. وكانت لغة البلاط والحكومـة هي اللغة الإغريقية الأتيكية [1]. كما أن اليونانية صارت اللغة الشائعة بين طبقة المتعلمين في مصر إلى حـد أن الجالية اليهودية هناك وجدت لزاما عليها أن تُترجِم التوراة إلى تلك اللغة، إذ لم يعد كثير من بني جنسـهم قادرين على فهم العبرانية. ولبثت اليونانية الأتيكية بضعة قرون قبل المسيح وبعده لغة جميع المتعلمين مـن البحر الأدرياتي إلى الخليج الفارسي.

ويبدو أن بطليموس وهو أحد الشبان الذين أحاطوا بالإسكندر، قد انفرد وحده ببذل أقصى جهده في تحقيق الأفكار المنطوية على تنظيم المعرفة تنظيما دقيقًا كما أوحاها وبثها أرسطو في بلاط فيليب المقدوني. وكـان بطلميوس رجلاً أوتي مواهب عقلية خارقة، يجمع بين قوة الابتكار والتواضع ويخامر نفسه اسـتخفاف – لا يغيب عنا سببه – بالأثر الوراثي الذي خلفته أوليمبياس في عقل الإسكندر. وقد اندثر كتابه الموسوم "التاريخ المعاصر لحملات الإسكندر" ولكنه كان مصدرا استُقيت منه جميع الروايات الباقية وكانت مدينة لـه بـأعظم الفضل.

([1]) الأتيكية نسبة إلى أتيكا وهي المنطقة المحيطة بأثينا. (المترجم)

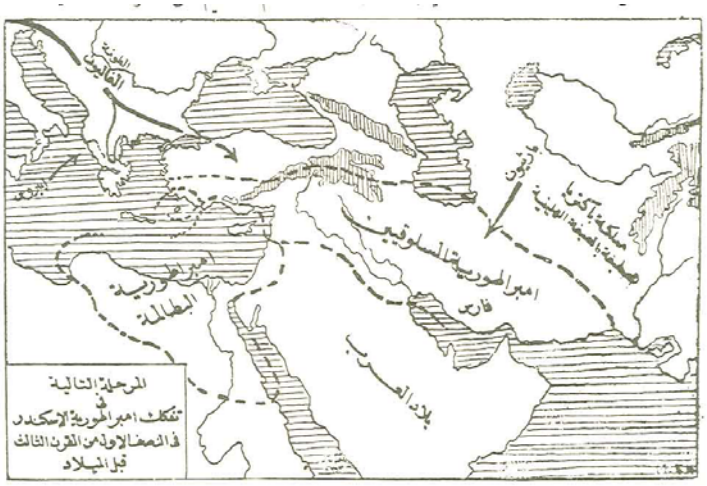
وكان المتحف الذي أقامه في الإسكندرية بمثابة أول جامعة في العالم. وكان المتحف كما يدل عليه اسـمه (باللغات الأجنبية Museum) مكرسا لخدمة التاسوع الإلهي (Muses) [1] وكذلك كان شأن مدرسة المشائين في أثينا. ولكنه كان هيئة دينية من الناحية الشكلية فقط. وذلك رغبة في التغلب على الصـعوبات القانونيـة المتعلقة بالهبات المالية في عالم لم يسبق له أن توقع شيئًا من طراز هذه الحركة الفكرية العلمانية. وكان فـي جوهره كلية مكونة من علماء يعنون بصفة خاصة بالبحث العلمي والتدوين على أنهم يشتغلون أيضا إلى حد ما بالتعليم. وأنتج المتحف الإسكندري بادئ ذي بدء، وفي مدى جيلين أو ثلاثة، نخبة من العلماء لم تسـتطع أية مدينة أن تضارعها حتى أثينا في أزهى عصورها. وكان الإنتاج الرياضي والجغرافي بالغ الصحة والدقة بوجه خاص. وإن أسماء إقليدس (Enclid) المعروف لكل تلميذ وإراتوستنيز (Eratosthenes) الذي قـاس حجم الأرض ووصل إلى ما يداني القطر الحقيقي بخمسين ميلاً، وأبولونيوس الذي كتـب عـن القطاعـات المخروطية، لتبرز ظاهرة مرموقة. وقام هيبارخوس (Hipparchus) بأول محاولة لعمـل سـجل للنجـوم وإثباتها على خريطة يمكن الرجوع إليها بغية تسجيل ما عساه أن يحدث في السماء من تغيرات. واسـتحدث هيرون (Hero) أول آلة بخارية. وجاء أرشميدس (Archimedes) إلى الإسكندرية يطلـب العلـم، وظـل يراسل المتحف بين الآونة والأخرى. ولا تقل مدرسة الطب بالإسكندرية عن المتحف شهرة. ولأول مرة في تاريخ العالم وضع بها المستوى العلمي اللازم لمحترفي مهنة الطب. ويقال إن هيروفيلـوس (Herophilus) أعظم رجال التشريح الإسكندريين قام بعملية تشريح المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام وهم أحياء، وانبـرى معلمون آخرون للطعن على دراسة التشريح معارضة منهم لهيروفيلوس وساهموا في تطور علم العقاقير.

على أن هذه الشعلة العلمية التي انبثقت في الإسكندرية لم تستمر في خملتها أكثر من قـرن. إذ إن نظـم المتحف لم يراع في رسمها أن تضمن الاستمرار في الإنتاج الفكري، لأنه كان كلية "ملكية" يعين الفرعـون من بها من الأساتذة والزملاء (كما يجوز لنا أن نسميهم) ويمنحهم مرتباتهم. ويقول الأسـتاذ (ماهـافي): "إن الطابع الجمهوري الذي اتسمت به الهيئات الخاصة التي تسمى بالمدارس والأكاديميات في أثينا كان أكثر ثباتًا وأشد استقلالا بكثير". إذ كانت الرعاية الملكية شيئًا مقبولاً مستساغًا ما دام الفرعون هو بطليمـوس الأول أو الثاني. على أن السلالة اعتراها الضعف وسرعان ما طغت تقاليد الكهانة القديمة العهد بمصر على البطالمـة وابتلعتهم ابتلاعا وقضت على عقلية المتحف الأرسطاطالية قضاء تاما. ولم يكد يمضي على المتحـف مائـة سنة حتى خبا نشاطه العلمي.

---

[1] الآلهة التسعة وهي عرائس الشعر والأدب وسائر الفنون. (المترجم).

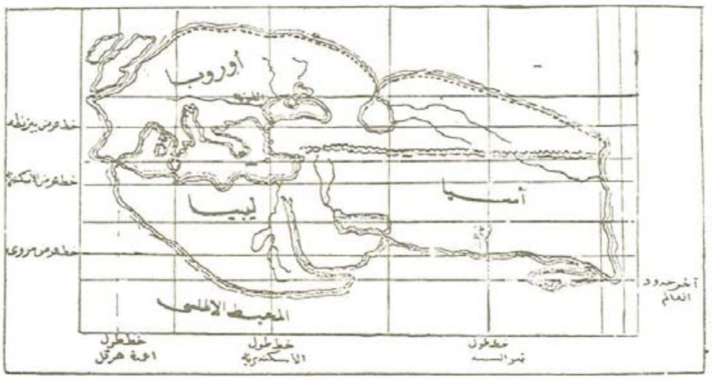
وإلى جوار المتحف وبالإضافة إليه، أنشأ بطليموس الأول لنفسه أثرا أخلد وأبقى هو المكتبـة العظيمـة. وكانت تجمع بين مكتبة الدولة ودار نشر الدولة حيث يجري العمل على نطاق لم يسمع بمثله الناس حتى ذلك الحين. وقد روعي أن تكون ذات طابع موسوعي تهدف إلى الإحاطة الشاملة بكل شـيء. فلـو أحضـر أي شخص غريب إلى مصر كتابا غير معروف، كان لزاما عليه أن يقدمه لينسخ ويضاف للمجموعـة، وكانـت طائفة كبيرة من الناسخين تستخدم على الدوام في عمل نسخ من جميـع التواليـف ذات الشـهرة والأهميـة الواسعة. وكانت للمكتبة – شأن مطبعة الجامعة – تجارة مع الخارج، فكانت مهمتها بيع الكتب. وكان تنظـيم ما يتجمع من الكتب وترتيبها وكتابة الفهارس لها عملاً يتم بغاية الضبط والنظام تحت إشـراف كاليمـاخوس رئيس المكتبة أيام حكم بطلميوس الثاني والثالث.



ش – (٨٧)

وأشرنا إلى تدريج المبتدئين فى الكهنوت فى درجات الأسرار المقدسة خطوة

ولا بد لنا أن نتذكر أن الكتب لم تكن في تلك الأيام تتألف من صفحات بل كانت لفات ملفوفـة كاللفـائف الموسيقية عند لاعبي البيانو العصريين. وكان القارئ الذي يبغي أن يرجع إلى أية فقرة معينة يضطر أن يلف الكتاب خلفًا أو يلفه أماما لفًا متعبا، وهي عملية كانت تبلي الكتب وتبعث السآمة في القراء. وربما فكر المرء من فوره في آلة صغيرة بسيطة قريبة إلى الذهن يمكن أن تلف بها مثل تلك اللفة جيئة وذهابـا حـين تعـن الرغبة في الرجوع إلى الكتب، ولكن لم نسمع أن القوم استخدموا شيئًا من ذلك القبيل. ففي كل مرة يقرأ فيها الكتاب تتناوله يدان تسحان عرقًا. وقد اهتم كاليماخوس بتقليل ما يضيع من الوقت والتعب، فقسـم المؤلفـات الطويلة أمثال تاريخ هيرودوت إلى "أسفار" أو أجزاء كما قد نسميها، وجعل كل سفر لفة منفصلة. واجتـذبت مكتبة الإسكندرية إليها من الطلاب عددا يفوق كثيرا جدا عدد من استهواهم معلمو المتحف. وكـان إسـكان هؤلاء الزوار القادمين من كافة أصقاع المعمورة وتموينهم عملاً تجاريا يعود بجزيل الخيـر علـى سـكان الإسكندرية.



(٨٨) العالم في نظر إرتستنيز (٢٠٠ ق.م.)

وربما أخذنا العجب إذ نلحظ مبلغ ما يتصف به تقدم جهاز الحياة العقلية من بطء. وما على القارئ إلا أن يفاضل بين ما يلقاه من تسهيلات في المكتبة العادية بمنزل إنجليزي من طبقة متوسطة، مثل التي يشتغل فيها الآن كاتب هذه السطور، وبين المتاعب ونقص المعدات اللذين كان يكابدهما كاتب إسكندري، حتى يتبين لـه مبلغ مضيعة الوقت والجهد الجسمي وفرط العناية والانتباه التي ظلت تنفق خلال كل القرون التي ازدهـرت فيها تلك المكتبة. وبين يدي الكاتب الآن ستة كتب، لثلاثة منها فهارس جيدة، فهو يستطيع أن يتناول أيا مـن هذه الكتب شاء، وأن يرجع في سرعة إلى خبر من أخبارها، ويحقق اقتباسا يقتبسه، ثم يتابع كتابتـه. ومـا عليك إلا أن توازن بين هذا العمل الخفيف وبين الجهد الممل المسئم من فك طيات المخطوطات الملففة. وفي متناول يدي الآن موسوعتان وقاموس وأطلس للعالم، وقاموس تراجم حياة الشخصيات وغيرهـا مـن كتـب المراجع؛ وليس بها والحق يقال فهارس هامشية، ولكن لعل في هذا طلبا لأكثر مما ينبغي في الوقت الحاضر. ولم تكن أمثال تلك المراجع توجد في العالم في ٣٠٠ ق. م. ولم تكن الإسكندرية قد أنتجت بعد أول أجرومية ولا أول قاموس.



(ش ٨٩) خريطة للعالم المعروف حوالى ٢٥٠ ق.م.

وكتابي هذا الماثل بين يدي يكتب باليد في مخطوط، ثم يأخذه من يكتبه على الآلة الكاتبة بـأعظم الدقـة، ويمكن عند ذاك أن يقرأ وأن يراجع بأقصى غاية اليسر، وأن يصحح تصحيحا وافيا ويعاد تصـحيحه. فأمـا المؤلف الإسكندرية فكان عليه أن يملي أو ينسخ كل كلمة كتبها وقبل أن يرجع إلى ما قد كتب آنفًا، كان عليه أن ينشف آخر كلماته بتلويحها في الهواء أو صب الرمل عليها، فلم يكن لديه حتى ورق النشاف. وكـل مـا يكتبه المؤلف كان لا بد من نسخه مرارا وتكرارا قبل أن يصل إلى محيط واسع من القراء. وكان كل ناسـخ يدخل في الكتاب بضع غلطات جديدة. وكانت الكتب الجديدة تملى على حجرة مملـوءة بالنسـاخين، وبـذلك تصدر في طبعة أولى عدتها بضع مئات على الأقـل. ويلـوح أن أشـعار هـوراس (Horace) وفرجيـل (Virgil) كانت تصدر في روما في طبعات كبيرة جدا. فإذا احتاج الأمر إلى الخرائط والرسوم البيانية قامت صعوبات أخرى جديدة. وإن علما كعلم التشريح مثلاً في اعتماده المعروف على الرسم الدقيق كان يعوقـه لا محالة إلى حد كبير ضعف مقدرة الناسخين. ولا بد أن انتقال الحقائق الجغرافية كذلك، كان أمرا شاقًا إلى حد لا يكاد يتصوره عقل. ولا ريب أنه سوف يأتي يوم تبدو فيه مكتبة خصوصية ومكتب من طراز سنة ١٩٢٥ ب. م، سمجين متأخرين إلى حد عجيب، بيد أنهما إذا قيسا بمعايير الإسكندرية اتضحت فيهما السرعة والوفاء بالغرض والاقتصاد في الطاقة العصبية والعقلية إلى درجة مدهشة.

وليس يبدو أن أحدا في الإسكندرية حاول البتة طباعة أي شيء. وهي حقيقة ربما بدت لنا عجيبـة جـدا. ذلك أن العالم كان يصيح في طلب الكتب صيحة تملأ الآفاق، ولم تكن صيحته طلبا للكتب وحـدها، إذ كـان بالناس عامة حاجة ماسة إلى البيانات والإعلانات والتصريحات والإشهارات وما إليها. ومع هذا فلم ينجم في تاريخ الحضارات الغربية شيء يستطيع الإنسان أن يسميه طباعة حتى القرن الخامس عشر المـيلادي. ولا يرجع ذلك إلى أن الطباعة كانت فنًا مستعصيا أو كانت متوقفة على ظهور مستكشفات أخرى تسبقها وتمهـد لها، وإنما الطباعة من أشد الحيل وضوحا، وكانت فكرتها معروفة على الدوام. وكما سبق أن ذكرنا آنفًا فإن هناك دلائل تحملنا على الاعتقاد بأن رجال الفترة المجدلينية في العصر الحجري القديم، ربما كانوا يطبعـون أشكالاً على أثوابهم الجلدية. وهل كانت أختام "سومر" القديمة إلا ضربا من وسائل الطباعة؟ وما العملـة إلا معادن مطبوعة. كما أن الأميين في كل عصر يستعملون في توقيعاتهم أختاما من الخشب أو المعادن. ويروي التاريخ أن وليم الأول فاتح إنجلترة النورماندي مثلاً، كان يستخدم مثل هذا الخاتم مع الحبر في توقيع الوثائق. وكانت الآداب القديمة في الصين تطبع إبان القرن الثاني ق. م. ومع ذلك فإن الطباعة لم تستعمل قط، بل لـم تستعمل حتى في الإنتاج المضبوط المتعلق بالصور التوضيحية، وذلك إما لسبب يرجع إلى مجموعـة مـن الصعوبات الصغيرة حول الحبر أو ورق البردي أو حول شكل الكتب، أو بسبب المقاومة التـي قـد يبـديها أصحاب العبيد الناسخين وقاية منهم لمصالحهم، أو لأن النسخ كان من السرعة والسـهولة بحيـث لا يحفـز الناس إلى التفكير في طريقة للكتابة تفوقه سهولة، كما كانت الكتابة الصينية والحروف القوطية تحفز النـاس على التفكير في ذلك، أو بسبب وجود ثغرة في النظام الاجتماعي تباعد بين رجال الفكر والمعرفة من ناحيـة وبين رجال المقدرة الفنية والممارسة اليدوية من ناحية أخرى.

ولا مراء أن السبب الرئيسي في هذا النكوص عن النهوض بالطباعة بطريقة منظمة يرجع إلـى حقيقـة واحدة هي عدم وجود كمية كبيرة من مواد صالحة للطباعة ذات نسيج منتظم وقطع مريح مناسـب. وكـان مقدار الإنتاج من ورق البردي محدودا أضيق تحديد. إذ كان لا بد من لصق السلخة إلى السلخة، ولـم يكـن هناك حجم معياري لفرخ الورق. فكأن العالم كان ملزما أن ينتظر ورود الورق العادي مـن بـلاد الصـين ليطلق ذهن أوربا من عقاله. فلو كانت هناك مطابع لاضطرت أن تنتظر في خمول وركود حتى تصنع لهـا لفات البردي على عاداتها من البطء والمهل. على أن هذا التفسير لا يبين أسباب النكـوص عـن اسـتعمال الطباعة بالكتل في حالة الصور والرسوم البيانية والتوضيحية.

وهذه المصاعب والتحديدات تعيننا على أن نفهم لماذا لم يكن للإسكندرية إلا ما لا يكاد يذكر مـن الأثـر على مجرى السياسة أو على حياة وأفكار الناس من حولها رغم أنها استطاعت علـى الفـور تحقيـق أشـد الانتصارات الذهنية خرقًا للمعتاد وهو أمر يجعل عملاً عظيما كعمل إراتوستنيز مثلاً، - إذا راعينا افتقـاره إلى الأجهزة – كافيا لرفعه إلى مصاف نيوتن وباستير. وكان متحفها ومكتبتها مركزا للنور، بيد أنه كان نورا في فانوس معتم مخبأ عن العالم جميعا. ولم تكن لديها وسيلة لإبلاغ نتائج أبحاثها إلى النـاس عامـة ومـن يتجاوبون معها منهم في الخارج خاصة، إلا بطريقة مملة هي كتابة الرسائل. ولم يكن في الإمكان نقل ما كان معروفًا هناك من العلم إلى جموع الناس عامة. وكان لزاما على الطلاب أن يحضروا متكبدين باهظ النفقـات إلى هذا المركز المزدحم، إذ لم يكن ثمة أي وسيلة أخرى للتحصيل مهما صغر قـدره. وكـان فـي أثينـا والإسكندرية مكتبات صغيرة لبيع الكتب يمكن أن تشترى منها دفاتر المذكرات المخطوطـة مـن مختلـف الأصناف والقيم بسعر معقول. ولكن أي توسع في التعليم يجعله ميسورا لمجموعات أوفر عددا ويحمله إلـى مراكز أخرى كان ينتج على الفور نقصا في ورق البردي يضيق على ذلك التوسع ويحدده. وإذن فلم يصـل التعليم البتة إلى الجماهير. وكان لزاما على المرء إن شاء أن يكون تعليمه عميقًا غير سـطحي، أن يعتـزل حياة دنياه العادية، وأن ينتقل إلى الإسكندرية ليعيش فيها سنوات طويلة عيش الحائم في جوار حكماء مزودين بأسوأ أنواع المعدات ومرهقين بالأعمال أيما إرهاق. ولم يكن التعليم في الحقيقة انسحابا تامـا مـن الحيـاة العادية على نحو ما كان الدخول في الكهانة، بيد أنه يعد مع ذلك شيئًا من هذا القبيل.

وما أسرع ما ذوى من الإسكندرية ذلك الشعور بالحرية، وتلك الصراحة والاستقامة في الإدلاء بالعلم التي هي الجو الحيوي للحياة الذهنية الحقة. ذلك أن الرعاية الملكية حتى تلك التي يبذلها بطلميـوس الأول نفسـه أفضت إلى إحاطة المناقشات السياسية منذ البداية بجو من التضييق. وسرعان ما أدت الشحناء بين مختلـف المدارس إلى تسرب خرافات سوقة المدينة وسوء تحاملهم وتحزباتهم إلى مضمار شئون العلم والعلماء.

لذلك زالت الحكمة من الإسكندرية وخلفت وراءها الحذلقة، واستعيض عن استعمال الكتب بعبادة الكتـب. وسرعان ما أصبح العلماء طبقة متخصصة عجيبة اتسمت بصفات مميزة كريهة. ولم ينقض على المتحـف ستة أجيال حتى عرفت الإسكندرية طرازا جديدا من المخلوقات البشرية: رأت فيه مخلوقًا خجولاً شاذ الطباع غير عملي لا يقدر على القيام بضرورات الحياة، شرسا أعجب الشراسة على التوافـه المتعلقـة بالتفاصـيل الأدبية واللفظية، يغار من زميله في الداخل مرير غيرته من الجاهل في الخارج – ذلك هو الرجل الـوذعي

العلامة!! كان والكاهن فرسي رهان في التعصب وعدم التسامح، وإن لم يكن صـاحب مـذبح. يميـل إلـى الغموض والإبهام ميل السحرة، وإن لم يكن له كهف يكتهفه ولم تكن أية وسيلة من وسـائل النسـخ مهمـا صعبت شاقة عليه. ولا كان أي كتاب مهما ندر بعيد المنال على يده، وكأني به في عقمه وفُسولته ضربا من الإنتاج الطفيلي النامي على هامش الحياة في التطور الفكري. وقد كتب لشعلة الذكاء البشري الحديثة الاشتعال أن تحد حدا كبيرا بقيود خطرة بسبب هذا "الإنتاج الطفيلي" طوال أجيال كثيرة نفيسة ذهبت علـى الإنسـانية هباء.

٢- فلسفة الإسكندرية

كانت عمليات النشاط العقلي الإسكندري في بداية الأمر تتمركز حول المتحف، وهي حركة علمية في جل أمرها. أما الفلسفة التي كانت في عصر سابق يفوق هذا العصر حيوية وقوة تقوم على مبادئ القوة والسيطرة على النفس والعالم المادي، فقد تحولت في الحقيقة إلى مبدأ من مبـادئ السـلوى الخفيـة، وإن لـم تتنكـر لالتزاماتها ومرعياتها. فكأن الحافز قد تحول إلى مسكن. فإن الفيلسوف ترك العالم "ينعى من بناه" كما يقـول العامة، وهو العالم الذي كان الفيلسوف جزءا منه، ثم أخذ يعزي نفسه بعبارات وصيغ جذابة ومنمقة جدا قائلاً إن العالم وهم باطل، وإن به هو شيئًا من جوهر السمو وخلاصة الحكمة يخرج به عن العالم ويرفعه عنـه. وكانت أثينا أنسب المراكز لمثل هذا النوع من التعاليم الفلسفية، فإنها أصبحت من الناحية السياسية غير ذات وزن، وإن ظلت سوقًا عظيمة مكتظة طوال القرن الرابع، كما داخلها الانحلال وإن لم يكد يحس به أحد مـا بقيت للمدينة المظاهر الخارجية القديمة. كما أنها أخذت تعامل باحترام عجيب مشوب بشيء من الاحتقار من جميع القوات المتحاربة ومن مغامري العالم كافة، ومضى قرنان برمتهما قبل أن تصبح لمدارس الإسكندرية نفس الدرجة من الأهمية في المناقشات الفلسفية.

٣- الإسكندرية مصنعا للديانات

ولئن تأخرت الإسكندرية في تطوير فلسفة تتميز بها، فإنها سرعان ما برزت كمصنع عظيم وسوق كبيرة لتبادل الفكرات الدينية.

ذلك أن المتحف والمكتبة كانا يمثلان ناحية واحدة من النواحي الثلاث لمدينة الإسكندرية، حيث كانا يمثلان العنصر الأسطوري والهلليني والمقدوني. على أن بطلميوس الأول كان قد جاء بعاملين آخرين جمعهما في هذا المركز الغريب. فقد كان هناك أولاً عدد عظيم من اليهود جيء ببعضهم من فلسطين، ولكن الكثير الغالب منهم أتوا من مصر نفسها من تلك المستقرات والمهاجر اليهودية التي لم يعد أهلها قط إلى بيت المقدس، وكان هؤلاء الأخيرون هم أشتات اليهود المنتشرين في أرجاء الأرض (Diaspora)، وهم سلالة اليهود الذين لم يشتركوا في الأسر البابلي؛ وإن كانوا مع ذلك يحتفظون بالتوراة ويراعون أحكامها ويتابعون بدقة مراسلة إخوانهم في الدين في كافة أقطار العالم. وكان هؤلاء اليهود يسكنون في حي من الإسكندرية بلغ من عِظَمِه أن أصبحت المدينة أكبر المدن اليهودية في العالم، وبها من اليهود عدد يفوق عددهم في أورشليم ذاتها. ولقد ذكرنا من قبل أنهم وجدوا من الضروري أن يترجموا كتبهم المقدسة إلى اللغة الإغريقية.

وكان هناك أيضا عدد عظيم من الأهالي المصريين تتكلم غالبيتهم اليونانية ولكنهم يحتفظون في قرارة أنفسهم بتقاليد أربعين قرنًا من ديانة المعابد وقرابين المعابد. وبذلك التقت في الإسكندرية ثلاثة أنماط من العقل والروح، هي الأنماط الرئيسية الثلاثة للجنس الأبيض. وهي تضم النقد المتفهم البصير لدى العقلية الإغريقية الآرية؛ والحماسة الأخلاقية والتوحيد اليهودي السامي؛ وتقاليد الخفايا والقرابين القديمة التي رأيناها من قبل تعمل في العقائد السرية والممارسات الغامضة في بلاد الإغريق، وهي أفكار قوية متسلطة كانت تحتال صراحا وجهارا في المعابد العظيمة في مصر الحامية.

تلك هي العناصر الثلاثة الدائمة في الخليط الإسكندري. ولكن المرافئ والأسواق أماكن يختلط فيها رجال من كل جنس معروف، ويوازنون بين آرائهم الدينية وعاداتهم. بل إنه يروى أنه حدث في القرن الثالث قبل الميلاد أن حضر مبعوثون بوذيون من بلاط الملك أسوكا ببلاد الهند، وكان هناك فيما بعد على التحقيق جالية من تجار الهنود في المدينة. ويلاحظ أرسطو في كتابه "السياسة" أن المعتقدات الدينية لدى الناس عرضة لأن تقتبس صيغتها من النظم السياسية، "فالرجال لا يقل تمثلهم لحياة الأرباب في حياتهم الخاصة عن تمثلهم لأشكالها الجسمية". وهذا العصر، عصر الإمبراطوريات العظيمة الناطقة بالإغريقية في ظل ملوك مستبدين (أوتوقراطيين) لم يكن يتفق البتة مع قيام مشاهير محليين مثل آلهة القبيلة والمدينة القدماء. إذ كان الناس يبتغون آلهة تبلغ من رحابة الأفق مبلغ اتساع الإمبراطوريات على الأقل، لذا فإن عملية عجيبة من التمثل بين الآلهة كانت دائمة الحدوث في كل مكان فيما عدا الأماكن التي تقف فيها مصالح الكهانات القوية حائلاً دون ذلك. إذ وجد الناس أنه وإن كثر عدد الآلهة، فالتشابه بينها جميعا شديد جدا. وحيثما وجدت آلهة كثيرة، أخذ الناس يظنون أنه لا بد أن يكون هناك في الحقيقة إله واحد فقط له أسماء متعددة، وأنه إنما يتسمى في كل

مكان باسم جديد. فإن جوبيتر (Jupiter) الروماني وزيوس (Zeus) الإغريقي وبعل مردك البابلي وآمـون المصري – (وهو نفسه آمون أبو الإسكندر المنتحل والخصم القديم لأمنحوتب الرابع) – متشابهة كلها تشابها يكفي لكي تدل جميعها على ذاتية واحدة.

"أبو الجميع، في كل عصر

المعبود في كل قُطر

يعبده القديس، والمتوحش والحكيم

يهوه أو جوبيتر أو المولى".

وحيثما وجدت فروق واضحة تغلب الناس على الصعوبة بقولهم بأن تلك إنما هي صور أو أشكال (أقانيم) مختلفة لإله واحد. وكان بعل مردك مع ذلك أصبح آنذاك إلها مضمحلاً جدا بالفعل، لا يكاد يعيش ولو تحـت اسم مستعار. فأما آشور وداجون ومن إليهما – وهي آلهة مسكينة تقادم عليها العهد لشعوب مقهورة – فقـد محيت من الذاكرة منذ زمن بعيد، ولم يعد لها محل في ذلك المزج. فأما أوزيريس وهو رب محبـوب لـدى عامة المصريين، سبق فعرف بأنه "أبيس" وهو العجل المقدس في معبد "منف" فيخلط الناس بعض الشيء بينه وبين آمون. وهو الذي صار تحت اسم سيرابيس الرب العظيم للإسكندرية الهلينيـة. وكـان هـو "جـوبيتر سيرابيس". وكانت البقرة الربة المصرية "هاتور أو إيزيس" تمثل أيضا في صورة إنسانية كزوجة لأوزيريس، ولدت له الطفل حورس الذي نما فأصبح أوزيريس ثانية. ولا ريب أن هذه الأقوال الصريحة تبدو ذات رنـة عجيبة في العقل الحديث، بيد أن مطابقة هذه الشخصيات بعضها مع بعض وهذا المـزج بـين رب وآخـر يوضح جيدا ذلك الكفاح الذي كانت تقوم به الفطنة البشرية الناهضة لكي تزيد من تعلقها بالديانة وروابطهـا العاطفية – وزمالتها الأخوية، على حين كانت تجعل آلهتها أقرب إلى العقل وأكثر شمولاً.



(ش ٩٠) – سيرابيس

فهذا الخلط والمزج بين رب وآخر يسمى باسم اتحاد الآلهة [1] (Theocrasia) ولم يحدث هذا المزج في أي مكان بقوة تفوق ما جرى في الإسكندرية، ولم يقاومه في تلك الفترة إلا شعبان هما اليهود الذين كانت لهم من قبل عقيدتهم في إله واحد هو يهوه رب السماوات والأرض، والفرس الذين كانوا يـدينون بعبـادة إلـه الشمس الواحد.

وبطلميوس الأول هو الذي أقام لا متحف الإسكندرية وحده بل السيرابيوم (Serapeum) المكرس لعبـادة ثالوث من الآلهة كان يمثل نتيجة إحدى عمليات اتحاد الآلهة أعني الثيوكرازيا، مطبقة على الأخص على آلهة بلاد الإغريق ومصر.

([1]) وقد أسميناه أيضا في ترجمتنا لكتاب "موجز تاريخ العالم" للمؤلف نفسه الذي نشـر فـي ١٩٥٨ باسـم "توحيـد الآلهـة". (المترجم).



(ش ٩١) – إيزيس وحورس

وكان هذا الثالوث يتكون من الرب سيرابيس= (إوزيريس + أبيس) والربة إيزيس= (هاتور الربة البقرة القمر)، والرب الطفل حورس. وبطريقة أو بأخرى كانت تتم المطابقة بين أي من الأرباب الأخرى تقريبا، وبين أي واحد من هذه الصور الثلاث للرب الواحد، لا يستثنى من ذلك حتى إله الشمس ميتراس (Mithras) عند الفرس، وكان كل واحد منها هو الآخر، كانت ثلاثة آلهة، ولكنها أيضا إله واحد. وكانت تعبد بحمية عظيمة، وكانت جلجلة آلة خاصة هي الصلاصل (sistrum)، وهي إطار علقت به مجموعة من الأجراس ويستعمل على نسق يقارب طريقة استعمال الدف في مراسم "جيش الخلاص" العصري، لازمة تميز الاحتفالات الدينية.

وإننا لنجد الآن لأول مرة في التاريخ فكرة الخلود وقد صارت فكرة الدين الرئيسية وامتدت خارج مصر؛ وليس يبدو أن الآريين الأول ولا الساميين الأول اهتموا كثيرا بأمر الخلود، كما أن هذه الفكرة لم تؤثر في العقل المغولي إلا أثرا طفيفًا جدا، على أن استمرار حياة الفرد بعد الموت كان منذ أقدم العهود الشغل الشاغل للمصريين. وكان لهذا التفكير عندئذ دور كبير في عبادة سيرابيس؛ وتصفه "المؤلفات" الدينية التي ألفت عن مذهبه، والخاصة بعبادته بأنه "مخلّص الأرواح ومرشدها وهو الذي يقود الأرواح إلى النور ثم يتلقاها من جديد"؛ وتذكر عنه أنه "يبعث الموتى ويعرض نور الشمس الذي يتلهف الناس شوقًا إليه على الذين يبصرون، وهم من تحتوي قبورهم الطاهرة على أكداس من الكتب المقدسة"، كما تصفه كذلك "ولسنا بمستطيعين أن

نهرب منه أبد الدهر، فإنه سوف يخلصنا، ونحن لن نبرح بعد الموت موضع عنايته ورعايته". وكانت طقوس إحراق الشمع وتقديم النذور – وأعني به تقديم نماذج مصغرة من أجزاء الجسم الإنساني تكون في حاجة إلى العون والشفاء – جزءا من مراسم العبادة في السيرابيوم. واجتذبت إيزيس إليها كثيرا من العبـاد المتبتلـين الذين نذروا لها أرواحهم؛ وكانت تماثيلها تقوم في المعبد وهي متوجة بوصفها ملكة السماوات وهـي تحمـل طفلها حورس بين ذراعيها والشموع تخفق وتذوب أمامها، وتماثيل أجزاء الجسـم الشـمعية تتـدلى حـول المقصورة. وكان على الكاهن المستجد أن يتم مرحلة إعداد وتلمذة طويلة ذات تفاصيل محكمة ويقسم الإيمان على العزوبة، وعندما يلقن مبادئ الأسرار ويثبت كانت تحلق رأسه ويلبس ثوبا من الكتان...

وكان حورس بن أوزيريس (سيرابيس) الوحيد المحبوب، وهو أيضا إله الشـمس، وكـان الجعـران ذو الأجنحة المنشورة رمزا له. وعند حدوث الكسوف، عندما تظهر الهالة الشمسية، يكون لها شبه قوي بجناحي الجعل (الجعران) المنتشرين. وكان حورس "شمس الصلاح والبر وفي جناحيه البرء" وأخيـرا "صـعد إلـى الرب" وأصبح والأب واحدا. وهو في الديانة المصرية القديمة شفيع الخاطئين عند الأب، وهو يصـور فـي "كتاب الموتى" الذي كان يدفن مع كل إنسان يستطيع دفع ثمن نسخة منه مدافعا عن المـوتى. وكثيـر مـن التراتيل التي تنشد لحورس تشبه بشكل فذ التراتيل المسيحية في روحها وعبارتها. فتلك الترتيلة الجميلة التي مطلعها "يا شمس حياتي، يا أيها المخلص العزيز"، كانت تغنى لحورس يوما ما في مصر.

إن عبادة سيرابيس هذه التي انتشرت انتشارا عظيما في جميع أقطار العالم الممدن فـي القـرنين الثالـث والثاني ق. م.، تُرى فيها أعجب الطلائع والظواهر المؤذنة بعادات وطرق العبادة التي قدر لهـا أن تتسـلط على العالم الأوربي طوال الحقبة المسيحية. غير أن الفكرة الجوهرية للمسيحية وهي الروح الحـي فيهـا – كانت كما سنبين من فورنا – شيئًا جديدا في تاريخ عقل الإنسان وإرادته. على أن ثياب الطقـوس والرمـز والصيغة الاصطلاحية التي اتخذتها المسيحية، والتي ما برحت ترتديها إلى يومنا هذا في كثير من الأقطـار، قد نسجت، ولا مراء، في عقائد ومعابد جوبيتر سيرابيس وإيزيس التي انتشرت عند ذلك من الإسكندرية إلى كافة أصقاع العالم الممدن في عصر الثيوكرازيا (أعني اتحاد الآلهة) في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد.

٤- الإسكندرية والهند

استمرت أهمية الإسكندرية التجارية والفكرية قرونًا طويلة. ونحن إذ نتساف الحوادث وما سندلي إليك بـه من فورنا عن قيام الدولة الرومانية، نستطيع أن نخبرك هاهنا أنه حدث في عهد الإمبراطورية أن أصـبحت الإسكندرية أعظم مركز للتجارة في العالم. وكان للتجار الرومان الإسكندريين مستقرات عديدة فـي جنـوب الهند. إذ كان هناك في كرانجانور على ساحل مالابار معبد مكرس لأوغسطوس وكان يدافع عـن المسـتقر فصيلتان رومانيتان. وقد أرسلت البعوث من لدن الإمبراطور إلى مختلف الملوك والأمراء في جنوب الهنـد. زد على ذلك أن كليمان (Clement) وكريسوستوم (Chrysostom) وآخرين من الكتاب المسيحيين الأول، أشاروا إلى الهنود في الإسكندرية وتحدثوا عن عقائدهم.

الفصل الرابع والعشرون

قيام البوذية وانتشارها

١- قصة جوتاما.
٢- التعاليم والأساطير في نزاع.
٣- إنجيل جوتاما بوذا.
٤- البوذية وأسوكا.
٥- معلمان صينيان عظيمان.
٦- مفاسد البوذية.
٧- مجال البوذية الحالي.

١- قصة جوتاما

من الشائق أن ينتقل الإنسان من أوجه النشاط العقلية والأخلاقية في أثينا والإسـكندرية والنمـو الفكـري للإنسان في عالم البحر المتوسط إلى حياة الهند العقلية التي تكاد تكون منفصلة انفصالاً تاما. فقد قامت بتلـك البلاد مدنية يظهر أنها نمت من أول أمرها على أسسها الخاصة بها وعلى طابع مميز خاص بها أيضا، مدنية كانت منقطعة الصلة عن كل ما عداها من مدنيات الشرق والغرب بفواصل جبلية هائلة وبأقاليم صـحراوية فسيحة. وسرعان ما فقدت القبائل الآرية التي هبطت شبه الجزيرة، اتصالها بذوي قرباها في الغرب والشمال وتطورت في اتجاهات خاصة بها. واتضح ذلك بنوع خاص فيمن توغلوا حتى أرض الجانج (الكـنج) ومـا وراءها. إذ وجدوا مدنية منتشرة من قبل في بلاد الهند هي المدنية الدرافيدية. نشأت هذه المدنية مستقلة عـن كل ما عداها مثلما يبدو أن قد نشأت المدنيات السومرية والكريتية والمصرية، إذ قامت منبعثـة عـن ذلـك التطور الفسيح المدى الذي ألم بثقافة العصر الحجري الحديث التي وصفنا خصائصها من قبل، فبعثوا في هذه المدنية الدرافيدية حياة جديدة وغيروها مثلما فعل الإغريق في المدنيـة الإيجيـة، أو السـاميون بالحضـارة السومرية.

وكان هؤلاء الآريون الهنود يعيشون في ظروف مختلفة عن تلك التي كانت سائدة في الشـمال الغربـي. فكانوا يعيشون في مناخ أكثر دفئًا وحرارة، يجعل الطعام المكون من لحم البقر والشراب المخمر ضارا فتاكًا، فاضطروا لذلك أن يلتزموا في طعامهم تغذية نباتية محضة، وأمدتهم تربة الأرض الخصبة من تلقاء نفسـها بكل ما يحتاجون إليه تقريبا من طعام، فلم يعد لديهم بعد ذلك ما يحدوهم علـى التجـوال، لأن المحاصـيل والفصول مضمونة تبعث على الطمأنينة، ولأن حاجتهم إلى الكساء والمأوى طفيفة، كما أن احتياجاتهم كانـت قليلة إلى حد لم يساعد على ارتقاء التجارة. وكان لا يزال هناك متسع من الأرض لكل إنسان يريد أن يزرع وكانت الرقعة الصغيرة تكفيه. أما حياتهم السياسية فبسيطة مأمونة نسبيا. فلم تنشأ في الهند حتى ذلك الوقـت أي قوى فاتحة عظيمة، على حين كانت حدودها الطبيعية قمينة بالحد من أطماع الإمبراطوريات الاستعمارية الأولى في غربها وشرقها. وانتشرت في أنحاء البلاد آلاف من الجمهوريات القروية والرياسـات الصـغيرة الهادئة نسبيا، ولم تقم فيها حياة بحرية ولا أغار عليها مغيرون من القراصنة ولا تجار غرباء. فـإن المـرء يستطيع أن يسطّر تاريخًا كاملاً للهند يصل إلى ما قبل يومنا هذا بأربعمائة عام ولا يكاد يـذكر شـيئًا عـن البحر.

لبث تاريخ الهند قرونًا عديدة أسعد حالاً وأقل اضطرابا وعنفًا وأقرب إلى عالم الأحلام من أي تاريخ آخـر. فكان النبلاء أي الراجاوات يمضون أوقاتهم في الصيد. وكانت الحياة في غالب أمرها تقـوم علـى أقاصـيص غرام، وقد ينهض هنا وهناك "مهراجا" بين الراجاوات ويبني مدينة ويصيد كثيرا من الفيلة ويستأنسـها ويقتـل كثيرا من النمور ويترك عن أبهته ومواكبه الفخمة سجلاً حافلاً بالروايات الرائعة.

ومع ذلك فقد كان هناك بين الآريين المتجهين شرقًا حركة فكرية على أشد ما تكون من النشـاط، فألفـت ملاحم عظيمة تناقلها الخلف عن السلف بطريق التواتر الشفوي - إذ لم تكن هناك أية كتابة حتى ذلك الحين - وكان لديهم كذلك الشيء الكثير من التأمل الفلسفي العميق الذي لا يزال بحاجة إلـى أن توضـح علاقتـه بأنظمة الغرب الفلسفية.

وحدث في وقت ما بين سنتي ٦٠٠ و ٥٠٠ ق. م عندما كان حكم كرويسوس مزدهرا فـي ليـديا، وبينمـا قورش يعد العدة لاغتصاب بابل من نابونيداس، - أن ولد مؤسس البوذية في الهند. ولـد فـي مجتمـع قبلـي جمهوري صغير في شمالي البنغال تحت سفح الهملايا فيما هو الآن أرض آجام كثيفة على حدود نيبال. وكانت تحكم هذه الدويلة الصغيرة عائلة هي عشيرة ساكيا التي كان سيذاتا جوتاما أحد أفرادها. وكان سيذاتا هو اسـمه الشخصي مثل كايوس أو جورج. أما جوتاما فهو لقبه أو اسم عائلته مثل قيصر أو سميث. في حين أن سـاكيا اسم عشيرته مثل يوليوس. ولم يكن نظام الطوائف استقر بعد في الهند تماما، ولم يكن البراهمة كافحوا بعد حتى تبوءوا رياسة هذا النظام وإن كانوا ذوي امتيازات ونفوذ. ولكن كانت هناك بالفعل فوارق بين الطبقات شـديدة ملحوظة كما كان هناك فاصل يفصل تماما طبقة الآريين النبلاء عن طبقة العامة الأقتم لونًـا. وكـان جوتامـا ينتسب إلى الجنس الأول. وربما استلفت أنظارنا أن تعاليمه كانت تسمى "النهج الآري أو الحق الآري".

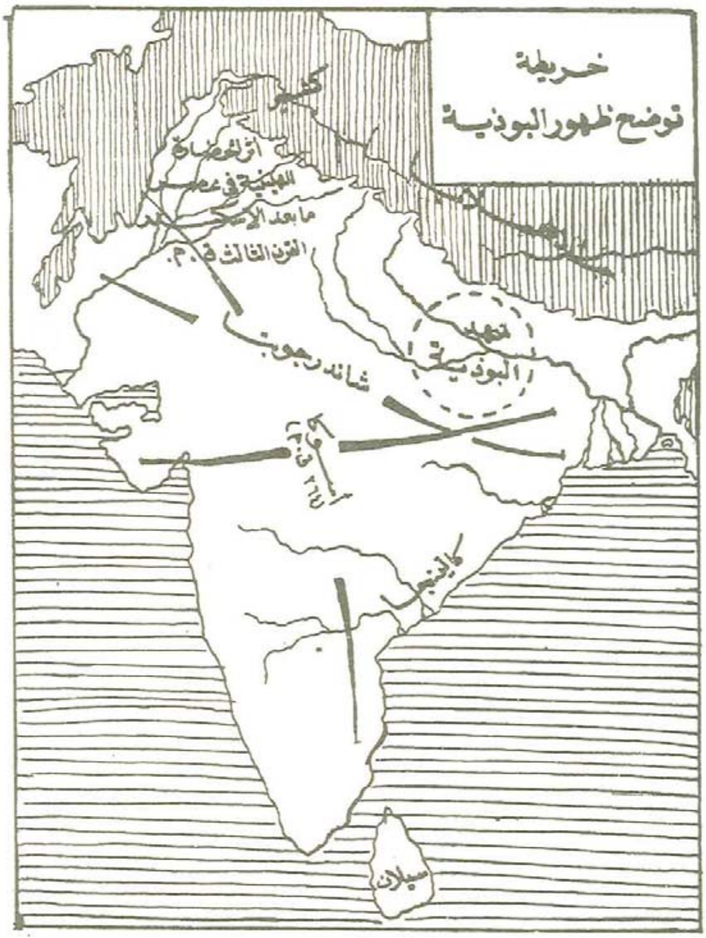
ولم يلم العالم إلماما صحيحا بحياة جوتاما وآرائه الحقيقية إلا في نصف القرن الأخير وذلك نتيجة لازدياد الاهتمام بدراسة اللغة البالية (Pali) [1] التي دونت فيها معظم المراجع الأصلية عنه، وكان يكتنف قصته قبل ذلك أكداس هائلة من الأساطير. ولقد أساء الناس فهم تعاليمه أيما إساءة. على أن لدينا عنه الآن بيانًا يفـيض إنسانية ويسهل فهمه.

كان جوتاما رجلاً وسيم الطلعة قديرا ميسر الحال. وقد ظل حتى بلغ سن التاسعة والعشرين يعـيش عيشـة زمانه الأرستقراطية المألوفة. ولم تكن هذه الحياة من الناحية الذهنية مما يبعث على تمام الرضا. ولم يكن هناك "أدب" اللهم إلا روايات شفوية للملاحم الفيدانتية (Vedantic Epics). وهذه كان البراهمة يحتكرونهـا بنـوع خاص، فأما "المعرفة" فكان مقدارها أدنى من ذلك أو يكاد. وكان العالم في نظر من حوله مـن النـاس تحـده الهملايا المكسوة بالثليج شمالاً، ثم هو يمتد نحو الجنوب امتدادا لا آخر له. كما كانت مدينة بنارس التي يحكمها أحد الملوك تبعد عن مستقر عشيرته نحو مائة ميل. وكانت أهم وسائل التسلية القنص والغزل. واستمتع جوتاما بكل ما حفلت به الحياة من طيبات. تزوج في سن التاسعة عشرة من ابنة عم له جميلة وظلا بلا أطفال بضـع سنين لبث أثناءها يتصيد ويلهو ويتنقل في ربوع عالم مشمس بهيج، يحظى ببساتينه ومروجه ويـروي حقـول أرزه. وبينا هو ينعم بهذه الحياة وبهجتها حل به على الفجاءة تبرم وسخط عظيم. وما كان ذلك إلا مظهرا لشقاء ذهن ممتاز متوقد يطلب العمل. كان جوتاما يتقلب بين ألوان من الوفرة وخفض العيش والجمال، وينتقـل مـن إشباع شهوة إلى إشباع أخرى ولم تكن روحه لتقنع أو ترضى، وكأنما كانت مقدرات الجنس البشري تهيب به، وكان يشعر أن الحياة التي يحياها ليست هي حقيقة الحياة وإنما هي عطلة – طال أمدها أكثر مما ينبغي.

---

[1] اللغة البالية: هي اللغة المقدسة التي كتبت بها نصوص الشريعة البوذية. (المترجم)

وإنه لعلى تلك الحال، إذا به يرى أشياء أربعة أدت إلى توجيه أفكاره وجهة جديدة، فبينما هو يقود عربـة في إحدى رحلاته طلبا للذة والسرور، إذ صادف رجلاً قد أدنفته السن إدنافًا ذريعا، وقد اجتذب ذلك المخلوق المسكين المقوس القناة الواهن القوى انتباهه وحرك خياله، وقال شانا (Channa) سائق عربته "هكـذا نهـج الحياة ولا مفر لنا من هذا المصير". وبينما كانت هذه الصورة لا تزال ماثلة في ذهنه، صادف رجلاً يعـاني آلاما مبرحة من مرض وبيل، فقال شانا "هكذا نهج الحياة" وكان ثالث ما رآه جثة لم توار التراب وقد انتفخت وفقئت عيناها ونهشها الطير والوحش المار بها وهي في جملتها فظيعة كل الفظاعة فقال شانا "هكـذا نهـج الحياة".



(ش ٩٢) – خريطة توضح ظهور البوذية وانتشارها

عند ذلك ران على قلب جوتاما الشعور بالمرض والفناء وتعرض كل سعادة للزوال وامتناع كل إرضـاء للنفس فيها. ثم رأى هو وشانا واحدا من أولئك الزهاد المتجولين الذين كان يوجد منهم في ذلك الزمان أعداد كبيرة بالهند. كان هؤلاء الرجال يعيشون طبقًا لقواعد قاسية ويقضون الزمن الطويل فـي التأمـل والنقـاش الديني. وذلك أن رجالاً كثيرين ممن عاشوا قبل جوتاما في تلك الأرض الوادعـة أرض الشـمس السـاطعة الوهاجة، وجدوا الحياة محفوفة بالأحزان والأسرار الغامضة. وكان الظن السائد أن هؤلاء الزهاد بـأجمعهم إنما ينشدون في الحياة حقيقة أشد عمقًا وأبعد غورا. فتملكت جوتاما رغبة عنيفة أن ينحو نحوهم.

وتقول القصة إنه كان يفكر في عزمه هذا عندما بلغه أن زوجته وضعت له بكر أبنائـه، فقـال جوتامـا: "وهذه رابطة أخرى علينا أن نفصمها".

عاد إلى القرية يحف به تهليل رجال عشيرته واغتباطهم وأقيمت وليمة عظيمـة ورقصـت الراقصـات احتفالا بمولد هذا الرباط الجديد. واستيقظ جوتاما في الليل وهو في آلام روحانية كأنما هو "إنسـان روعـه التهام النار منزله". وكانت الراقصات راقدات في الردهة وقد علتهن خطوط متعاقبة مـن الظلمـة وضـوء القمر، فنادى شانا وأمره أن يعد حصانه ثم انسل إلى عتبة غرفة زوجته، ورآها في نور سراج زيتي صغير تنام نوما هادئًا تحيط بها الأزهار وبين ذراعيها ابنه الرضيع، فأحس في نفسه حنينًا شديدا إلى تناول الطفـل في عناق وحيد يكون الأول والأخير قبل رحيله، بيد أن خشيته إيقاظ زوجته منعته. وأخيـرا حـول عنهمـا ناظريه وانطلق إلى ضياء القمر الهندي المتلألئ وكان شانا ينتظره بالخيل فامتطى جواده وانطلق به يخـبط على غير هدى.

وبينا هو يسير تحت جنح الليل مع شانّا، خيل إليه أن "مارا" الشيطان مغري الجنس البشري يمـلأ عليـه فجاج السماء ويدافعه ويصارعه كان "مارا" يهيب به أن "عد حيث كنت أجعلك ملكًا ولسوف تكـون أعظـم الملوك، أو سر في طريقك تفشل لا محالة فإني لن أكف – الدهر – عن اقتفاء أثرك وملاحقتك، وسيستهويك آخر الأمر الطمع أو الحقد أو الغضب في بعض فلتات خطئك ولتصبحن مِلك يميني إن عاجلاً وإن آجلاً".

وقطعا في تلك الليلة مسافة شاسعة، فلما أن أشرق الصباح توقف بعد أن اجتاز أرض عشيرته وترجل إلى جوار نهر رملي الشاطئين، وهناك قطع بسيفه ذوائبه المهدلة وأماط عنه كل حلية وردها مع جـواده وسـيفه إلى أهله بصحبة "شانا". حتى إذا واصل مسيره التقى من فوره برجل في أسمال بالية فتبادل وإياه الثياب بعد أن أماط عن نفسه كل العوائق الدنيوية، وبذلك أصبح حرا في أن يتابع بحثه عن الحكمة فاتخذ طريقًا جنوبيا إلى مأوى للنساك والمعلمين في طنُف [1] يؤدي إلى البنغال في شمال جبال الفنـدهيا بـالقرب مـن مدينـة راججير. وهناك كان يعيش عدد من الحكماء في أرض للصيد ذات كهوف يترددون علـى المدينـة لقضـاء مطالبهم وينشرون المعرفة بين من يحرصون على التردد عليهم.

ولا بد أن هذا التعليم كان إلى حد كبير على نسق المحاورات السقراطية التي أخذ الناس يتجاذبونهـا فـي أثينا بعد ذلك بقرنين من الزمان. وألم جوتاما بكل غيبيات (ميتافيزيقا)[2] عصره. ولكن فطنته المرهفة لم تكن لتقنع بالحلول التي قدمت إليه.

([1]) الطنف: ما نتأ في الجبل. (المترجم)

([2]) الميتافيزيقا: دراسة بداية كل ما في الوجود والبحث عن طبيعة الأشياء وفطرتها وإله الكون وخصائصه وغير ذلـك مـن الغيبيات أو ما وراء الطبيعة. (المترجم)

ولقد كان العقل الهندي نزاعا على الدوام إلى الاعتقاد أن القوة والمعرفة يمكن أن يجتلبا بالزهادة المتطرفة والصيام البالغ والامتناع عن النوم وتعذيب النفس؛ فأخذ جوتاما بضع تلك الفكرات في بوتقة الاختبار، فانطلق ومعه خمسة من رفقائه المتتلمذين عليه إلى الأجمة الموجودة في أحد خوانق جبال الفندهيا، وهنـاك استسـلم للصيام والكفارات المريرة، فدوى اسمه في الآفاق "دوي ناقوس عظيم يتدلى من قبة السماء". بيد أن التقشف لم يجلب إليه أي شعور بالوصول إلى الحقيقة. وبينا هو يسير في أحد الأيام جيئة وذهابا محـاولاً أن يفكـر بالرغم مما حل به من ضعف وضنى؛ إذا به يترنح فجأة ويسقط على الأرض مغشيا عليـه، فلمـا أن أفـاق اتضحت له سخافة تلك الأساليب السحرية في سبيل الوصول إلى الحكمة.

وذهل منه تلاميذه الخمسة وشملهم الفزع عندما طلب الطعام العادي. على أنه رفـض أن يواصـل قتـل شهوات نفسه. ذلك بأنه أدرك أنه مهما يكن مقدار ما يبلغه أي إنسان من الحقيقة فإن خير ما يوصـله إليهـا عقل يتغذى في جسم سليم. وكانت مثل هذه الفكرة غريبة غرابة مطلقة عن فكرات البلاد والعصر، فاعتزلـه تلاميذه وانصرفوا إلى بنارس في حزن وأسى. وتوقف طنين الجرس العظيم وهوى جوتاما الرائع.

ثم طفق يتجول وحيدا ردحا من الزمان مناضلاً يبتغي النور وهو أشد شخص في التـاريخ وحشـة فـي وحدته وانفراده.

والعقل عندما يصطرع مع مسألة جليلة معقدة يخطو خطوات ويتثبت من مواطئ قدميه خطـوة فخطـوة، وهو لا يدرك المغانم التي غنمها إلا إدراكًا يسيرا، حتى يفوز بالنصر بغتة في شيء من الإلهام غير المنتظر الذي ينير له الطريق. وهذا كما يخيل إلينا هو ما حدث لجوتاما. فإنه جلس يتناول طعامه تحت دوحة عظيمة إلى جوار نهر عندما جاءه ذلك الشعور بالرؤية الصافية والبصيرة النافذة. إذ خيل إليه أنه يرى الحياة صافية شفيفة. ويقال إنه جلس طيلة ليله ونهاره مستغرقًا في فكر عميق، ثم نهض يذيع على العالم رؤياه وما هـبط عليه من وحي.

٢- التعاليم والأساطير في نزاع

تلك هي قصة جوتاما البسيطة كما استنتجناها من مقارنة مختلف الكتابات القديمة، ولكن عامة الناس لا بد لهم من المعجزات والأعاجيب الرخيصة.

فليس يعنيهم أن يخرج هذا الكوكب الصغير آخر الأمر رجلاً يفكر في الماضي والمستقبل وفـي طبيعـة الوجود الحقة. لذا لم يكن بد من أن نحصل على مثل الرواية التالية التي سطرها كاتـب "بـالي" مـوقر... واستغل فيها أقصى ما يمليه عليه خياله، كما يتضح مما يلي:

"عندما ابتدأ النزاع بين "مخلّص العالم" وبين "أمير الشر" سقط ألف من الشهب المخيفة، وتراجعت الأنهار تجري مياهها نحو منابعها، فأما القتن والجبال المرتفعة حيث كانت تنمو أشجار لا حصر لها مدى عصور كثيرة فقد خرت إلى الأرض هدا... وكست الشمس نفسها بظلمة مرعبة وامتلأ الجو بجيش من الأرواح غير ذات الرءوس".



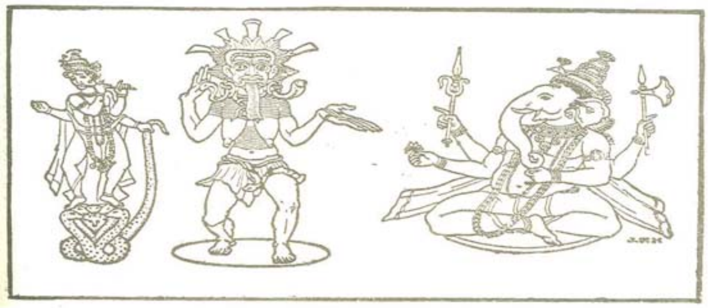
(ش ٣٩) – آلهة هندية : فيشنو – براهما – سيفا

وهي ظواهر لم يترك لنا التاريخ عنها دليلاً واحدا يؤيد صحتها. وإنما نجد بدلاً من ذلك صـورة رجـل يسير وحيدا نحو بنارس.

وقد اهتم الناس اهتماما خارقًا بالشجرة التي جلس من تحتها جوتاما ساعة أن أطاف بـه ذلـك الشـعور بصفاء الذهن. كانت هذه الشجرة من فصيلة أشجار التين. وكان لها في قلوب الناس منذ البداية احترام خاص وهي تعرف باسم شجرة البو (Bo Tyree). ولقد بادت هذه الشجرة من زمن بعيد، ولكن لا تزال تعيش إلى جوارها دوحة أخرى ربما كانت سليلتها. وتنمو في سيلان إلى يومنا هذا شجرة هي أقدم شجرة تاريخية فـي العالم، نعرف عنها على وجه التحقيق أنها زرعت من فرع من شجرة البوسنة ٢٤٥ ق. م.، وظلت منذ ذلك الزمان إلى وقتنا هذا تلقى ألوان الرعاية وتسقى بعناية وتسند الأعمدة الضخمة فروعهـا العظيمـة وتعلـى الأرض حولها في مدرجات ومساطب حتى استطاعت أن تمد على الدوام جذورا جديدة. ومما يساعدنا علـى إدراك ما عليه التاريخ الإنساني بأجمعه من قصر، رؤيتنا لمثل هذا العدد الكبير من الأجيال الإنسانية تمضي

تباعا عبر امتداد أجل شجرة واحدة. ومن سوء الحظ أن تلاميذ جوتاما عنوا بحفظ شجرته أكثر من عنـايتهم بالحفاظ على أفكاره التي أساءوا منذ البداية فهمها وشوهوها ومسخوها.

بحث جوتاما في بنارس عن تلاميذه الخمسة حتى وجدهم، وكانوا عندما رأوه يتقرب منهم، ذلك أنه كـان مارقًا مرتدا عن دينه. على أنه كان على شيء من قوة الشخصية تغلب به على فتورهم ثم استطاع أن يحملهم على الإصغاء إلى معتقداته الجديدة. واستمرت المناقشة خمسة أيام حتى إذا أقنعهم آخر الأمر بأنه استنار حقًا حيوه وهتفوا له ونادوا به البوذا. وكان يسود الهند في تلك الأيام اعتقاد بأن "الحكمة " سـوف ترجـع إلـى الأرض على فترات متباعدات، وأنها سوف يكتشفها للبشرية شخص مختار يسمى البوذا. وبناء علـى هـذا الاعتقاد الهندي ظهر كثيرون من أمثال هذا البوذا. فجوتاما بوذا إنما هو آخر فرد في سلسلة البوذوات. على أنه من المشكوك فيه أنه هو نفسه قبل ذلك اللقب أو اعترف بتلك النظرية، فإنه في أحاديثه لم يسم نفسه قـط باسم بوذا.



(ش ٩٤) – آلهة هندية : كريشنا – كالى – جانيسا

ثم أسس هو وتلاميذه الذين استردهم إليه ضربا من الأكاديمية في حديقة الغزلان ببنارس. فأنشئوا لأنفسهم أكواخًا وجمعوا من حولهم أتباعا آخرين تزايدوا حتى بلغ عددهم ستين أو يزيدون، وكـانوا يقيمـون علـى الحديث والمباحثة في مستقرهم هذا إبان موسم المطر ويتفرقون في أنحاء البلاد أثناء موسم الجفاف فيبشر كل منهم بالتعاليم الجديدة على الصورة التي يراها. وكان كل تعليمهم يتم، كما يلوح، بطريق المشافهة. ولم يكـن هناك على الراجح أية كتابة في الهند على الإطلاق، بل إنّا لنرتاب في أن تكون الإلياذة نفسها دونـت إبـان بوذا، والراجح أن أبجدية البحر المتوسط – وهي أساس معظم الخطوط الهندية – لم تكن وصلت بعـد إلـى الهند – فكان المعلم الأكبر إذن ينتج ويؤلف قصائد وحكما مأثورة وقوائم بالنقط الهامة قصيرة كثيرة اللبـاب، فيوسعها تلاميذه في أحاديثهم. وساعدهم استعمال الأرقام على استيعاب هذه القصائد والحكم المأثورة مساعدة جليلة. وقد يضيق العقل العصري ذرعا بنزوع الفكر الهندي إلى بيان أخبار الأشياء بالأرقام مثل "الطريـق المثمن الجوانب" – و"الحقائق الأربعة وهلم جرا". بيد أن هذا العد كان ضرورة مساعدة للذاكرة في عـالم لا وثائق لديه ولا كتابة.

٣- إنجيل جوتاما بوذا

إن تعاليم جوتاما الأساسية، كما تبينها لنا اليوم دراساتنا للمصادر الأصلية، هي تعاليم واضـحة بسـيطة منسجمة انسجاما وثيقًا مع الآراء الحديثة، وهي بلا نزاع ثمرة ذكاء نفاذ من ألمع ما عرف العالم.

ولدينا الآن ما نكاد نجزم بأنه النقط الرئيسية الصحيحة لعظته إلى تلاميذه الخمسة، وهي تحتـوي علـى جوهر عقيدته، فهو ينسب كل ما في الحياة من شقاء وتذمر إلى الأنانية التي لا تشبع ولا تقنـع. ويقـول إن الآلام ترجع إلى الذاتية الجشعة المتلهفة وإلى العذاب الناشئ عن الشهوة النهمة. وإلى أن يستطيع المـرء أن يكبح كل ما بنفسه من نوازع الاشتهاء والتلهف الشخصي تظل حياته عناء واضطرابا ويصبح ختامـه أسـى وعذابا. وهناك ثلاثة أشكال أساسية يتخذها التلهف على الحياة وهي كلها شر: أولهـا الرغبـة فـي إشـباع الحواس، وهي الرغبة الشهوانية؛ وثانيها هو الرغبة في الخلود الشخصي؛ وثالثها هو الرغبـة فـي النجـاح والثراء والاهتمام بأمور الدنيا. ولا بد من التغلب على هذه كلها، أعني أن الرجل يجب أن يكف عن أن يعيش من أجل نفسه، قبل أن يتيسر للحياة الصفاء والسكينة. ولكن عندما تقهر هذه الرغبات بالفعل ولا تعود تسيطر على حياة الفرد، وعندما يمحى ضمير المتكلم "أنا " من أفكاره الخاصة، فإنه يكون عند ذاك قد وصـل إلـى الحكمة العليا، إلى السعادة الخالدة، إلى النرفانا (Nirvana) التي هي صفو الروح وسكينته. ذلك أن النرفانـا ليس معناها الفناء كما يعتقد الكثيرون من الناس خطأ، وإنما معناها فناء الأغراض الشخصية الباطلـة التـي تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة أو مروعة.

والآن صار لدينا ولا مراء، أتم تحليل لمسألة السكينة الروحية. فكل دين جدير بذلك الاسم يهيب بنا، وكل فلسفة تنادينا أن ننفي أنفسنا في شيء أجلّ من أنفسنا وأعظم "فكل من شاء منـا أن ينقـذ حياتـه عليـه أن يخسرها" وإنك لتجد هنا هذا الدرس نفسه بالضبط.

ذلك أن تعاليم التاريخ كما نكشفها لك في كتابنا هذا تتمشى بدقة مع تعاليم بوذا هذه. فلن يتحقـق – كمـا نشاهد بأنفسنا – أي نظام اجتماعي ولا أمان ولا سلام ولا سعادة ولا زعامة رشيدة أو ملكية صالحة، حتـى يفنى الناس أنفسهم في شيء أجل من أنفسهم. كذلك تكشف لنا دراسة التقدم البيولوجي الحجـب عـن نفـس العملية بالضبط، أعني اندماج الدائرة الضيقة لتجارب الفرد في محيط أكبر وأوسع. وإن نسيان المرء لذاتـه في أثناء اهتمامه بمصالح أعظم منها إنما هو فرار من سجن مطبق.

ويجب أن يكون إنكار الذات كاملاً. فإن ذلك الفزع من الموت، وذلك النهم في طلب اسـتمرار لانهـائي لحياة الفرد الدنية الصغيرة، وهو الذي دفع بالمصري ومن تعلم منه، أن يدخل إلى المعابد حـاملاً التعاويـذ ووسائل الاستغفار، كل ذلك كان في نظر جوتاما شيئًا يعادل في فنائه وفي قبحه وشرهه، الشهوة أو الشح أو الحقد. وديانة جوتاما تتنافى تماما وديانات "الخلود". وتعاليمه تنهض كالحجر الصلد ضد التقشـف والزهـادة بوصفها مجرد محاولة للفوز بالقوة الشخصية عن طريق الآلام الشخصية.

أما عن قاعدة الحياة ودستورها: "النهج الآري" الذي قد نستطيع به أن نهرب مـن الشـهوات والتلهفـات الوضيعة في صورها الثلاث التي تضم الحياة الإنسانية بوصمة العار، فإن التعاليم بشأنها ليست علـى نفـس الدرجة من الوضوح، وذلك لسبب بين جدا، هو أن جوتاما لم يكن له أي علم ولا بصيرة بالتاريخ، ولم يكـن لديه شعور واضح عن مغامرة الحياة الفسيحة الكثيرة الجوانب في انطلاقها في أرجاء الزمان والفضاء كـان ذهنه محصورا في دائرة فكرات عصره وقومه، وقد جمدت عقولهم حول فكرات التكرار الدائم المتواصـل، والعالم الذي يتلو عالما سبقه، والاعتقاد بظهور بوذا في إثر بوذا، وهو دوران للكون يتسم بالركود والجمود. أما الفكرة التي تجعل من الجنس البشري أخوة كبيرة تتجه نحو مصير لا نهاية له تحت رعايـة إلـه البـر والصلاح، وهي الفكرة التي كان فجرها أنشأ من قبل يطلع في أذهان الساميين في بابل في ذلك الزمان، فلـم يكن لها وجود في عالمه. ومع ذلك فإن حديثه عن "الطريق المثمن الجوانب"، يعتبر رغم هذا وبغض النظـر عن هذه التحديدات على جانب عظيم من الحكمة والصواب.

وسنلخص في إيجاز العناصر الثمانية للنهج الآري: فأولها "الآراء الصائبة" – حيث جعل جوتاما مسـألة فحص الآراء والفكرات بإمعان شديد، والإصرار على الحق والصدق أول مطالب لأتباعه. فينبغي الكف عـن التعلق بالخرافات المزوقة القبيحة المخبر. فكان مثلاً يستنكر العقيدة السائدة القائلة بتناسخ الأرواح. وتحتـوي إحدى المحاورات البوذية الشهيرة الأولى على تحليل مدمر لفكرة وجود روح فرديـة مسـتديمة. ثـم تـأتي "الأماني الصائبة" بعد "الآراء الصائبة"، فإن الطبيعة تمقت الفراغ. ولما كانت التلهفات والشهوات الوضـيعة شوائب لا بد من إقصائها، فإنه ينبغي أن يحل محلها في النفوس رغبات سامية من أمثال الرغبة في خدمـة الناس والرغبة في إقامة العدل وتثبيت أركانه وما شابهها. ولم تكن البوذية البدائية التي لم يتطرق إليها الفساد تجعل هدفها تدمير الرغبة بل استبدال أخرى بها. فمن الجلي أن التعلق بالعلم أو الفن أو بالتحسين والإصلاح ينسجم انسجاما تاما مع "الأماني الصائبة" في البوذية الحقة بشرط أن تكون تلك الغايات خلوا من الغيـرة أو من التلهف على الشهوة.

وليست موضوعات "الحديث الصائب" – و "السلوك الصائب" – و "الارتزاق الصائب" بحاجة إلى إفاضـة في البحث هاهنا. ثم يأتي في البند السادس لهذه القائمة "الكد الصائب"، إذ إن جوتاما لم يكن ليتسامح بأي حال حيال حسن النية المصحوب بالتواني في التنفيذ. فكان لزاما على التلميذ أن يقيم على مناشطه عينًا يقظة نفاذة. والعنصر السابع في "النهج" وهو "التنبه الصائب" إنما هو الحارس الواقي لنا مـن الانـزلاق إلـى الشـعور الشخصي أو المجد الذاتي المنبعث عن أي شيء تم أو لم يتم. وأخيرا يأتي "الجدل الصائب" الذي يبـدو أنـه مصوب ضد النشوة العقيمة لدى القانت المتبتل، أي ضد ذلك الغرور الأحمق مثلاً، الذي كـان ينطلـق مـع جلجلة آلة الصلاصل (السيستروم) الموسيقية بمعابد الإسكندرية.

ولن نناقش هنا عقيدة "كرما" (Karma) البوذية لأنها تنتمي إلى عالم فكري آخذ في الزوال. فإن الخير والشر في حياة فرد كانا في زعمه يحددان السعادة والشقاء في حياة تالية تكون مطابقة لسابقتها (أي تكون هي هي بنفسها) بطريقة لا يمكن تفسيرها. وإنا لندرك في زماننا هذا أن حياة الفرد تستمر في ذريته إلى الأبد. بيد أننا لا نجد أية ضرورة تدعونا لفرض أن أية حياة فردية معينة تستأنف. وكان العقل الهندي مليئًا بفكرة التكرر الدوراني. إذ كان يزعم أن كل شيء لا بد أن يدور فيعود. وهذا فرض من الطبيعي جدا أن يفترضه الناس. فعلى هذه الشاكلة تلوح لنا الأشياء كلها حتى نحللها. ولقد أوضحت لنا العلوم الحديثة أنه لا وجود لشيء من هذا التكرار أو التعاقب المضبوط، الذي نميل لافتراضه، فإن كل يوم يكبر سابقه بمقدار متناهٍ في الصغر، وما من جيل يكرر سابقه تكرارا دقيقًا مضبوطًا.

والتاريخ لا يعيد نفسه أبدا. إذ إننا نعلم الآن علم اليقين أن ألوان التغير التي تلحقه لا تنتهي ولا يكاد يدركها حصر. فكل شيء جديد جدة أبدية لانهائية. على أن الفوارق التي تفرق بين آرائنا بصفة عامة وبين آراء بوذا ينبغي ألا تمنعنا بأي حال عن تقدير حكمته المبتكرة التي لم يسبقه إليها أحد، وعن معرفة الخير والعظمة اللذين يتجليان في هذه الخطة التي رسمها جوتاما لحياة طليقة محررة في زمن ما من القرن السادس قبل الميلاد.

فلئن فشل من الوجهة النظرية في جمع كلمة جميع من اعتنقوا مذهبه وربط إرادتهم بعضهم ببعض في منشطة واحدة متعددة النواحي لجنسنا البشري الذي يكافح الموت والخمود في الزمان والفضاء، فلقد استطاع بالفعل أن يوجه حياته هو ذاته وحياة تلاميذه الأقربين نحو مغامرة واحدة تسير في سبيل التقدم، مغامرة كان عليها أن تبشر بمبادئ وأساليب "النرفانا" أي صفو النفس وتنشرها في كل أرجاء عالمنا المحموم. فكان تعليمه لهم هم على الأقل كاملاً موفورا. على أنه ليس كل الرجال بقادرين على أن يبشروا وأن يعلموا. وليست المذاهب والمعتقدات إلا وظيفة واحدة من وظائف الحياة، تلك الوظائف التي يقوم جوهرها على البر والصلاح. ويبدو أن الفكر الحديث لا يكاد يفرق بين أن يقوم امرؤ وإن واجهته صعاب كبرى بازدراع الأرض أو بحكم مدينة من المدن أو بتعبيد الطرق أو ببناء البيوت أو بإنشاء الآلات، أو بطلب المعرفة ونشرها على حال من نكران الذات وهدوء النفس التام، بل إن هذه الأمور كلها لديه سواء. وكل هذه الأمور تتضمنها بطبيعتها تعاليم جوتاما. ولكن لا شك أن الاهتمام والتشديد كان يوجه إلى التعاليم نفسها وإلى الانسحاب من شئون حياة الناس العادية أكثر منه إلى التسامي بها في مراقي النبل والكمال.

هذه البوذية البدائية تختلف من أوجه أخرى معينة عن أي دين من الأديان التي بحثناها حتى الآن. فهي قبل كل شيء ديانة خُلُق وسلوك، لا ديانة طقوس وقرابين. ولم تكن لها معابد. ولما لم تكن لها قرابين لم يكن لها هيئة مقدسة من الكهان وكذلك لم يقم لها أي لاهوت، وقد وقفت موقفًا محايدا من آلهة الهند التي كان يعبدها الناس في ذلك الزمان، تلك الآلهة التي لا تحصى، والتي غالبا ما كانت غريبة الشكل – فلا هي أكدتها ولا هي اعترفت بها ولا هي أنكرتها، بل غضت الطرف عنها جميعا.

٤ - البوذية وأسوكا

أساء الناس فهم هذه التعاليم الجيدة منذ مستهل بدايتها نفسها. وربما كانت هناك ناحية فساد واحدة كامنـة في طبيعة تعاليمها. فإن الناس لم يكن لديهم حتى آنذاك أي شعور بأن الحياة مجهود متواصل مطرد، لـذلك كان من أيسر الأمور الانزلاق من فكرة التخلي عن النفس أو نبذها إلى فكرة التخلي عن حياة النشاط والعمل. وكما أظهرت التجارب الخاصة التي مر بها جوتاما، يكون الفرار من هذا العالم أيسر من الفرار من الـنفس. وكان تلاميذه الأوائل مفكرين مجدين ومعلمين مجتهدين، ولكن الانزلاق إلى مجرد عزلة الرهبنة كان أمـرا هينًا جدا، ولا سيما في مناخ كمناخ الهند تكون فيه بساطة العيش التامة أمرا جذابا ترتاح إليه النفوس، وحيث المجهود أتعب للجسم منه في أي مكان آخر في العالم.

ولقد شاءت المقادير لجوتاما منذ بداية دعوته، كما شاءت لكل مؤسسي الديانات منذ زمانـه، أن يحـولهم تلاميذهم الأقل ذكاء إلى أعجوبة من الأعاجيب ليؤثروا بهم في العالم الخارجي. ولقد ذكرنا من قبل كيف أن تابعا مخلصا، لم يسعه إلا الاعتقاد بأن لحظات الإشعاع العقلي لأستاذه لا بـد أن تكـون بحكـم الضـرورة مصحوبة بنوبة صرع أصابت عناصر الطبيعة. ذلك مثل صغير للمجموعة الهائلة من الأعاجيب المبتذلة التي سرعان ما تزاحمت حول ذكرى جوتاما.

ومما لا سبيل إلى الشك فيه أن مجرد فكرة الانطلاق والتحرر من النفس، كانت عند ذاك كمـا هـي الآن فكرة بالغة العسر على أفهام الغالبية العظمى من جمهور الكائنات البشرية. والراجح أن كثيرا من المعلمـين الذين كان بوذا يرسلهم من بنارس لم يستطيعوا هم أنفسهم أن يفهموا ويدركوا مراميها، وأقل منهم من كـانوا يستطيعون أن ينقلوها إلى سامعيهم. فمن الطبيعي إذن أن يصطبغ تعليمهم بصبغة الخلاص، لا من الـنفس – إذ كانت الفكرة أبعد عليهم منالا – بل من الشقاوات والآلام في هذا العالم والعالم الآخر. ولقد وجـدوا فـي خرافات القوم الموجودة من قبل، وبخاصة في فكرة تقمص الروح بعد الموت (وإن كانت هذه الفكرة تناقض تماما تعاليم أستاذهم الكبير نفسه) مادة من الخوف يستطيعون أن يبنوا فوقها. فاستحثوا الناس على الفضـيلة لكيلا يعودوا إلى الحياة ثانية في أشكال منحطة أو متعسة، أو أن يقعوا في أحد أنواع العذاب وهي كثيـرة لا يبلغها الحصر، - وهي الأفكار التي كان المعلمون البرهميون ملئوا بها عقولهم من قبل. ومثلوا البوذا علـى صورة المنقذ للناس مما لا يكاد يحصيه الحصر من ألوان العذاب.

ويلوح أنه ليس هناك حد للأكاذيب التي كان يذيعها الأتباع الأمناء والأغبياء أيضا، رغبة منهم فـي تمجيـد أستاذهم وبلوغ ما يعدونه نجاحا لدعايتهم. فالرجال الذين يترفعون عن قولة الكذب في حياتهم اليومية يصبحون غشاشين كذابين لا يتورعون عن الدنايا حين يكرسون أنفسهم للدعاية. وذلك من السخافات المحيرة في طبيعتنـا البشرية. فمن عجب أن مثل هاته النفوس الأمينة – وغالبيتهم كانت ولا مراء من الأمناء – تسارع إلى إخبـار سامعيهم بالمعجزات التي صحبت مولد البوذا، وإن أحدا منهم لم يعد يسميه جوتاما، إذ كان اسما رفعت منه كل كلفة واحتشام، أطلق عليه وهو في عنفوان قوته وأوج نزاوته. وهم لا يتورعون أن يقبلوا على النـاس منبئـين لهم بأعاجيب حياته اليومية، معرجين على ما ظهر على جسمه من النورانية في ساعته الأخيرة.

ويدهي أنه كان من المستحيل أن يعتقد الناس أن بوذا كان ابنًا لأب فان، بل حملت فيه أمه بمعجزة حيث رأت في منامها فيلا أبيض جميلاً! وكان هو نفسه فيما سلف فيلا جميلاً له ستة أنياب، تكرم فمنحها كلها إلى صياد فقير؛ بل لقد ساعده على قطعها من جسمه... وهكذا.

وفضلاً عن ذلك فإن ضربا من اللاهوت نشأ حول البوذا. فاكتشف الناس أنه إله، وأنه واحد من سلسلة من كائنات قدسية هي البوذوات. وأن "لكل البوذوات روحا خالدة" لا تمتد إليها يد الموت. فهناك سلسلة من البوذوات مضت مع الغابرين وأخرى من البوذوات ستتلوها في اللاحقين. بيد أننا لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا في معتقدات اللاهوت الآسيوي ويحسبنا أن نشير إلى أن: "تعاليم جوتاما الأخلاقية كادت تختفي عن الأنظار تحت تأثير القوى الجارفة لتلك التخيلات السقيمة. وسرعان ما كانت النظريات تنمو وتزدهر، فكل خطوة جديدة وكل فرض جديد يستلزم شيئًا آخر جديدا، حتى أصبحت السماء بأكملها مليئة بمزيفات من نسج الخيال واختفى ما ألقاه مؤسس الديانة من دروس أسمى وأبسط تحت كتلة المعميات الميتافيزيقية البراقة".

وفي القرن الثالث ق. م. كانت البوذية تكتسب الثروة والسلطان. وكانت مجاميع الأكواخ البسيطة التي يتجمع فيها معلمو المذهب في الموسم المطير، تخلي مكانها لمبان للأديرة شامخة البنيان وطيدة الأركان. وإلى هذه الفترة تنتمي بداية الفن البوذي. وإذا تذكرنا كم كانت مغامرة الإسكندر حديثة العهد، وأن كل البنجاب كان لا يزال تحت الحكم السلوقي، وأن الهند بأكملها كانت غاصة بالمغامرين الإغريق، وأن المواصلات مع الإسكندرية كانت لا تزال مستمرة ميسورة برا وبحرا، إذا تذكرنا كل ذلك فليس هناك كبير عجب أن ترى ذلك الفن البوذي الأول متصفًا بخصائص إغريقية قوية، وأن تكون نحلة الإسكندرية الجديدة: نحلة سيرابيس وإيزيس عظيمة الأثر في تطوره إلى درجة خارقة للعادة.

كانت مملكة جندهارا (Gandhara) الواقعة على الحدود الشمالية الغربية بالقرب من بيشاوار (Peshawar) والتي ازدهرت في القرن الثالث ق. م.، خير مثال يمثل التقاء العاملين الهلليني والهندي. فهنا يوجد أول ما ظهر من أعمال النحت البوذية، وقد انتسجت معها أشكال يمكن للمرء أن يميز فيها أشكال سيرابيس وإيزيس وحورس التي اتخذت سبيلها إلى شبكة الأساطير التي اجتمعت حول بوذا. ولا شك أن فناني الإغريق الذين وفدوا إلى جندهارا عز عليهم أن يهجروا ما ألفوه. ولكن يقال لنا إن إيزيس هنا لم تعد إيزيس وإنما هي هاريتي (Hariti)، وهي ربة وباء وأذى هداها بوذا وجعلها من الصالحات الخيّرات المحسنات، ويقفو فوشر (Foucher) أثر إيزيس من هذا المكان إلى الصين. بيد أن مؤثرات أخرى كانت تعمل عملها هناك أيضا. وتصبح القصة أعقد من أن نستطيع تبينها وشرحها في هذه "المعالم". كانت للصين ربة تاوية (Taoist) هي الأم المقدسة، مليكة السماء التي اتخذت لنفسها اسم كوان يين (Kuan – Yin) (وهو في الأصل اسم مذكر) وهي التي تصادف أن شابهت هيئة إيزيس مشابهة وثيقة. وإنا لنشعر أن شكل إيزيس لا بد أن قد أثر في معالجة مشابهة وثيقة. وإنا لنشعر أن شكل إيزيس لا بد أن قد أثر في معالجة كوان يين، ومن أشباه إيزيس كذلك مليكة البحار ستيلامارس (Srella Maris)، وكانت تسمى في اليابان كوانُن (Kwannon). ويبدو أنه كان هناك تبادل مستمر في المظاهر الخارجية للديانات بين الشرق والغرب،

فإننا نقرأ في رحلات هك (Huc)، كيف تحير فكره وفكر زميله في البعثة الدينية لما شاهداه في العبادات من التقاليد المشتركة بين الشرق والغرب، حيث يقول: "إن الصليب وتاج الأسقف والثوب الكهنوتي الرسمي والبطرشيل، التي يلبسها اللامات العظام في رحلاتهم أو عندما يقومون بطقوس خارج المعبد، والصلاة المصحوبة بجوقتين من المرتلين وترنيم المزامير والتعويذات والرقي والمبخرة المدلاة من خمس سلاسل، والتي تستطيع أن تفتحها وتغلقها، والبركات التي يمنحها اللامات بمد يدهم اليمنى على رأس المؤمنين والسبحة العزوبة الأكليروسية، والانزواء الروحي، وعبادة القديسين والصيام والمواكب والأوراد الكنسية، والماء المقدس، - كل هذه متماثلات يشترك معنا فيها البوذيون".

ثم أخذت عقيدة جوتاما ومبادئه، وهي تجمع المفاسد وتستقبل التغيرات من البرهمية والهللينية على السواء، - تنتشر في أنحاء الهند على حشد متزايد من المعلمين في القرنين الرابع والثالث ق. م. وظلت بضعة أجيال على الأقل محتفظة بالكثير من جمالها المعنوي وبشيء من بساطة طورها الأول. وكثير من الناس ممن لا تستطيع أذهانهم إدراك معنى إنكار الذات وتجاهل مصالحها، لديهم رغم هذا، المقدرة على تقدير الروعة التي تنطوي عليها مطابقة هذه الصفات للحقيقة والواقع. كانت البوذية الأولى تنتج ولا مراء نفوسا نبيلة، ولا يخفى أن وسيلة استثارة كامن الاستجابة للنبل في أذهاننا لا تقتصر على العقل وحده، بل الواقع أن تلك الاستجابة انتشرت لا بفضل ما قدمت من إذعان للأوهام المبتذلة بل على الرغم من ذلك انتشرت لأن الكثيرين من البوذيين الأوائل كانوا أناسا عذبي الشمائل، رقيقي العواطف، يبذلون لغيرهم العون، ويتجلى في سجاياهم النبل والمروءة. وهذا أرغم الناس على الاعتقاد بإيمانهم الوطيد الصامد.

اشتبكت البوذية وهي لا تزال في مستهل حياتها مع ادعاءات البراهمة المتزايدة. وكما سبق أن لاحظنا، كانت تلك الطائفة الكهنوتية لا تزال في كفاح من أجل التسلط على الحياة الهندية منذ أيام جوتاما نفسه. وكانت لها من قبل مزايا عظيمة، فكانت التقاليد والقرابين الدينية حكْرة في أيديهم لا ينازعهم فيها أحد، ولكن تطور الملكية كان في الواقع تحديا لسلطانهم لأن الرجال الذين أصبحوا زعماء للعشائر وملوكًا، لم يكونوا في العادة من طائفة البراهمة.

وتلقى نظام الملكية من غزوات الفرس والإغريق للبنجاب دفعة قوية. وقد ذكرنا من قبل اسم الملك بوروس الذي هزمه الإسكندر بالرغم من أفياله، وحوله إلى "ساتراب" تابع له. وكذلك وفد على المعسكر الإغريقي على نهر السند مغامر آخر يدعي قندراجوبتا موريا أوجندركبت (Chandragupta Maurya) وهو الذي يسميه الإغريق ساندراكوتوس (Sandracottus) يحمل مشروعا لفتح منطقة الجانج (الكنج). ولم تلق الخطة ترحابا من المقدونيين، الذين كانوا قد تمردوا ورفضوا متابعة السير داخل بلاد الهند، فاضطر الرجل أن يغادر المعسكر فرارا وتجول بين القبائل على الحدود الشمالية الغربية، وحصل على تأييدهم، فلما رحل الإسكندر اجتاح البنجاب طاردا ممثلي المقدونيين. ثم فتح بلاد الجانج (الكنج) (٣٢١ ق. م.) وخاض حربا (٣٠٣ ق. م.) ضد سلوقوس الأول، عندما حاول الأخير أن يسترد البنجاب. وأرسى دعائم إمبراطورية عظيمة تمتد عبر سهل الهند الشمالي بأجمعه من البحر الغربي إلى البحر الشرقي. ثم اشتبك مع قوة البراهمة المتزايدة في ذلك النزاع بين التاج والكهانة، الذي سبق أن لاحظنا نشوبه في بابل ومصر والصين. فرأى في مبادئ البوذية الآخذة في الانتشار حليفًا يعينه على إيقاف نمو قوة الكهانة ونظام الطوائف فظاهر النظام البوذي ومنحه العطايا وشجع تعاليمه.

وخلفه على العرش ابنه، ثم جاء بعده أسوكا (٢٦٤ – ٢٢٧ ق. م.) وهو من أعظم الملوك في التـاريخ. امتدت ممتلكاته من أفغانستان حتى ما يسمى الآن ولاية مدراس. وهو الملك العسكري الوحيد الـذي يشـهد التاريخ بأنه تخلى عن الحرب بعد النصر. ذلك أنه غزا كالنجا (Kalinga) (٢٢٥ ق. م.) وهي قطر علـى امتداد ساحل مدراس الشرقي، ولعله كان عازما على إتمام فتح شبه الجزيـرة الهنديـة. وتوجـت الحملـة بالتوفيق، ولكنه اشمأز مما رأى من فظائع الحرب وأهوالها. فأعلن في بعض النقوش التي لا تزال موجـودة أنه لن يطلب الغزو عن طريق الحرب بعد هذا، بل عن طريق الدين. فكرس بقية حياته لنشر البوذية في كافة أصقاع العالم. ويبدو أنه حكم إمبراطوريته الفسيحة في سلام شامل وبكفاية عظيمة. لم يكن مجرد متعصـب ديني. بيد أنه في السنة التي حدثت فيها حربه الأولى والأخيرة، انضم إلى المجتمع البوذي بوصـفه رجـلاً علمانيا عاديا. وبعد ذلك ببضع سنوات أصبح عضوا عاملاً في الهيئة، وكرس نفسه للوصول إلـى النرفانـا بواسطة "الطريق المثمن الجوانب". فكم كانت طريقة العيش هذه تتفق تماما مع ما تكشفه لنا حياته من جهـود وضروب نشاط عظيمة النفع حافلة بالبر والإحسان. لقد كانت سـيرة حياتـه تمتـاز "بالأمـاني الصـائبة" و "الجهود الصائبة" – و "الارتزاق الصائب". فنظم حركة عظيمة لحفر الآبار في الهند ولزراعـة الأشـجار طلبا للظل وعين موظفين للإشراف على أعماق الإحسان. وأسس المستشفيات والحدائق العامة. وأمر فأنشئت حدائق لزرع الأعشاب الطبية. فلو أتيح له فيلسوف كأرسطو يوحي إليه بآرائه لَحبا البحث العلمي بالعطايـا السنية على أوسع نطاق ولا مراء. واستحدث وزارة للعناية بالسكان الأصليين والأجناس المقهـورة. واتخـذ التدابير اللازمة لتعليم النساء. وكان أول ملك في التاريخ قام بمحاولة لتربية شعبه تربية توحد نظرتهم إلـى غايات الحياة وسبلها ووهب هيئات التعليم البوذية منحا جزيلة. وحاول أن يستنهضهم إلـى دراسـة أدبهـا الخاص دراسة أوفى وأحسن، وأقام في طول البلاد وعرضها نقوشًا مستفيضة تسرد علـى النـاس تعـاليم جوتاما. وكان ما سطره هو التعاليم البسيطة الإنسانية، لا الزيادات المحشوة بالسخافات المخالفة للمعقول، ولا تزال خمس وثلاثون من نقوش باقية إلى اليوم. وفضلاً عن ذلك فإنه أرسل المبشرين لنشـر تعـاليم أسـتاذه النبيلة المعقولة، في جميع أنحاء العالم: في كشمير وسيلان كما بعث بهم إلى السلوقيين والبطالمـة. فكانـت إحدى تلك البعثات هي التي حملت إلى سيلان القطعة المأخوذة من "شجرة البو" التي سبق أن تحدثنا عنها.

وظل أسوكا مدة ثمانية وعشرين عاما يعمل بعقله الراجح لسد حاجات الناس الحقيقية. وإنك لتـرى بـين عشرات الآلاف من أسماء الملوك التي تزدحم بها قوائم التاريخ بين أصحاب الجلالـة والعطـف والعظمـة وأصحاب السمو الملكي ومن إليهم، اسم "أسوكا" يتلألأ، بل يكاد يتلألأ وحده كالنجم الثاقب، ولا يزال اسـمه موضع التكريم من الفولجا إلى اليابان. ولا تزال الصين والتبت وحتى الهند نفسها (وإن كانت قـد هجـرت مبادئه) محتفظات له بالتقاليد العظيمة والذكرى الخالدة. وإن الرجال الأحياء الذين يعتزون بذكراه اليوم لأكثر عددا من كل من سمعوا أسماء قسطنطين أو شرلمان.

٥- معلمان صينيان عظيمان

يرى بعض الناس أن ما أغدقه "أسوكا" على البوذية من عطايا عميقة انتهت بها آخر الأمر إلى الفساد، بما اجتذبته إلى حظيرتها من عدد كبير من الأتباع المرتزقة وغير المخلصين، ولكن لا سـبيل إلـى الشـك أن امتدادها وانتشارها في كل أصقاع آسيا يعود معظم الفضل فيه إلى تأثيره هو.

شقت البوذية طريقها إلى آسيا الوسطى عابرة أفغانستان وتركستان وبذا وصلت إلـى الصـين. ويقـول الأستاذ براماثانات بوز إن البوذية وصلت إلى الصين قرابة ٦٤ ميلادية في عهـد الإمبراطـور مـنج تـي (Ming Ti) من أسرة هان، وكان البانديت كاسيابا رسولها إلى الصين ثم تلته سلسلة من المعلمين الآخـرين العظماء. وكانت أيام الدعاية البوذية العظيمة في الصين هي القرنان الثالث والرابـع الميلاديـان ثـم لقيـت اضطهادات محزنة ثم عادت فنشطت من جديد وأخذت تبرز وتشتهر قبيل ظهور أسرة تانج.



(ش ٩٥) هاريتي

على أن البوذية وجدت في بلاد الصين ديانة شعبية منتشرة قد توطدت أركانها من قبل، هي الديانة التاوية (Toaism) وهي صورة متطورة لما كان يزاوله ذلك الشعب منذ سحيق الأزمان من سحر بدائي عتيق وممارسات خفية. وأعاد تشانج تاولنج (Chang Taoling) تنظيمها كعبادة متميزة في زمان أسرة هان. ومعنى كلمة تاو (Tao) هو الطريق، وهذا يشاكل فكرة "النهج الآري" مشاكلة وثيقة. وابتدأ الأمر بأن نشب الكفاح بين الديانتين، ثم لم تلبثا أن انتشرتا جنبا إلى جنب ولحقتهما تغييرات متشابهة، حتى لقد أصبحت المظاهر متشابهة، حتى لقد أصبحت المظاهر الخارجية لشعائرهما في الوقت الحاضر بالغة التشاكل. والتقت البوذية أيضا بالكونفوشيوسية أو الكونفوشيانية وهي عقيدة تكاد تكون أقل من التاوية من حيث الطابع اللاهوتي وأقرب إلى قانون للسلوك الشخصي. ثم التقت آخر الأمر بتعاليم لاو تسي (Lao Tse) وهو "فيلسوف أخلاقي فوضوي يناصر السلام ومذهب النشوء والارتقاء". ولم تكن عبادته هذه ديانة قدر ما كانت دستورا فلسفيا للحياة. ثم اندمجت تعاليم لاو تسي أو (لاهو تسي) فيما بعد في الديانة التاوية على يد تشن توان (Chen Tuan) مؤسس التاوية الحديثة.



ش ٩٦ — صورة صينية لكوانين

وكان كونفوشيوس (Confucius) مؤسس الكونفوشيوسية يعيش كذلك في القرن السـادس ق. م. شـأن المعلمين العظيمين الجنوبيين (لاو تسي وجوتاما). وتتجلى في سيرته بعض أوجه شبه شائقة بينه وبين بعض الفلاسفة الإغريق في القرنين الخامس والرابع وإن فاقوه نزوعا إلى السياسة. ويقع القرن السادس ق. م. فـي المدة التي يخصصها المؤرخون الصينيون لأسرة تشاو (Chow) ولكن كان حكم تلـك الأسـرة لا يتجـاوز أيامئذ الحكم الاسمي إلا قليلاً. فكان الإمبراطور يقوم بالقرابين التقليدية المقدمة من ابـن السـماء، ويحظـى ببعض مظاهر الاحترام الشكلي. وليت الأمر وقف به عند حد الولاية الاسمية على بلاد الصين بل إن رقعـة ملكه لم تكن لتعادل سدس الصين في الوقت الحاضر. ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى مجريـات الأمـور فـي الصين في ذلك الزمان. وإذ كانت الصين بالفعل مجموعة من الولايات المتحاربة مفتوحة الفجـاج للبرابـرة الشماليين. وكان كونفوشيوس فردا من الرعايا في إحدى تلك الولايـات، وهـي ولايـة "لـو" (Lu) وهـو أرستقراطي المولد وإن نشأ رقيق الحال. وبعد أن تقلد عدة مناصب حكومية، أقام فـي "لـو" ضـربا مـن الأكاديمية يبغي به اكتشاف الحكمة وبثها في الناس. كذلك نجد كونفوشيوس يجول من ولاية إلى ولاية فـي الصين لعله يجد أميرا يتخذه مستشارا ناصحا له، ويجعل بلاطه مركزا لعالم يعمه الإصلاح. وكـذلك ذهـب أفلاطون بعد ذلك بقرنين وبين جنبيه نفس تلك الأمنية والروح بالضبط إلى الطاغية ديونيسيوس في صـقلية ليصبح مستشارا له. ولقد ذكرنا من قبل موقف أرسطو وإيزوقراط حيال فيليب المقدوني.

قامت تعاليم كونفوشيوس حول فكرة الحياة النبيلة التي تمثلها في شخص معياري أو مثلٍ أعلى هو الرجل الأرستقراطي. وغالبا ما تترجم هذه العبارة في اللغة الإنجليزية باسم الشخص الأسمى، ولكن لما كانت كلمتا "الأسمى" و "الشخص" قد صارت ككلمات "المحترم" و "الموقر" و "الوجيه" من زمان بعيـد ألفاظـًا تتضـمن معنى السباب والسخرية التي تنطوي على شيء من التهكم، فليس في ترجمتها على هذه الشـاكلة إنصـاف للكونفوشيوسية، فإن مؤسسها قدم بالفعل إلى زمانه المثل الأعلى للرجل المخاص الذي وقـف حياتـه علـى الخدمة العامة. وكانت الناحية العامة على أقصى درجة من الأهمية في نظره. وكان الرجل مفكـرا سياسـيا إنشائيا أكثر من جوتاما أو لاو تسي. وكان ذهنه في شغل شاغل بحالة الصين، فحـاول أن يخلـق الرجـل الأرستقراطي مبتغيا من ذلك بوجه خاص إنشاء الدولة النبيلة. وإنا لنستطيع أن نقتبس هنا بعض ما قال: "من المستحيل أن يعتزل المرء العالم، وأن يخالط الطيور والوحوش التي لا يجمعنا وإياها تشاكل ولا تآلف، فمـن ذا الذي ينبغي لي أن أخالطه من الناس إن لم أخالط من يتألمون ويشقون؟، ذلك أن هذه الفوضى التـي تعـم الدنيا هي الشيء الذي يحتاج إلى جهودي، ولو أن المبادئ الحقة كانت هي السارية في أرجاء المملكة، لمـا كانت بي أي حاجة إلى تغيير حالتها".

ويبدو أن الدعامة السياسية التي تقوم عليها تعاليمه تدخل في خصائص التعاليم الأخلاقية لأهـل الصـين. ففيها من الاهتمام بالدولة والإشارة المباشرة إليها أكثر مما في معظم العقائد الهندية والأوربية: الخلقية منهـا والدينية سواء. وعين حاكما فترة من الزمان في تشنج تو (Chung-Tu) وهي إحدى مدن دوقية "لو" وهناك حاول أن ينظم الحياة تنظيما خارقًا للعادة، وأن يخضع بالفعل كل علاقة وكل عمل لقواعد ثابتـة مـن أدب اللياقة المحكم التفاصيل لقد صارت تعاليمه تفرض على الناس كافة، وهي "مراسم ومرعيات في كل جزء من

تفاصيلها كالتي لا تُرى إلا في بلاطات الملوك وقصور عِلْية القوم. وأصبحت كل شـئون الحيـاة اليوميـة خاضعة لقواعد جامدة، حتى الطعام الذي قد تتناوله طبقات الناس المختلفة امتدت إليه يد التنظيم، كذلك فـرق بين الذكور والإناث في الطرقات. بل إن سمك النعوش وشكل القبور وموقعها، قـد خضـعت هـي أيضـا للتنظيم".

وكل هذا، على حد قول الناس، صيني [1] جدا. فما من شعب آخر عالج النظـام الأخلاقـي والاسـتقرار الاجتماعي قط عن طريق آداب السلوك كالشعب الصيني، ومع ذلك فقد كان لأساليب كونفوشيوس أثر هائـل في الصين على كل حال، وما من شعب في العالم اليوم له مثل هذه التقاليد العامة الشاملة مـن آداب اللياقـة وضبط النفس.

ثم تقوضت بعد ذلك سلطة كونفوشيوس على مولاه الدوق، فاعتزل الحياة العامة من جديد. وتكدر صـفو أيامه الأخيرة بوفاة نفر من أنجب تلاميذه الذين كان يرجى منهم خير عظيم. وقد قال: "ليس هناك من حـاكم ذكي ينهض ليتخذني معلما له، وها قد دنا أجلي!".

على أنه مات ليخلد. ويقول هيرث (Hirth): "لا مجال للريب أن كونفوشيوس كان له في تطـور الخلـق القومي الصيني أثر أعظم مما لكثير من الأباطرة مجتمعين، فهو لذلك أحد الشخصيات الأساسية التي يجـب تأملها في كل تاريخ يكتب عن بلاد الصين. فأما تمكنه من التأثير على قومه إلى مثل هذه الدرجة، فإنه كمـا يبدو لي راجع أكثر ما يرجع إلى صفات الشعب أكثر منه إلى شخصيته هو نفسه. فلو أنه عاش في أي جزء آخر من العالم فلربما نسي الناس اسمه. وكما رأينا، أقام ذلك الرجل خلقه وآراءه الشخصية عن حياة الإنسان بعد أن درس دراسة وافية بعض الوثائق المتصلة اتصالاً وثيقًا بالفلسفة الأخلاقية التي أنبتتها الأجيال السابقة، فالذي بشر به بين معاصريه لم يكن إذن جديدا كل الجدة عليهم. بيد أنه – بعد أن سمع بنفسه أثناء دراسـته للسجلات المدونة القديمة صوت حكماء الماضي خفيضا خافتًا – أصبح بوقًا يسمع الصم وحاكيا ينقل للشعب تلك الآراء التي استخلصها من التطور الأول للشعب نفسه... وليس ما بلغته شخصية كونفوشيوس من الأثـر العظيم في الحياة القومية الصينية راجعا فحسب إلى كتاباته وتعاليمه كما سجلها أناس آخـرون، بـل يرجـع كذلك إلى أفعاله. فقد أصبح خلقه الشخصي كما وصفه لنا تلاميذه وكما توضحه لنا بيانات من تلاه من الكتّاب – وليس بعيدا أن يكون بعضها بأجمعه من بنات الأساطير – المثال الذي يحتذيه ملايين ممن جبلوا على تقليد السلوك الظاهر لرجل عظيم.. فكل ما كان يأتيه على الملأ من أفعال، كان ينظم ويصاغ بأدق تفاصيله طقوسا ومرعيات، ولم يكن ذلك من مستحدثاته، لأن التزام المرعيات في الحياة ظل على الـدوام موضـع عنايـة الصينيين قبل كونفوشيوس بقرون كثيرة. ولكن سلطانه ومثاله المحتذى كان لهما أثر كبير في تخليد ما كـان يعتبره واجبات اجتماعية لازمة.

---

[1] صيني هنا بمعنى عقيم أو عجيب. (المترجم)

وكانت تعاليم لاو تسي (لاهو تسي)، الذي ظل زمانًا طويلاً أمينًا للمكتبة الإمبراطورية في عهـد أسـرة تشاو، أكثر إبهاما وخداعا وتملصا من تعاليم كونفوشيوس. ويلوح أنه دعا المجتمع دعوة الرواقيين (Stoics) إلى عدم المبالاة بما في العالم من مسرات وسلطان، كما دعا إلى العودة إلى حياة بسيطة تخيلهـا للماضـي السحيق. وخلّف لنا كتابات، إلا أنها مقتضبة جدا في أسلوبها، شديدة الغموض في معانيها. حتى لكـأني بـه يكتب ألغازا. وبعد وفاة لاو تسي ألم بتعاليمه ما ألم بتعاليم جوتاما بوذا من قبل من فسـاد، وأضـيف إليهـا الشيء الكثير من الأساطير وأدخلت إليها أفكار خرافية ومرعيات شديدة التعقيد والشـذوذ. علـى أن تعـاليم كونفوشيوس لم تثقل بمثل هذه الإضافات لأنها كانت واضحة محدودة مستقيمة صريحة لا تسمح بتدسس مثل هذه التشويهات الملتوية.

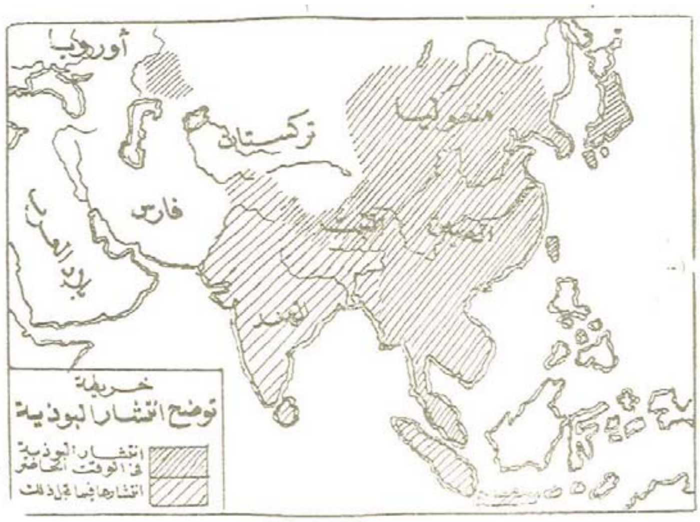
ويتحدث الصينيون عن البوذية وعن مبادئ لاو تسي وكونفوشيوس باسم التعاليم الثلاثـة. وهـي تُكـون مجتمعة الأساس ونقطة التحول لكل ما تلاها من تفكير صيني. ودراستها بدقة إنما هـي توطئـة ضـرورية لتأسيس أي رابطة ذهنية وخلقية صحيحة بين الشعب العظيم في الشرق وبين العالم الغربي.

ويلاحظ أن هناك أمورا معينة يتفق فيها جميع هؤلاء المعلمين الثلاثة، الـذين يعتبـر جوتامـا أعظمهـم وأعمقهم غير منازع، وهو الذي تتسلط تعاليمه إلى يومنا هذا على فكر الغالبية العظمى من الكائنات البشرية كما أن هناك مظاهر بعينها تتباين فيها تعاليمهم مع الأفكار والمشاعر التي قدر لها أن تسيطر علـى العـالم الغربي على الفور. فهي أولاً تعاليم شخصية سمحة، تعاليم طريق ونهج وطبقة نبيلة، وليست مبادئ كنيسـة ولا هي تسن قاعدة عامة. وهي لا تحبذ عبادة الآلهة الشائعين كما أنها لا تنكر وجودها. ويجب أن نلحـظ أن الفلاسفة الأثينيين، كانوا على نفس الانفصال عن النواحي اللاهوتية، فكان سقراط علـى أتـم الاسـتعداد أن ينحني في أدب لأي إله تقريبا وأن يقرب القرابين طبقًا للأوضاع المألوفة مع احتفاظه بأفكاره الخاصة. وهذا الاتجاه هو النقيض الصراح للحالة العقلية التي كانت تنبثق وتنمو في مجتمعات اليهود فـي أرض اليهوديـة ومصر وبلاد بابل، التي كانت فكرة الرب الواحد لديها هي الأولى المقدمة على كل ما سواها. ولم يظهر لدى كل من جوتاما أو لاهو تسي أو كونفوشيوس أي أثر مهما صغر لفكرة "الرب الغيور": ذلك الـرب الـذي لا يسمح بوجود "أي أرباب أُخَر معه" رب للصدق المر والحق الصارم لا يسمح بأي اعتقاد خفي في السحر أو العرافة أو العادات القديمة أو أي قربان يقرب للملك الرب أو أي عبث بالوحدة المطلقة للأشياء.

٦- مفاسد البوذية

كانت عاقبة تعصب العقل اليهودي وعدم تسامحه، أن احتفظ بعقيدته الأساسية صافية نقية. فإن إغفال المعلمين الشرقيين العظماء اللاهوت ووقوفهم منه على حال لا يحبذونه فيها ولا ينكرونه، قد أتاح من الناحية الأخرى الفرصة منذ البداية الأولى أمام التفسيرات التفصيلية المحكمة وتجمع الطقوس. وفيما عدا إصرار جوتاما على تحري "الآراء الصائبة"، وهو المبدأ الذي كان من السهل إغفاله لم يكن هناك أي عنصر "لتطهير النفس" في أي من البوذية أو التاوية أو الكونفوشيوسية. ولم يكن هناك أي تحريم فعال لممارسة الخرافات وإنهاض الأرواح واستدعائها والتعازيم والسجود والعبادات الإضافية (النوافل). ومن ثم سرت في العقيدة منذ مراحلها الأولى إضافات وزيادات اطردت وتواصلت على مر الزمان. فإن العقائد الجديدة التقطت معظم الأدواء المعيبة بالديانات الفاسدة التي حاولت أن تحل محلها. فأخذت عنها الأصنام والمعابد والمذابح والمباخر.

والتبت اليوم قطر بوذي، ومع ذلك فلو أن جوتاما بعث من قبره حيا لذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثًا عن تعاليمه بلا جدوى. وسيجد هناك ذلك الطراز العتيق من حكام البشر، وهو الملك الرب متوجا وممثلاً في شخص الدالاي لاما (Dalai Lama) الذي هو (البوذا الحي). وسيجد في لهاسا (Lhasa) معبدا فخما غاصا بالكهنة والرهبان واللامات – وهو (أي جوتاما) الذي لم تكن مبانيه إلا الخصاص والذي لم يكن له أي كهنة. وإنه ليشهد فوق هيكل مرتفع صنما ذهبيا ضخما يخبرونه أنه يسمى "جوتاما بوذا". وإنه ليسمع صلوات ترتل أمام ذلك الرب، ويرى نواميس وسننًا فيها آثار مبهمة لأشياء مألوفة لديه وتتمتم على سبيل الاستجابة. وتلعب الأجراس والبخور والسجود دورها في هذه المراسم المدهشة. ويدق جرس في لحظة من لحظات الصلاة وترفع مرآة، بينما تزيد الجماعة بأسرها في انحنائها إمعانًا في المهابة والتوقير!!



(ش ٩٧) خريطة توضيح انتشار البوذية

وإنه ليستكشف حول هذه المنطقة القروية البوذية كثيرا من الآلات الصغيرة، وهي عجـلات هوائيـة [1] ومائية صغيرة تدور، وقد كتبت عليها صلوات مختصرة. وسيعلم منهم أنه كلما دارت هذه الأشياء الصـغيرة دورة احتسبت بمقتضاها صلاة. وهو لا بد سائل: "لمن؟". وفضلاً عن ذلك فإنه سيجد عـددا مـن سـاريات الأعلام في البلاد تحمل رايات جميلة من الحرير، رايات حريرية نقشت عليها هذه العبارة المحيـرة "Om Mani Padme Hurr" ومعناها "الجوهرة في اللوتس". وسيعلم أنه كلما رفرفت الراية كتبت صـلاة نافعـة جدا للسيد الذي دفع ثمن الراية وللبلاد عامة. وهناك جماعات من العمال يسـتخدمهم الأتقيـاء مـن النـاس ليضربوا في أرجاء البلاد وهم يحفرون هذه العبارة النفيسة فوق جوانب الصخر والأحجار. وسـيدرك آخـر الأمر أن هذا هو كل ما استخلصه العالم من ديانته!! وتحت هذا البريق الخلاب المتألق دفـن "الـنهج الآري" الموصل إلى صفو النفس وسكونها.

سبق أن أشرنا إلى خلو البوذية البدائية من كل فكرة تقدمية، وهي في هذا أيضا مباينة لليهوديـة. ففكـرة الوعد أضفت على اليهودية صفة لم تظهر في أية ديانة سابقة أو معاصرة، صفة أصبحت اليهودية بسببها دينًا تاريخيا أخاذًا، كما بررت عدم تسامحها العنيف لأنها كانت ترمي إلى هدف. وبالرغم من صدق تعاليم جوتاما وعمق الناحية السيكولوجية فيها، فإن البوذية ركدت وأسنَتْ وفسدت بسبب خلوها من تلك الفكرة التوجيهيـة. ولا بد لنا من الاعتراف بأن اليهودية في أدوارها الأولى، لم تتغلغل إلا قليلاً في نفـوس النـاس، فتـركتهم سادرين في شهواتهم، وأشحاء مقترين وعلمانيين قد استهوتهم الدنيا أو معتقدين في الخرافات. ولكن اليهودية بفضل ما بذلته من وعد مقنع وما توافر لها من زعامة ربانية لخدمة غايات قدسية ظلت بالمقايسة إلى البوذية نشطة متوقدة متطلعة إلى المستقبل، مثل حسام يجد على الدوام من يعنى بصقاله.

---

(1) وهي العجلة التي يصنعها الأطفال في مصر ويسمونها أبو رياح (المترجم)

٧- مجال البوذية الحالي

ازدهرت البوذية في الهند ردحا من الزمان. بيد أن البراهمانية بما لها من آلهة كثيرة وأضرب شتى من عقائد لا نهاية لها، ظلت على الدوام مزدهرة إلى جوارها، ثم أخذت هيئة البراهمة تزداد قوة، حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلبوا على هذه العبادة التي تنكر الطوائف، وأن يطردوها من الهند طردا تاما. وليس هذا موضع قصة هذا الكفاح. فقد حدثت اضطهادات استتبعت ردود أفعال، ولكن ما كاد القرن الحادي عشر يبزغ، حتى كانت تعاليم البوذية خمدت في الهند اللهم إلا في ولاية أوريسا. على أن الشيء الكثير من وداعتها وإحسانها قد أدمج في البرهمانية.

وهي لا تزال على قيد الحياة في مناطق مترامية من العالم. ولعل تعاليم جوتاما الأصلية عندما تتصل بالعلم الغربي وعندما ينفخ فيها التاريخ من روحه، وحين تنتعش وتنقى من الشوائب – تستطيع أن تقوم مع ذلك بدور عظيم في توجيه مستقبل البشر ومصيرهم.

على أنه عندما أفلتت الهند من يد "النهج الآري" زال سلطانه من حياة كل الشعوب الآرية. ومن عجب أن يلحظ المرء أنه بينما الديانة الآرية الوحيدة العظيمة تكاد اليوم تكون مقصورة قصرا تاما على الشعوب المغولية، فإن الآريين أنفسهم أصبحوا تحت سلطان دينين هما المسيحية والإسلام وهما كما سنرى ساميان خالصان. وتتخذ البوذية والتاوية والمسيحية على السواء أثوابا من الطقوس والمراسم التي يلوح أنها مستقاة عن طريق الهلّينيين من مصر – أرض المعابد والكهانات، ومن العقلية الأشد بدائية وأولية، عقلية الشعوب الحامية السمراء.

الكتاب الخامس

قيام الإمبراطورية الرومانية وانهيارها

الفصل الخامس والعشرون

الجمهوريتان الغربيتان

١- بدايات اللاتين.

٢- نوع جديد من الدولة.

٣- جمهورية الأغنياء القرطاجية.

٤- الحرب البونية الأولى.

٥- كاتو الأكبر وروح كاتو.

٦- الحرب البونية الثانية.

٧- الحرب البونية الثالثة.

٨- كيف قوضت الحروب البونية الحرية الرومانية.

٩- مقارنة الجمهورية الرومانية بدولة حديثة.

١ - بدايات اللاتين

من الضروري الآن أن نتناول تاريخ الجمهوريتين العظيمتين اللتين ظهرتا في البحر المتوسط الغربي، وهما روما وقرطاجة [1] وأن نبين لك كيف نجحت روما في الاحتفاظ طوال أجيال كثيرة بإمبراطورية تكاد تكون أعظم من تلك التي حققها الإسكندر الأكبر بفتوحه. بيد أن هذه الإمبراطورية الجديدة كانت كما سنحاول أن نوضح لك بناء سياسيا يختلف في طبيعته أبلغ اختلاف عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات الشرقية التي سبقتها. وقد انقضت أجيال عدة كانت تجري في غضونها تغيرات هائلة في تكوين المجتمع الإنساني وفي أحوال العلاقات الاجتماعية بين طبقاته. وكانت مرونة التعامل بالنقود وقابليتها للتداول قد أخذت تصبح قوة يعتد بها، ولها ككل القوى في الأيدي غير الخبيرة خطرها على الشئون البشرية، فكانت آخذة بأسباب تغيير العلاقات بين الأغنياء والدولة، وبينهم وبين إخوانهم المواطنين الفقراء. لم تكن هذه الإمبراطورية الجديدة وأعني بها الإمبراطورية الرومانية؛ من صنع فاتح عظيم، على النقيض من كل الإمبراطوريات السابقة. لم يكن منشؤها راجعا إلى عاهل كسرجون أو تحتمس أو نبوخذ ناصر أو قورش أو الإسكندر الأكبر أو قندراجوبتا (جندركبت)، وإنما هي من صنع جمهورية. ثم إنها تولدت واتسعت بحكم نوع من الضرورة ونتيجة لقوى جديدة تعمل على التركيز والتوحيد وتتجمع ويتزايد نفوذها باطراد في شئون البشر.

على أنا نرى أن نبدأ الحديث بإلمامة بسيطة بالأحوال السائدة في إيطاليا في القرون السابقة لظهور روما في قصة العالم.

والراجح أن إيطاليا قبل سنة ١٢٠٠ ق. م. أعني قبل قيام الإمبراطورية الآشورية وحصار طروادة وتدمير كنوسوس النهائي وبعد عصر أمنحوتب الرابع كانت كإسبانيا لا يزال يسكنها في معظم الأمر شعب أبيض داكن ينتمي إلى الجنس الأيبيري الأصلي الذي هو جنس البحر المتوسط الأساسي القديم. والراجح أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا متأخرين قليلي العدد. ولكن الآريين كانوا قد أخذوا من قبل ينحدرون جنوبا في إيطاليا كما فعلوا في بلاد الإغريق. ولم تأت سنة ١٠٠٠ ق. م. حتى كان المهاجرون من الشمال استقروا وانتشروا في معظم شمال إيطاليا ووسطها. وكما حدث في بلاد الإغريق اختلطوا زواجا بسابقيهم الداكنين وأسسوا مجموعة من اللغات الآرية هي المجموعة الإيطالية وهي أقرب إلى الكلتية الحايلية (Gaelic) منها إلى أية مجموعة أخرى من اللغات. وأهم هذه اللغات من وجهة النظر التاريخية هي تلك التي تتكلمها القبائل اللاتينية النازلة في السهول الواقعة جنوبي وشرقي نهر التيبر. وكان الإغريق في نفس الوقت قد أخذوا يستقرون في بلاد الإغريق وأخذوا عند ذاك يتطلعون إلى البحر ويعبرونه إلى جنوبي إيطاليا وصقلية مستقرين فيهما هناك، ثم أنشئوا فيما بعد المستعمرات على طول ساحل الريفييرا الفرنسي وأسسوا مرسيليا في بقعة كانت تشغلها مستعمرة فينيقية عتيقة. وثمة شعب شائق آخر هبط إيطاليا بحرا وهم شعب قوي

---

[1] قرطاجة: جرت عادة كثير من المؤرخين بكتابتها (قرطاجنة) وهو خطأ ذائع. والصحيح هو (قرطاجة) أو (قرطاج) كما يسميها أهل تونس أنفسهم. أما قرطاجنة فهي مدينة بإسبانيا. (المترجم).

الشكيمة متين العضل ضارب إلى السمرة كما يستنتج مما خلفوه من صور لأنفسهم. وأغلب الظن أنهم قبيلـة من أولئك الإيجيين البيض الداكنين الذين كان الإغريق يدفعونهم دفعا خارج بلاد اليونان وآسـيا الصـغرى والجزر الواقعة فيما بينهما. لقد ذكرنا من قبل قصة كنوسـوس وأهـالي كريـت واسـتقرار ذوي قربـاهم الفلسطينيين في أرض فلسطين. فهؤلاء الإترسك: (الإتروريون) كما كانوا يسمون في إيطاليا عرفوا حتى في الأزمنة القديمة بأنهم من أصل آسيوي. ولعل من المغري – وإن لم يكن له على الراجح ما يبرره – أن نربط هذه الفكرة المتواترة بالإينيادة (Aeneid) وهي ملحمة الشاعر اللاتيني فرجيل التي تنسـب فيهـا المدنيـة اللاتينية إلى نازحين طرواديين من آسيا الصغرى (على أن الطرواديين أنفسهم كانوا فيما يرجح شعبا آريـا يمت إلى الفريجيين ببعض الأواصر). وقد فتح هذا الشعب الإتروسكي معظم إيطاليا شـمالي نهـر التيبـر منتزعين إياه من القبائل الآرية التي كانت متناثرة في أرجاء تلك البلاد. ولعل الإترسك كانوا يحكمون شعوبا إيطالية مقهورة وبذلك قلبوا الوضع الذي كان جاريا في بلاد الإغريق حيث كان الآريون هم الأعلون.

وربما كانت خريطة حوض البحر المتوسط الغربي تمثل على وجه التقريب الحالة السائدة حـوالي ٧٥٠ ق. م. وهي تبين أيضا مستقرات التجار الفينيقيين على امتداد شواطئ أفريقيا وإسبانيا التي كانـت قرطاجـة أعظمها شأنًا.

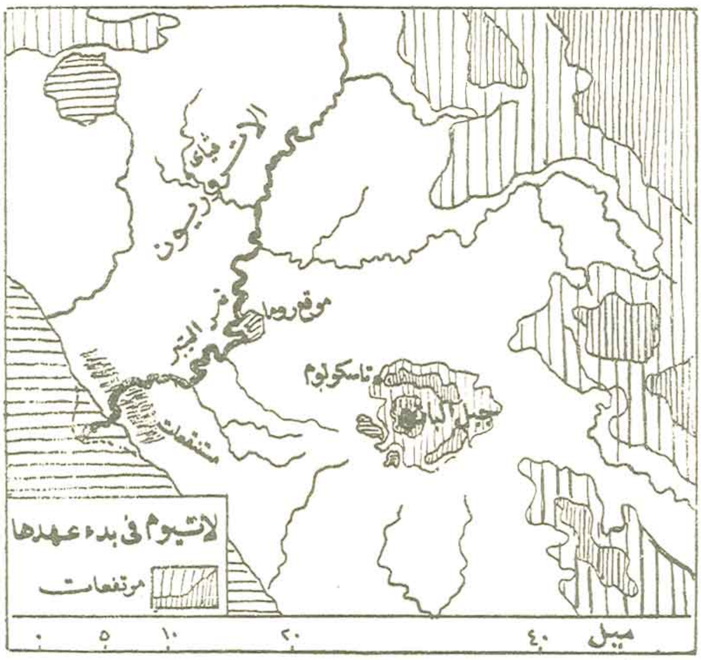


(ش ٩٨) خريطة الحوض الغربي للبحر المتوسط

كان الإترسك أشد الشعوب المقيمة فعلاً في إيطاليا مدنية وحضارة. فكانوا يبنون قلاعا منيعة على طـراز فن العمارة الميسيني وضربوا في صناعة المعادن بسهم، وكانوا يستعملون خزفًا إغريقيـا فـاخرا. وكانـت القبائل اللاتينية على الضفة الأخرى من التيبر همجية بالقياس إليهم.

كان اللاتين لا يزالون شعبا زراعيا متأخرا خشنًا. وكان مركز عبادتهم معبدا أقيم لرب القبيلة جوبيتر أي المشتري على جبل ألبان كما هو مبين بخريطة "اللاتيوم في عهده الأول (ش ٩٩)". وهناك كانوا يجتمعـون لإقامة كبريات حفلاتهم على نحو يشبه كثيرا الاجتماعات القبلية القديمة التي تخيلناها من قبل فـي آفبـوري (Avebury). ولم يكن موضع اجتماعهم هذا مدينة من المدن بل مكانًا عاليا صالحا لأن يجتمعوا فيه، ولـم يكن به سكان يقيمون هناك بصفة مستديمة. ومهما يكن من شيء فإن الحلف اللاتيني كان يضم اثنـا عشـر بلدا. وكان هناك عند نقطة معينة من التيبر مخاضة تتبادل عندها التجارة بين اللاتين والإترسك. وعند هـذه المخاضة نشأت بدايات روما حيث يلتقي المتجرون، ووجد اللاجئون من البلدان الاثنا عشر في هذا المركـز التجاري ملاذًا ومرتزقًا. ونشأ على التلال السبعة بالقرب من المخاضة عدد من المستقرات انـدمجت آخـر الأمر فأصبحت مدينة واحدة.

وقد ترامى إلى سمع معظم الناس قصة الأخوين رومولوس (Romulus) وريمـوس (Remus) اللـذين أسسا روما، والأسطورة التي تروي كيف تعرضا في طفولتهما للهلاك وكيف آوتهمـا ذئبـة وأرضـعتهما. والمؤرخون العصريون لا يعيرون هذه القصة أدنى قيمة. ويذكر عام ٧٥٣ ق. م. بوصفه تـاريخ تأسـيس روما. ولكن وجدت تحت الفوروم الروماني قبور للإتروريين يرجع تاريخها إلى عهد أقدم من ذلك بكثيـر، وما يسمونه قبر رومولوس إنما يحمل كتابة إترسكية لم يستطع أحد حل رموزها.



(ش ٩٩) اللاتيوم في عهـــده الأول

ولم تكن شبه جزيرة إيطاليا أصبحت بعد تلك الأرض الباسمة بالكروم وحدائق الزيتون التي صار إليها حالها منذ ذلك الحين، بل كانت لا تزال أرضا موحشة مليئة بالمستنقعات والغابات، يرعى الفلاحون فيها أغنامهم ويقطعون الغابات للاستفادة بالأرض. ولم تكن روما – وموقعها كما نعلم على الحدود بين اللاتين والإتروريين – في موقع شديد المنعة يساعد على الدفاع، وربما كان هناك في بادئ الأمر ملوك لاتينيون في روما. ثم يبدو أن المدينة سقطت في أيدي عواهل الإتروريين الذين أدى طغيانهم آخر الأمر إلى طردهم، ومن ثم أصبحت روما جمهورية ناطقة باللاتينية، وكان طرد الملوك الإتروريين من روما في القرن السادس ق. م. على حين كان خلفاء نبوخذ ناصر يتولون الأمر في بابل برضاء الميديين، وبينما كان كونفوشيوس يبحث عن ملك يصلح من فوضى بلاد الصين، ويوم كان جوتاما يعلم "النهج الآري" لتلاميذه في بنارس.

ولسنا بمستطيعين أن نتحدث هنا في أي تفصيل عن الكفاح بين الرومان والإتروريين، كان الإتروريون أحسن تسلحا وأكثر تمدنًا وأوفر عددا. وكان الراجح أن تدور الدوائر على الرومان لو أنهم اضطروا إلى مقاتلتهم منفردين. ولكن مني الإترسك (الإتروريون) بكارثتين أوهنتا قواهم إلى حد أن الرومان استطاعوا آخر الأمر أن يغلبوهم غلبة تامة. وكانت أولى هاتين الكارثتين حربا مع إغريق سيراقوزة بصقلية انتهت بتدمير الأسطول الإتروري (٤٧٤ ق. م.). والكارثة الثانية هي غارة عظيمة شنها الغال من الشمال على إيطاليا. احتشد هؤلاء القوم وانتشروا في شمال إيطاليا واحتلوا وادي نهر بو حوالي نهاية القرن الخامس ق. م. كما احتشد ذوو قرباهم بعد ذلك بقرنين وهبطوا على بلاد الإغريق وآسيا الصغرى واستقروا في غلاطيا وبذلك وقع الإتروريون بين المطرقة والسندان. وبعد حرب طويلة في فترات متقطعة استطاع الرومان أن يستولوا على فياي وهي قلعة إترورية على بضع أميال من روما، ما فتئت حتى ذلك الحين مصدر تهديد ومضايقة لهم.

وإلى فترة الكفاح هذه بين الرومان وبين "التاركوينين" من ملوك الإتروريين يشير كتاب اللورد ماكولي: "أناشيد روما القديمة "Lays of Ancient Rome " المعروف لدى كل تلميذ في إنجلترة.

على أن غزو الغال كان إحدى تلك الأعاصير التي تعصف بالشعوب عصفًا فلا تذر شيئًا على حاله. فإنهم واصلوا غاراتهم قُدما في شبه الجزيرة الإيطالية، وهم يخربون كل شبر في إتروريا [1] حتى استولوا على روما ونهبوها (٣٩٠ ق. م.). وقاومتهم قلعة الكابيتول (كما تقول الأساطير الرومانية التي يلقي عليها الشك بعض ظلاله)، وهذه أيضا كاد الغال أن يأخذوها على غرة ليلاً لو لم توقظ حركة تسللهم بعض الإوزات فصاحت صيحات عالية أيقظت الحامية. وبعد ذلك افتدى الغال أنفسهم بالمال وعادوا أدراجهم إلى الشمال، إذ كانوا غير مزودين بالقدر الكافي مما يلزم عمليات الحصار من عتاد، وربما كان تفشي المرض في معسكرهم سببا آخر فيما أصابهم من كوارث. ومع أنهم قاموا بغارات تالية فإنهم لم يصلوا بعد ذلك قط إلى روما.

(1) إتروريا: إقليم قديم في الجزء الغربي من أواسط إيطاليا. وهو موطن الإتروريين (الإترسك). (المترجم).

وكان قائد الغال الذين نهبوا روما يدعى برينوس (Brennus). ويروي عنه الرواة أنه بينما كان ذهب الفدية في الميزان تنازع القوم حول صحة وزن الصنجة وتعادل الكفتين. فما كان منه إلا أن ألقى بسيفه في كفة الميزان قائلاً: "الويل للمغلوب Voe victis". وهي عبارة لزم شبحها حتى وقتنا هذا كل مناقشة جرت في شئون الفديات والتعويضات.



(ش ١٠٠ –) إحراق الموتى « احتفال إتروري »

شُغلت روما خلال نصف القرن التالي لهذه المحنة في سلسلة من الحروب أرادت بها أن تجعل من نفسها زعيمة للقبائل اللاتينية. إذ يلوح أن احتراق المدينة الكبرى استنهض همتها بدلاً من أن يخمد نشاطها ويقعدها عن العمل. ومهما يكن مقدار ما لقيت من الآلام – فالظاهر أن معظم جيرانها عانوا من الويلات أكثر مما عانت. ولم تأت سنة ٢٩٠ ق. م. حتى كانت روما سيدة بلاد إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى جنوبي نابولي، فإنها قهرت الإتروريين قهرا تاما، وأخذت حدودها تنتقل شمالاً تبعا لتقهقر حدود الغال، وتمتد جنوبا بارتداد تخوم أصقاع إيطاليا الواقعة تحت السيادة الإغريقية (وهي ماجنا جرايكيا أي بلاد الإغريق العظمى). وبثت الحاميات ومدن المستقرات على امتداد الحدود بينها وبين الغال. ولا شك أن هذا الخط الدفاعي يرجع إليه الفضل في انحراف غارات الغال وجهودهم نحو الشرق إلى بلاد البلقان.

ولن يدهش القارئ حين يعلم – بعد الذي سبق أن قلناه عن تاريخ اليونان وعن دساتير مدنها – أن الإغريق بصقلية وإيطاليا كانوا منقسمين إلى عدد من دول المدن المنفصلة، على رأسها سيراقوزة وتارنتم (وهي تارنتو الحديثة)، وأنهم لم تكن تربطهم قاعدة عامة لتوجيه الجهود أو السياسة. بيد أنهم لما أزعجهم آنذاك امتداد الدولة الرومانية شخصوا بأبصارهم وراء الأدرياتي طلبا للمعونة، ووجدوها في مطامع بيروس (Pyrrhus) ملك إبيروس. وكان موقف هؤلاء الإغريق، سكان الماجنجرايكيا حيال الرومان وبيروس، هو نفس الموقف الذي وقفته بلاد الإغريق الأصلية بين الفرس والمقدونيين قبل ذلك بنصف قرن.

ويذكر القارئ أن إبيروس وهي أدنى جزء في بلاد الإغريق إلى عقب (كعب) إيطاليا، كانت موطن "أوليمبياس" أم الإسكندر. ثم تلت وفاة الإسكندر تقلبات في خريطة بلاد الإغريق سريعة خاطفة لا عداد لها. فكان المقدونيون يغشون إبيروس أحيانًا أو هي تظل مستقلة أحيانًا أخرى. وكان بيروس من ذوي قربى الإسكندر الأكبر كما كان ملكًا ذا مقدرة وإقدام. ويلوح أنه كان يعد أهبته لغزو إيطاليا وصقلية. وكان تحت إمرته جيش جدير بالإعجاب. فكان جنود الرومان القليلو الخبرة نسبيا ضعاف الأثر لا يقدرون على شيء بإزائه في أول الأمر. إذ كان جيشه يحتوي على كل الوسائل والمعدات الحربية المعروفة في زمانه، من فيالق المشاة والفرسان التساليين وعشرين فيلا مقاتلا أحضرت من الشرق. فبدد شمل الرومان في معركة هِرقْليا (٢٨٠ ق. م.)، ثم تعقبهم بشدة وهزمهم مرة ثانية في معركة أوسكولوم (Ausculum ٢٧٩ ق. م.) في نفس بلادهم، ولكنه بدلاً من أن يواصل تعقبهم تهادن وإياهم. ووجه همه نحو إخضاع صقلية، وبذلك اضطر دولة قرطاجة البحرية إلى التحالف ضده: ذلك أن قرطاجة لم تكن تستطيع أن تسمح بتأسيس دولة قوية فوق أرض صقلية – ومن ثم ظهر أمام مصب التيبر أسطول قرطاجة ليشجع الرومان ويحملهم على استئناف القتال. ثم تحالفت روما وقرطاجة تحالفًا وثيقًا ضد الغزاة.

وقضى تدخل قرطاجة على بيروس فانحلت عرى جيشه دون أن يشتبك في معركة فاصلة. واضطر أن يتراجع إلى إيبروس (٢٧٥ ق. م.) بعد أن مني بكارثة في هجوم له على المعسكر الروماني في بنيفنتم (Beneventum).

ويسجل لنا التاريخ أن بيروس عندما غادر صقلية قال إنه يغادرها لكي تصبح ميدانًا للقتال بين روما وقرطاجة. ثم قتل بعد ذلك بثلاث سنوات في معركة بشوارع آرجوس.

ويرجع الفضل في انتصار الرومان على بيروس إلى الأسطول القرطاجي، واجتنت روما نصفًا كاملاً من ثمرة النصر، الذي انتقلت بسببه صقلية بأكملها إلى قرطاجة وتقدمت حدود روما جنوبا حتى أصابع إيطاليا وعقبها. وأخذت روما ترمق ببصرها منافستها الجديدة عبر مضيق مسينا. ولم تمض إحدى عشرة سنة (٢٦٤ ق. م.) حتى تحققت نبوءة بيروس، وابتدأت الحرب الأولى مع قرطاجة، وهي أولى الحروب البونية الثلاثة (وكلمة البونية Punic مشتقة من الكلمة اللاتينية بيونيكوس (Punicus) أي القرطاجية أعني الفينيقية).

٢- نوع جديد من الدولة

على أنا نكتب لفظتي "روما" – و "الرومان" ولا يزال لزاما علينا أن نفسر لك أي خلق من النـاس كـان هؤلاء الذين يلعبون دورا من الفتوح لم يقم به حتى ذلك الحين غير ذوي الاقتدار والنزعات العدوانيـة مـن الملوك.

كانت دولة الرومان في القرن الخامس ق. م. جمهورية من الطراز الآري شديدة الشبه بجمهورية إغريقية أرستقراطية. وأقدم الروايات عن حياة روما الاجتماعية تمثلها لنا على صورة مجتمع آري بدائي جدا. "وفي النصف الثاني من القرن الخامس ق. م. كانت روما لا تزال مجتمعا أرستقراطيا مـن الفلاحـين الأحـرار يشغلون مساحة قدرها أربعمائة ميل مربع، وبها من السكان ما لا يزيد على وجه التأكيد عن مئة وخمسـين ألفًا، يكادون ينتثرون انتشارا تاما في الريف وينقسمون إلى سبعة عشر حيا أو قبيلة ريفيـة. وكانـت معظـم العائلات تمتلك مساحات صغيرة من الأرض وكوخًا صغيرا خاصا بها يعيش فيه الوالد وأولاده ويشـتغلون معا، زارعين القمح في أغلب أمرهم، مع قطعة صغيرة من الكرم أو الزيتون هنا وهناك. وكانـت الماشـية القليلة لعدد لديهم ترعى في الأراضي المشاعة المجاورة – فأما ثيابهم وأدواتهم البسيطة اللازمـة للزراعـة فكانوا يصنعونها بأنفسهم في المنازل. ولم يكن في مستطاعهم الاختلاف إلى المدينة المحصنة إلا في القليـل النادر وعلى فترات متباعدة وفي مناسبات خاصة جدا. وكانت المدينة مركز ديانتهم ومقر حكـومتهم علـى السواء. وبها معابد الآلهة ومنازل الأثرياء وحوانيت الصناع والتجار، حيث يمكن المقايضة علـى كميـات صغيرة من القمح أو الزيت أو النبيذ بالملح والأسلحة الحديدية [1] أو الآلات البدائية الخشنة".

وقد جرى هذا المجتمع على التقاليد المألوفة التي تقسم المجتمعات إلى أرستقراطية وعامة. وكـان يطلـق عليهم في روما اسم البطارقة (Patricians) والبلبز (البلبيان Plebeians). وكان هؤلاء وحدهم المـواطنين فيها. إذ لم يكن نصيب العبد أو الأجنبي في شئون الدولة بأعظم من نصيبه في بلاد الإغريق. بيد أن الدستور كان يخالف أي دستور إغريقي حيث يركز قسطًا كبيرا من السلطة الحاكمة في قبضة هيئة تسـمى السـناتو (مجلس الشيوخ). ولم يكن السناتو هيئة خالصة من الأعضاء الوراثيين ولا هو هيئة تمثيلية منتخبة بطريقـة مباشرة. بل كان هيئة تقوم على "التعيين". واقتصر الترشيح لها في العصر الأول على البطارقـة وحـدهم. وكان هذا المجلس قائما قبل طرد الملوك، وكان الملك عند ذاك هو الذي يعين أعضاء السناتو. ولكـن بعـد طرد الملوك (٥١٠ ق. م.) انتقلت سلطة الحكومة العليا إلى يد حاكمين منتخبين هما القنصلان (Consuls). فتولى هذان أمر تعيين أعضاء السناتو. وفي الأيام الأولى للجمهورية كان حق الانتخاب لوظائف القناصل أو عضوية مجلس الشيوخ مقصورا على البطارقة، أما العامة "البلبيان" فلم يتعد نصيبهم من الحكم حق التصويت لانتخاب القناصل وغيرهم من الموظفين العموميين. ولكن لم تكن لأصواتهم حتى في هذا الأمر نفس القيمـة التي كانت لزملائهم المواطنين البطارقة. بيد أن أصواتهم كان لها على كل حال الوزن الكافي لحمل الكثيرين

([1]) نقلاً عن كتاب "عظمة روما واضمحلالها The Greatness and Decline of Rome " تأليف فريرو.

من المرشحين البطارقة على التودد للعامة وإظهار قدر من الاهتمام بـآلامهم ومظـالمهم تتفـاوت درجـة إخلاصه. هذا إلى أن العامة في العهود الأولى للدولة الرومانية لم يحرموا من تـولي الوظـائف العموميـة فحسب، بل من التزاوج مع طبقة البطارقة. وبدهي أن إدارة شئون الحكم كانت قبل كل شيء شأنًا اختص به البطارقة.

فكأن الطور الأول من أطوار الشئون الرومانية كان والحالة هذه أرستقراطيا لا شك فيه، وكـان تـاريخ روما الداخلي في فترة القرنين ونصف القرن الممتدة بين طرد "تاركوين الصلِف" آخر ملك إتـروري وبـين بداية الحروب البونية الأولى (٢٦٤ ق. م.) فترة صراع على السيادة بين هاتين الطبقتين البطارقة والبلبز أي النبلاء والعامة. كان في الواقع عظيم الشبه بالصراع بين الأرسـتقراطية والديمقراطيـة، فـي دول المـدن الإغريقية. وكما هو الحال في بلاد الإغريق كانت بالمجتمع طبقات بأسرها ما بين أرقـاء وعبيـد معتقـين ورجال أحرار لا أملاك لهم وغرباء ومن إليهم وهم جميعا بمعزل عن الكفاح ودونه في الدرك الأسفل. ولقد لاحظنا من قبل الفارق الجوهري بين الديمقراطية الإغريقية وبين ما يسمى باسم الديمقراطية اليوم في العالم. وثمة كلمة أخرى يساء استعمالها وهي اصطلاح البروليتارية (Proletariat) الروماني الـذي يطلـق فـي مصطلح عصرنا هذا على كل من ليس لهم ممتلكات في دولة حديثة. فإن جماعة البروليتارية كانت تدل فـي روما على قسم من المواطنين ذوي المؤهلات الكاملة ممن لهم الحق في التصويت على شريطة ألا تقل قيمة ممتلكاتهم عن ١٠,٠٠٠ آس نحاسي As (أي ٢٥٧ جنيها).

وكانوا طبقة مقيدة في السجلات تقوم قيمتهم في نظر الدولة على تكوينهم عائلات من المـواطنين (إذ إن معنى كلمة (Proles) هو النسل والذرية). وكان يؤخذ من بين صفوفهم سكان المستعمرات الـذين يـذهبون لتكوين مدن لاتينية جديدة أو جند حاميات المراكز الهامة، على أن طبقة البروليتارية كانت من حيث الأصل منفصلة تمام الانفصال عن الأرقاء أو العتقاء أو ذلك الخليط النازح إلى ما بالمـدن مـن الأحيـاء الفقيـرة المكتظة. ومما يؤسف له كثيرا أن يختلط الأمر على الناس في المناقشات السياسية العصرية فيستعملوا لفظًـا كهذا استعمالاً خاطئًا غير مضبوط وهو لا يعبر عن شيء واقعي صحيح في تصنيف الطبقات في المجتمـع الحديث.

وفي إمكاننا أن نتجاهل في هذه "المعالم" تفاصيل هذا الكفاح بين النبلاء والعامة. فإنه كان كفاحا أظهر مـا للرومان من حصافة غريبة إذ لا يدفعون بالأمور أن تبلغ حد الأزمة المهلكة بل يظلون مستمسكين بأهـداب الأناة والحكمة قابضين تماما على الغلاة المتشددين. ولكم أساء البطارقة استغلال امتيازاتهم السياسية استغلالا دنيئًا ليجمعوا الثروات عن سبيل الفتوح القومية، لا على حساب العدو المنهزم فحسب، بل على حساب العامة الفقراء الذين أهملت مزارعهم والذين وقعوا في ربقة الديون أثناء خدمتهم العسكرية فحـرم هـؤلاء العامـة (البلبيان) من كل نصيب في البلاد التي فتحوها والتي اقتسمها النبلاء فيما بينهم. والراجح أن استحداث النقود وانتشار تداولها زاد في تيسير الأمر على المرابين وفي زيادة الصعوبات على المدينين المقترضين.

واستخدم العامة ثلاثة ألوان من الضغط على النبلاء ظفروا بواسطتها بنصيب أوفى في حكم البلاد وفي الخيرات التي أخذت تنساب إلى روما بتسنمها ذروة المجد والقوة. وأول هذه الضغوط هو (١) الإضراب العام فإنهم ثاروا مرتين حتى خرجوا من روما خروجا تاما مهددين بإقامة مدينة جديدة في أعالي نهر التيبر، وأثبت هذا التهديد مرتين أنه حاسم فعال. وكانت طريقة الضغط الثانية هي (٢) التهديد بإقامة حكم طاغية، كما حدث بالضبط في أتيكا (وهي الولاية الصغيرة التي كانت أثينا عاصمتها) يوم تسلم بيزستراتوس مقاليد السلطان مستندا إلى تأييد الأحياء الفقيرة. فقياسا على هذا لم تكن البلاد لتعدم البتة في معظم عصور تذمر العامة رجلاً ذا طموح مستعدا لتولي الزعامة وانتزاع السلطان من مجلس السناتو. على أن نبلاء الرومان ظلوا زمنًا طويلاً قادرين بفضل ما أوتوا من المهارة على التغلب على أي طاغية محتمل الظهور بتساهلهم مع العامة إلى حد معين. وثالث هذه الأمور: (٣) أنه ظهر بين البطارقة النبلاء من بلغ من سعة العقل وبعد النظر مبلغًا دفعه إلى الإصرار على ضرورة إرضاء العامة (البلبز) ومصالحتهم.

وتمشيا مع هذه الروح أصدر القنصل فاليريوس بوبليكولا (ويتعلق هذا بالأمر الثالث) قانونًا سنة (٥٠٩ ق. م.) يقضي بأنه إذا تعرضت حياة أي مواطن أو حقوقه للخطر وجب أن يقدم استئناف عن الحكم من الموظف العمومي إلى الجمعية العمومية. وكان هذا القانون الفاليري بمثابة (قانون حماية الفرد وضمان حريته Habeas Corpus) [١]. وهو القانون الذي أنقذ العامة الرومان من أسوأ أخطار روح الانتقام بين الطبقات في المحاكم.

وحدث في (٤٩٤ ق. م.) إضراب (ويتعلق هذا بالأمر الأول) لأن عبء الديون أصبح بعد الحرب اللاتينية باهظًا لا يطاق ولأن العامة غضبوا حين شهدوا أصدقاءهم الذين كثيرا ما خدموا الدولة بشجاعة في صفوف فرق الجيش يكبلون في أغلال الديون والفاقة وينزلون إلى دركات العبودية بناء على طلب دائنيهم النبلاء. وكانت الحرب ضد الفولسكانيين (Volscians) محتدمة الوطيس؛ فلما أن خمد أوارها رفض جنود الكتائب الرومانية عند عودتهم مظفرين أن يطيعوا القناصل بعدها أبدا، وساروا في نظام تام إلى "الجبل المقدس"، وراء الأنيو "في أعلى التيبر". وهناك أعدوا العدة لإنشاء مدينة جديدة، ما داموا قد حرموا حقوق المواطنين الأحرار في المدينة القديمة. فاضطر البطارقة إلى الإذعان ولما عاد العامة إلى روما بعد "اعتصامهم الأول" نالوا الحق في أن يكون من بينهم موظفون، فيولون عليهم ترابنة أي نقباء (Tribunes) وأيادلة (Aediles) [٢]

---

(١) يشير المؤلف بهذا إلى قانون حماية الأفراد من الحبس التعسفي (Habeas Corpus Act) الذي صدر في إنجلترة في ١٦٧٩ . (المترجم).

(٢) "موجز تاريخ روما حتى وفاة أغسطس" تأليف ج. ولز (J. Wells) والأيادلة جمع آيديل وهو موظف يشرف على المباني والطرق والموازين والمهرجانات. (المترجم).

وفي (٤٨٦ ق. م.) قام سبوريوس كاسيوس (Spurius Cassius) وهو أحد القناصل بإصدار قانون عقاري يضمن للعامة الحق في أراضي الدولة (ويتعلق هذا بالأمر الثاني)، ولكنه اتهم في السنة التالية بأنه يهدف إلى الملكية، وقضي عليه بالإعدام ولم ينفذ قانونه قط.

ونشب عقب ذلك كفاح طويل قام به العامة لتدوين قوانين روما، حتى لا يضطروا بعد ذلك إلى الاعتماد على ذاكرة النبلاء. وصدر قانون الألواح الاثنا عشر (٤٥١ – ٤٥٠ ق. م.) وهو أساس القانون الروماني كله.

ولكن صوغ الألواح الاثنا عشر استلزم تعيين لجنة من عشرة رجال (The Decemvirate) [1] في مكان الحكام العاديين. ثم عينت لجنة ثانية من عشرة لتخلف الأولى، فحاولت أن تقيم شبه ثورة أرستقراطية رجعية برئاسة أبيوس كلوديوس (Appius Claudius) فانسحب العامة من جديد إلى الجبل المقدس، وانتحر أبيوس كلوديوس بعد ذلك في السجن.

وحلت بالبلاد مجاعة في (٤٤٠ ق. م.) وحاول الناس مرة ثانية أن ينصبوا على البلاد طاغية شعبيا استنادا إلى ما يحيق بالشعب من مظالم، وكان على رأس هذه المحاولة سبوريوس ميليوس (Spurius Maelius) أحد أثرياء العامة ولكن المحاولة انتهت بقتله غيلة.

وبعد أن نهب الغال روما (٣٩٠ ق. م.)، تقدم إلى مكانة الزعامة الشعبية ماركوس مانليوس (Marcus Manlius) الذي كانت بيده إمرة الكابيتول، يوم أن أنقذه صياح الإوز. وكان البلبيان في أشد العسر والعناء لما لقوا من البطارقة بعد الحرب من ربا فاحش واستغلال للنفوذ في جني الأرباح الطائلة، فليس من العامة من لم يقع في ربقة الديون الباهظة التي استدانوها ليبنوا بها قراهم من جديد ويعمروها بالماشية والأغنام. وأنفق مانليوس ثروته في تخليص المدينين من ديونهم. فاتهمه النبلاء بأنه يهدف إلى أن يكون طاغية، وصدر الحكم بإدانته، ولقي من روما نصيب الخونة الآثمين، بأن ألقي من أعلى الصخرة التاربية (Tarpeian) [2] وهي حافة الهاوية في نفس تل الكابيتول الذي دافع عنه.

وفي (٣٧٦ ق. م.) بدأ ليسينيوس (Licinius) أحد ترابنة الشعب العشرة مرحلة كفاح طويل الأمد مع البطارقة بأن قدم مقترحات معينة تسمى القوانين الليسينية (Licinian Rogations)، وهي تقضي بأن يكون هناك حد أقصى لمقدار ما يأخذه مواطن واحد من أراضي الدولة، وبذلك يتبقى لكل امرئ شيء منها؛ وأن ما تبقى من الديون غير المسددة يجب التنازل عنه وعن فائدته متى دفع الأصل؛ وأنه منذ ذلك الحين فصاعدا يجب أن يكون واحد على الأقل من القنصلين من طبقة العامة. فأفضت هذه الطلبات إلى التعجيل بكفاح دام عشر سنوات. واستخدم العامة (البلبيان) حقهم كاملا في تعطيل دولاب الأعمال بتطبيقهم حق النقض أو الفيتو المخول لممثليهم الترابنة. وقد جرت العادة في حالات الأزمات والملمات الحربية، على أن البطارقة أقاموا إذ ذاك

---

(1) كلمة لاتينية مكونة من Decem ومعناها عشرة، و Vir بمعنى رجل.

(2) كان الكابيتول في العصور الأولى يطلق عليه اسم جبل تاربيوس Mons Tarpeius ثم أصبح الاسم في العصور المتأخرة يطلق على جزء من صخرة الكابيتول. (المترجم).

دكتاتورا في وقت كان السلام فيه شاملاً بقصد القضاء التام على ليسينيوس. فعينوا كاميلوس (Camillus) الذي حاصر فياي واستولى عليها من الإتروريين، بيد أن كاميلوس كان رجلاً أوسع من أنصاره بصيرة وأشد حنكـة فحمل الطرفين على قبول "وفاق" منح فيه العامة معظم مطالبهم (٣٦٧ ق. م.). وأقام لتخليد ذكرى هذا الصـلح معبدا يرمز إلى الوفاق (Concord) ثم اعتزل منصبه.

ومن ذلك الحين هدأت حدة النزاع بين الطبقتين. هدأت لأن الفروق الاجتماعية بـين البطارقـة والعامـة أخذت في النقصان، فضلاً عن مؤثرات أخرى كثيرة خففت من حدة الخلاف. وكانت التجارة تـزداد ورودا إلى روما بتزايد نفوذها السياسي، وكان الكثيرون من العامة قد أخذوا يثرون، وأصبح كثير مـن البطارقـة فقراء نسبيا. وغدت المصاهرة بين الطبقتين من الأمور الممكنة وذلك بإدخال شيء من التعديل على القانون. وأخذ الاختلاط الاجتماعي يجري مجراه. وعلى حين شرع العامة الأغنياء يصبحون على الأقل أوليجـركيين في عاداتهم وعواطفهم إن لم يصبحوا أرستقراطيين، أخذت تنشأ في روما طبقات جديدة لها مصـالح جديـدة وليس لها أية منزلة سياسية. وكان عدد الأرقاء الذين أعتقوا – وهم المحـررون – وفيـرا وفـرة خاصـة، معظمهم من الصناع، وإن كان بعضهم من التجار الذين أخذوا يثْرون. ولم يعد مجلس السناتو هيئة مقصورة على البطارقة وحدهم – نظرا لأن مناصب متنوعة غدت عند ذلك مباحة للبلبيان، وأصبح من تقلـدوا هـذه المناصب من العامة أعضاء في السناتو حتى غدا ذلك المجلس آنئذ جمعية تضم كل ذوي الثـراء والاقتـدار والهمة والنفوذ من رجال الدولة. وطفقت الدولة الرومانية تزداد قوة واتساعا وكلما ترامت أطرافها أصـبحت هذه الخصومات القديمة بين طبقات المجتمع اللاتيني الأول شيئًا لا معنى له. فأخذت تحـل محلهـا تكـتلات وارتباطات جديدة وخصومات جديدة. وكان الأغنياء أيا كانت أصولهم يتحزبون وينضمون بعضهم إلى بعض بدافع المصلحة المشتركة التي كانت تجمعهم ضد آراء الفقراء ذات الطابع الاشتراكي.

وفي (٣٩٠ ق. م.) كانت روما مدينة صغيرة بائسة على حدود إيروريا تمتد إليها يد الغال بالنهب، ولكن ما وافت (٢٧٥ ق. م) حتى كانت مسيطرة على كل إيطاليا وقد وحدتها ولمت شملها من نهر الأرنـو إلـى مضيق مسينا. وكان "الوفاق" الذي أبرمه كاميلّوس (٣٦٧ ق. م) قد قضـى علـى الخلافـات والمنازعـات الداخلية، وترك كل قواها طليقة يمكن استخدامها في التوسع، وكان الجمع الغريب بين الحصـافة والأنانيـة العدوانية، الذي امتازت به الحرب بين طبقاتها في الداخل والذي هيأ لسكانها أن يحتفظوا بتوازن القوى دون الوقوع في أي كارثة، هو رائد سياستها في الخارج وعنوانها وميزتها. فإنها أدركت قيمة الحلفـاء وعرفـت كيف تتمثل غيرها. وكانت تستطيع في تلك الأيام على الأقل أن تتبادل المنافع مع الغير وأن "تعطي وتأخـذ" في الداخل والخارج على حد سواء متوخية بعض العدالة وشيئًا من الحكمة وهذا هو سر قوة روما الخاصـة التي بها استطاعت أن تفلح حيث فشلت أثينا فشلاً بينًا.

لقد قاست ديمقراطية الأثينيين كثيرا من جراء ضيق الأفق الذي اتسمت به "روح الوطنية" فيها، والذي طالما جلب الدمار للأمم جميعها. فإن أثينا كانت موضع الكراهية والحسد من إمبراطوريتها لأنها بوصفها مدينة كانت تحكمها بروح ضيق من الأنانية، ولم تكن المدن الخاضعة لها لتشعر بكوارثها وتشاركها فيها. هذا بينما أعضاء السناتو الأكثر حصافة ونبلا إبان سنوات روما العظيمة، قبل أن تنهك الحروب البونية الأولى قوتهـا المعنويـة وتبث فيها الانحلال، لم يقتصروا في بذلهم لآخر سهم في جعبتهم على الرغبة في إبداء الاستعداد عـن طيـب خاطر لإشراك عامة قومهم فيما كانوا يتمتعون به من امتيازات بل كانوا كذلك تواقين إلى ضم أشـد أعـدائهم مراسا إلى صفوفهم على أساس من المساواة التامة المستديمة بين الطرفين. ولقد توسـعوا فـي مـنح الحريـة المدنية، أعني حقوق المواطنية، متوخين الحرص والحذر مع الاطراد والاستمرار. فأصبحت بعض المدن تتمتع بالمواطنية الرومانية بل منحت نصيبا من التصويت في أداة الحكم. ومنح الحكم الذاتي لبعضها الآخر مع منحها حق الاتجار أو الزواج في روما دون أن تحظى بحقوق المواطنية الرومانية كاملـة. وكانـت الحاميـات مـن المواطنين المستكملي الحقوق تنشأ في المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية وتقام المستقرات الصغيرة التي تتمتـع بمختلف الامتيازات بين ظهراني الشعوب المغلوبة. وكانت الحاجة إلى الاحتفاظ بالمواصلات مفتوحة بين هـذه الكتلة العظيمة المتزايدة من المواطنين أمرا ملموسا ظاهرا للعيان منذ البداية. ولم تكن الطباعة ولا الـورق قـد تيسرا بعد لتقريب الناس بعضهم من بعض، على أن شبكة من الطرق الرئيسية ترسمت خُطَى اللسان اللاتينـي والحكم الروماني حيثما حلا. وكان أول هذه الطرق وهو الطريق الأبياني (Appian Way) [١] يمتد من روما حتى يصل إلى نهاية عقب إيطاليا. وقد شرع في إنشائه الرقيب [٢] (Censor) أبيوس كلوديـوس ٣١٢ ق. م. (الذي يجب ألا نخلط بينه وبين عضو مجلس عشرة الرجال أبيوس كلوديوس الذي عاش قبله بقرن).

ويدل الإحصاء الذي تم في (٢٦٥ ق. م.)، على أنه كان يوجد في المناطق التي يحكمها الرومان، أعني في إيطاليا جنوبي الأرنو، ثلاثمائة ألف مواطن حر، تجمعهم جميعا مصلحة مشتركة في خير الدولـة ورفاهيتهـا، وكلهم لم يتأثر إلا قليلاً بسلطان منصب الملك، الذي توزعت اختصاصاته في عهد الجمهورية بين أيد كثيـرة. ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذا كان شيئًا جديدا تمام الجدة في تاريخ الجنس البشري. ذلك أن جميع الدول والممالك والإمبراطوريات الضخمة كانت حتى ذلك الحين مجتمعات تقوم على مجرد الطاعة لبعض الرؤساء أو الملـوك الذين كانت سعادة الشعب ورفاهيته تعتمد على مزاجهم، وطابعهم اعتماد العاجز الذي لا حيلة له. فلم تفلح أيـة جمهورية حتى ذلك الحين أن تتجاوز مرتبة دولة المدينة. ولم يكن ما يسمونه "بالإمبراطورية" الأثينية إلا مجرد دولة مدينة توجه حلفاءها والمدن الخاضعة لها. ولكن الجمهورية الرومانية تسنى لها أن تمد مواطنيتها في بضع عشرات من السنين إلى وادي نهر بو، وأن تتمثل ذوي قرباها من الغال، وأن تستبدل بلغتهم لاتينيتها، وأن تقيم مدينة لاتينية هي آكويليا على ناصية البحر الأدرياتي نفسها. وفي (٨٩ ق. م.) أصـبح كـل سـكان إيطاليـا الأحرار، مواطنين رومانيين. وفي (٢١٢ بعد الميلاد) شملت المواطنية كل رجال الإمبراطورية الأحرار.

---

(١) اسمه عند الرومان "Via Appia" أي طريق آبيا أو الطريق الأبياني. (المترجم)

(٢) الرقيب أو السنسور ج سناسرة: موظف روماني مكلف بجمع الإحصاءات وحماية الأخلاق العامة. (المترجم).

ومن البين أن هذا التطور السياسي الخارق هو البشير المؤذن بظهور كل الـدول الحديثـة ذات الطـراز الغربي. ومن ثم فهو نظام شائق يستحق من عناية دارس السياسة ما يستحقه من الباحث في التطور الحيواني أي كائن برمائي [1] من عصر الرواسب الفحمية أو أي مجنح أقدم (أركيو بتريك)[2] فهو الطـراز البـدائي للنظام السائد اليوم. وعن خبرات روما وتجاريبها ينبعث ضياء ينير معالم التاريخ السياسي في كل العصـور التالية.

وهناك نتيجة طبيعة واحدة لهذا التطور الذي تهيأ لديمقراطيـة قوامهـا مئـات الآلاف مـن المـواطنين المنتشرين في أرجاء الجزء الأكبر من إيطاليا وهي نمو قوة مجلس الشيوخ (السناتو). وقـد ظهـرت أثنـاء تطور الدستور الروماني أضرب كثيرة من أشكال مجلس الأحرار منها مجلس العامة (البلبـز)، والمجلـس القَبلي والمجلس المئوي إلى غير ذلك، وهي أضرب ليس في وسعنا أن نتناولها بأي تفصيل واف. وبحسـبك أن تعلم أن الفكرة المستقرة هي أن مجلس الأحرار كان صاحب الحق في اقتراح القوانين. ويلاحظ أن هـذا النظام كان يحوي ضربا من الحكومة المزدوجة. ذلك أن المجلس القبلي أو المجلس المئوي كان جمعية تضم هيئة المواطنين كافة: النبلاء منهم والعامة معا. ومن البدهي أن مجلس البلبيان كان جمعية مكونة من طبقـة العامة وحدهم. ولكل مجلس موظفوه الخاصون. فالموظفون في الحالة الأولى هم القناصل وغيرهم، وهم في الثانية الترابنة. ويوم كانت روما دويلة صغيرة، ذرعها عشرون ميلاً مربعا، كان في الإمكان أن يلتئم مجلس تتوفر فيه الروح التمثيلية لمجموع الشعب، ولكن من الواضح أن صعوبة وسائل المواصـلات فـي إيطاليـا آنذاك، كانت تجعل من المحال على الغالبية العظمى من السكان حتى أن يحيطوا علما بما يجري في رومـا، فما بالك بأن يساهموا بأي نصيب فعال في الحياة السياسية هناك. وقديما أوضح أرسطو في كتابة "السياسـة" ما عساه أن يلحق الناخبين الذين يعيشون خارج المدينة، والذين تشغلهم شئون الزراعة عمـا سـواها، مـن الحرمان الفعلي من الحقوق المدنية. كما أنه أشار إلى أن هذا النوع من الحرمـان مـن مباشـرة الحقـوق الانتخابية بسبب الصعوبات المادية، كان ينطبق على الغالبية العظمى من المواطنين الرومانيين. ومن ثم دب إلى الحياة السياسية مع نمو رقعة روما ضعف غير منتظر يرجع إلى هذه الأسباب، واستحال مجلس الأحرار شيئًا فشيئًا إلى جمع من المأجورين السياسيين وغوغاء المدينة، وأخذ ينحط شيئًا فشيئًا عن مرتبـة التمثيـل الحق للمواطنين العاديين الجديرين بالاحترام. وقد أصبح مجلس الأحرار أقرب ما يكون إلى القوة والهيبة في القرن الرابع ق. م. ومنذ ذلك التاريخ أخذ نفوذه يذوى ذويا متواصلاً، فأما مجلس السناتو الجديد – الذي لـم يعد بعد ذلك هيئة من البطارقة النبلاء تسودها تقاليد متجانسة ذات طابع متوائم نبيل على وجه العمـوم، بـل غدا هيئة من أغنياء الرجال والحكام السابقين والموظفين الأقوياء والمغامرين الجرآء ومن إليهم، كما أمسـى يسوده ميل قوي إلى العودة إلى فكرة اعتبار المؤهل الوراثي أساسا، - فإنه (أي مجلس السناتو) أصبح طوال ثلاثة قرون السلطة الحاكمة في العالم الروماني.

(1) عن البرمائي والمجنح الأقدم (ذي الأجنحة القديمة) انظر المعالم ج١ ص ٤٤ – ٤٨ ط٣ (المترجم).

(2) المصدر السابق.

وهناك وسيلتان عرفتا منذ ذلك التاريخ في العالم، ربما كان يتأتى لهما تمكين حكومة روما الشعبية من أن تستمر في تطورها إلى أبعد من الذروة التي بلغتها أيام أبيوس كلوديوس الرقيب عند ختام القرن الرابـع ق. م.، بيد أن واحدة منهما لم تخطر للعقل الروماني على بال. وأولى هاتين الوسيلتين هي اسـتخدام الطباعـة استخداما صحيحا. فلقد لاحظنا من قبل في بياننا عن الإسكندرية في عصرها الأول تلك الحقيقة الغريبة وهي أن الكتب المطبوعة لم تظهر في العالم في القرن الرابع أو الثالث ق. م. ويضطرنا هذا الحديث عن الشـئون الرومانية إلى تكرار هذه الملاحظة. ومن الجلي في التفكير الحديث أن الحكومة الشعبية العديـدة الأنصـار تتطلب كشرط ضروري لسلامة بنيانها أن تزود كل المواطنين بقدر ثابت من المعلومـات الصـحيحة فـي الشئون العامة وأن تحرص على دوام اهتمامهم بتلك الشئون. فلم يتيسر قيام الحكومات الشعبية فـي الـدول العصرية التي نشأت على جانبي المحيط الأطلسي في القرنين الأخيرين، إلا بواسطة معالجة الشئون العامـة بالنقد بواسطة الصحافة "وتهوية" الآراء بدرجة متفاوتة من الأمانة والدقة. ولكن الذي حدث بإيطاليا هـو أن الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها الحكومة في روما أن تتصل بأية هيئة من هيئات مواطنيها في مكان آخـر هي إرسالها الرسل، فأما المواطن الفرد فما كانت لتستطيع أن تتصل به بأية حال.

والوسيلة الثانية التي يرجع الفضل الأكبر فيها إلى الإنجليز في تاريخ البشر والتي لم يستخدمها الرومان قط، والتي تكاد تعادل الأولى في وضوحها هي الحكومة التمثيلية أو النيابية. ذلك أنه كان فـي الإمكـان أن يحـل اجتماع من المندوبين محل مجلس الأحرار القديم (في أشكاله الثلاثة). وقد أدرك الإنجليز هذه الضـرورة مـع نمو الدولة فيما تلا ذلك من حقب التاريخ. فإن رجالاً بعينهم هم فرسان المقاطعات كانوا يدعون إلى وستمنسـتر للتكلم وإبداء الرأي تعبيرا عن الشعور المحلي، وكانوا ينتخبون لتلك الغاية انتخابا شكليا إلى حد ما. ويبدو للعقل الحديث أن الوضع الروماني كان ينادي بأعلى صوته مطالبا بمثل هذا التعديل بيد أنه لم يتم قط.

كانت طريقة اجتماع المجلس القبلي (Comitia Trbuta). – أحد الأشكال الثلاثة لمجلس الأحرار – تـتم بواسطة إعلان من مناد قبل تاريخ الاجتماع بسبعة عشر يوما، على أن هذا المنادي لا يمكن أن يصل صوته بطبيعة الحال إلى مسامع معظم سكان إيطاليا. وكان العرافون وهم كهنة التنبؤ بالمستقبل الذين ورثتهم رومـا عن الإتروريين يقومون بفحص أحشاء الذبائح والقرابين في الليلة السابقة للاجتماع، فإن رأوا من الأوفق أن يقولوا إن هاته الدلائل أو النذر الملطخة بالدماء كانت غير موائمة، تفرق المجلس القبلي. فإن قال العرافـون إن الأكباد راضية متعطفة صدر عن الكابيتول وأسوار المدينة نفخ عظيم في الأبواق له دوي عظيم، وواصل المجلس عمله. وكان ينعقد في الهواء الطلق إما في الفوروم [1] (Forum) الصغير أسفل الكابيتول، أو فـي معكف أصغر منه يتفرع من الفوروم أو على أرض التدريب العسكري، وهي ساحة الإله مارس (Campus Martius)، وهي الآن أشد أجزاء روما الحديثة ازدحاما بالسكان، ولكنها كانت عند ذاك أرض براح. وكان المجلس يبدأ عمله عند الفجر بالصلاة. ولم يكن هناك مقاعد، ولعل ذلك كـان ممـا يسـاعد علـى طمأنـة المواطنين إلى ما جرت عليه العادة من انتهاء كل شيء عند الغروب.

---

(1) الفوروم (Forum) هو سوق المدينة في روما، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء وهو ملتقى الاجتماعات العامة، ولما اتسعت المدينة زاد عدد الأسواق بها، وكانت تقوم به المنشئات والأبنية العامة. (المترجم).

وبعد صلاة الافتتاح تدور المناقشة في التدابير التي يتعين على المجلس أن ينظر فيها، وتقرأ المقترحـات المطروحة أمام الاجتماع. أوليس مما يبعث على الدهشة أنه لم تكن توزع هناك نسخ مطبوعة؟ فلو وجـدت نسخ تتداولها الأيدي فهي لا بد مخطوطة ولا بد أن كل نسخة كانت عرضة للأخطاء والتحريف المقصـود. ولا يبدو أنهم كانوا يسمحون بإلقاء الأسئلة، على أنه كان يجوز للأفراد بصفتهم الشخصية أن يخطبـوا فـي الاجتماع بإذن من الموظف الذي يرأسه.

ثم ينتقل الجمع بعد ذلك إلى أماكن مسورة تشبه حظائر الماشية، لكل قبيلة محلها، فتعطي كل قبيلة صوتها فيما طرح على بساط البحث من التدابير. وكان القرار النهائي يؤخذ بغالبية عدد القبائل لا بغالبية أفرادها من المواطنين، وعند ذلك يعلنه المبلّغون.

أما مجلس الأحرار المئوي وهو الكوميتيا، كنتوريياتا Comitia Centuriata فهو شديد الشبه بهـذا فـي خصائصه، اللهم إلا أن المجلس القبلي كان يتألف في القرن الثالث ق. م. من خمس وثلاثين قبيلة، بينما كان قوام المجلس المئوي ٣٧٣ وحدة مئوية (centuria)، كما كانت تقدم عند الافتتاح قرابين علاوة على الصلاة. وكان المئويون، وهم في الأصل من العسكريين (شأن مئويي الحكومة المحلية البدائية الإنجليزية)، قد فقـدوا من زمن بعيد كل اتصال بينهم وبين الرقم مائة. إذ كان بعض الوحدات المئوية لا يضم إلا بضع نفـر مـن الناس، وبعضها يضم العدد الجم. وكان هناك ثماني عشرة وحدة مئوية أعضاؤها من الفـوارس (epuites) ممن كانوا في الأصل رجالاً ذوي مكانة تؤهلهم أن يقتنوا حصانًا وأن يخدموا في فرقة الفرسان، وإن صارت الفروسية الرومانية فيما بعد – شأن الفروسية في إنجلترة – امتيازا مبتذلاً، ليست له أية دلالـة عسـكرية أو عقلية أو خلقية. (وأصبح هؤلاء الفوارس مع اشتغال روما بالتجارة وزيادة ثرائها طبقة هامة جـدا؛ فلبثـوا دهرا وهم الطبقة النشيطة الحقيقية في المجتمع. ولم يبق لديهم من الفروسية إلا بمقدار ما لا يزال لدى فرسان "قائمة الشرف" وكشوف الرتب والنياشين في إنجلترة اليوم. ولقد أقصي أعضاء مجلس الشيوخ عن التجـارة منذ نحو عام ٢٠٠ ق. م.، ومن ثم أصبح هؤلاء الفوارس رجال الأعمال والمال العظـام (Negotiatcres) [١] وكانوا الملتزمين (Publicani) الذين بيدهم جباية الضرائب). وكان هناك بالإضافة إلى هؤلاء ثمـانون وحدة مئوية من الأثرياء (وهم من يملكون ما يربو على مائة ألف آس – وهو في أصله رطل مـن النحـاس ووحدة العملة الرومانية – واثنان وعشرون وحدة مئوية من الرجال يملك كل منهم ما يعادل خمسة وسـبعين ألف آس) وهكذا. وكان هناك وحدتان مئويتان، إحداهما من الميكانيكيين، والثانية من الموسيقيين. وكذلك كان لطبقة "البروليتارية" [٢] وحدة مئوية واحدة. وكان قرار المجلس المئوي (الكوميتيا كنتورياتا) يصدر بغالبيـة الوحدات المئوية.

---

(١) Negotiator كلمة لاتينية معناها تاجر على نطاق واسع أو رجل من رجال المـال يشـتغل بأعمـال المصـارف. أمـا Publicani: فهي لفظة لاتينية معناها ملتزمو الضرائب وهم في الغالب من طبقة الفرسان، اشتهروا بافتنانهم في أسـاليب جباية الضرائب في ولاية آسيا.

(٢) البروليتارية (Proletarii): وهم بروما طبقة في أسفل السلم الاجتماعي والسياسي، وظيفة الواحد منهم أن يخدم الدولـة لا بممتلكاته وثرائه بل بأولاده ونسله ومن هنا جاءت تسميتهم. (المترجم).

أعجيب إذن أن ينتقل السلطان بعد نمو الدولة الرومانية وتعقد أعمالها عائدا من مثل مجلس الأحرار هـذا إلى السناتو الذي كان هيئة متماسكة نسبيا يتراوح عددها بين ثلاثمائة كحد أدنى وبين تسعمائة عضـو كحـد أقصى (وهو العدد الذي رفعه إليه قيصر)، وهم رجال كان لزاما عليهم أن يتصرفوا في شئون الدولة وكبـار الأعمال، ويعرف أحدهم الآخر إلى حد ما، ولديهم في أصول الحكم والسياسة تقاليد متوارثة ينتهجون نهجها؟ وكانت سلطة تعيين أعضاء مجلس السناتو ودعوتهم إلى الاجتماع موكولة في الجمهورية في أول الأمر إلـى القناصل. ولما أن أنشئت بعد ذلك بزمن يسير وظيفة الرقيـب (السنسـور Censor)، ونقـل الكثيـر مـن اختصاصات القناصل إليهم، وكل إليهم كذلك القيام بهذه المهمة. وقام أبيوس كلوديوس وهو من أوائـل مـن شغلوا منصب الرقيب واضطلعوا بهذه المهمة، بتقييد أسماء الأرقاء المعتقين في سجل القبائل، ودعـا أبنـاء الرجال المعتقين إلى عضوية مجلس السناتو. غير أن هذا العمل جاء صدمة أزعجت ذلك المجتمع المحـافظ بغريزته على القديم. فأبى القنصلان أن يعترفا بمجلسه، واستبعد من عقبه من الرقباء (٣٠٤ ق. م.) مرشحيه بطريقته هذه. وكيفما كان الأمر فإن محاولته تساعدنا على تفهم مدى تقدم السناتو عن حاله الأصلية حين كان هيئة صرفة من البطارقة. فأصبح شأن مجلس اللوردات المعاصر جمعا من رجال الأعمال الكبار والسياسيين ذوي النشاط الجم والمغامرين الموفقين وكبار أصحاب الأراضي والأملاك ومن على شاكلتهم. فأما ارتـداؤه ثوب النبل وكرامته وانتحاله سمة البطارقة، فزيف جميل وخداع خلاب. على أنه على عكس مجلس اللوردات البريطاني لم يكن يحد سلطته من الناحية القانونية أي شيء اللهم إلا مجلس الأحرار الذي نعتنـاه مـن قبـل بالعجز والتقصير، وإلا الترابنة الذين كان ينتخبهم مجلس البلبز. على أن رقابة مجلس السناتو القانونية علـى القنصلين ونواب القناصل [1] كانت غير كبيرة. وكانت سلطته التنفيذية ضئيلة لا تذكر على أن قوته ونفـوذه إنما تستمدان من هيبته وخبرته. وطبيعي أن مصالح أعضائه تناقض بالطبع مصالح هيئة المواطنين عامـة. ولكن انقضت أجيال عدة وهذه الكتلة العظيمة من عامة الناس عاجزة عن الترجمة عن عدم رضـائها عـن إجراءات هذه الأوليجركية. ومن ثم فإن الحكومة الشعبية المباشرة لأي دولة أكبر من دولـة المدينـة، كـان مصيرها إذن هو الفشل والخذلان في إيطاليا لأنه لم يتهيأ للناس حتى آنذاك أي تعليم عام ولم تـنهض لهـم صحافة ولا تم لهم أي نظام تمثيلي. باءت هذه الحكومة المباشرة بالفشل لمجرد وجود هذه الصعوبات المادية قبل شبوب الحرب البونية الأولى. ولكن في ظهورها أهمية كبرى، لأنها تمثل بوادر ظهور مجموعـة مـن المشاكل التي لا تزال فطنة العالم السياسية جمعاء تناضل وإياها إلى اليوم محاولة إيجاد حل لها.

كان السناتو يجتمع عادة في دار أعدت له بالفوروم، غير أنه كان يدعى للاجتماع في الظروف الخاصـة في هذا المعبد أو ذاك، فإذا ما كان داعي الاجتماع هو الاتصال بالسفراء الأجانب والنظر في شـئون قـواده (الذين كان محرما عليهم دخول المدينة وهم على إمرة جنودهم)، كان مكان اجتماعه هو ساحة الإله مـارس (Campus Martius) خارج أسوار المدينة.

---

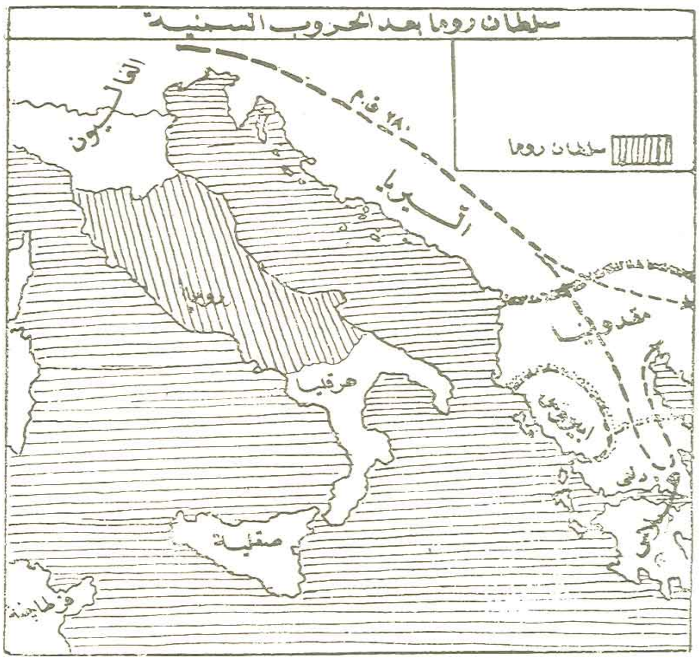
[1] نائب القنصل (Proconsul) هو قنصل سابق كان يعين حاكما على إحدى الولايات الرومانية بعد توليه وظيفـة القنصـلية سنة أو أكثر في روما. (المترجم)

٣- جمهورية الأغنياء القرطاجية

كان من الضروري أن نسهب شيئًا ما في موضوع التكوين السياسي للجمهورية الرومانية بسبب استمرار أهميتها الهائلة إلى يومنا هذا. وليس دستور قرطاجة بحاجة إلى أن نطيل إليه الوقوف.

كانت إيطاليا وهي تحت سيطرة روما قطرا جمهوريا. وكانت قرطاجة تسير على غـرار ذلـك النظـام العريق في القدم وأعني به المدينة الجمهورية. وكانت لها "إمبراطورية" مثلما كانت لأثينا "إمبراطورية" مـن الدول التابعة التي لم تكن تضمر لها أية مودة. وكان بها جمهرة ضخمة من الرقيق الصناع ممن لا يخلصون لها سليقة وطبعا.

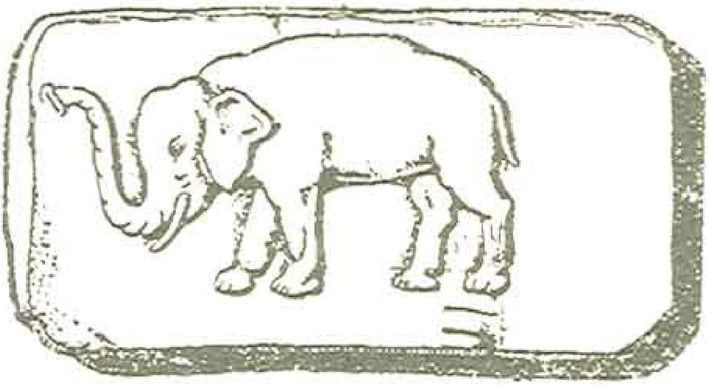
وكان للمدينة ملكان يتوليان الحكم بالانتخاب يسميهما أرسطو بالسوفيتين (Suffetes) كانا فـي الحقيقـة يعادلان الرقباء (السناسرة) عند الرومان. وكان لقبهما باللغة السامية هو نفس اللقب الذي يطلق على القضـاة اليهود. وثمة جمعية عمومية لا حول لها، ومجلس سناتو يضم الشخصيات من الزعماء البـارزين، بيـد أن لجنتين من هذا السناتو، وهما منتخبتان انتخابا اسميا – ولكن بوسائل تسهل الهيمنة عليها والتأثير وهما لجنة المائة والأربعة ولجنة الثلاثين، كانتا تُكَونان في الحقيقة أوليجركية ضيقة وثيقة البنيان مكونـة مـن أغنـى الرجال وأوسعهم نفوذًا. وكانوا لا يبلغون الأخبار إلى حلفائهم وزملائهم في المواطنة إلا في أضيق الحـدود، ولا يستشيرونهم إلا في أقل حد مستطاع. وكانوا يتبعون أساليب وخططًا تخضع فيهـا مصـلحة قرطاجـة ورفاهيتها بلا ريب لمصلحة طائفتهم هم. كانوا يناصبون العداء كل رجل ناهض جديد وكل إجراء مستحدث، كما كانوا على يقين أن السيادة البحرية التي استدامت لبلادهم قرنين من الزمان لا بد أن تكون جـزءا مـن طبيعة الأشياء.



(١٠١) اتساع رقعة روما بعد الحروب السمنية

٤- الحرب البونية (الفينيقية) الأولى

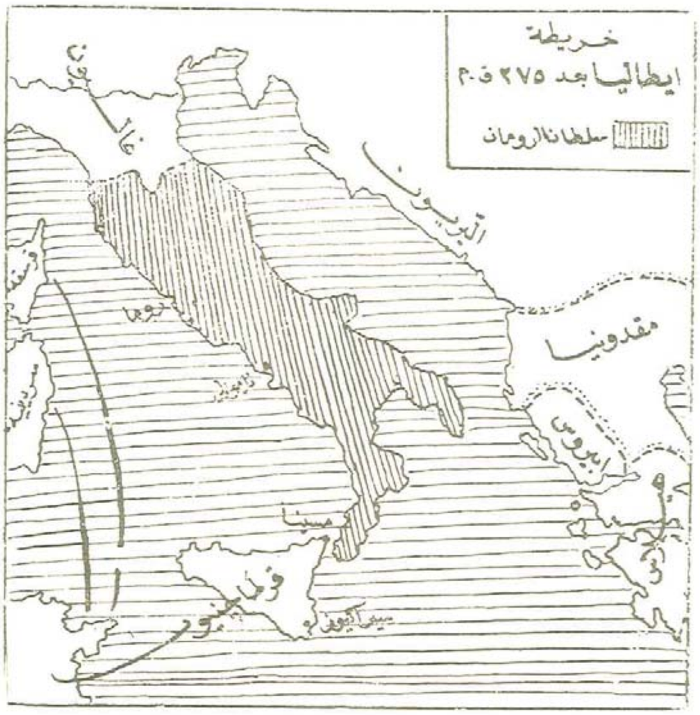
في اعتقادنا أن من الشائق – وليس من العبث وإضاعة الوقت في شيء – أن نتأمل ما كان يحصل للجنس البشري لو أن روما وقرطاجة استطاعتا تسوية ما بينهما من خلافات وتمكنتا من أن تقيما حلفًا دائما في العالم الغربي. فلو قد طال الأجل بالإسكندر الأكبر، فلعله كان يسير غربا ويكره هاتين القوتين (: الدولتين) علـى سلوك هذا السبيل الذي يدمج بين المصلحتين. على أن هذا الأمر ما كـان ليتفـق والخطـط الخصوصـية للأوليجركية القرطاجية ولا أبهتها وبذخها؛ كذلك كان سناتو روما العظمى بوضعه الجديد قد أخذ يغدو مغرما بتذوق طعم غنائم النهب، ويرمق بعين الحسد الممتلكات القرطاجية في صقلية وراء مضـيق مسـينا. فكـان أعضاؤه يتطلعون إليها جشعا ولكنهم يخشون قوة قرطاجة البحرية. وكانت "وطنية" عامة الشعب الرومـاني مع ذلك تتأجج غيرة وخوفًا من أولئك القرطاجيين، على أنها كانت أقل من السناتو ميلا أن تقيم لنفقات القتال وزنًا. دامت المخالفة التي قضى بإبرامها بين روما وقرطاجة ظهور بيروس إحدى عشرة سـنة. علـى أن روما كانت على تمام الأهبة لما يسمى في لغة السياسة العصرية وأسلوبها العقيم باسم الحـرب "الهجوميـة الدفاعية". ثم سنحت الفرصة في ٢٦٤ ق. م.



١٠٢ – عملة رومانية لذكرى الانتصار على بيروس

وفي ذلك الوقت لم تكن صقلية كلها في قبضة قرطاجة. إذ كان طرفها الشرقي لا يزال تحت حكم هيرون ملك سيراقوزة الإغريقي، وهو خلف لذلك الملك ديونيسيوس (Dionysius) الـذي ذهـب إليـه أفلاطـون كفيلسوف لبلاطه. وقد استولت في (٢٩٨ ق. م.) على مسينا جماعة من الجند المرتزقة كـانوا فـي خدمـة سيراقوزة، ثم أخذوا يغيرون على تجار سيراقوزة حتى اضطر هيرون آخر الأمر أن يتخذ التدابير للقضـاء عليهم (٢٧٠ ق. م.). وعند ذلك هبت لمساعدته قرطاجة التي كانت تهتم اهتمامـا حيويـا بالقضـاء علـى القرصنة، ووضعت في مسينا حامية قرطاجية. وكان هذا ولا شك إجراء له كل مبرراتـه. فـإن قرطاجـة أصبحت بعد تدمير مدينة صور، هي الحارس المقتدر الوحيد لقانون البحار في مياه البحر المتوسط. كمـا أن القضاء على القرصنة كان واجبها بحكم العادة كما هو التزام أملته عليها التقاليد المتوارثة.

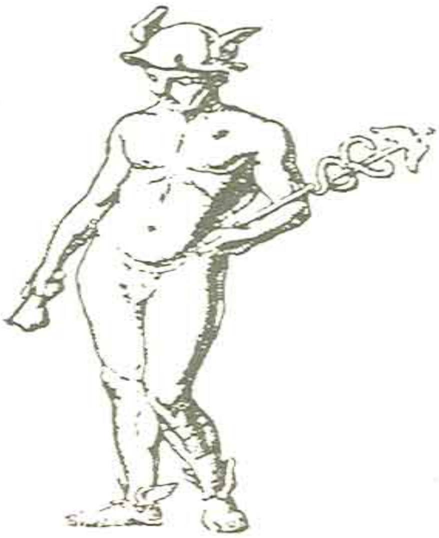
وهرع قراصنة مسينا يلتمسون المعونة من روما، وهنا تحركت الخشية والغيرة التي طالما أفعمت قلـوب الشعب الروماني نحو قرطاجة فدفعته إلى أن يقرر مساعدة المستجيرين. ومن ثم أرسلت حملة عسكرية إلـى مسينا بإمرة القنصل أبيوس كلوديوس (وهو ثالث أبيوس كلوديوس، اضطررنا إلى ذكره في هذا الكتاب).



(١٠٣) خريطة إيطاليا بعد ٢٧٥ ق. م.

وبذلك ابتدأت الحلقة الأولى في سلسلة من أشد الحروب جموحا وتدميرا وأحفلها بالكوارث وأحلكهـا فـي تاريخ البشر صحيفة. وها نحن نظهرك على الطريقة التي كان يكتب بها أحد المؤرخين معبـرا عمـا يمـلأ جوانب نفسه من غريب الأفكار الشائعة في عصرنا هذا، إذ قال مترجما عن سروره بحملة الشر هذه: "كـان الرومان يعرفون أنهم مقدمون على الحرب مع قرطاجة، بيد أن غرائز القوم السياسية كانت صـائبة، إذ إن وجود حامية قرطاجية على المضيق الصقلي، كان مصدر تهديد خطر على السلام في إيطاليا". لذا وقوا سلام إيطاليا من هذا "التهديد" بحرب دامت ربع قرن تقريبا؛ فحطموا في أثناء ذلك "خُلقهم" السياسي الذي لم يتكامل لهم تكوينه إلا بعد دهور وأجيال.

استولى الرومان على مسينا، وتخلى هيرون عن القرطاجيين وانضم إلى الرومان. ثم تركز القتال زمانًـا حول مدينة أجريجنتوم (Agrigentum). فحاصرها الرومان، وأعقب ذلك مدة من حرب الخنادق. وقاسـى الطرفان أعظم الآلام من الطاعون ومن عدم انتظام المدد، وخسر الرومان ثلاثـين ألـف رجـل. علـى أن القرطاجيين أخلوا مراكزهم آخر الأمر (٢٦٢ ق. م.) وانسحبوا إلى مدنهم الحصينة الواقعـة علـى شـاطئ الجزيرة الغربي، وأهمها مدينة ليليبايوم (Lilybaeum). إذ إنهم كانوا يستطيعون أن يمدوا هذه بالمدد مـن أرض القارة الأفريقية في يسر وسهولة، ويكون من اليسير عليهم ما بقيت لهم سيادتهم البحرية، أن يسـتنفدوا كل جهد يبذله الرومان ضدهم.



١٠٤ – عطارد

وعند ذاك دخلت الحرب في طور جديد لا عهد للناس بمثله. فإن الرومان خرجوا إلى البحر ثم هزموا الأسطول القرطاجي، فأدهشوا بذلك القرطاجيين وأنفسهم على السواء. وقد تطور فن بناء السفن وتقدم تقدما عظيما منذ أيام سالاميس. فكان طراز سفينة الحرب الغالب هو المثلاثة (trireme) أي السفينة ذات الصفوف الثلاثة من المجدفين؛ فأما السفينة الحربية الرئيسية القرطاجية فكانت المخماسة (Quinquereme)، وهي سفينة أكبر بكثير لها خمس مجاميع من المجاديف تستطيع أن تصك أو تقطم مجاديف أية سفينة أضعف منها. ولقد دخل الرومان الحرب وليس لديهم من أمثال هذه السفن شيء. فأخذوا يجدون في إنشاء ربات الخمسة صفوف أي المخماسات، وأعانهم على ذلك كما يقال أن البحر قذف إحدى هذه السفن القرطاجية إلى شاطئهم. ولم ينقض شهران حتى صار لديهم مائة من تلك المخماسات وثلاثون من المثلاثات. بيد أنهم لم يكن لديهم الملاحون المهرة المدربون ولا المجدفون الخبيرون، فعالجوا هذا النقص علاجا جزئيا بالاستعانة بحلفائهم الإغريق، وعالجوه من ناحية أخرى باختراع أضرب جديدة من "التكتيكات". فبدلاً من الاعتماد على الصك أو على قطم مجاديف الخصم، وهو أمر يتطلب براعة في الملاحة فوق ما لديهم، رأوا أن ينزلوا على سفن الأعداء، وابتنوا على سفنهم ضربا من الكباري الطويلة القابلة للرفع، تشدها بكرة إلى سارية، وبنهايتها خطاطيف وخوازيق تمسك بسفن الأعداء وتتشبث بها. وكذلك حملوا سفنهم بالجنود. حتى إذا صكت سفن القرطاجيين سفنهم أو احتكت بجوانبها أنزل هذا الكوبري (Corvus) ثم تقدم عليه من على ظهر السفينة من الجنود حاشدين.

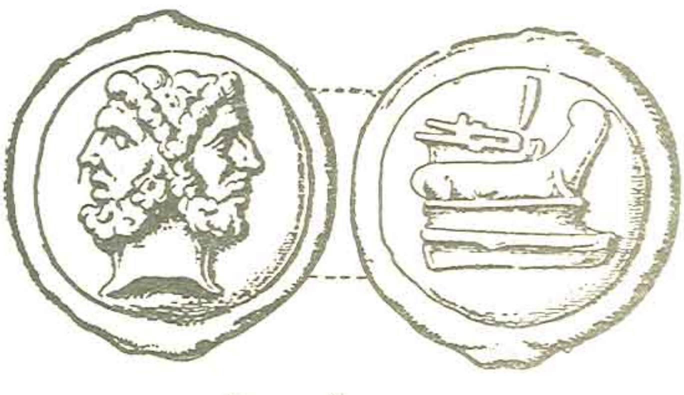
ومع أن هذه الوسيلة كانت بسيطة كما ترى، فإنها أوتيت نجاحا تاما فغيرت مجرى الحرب ومصير العالم. وواضح أنه لم يكن في طاقة عقول الحكام القرطاجيين ابتكار وسيلة بسيطة لإحباط أثر هذا الكوبري. وفاز الرومان في معركة ميلاي (Myale) (٢٦٠٩ ق. م.) بأول نصر بحري لهم واستولوا على خمسين سفينة أو دمروها. وفي معركة إكنوموس الكبرى (Ecnomus) (٢٥٦ ق. م.) – "وهي فيما يرجح أعظم موقعة

بحرية نشبت في العالم القديم " [1]، وفيها التحمت سبعمائة أو ثمانمائة من السفن الكبيرة، أظهر القرطـاجيون أنهم لم يتعلموا شيئًا من كارثتهم السابقة. أجل إنهم جريا على قديم عادتهم بزوا الرومان في المداورات، فحق لهم لذلك أن يهزموهم، بيد أن الكوبري عاد مرة ثانية فهزمهم. وأغرق الرومان ثلاثين سفينة واستولوا علـى أربع وستين.

ثم واصل الطرفان بعد ذلك الحرب وأخذت كفتا الحظ تتأرجحان عنيفًا، ولكن لم ين الرومان عن إظهار ما هم عليه من تفوق في الهمة والتماسك والمبادأة وروح الابتكار. وبعد "إكنوموس" غزا الرومان أفريقيا بحرا، وأرسلوا جيشًا ناقص العون والعدة هزم هزيمة تامة بعد أن أحرز كثيرا من الانتصارات، وبعد استيلائه على تونس (وهي على بعد عشرة أميال من قرطاجة). ثم ما لبثوا أن خسروا سيادتهم البحرية في إحدى العواصف ثم اسـتعادوها بتشييد عمارة بحرية أخرى من مائتين وعشرين سفينة في مدى ثلاثة شهور. واستولوا على بالرمو وهزموا هناك جيشًا قرطاجيا عظيما (٢٥١ ق. م.) مستولين على مائة وأربعة من الأفيال، وعادوا إلى روما بموكب نصر هائل لم تره تلك المدينة من قبل. ثم ضربوا على مدينة ليلبيايوم حصارا باء بالفشل، وهي المعقل الرئيسي الباقي فـي أيدي القرطاجيين بصقلية. ثم فقدوا أسطولهم الثاني في معركة بحرية عظيمة في دريبانوم (Drepanum) (٢٤٩ ق. م.)، إذ خسروا مائة وثمانين سفينة من مائتين وعشرة. وفقدوا أسطولاً ثالثًا عدته مائة وعشرون سفينة حربية وثمانمائة ناقلة جنود في نفس السنة، ضاع بعضه في الحرب والبعض الآخر في إحدى العواصف.

ثم انقضت سنوات سبع واصل فيها الطرفان – وقد كادت قواهما أن تنهك – حربا فاترة، قوامها الغارات الكليلة والحصار الواهي، كان للقرطاجيين فيها اليد العليا في البحر. ثم قامت روما بمجهود أخيـر متفـوق، فأنزلت إلى البحر أسطولاً رابعا عدته مائتا سفينة. وسحقت آخر ما لدى القرطاجيين من قـوة فـي معركـة الجزر الأيجاتية (٢٤١ ق. م). هنالك طلبت قرطاجة الصلح (٢٤٠ ق. م).

وبمقتضى شروط هذا الصلح، أصبحت صقلية كلها فيما عدا ممتلكات هيرون السـيراقوزي "ضـيعة" مـن أملاك الشعب الروماني. ولم يمارس الرومان في تلك الجزيرة عملية التمثل التي مارسوها فـي إيطاليـا؛ بـل صارت صقلية ولاية مقهورة، تدفع الجزية وتدر عليهم الأرباح، شأن مستعمرات الإمبراطوريات الأقدم عهـدا. وفضلاً عن ذلك، ألزمت قرطاجة بدفع تعويضات حرب قيمتها ٣٢٠٠ تالنتوم، أي ما يعادل (٧٨٨ ألف جنيه).



١٠٥ ــ آس رومانى

---

(1) Wells: "Short History of Rome to he Death of Augustns"

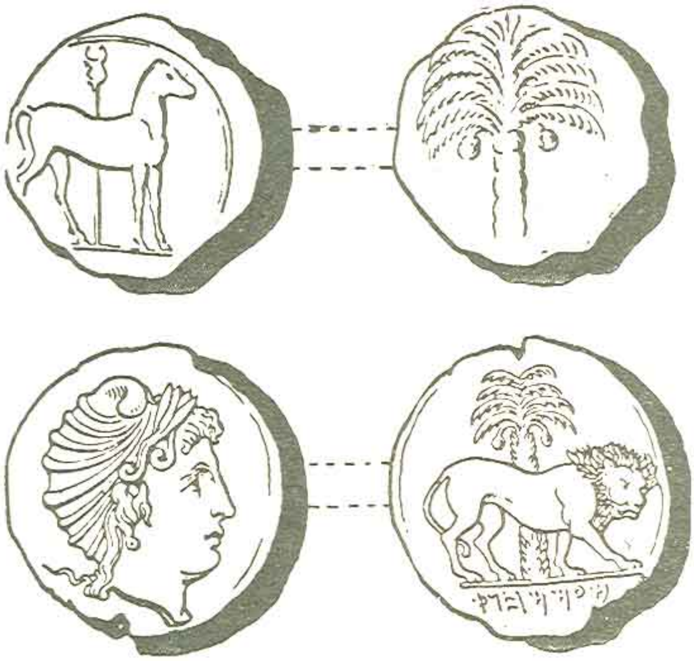
٥- كاتو الأكبر وروح كاتو

دام السلام بين روما وقرطاجة اثنتين وعشرين سنة. وكان سلاما لا رخاء فيه ولا رغد. قاسى فيه كلا المتحاربين آلام العوز وانحلال النظام التي تتلو بالضرورة والطبيعة كل الحروب العظيمة. وكانت أراضي قرطاجة تضطرم بالفوضى العنيفة. فإن الجنود العائدين لم يستطيعوا الحصول على أعطياتهم، فتمردوا وأخذوا ينهبون ويسلبون. وتركت الأراضي بورا لا تجد من يزرعها. وإنا لنقرأ في سجل التاريخ صفحات رهيبة من القساوات المروعة التي حدثت إبان إخماد هاملكار (Hamilcar) القائد القرطاجي لهذا الشغب؛ فنسمع برجال يعدمون صلبا بالألف دفعة واحدة. وثارت سردينيا وقورسيقا. ولم يكد "سلام إيطاليا" أن يكون أسعد من هذا حالاً. فقد ثار الغال وتقدموا جنوبا؛ ولكنهم هزموا وقتل منهم أربعون ألفًا عند تيلامون (Telamon). وغني عن البيان أن إيطاليا لا تتم وتكتمل وحدتها حتى تصل إلى جبال الألب. ولذا أنشئت المستعمرات الرومانية في وادي نهر البو، وبدئ في إنشاء الشريان الكبير المتجه شمالاً وهو الطريق الفلاميني (Via Flaminia). ولكن مما يدل على مبلغ ما وصل إليه الرومان من انحطاط خلقي وعقلي في هذه الفترة التي أعقبت الحرب أنه بينما كان الغال يهددون روما تقدم البعض باقتراح تقديم القرابين البشرية، ونفذ ذلك فعلاً ثم إن القانون البحري القرطاجي القديم انهار، نعم ربما بدا قانونًا ينطوي على الأنانية والاحتكار، بيد أنه كان على الأقل مصدرا للنظام. فزخر البحر الأدرياتي بالقراصنة الإلليريين، وكانت نتيجة تلك الحال نشوب نزاع بسبب هذه القرصنة أفضى إلى نشوب حربين تمخضتا عن إلحاق الليريا بروما كولاية ثانية. ومهد الرومان السبيل للحرب البونية الثانية بإرسالهم الحملات لضم سردينيا وقورسيقا، وهما ولايتان قرطاجيتان اندلعت فيهما نار الثورة.

كانت الحرب البونية الأولى قد كشفت عما لدى كل من روما وقرطاجة من قوى نسبية وعجمت عوديهما. فلو أوتي الطرفان من الحكمة حظًا أوفر قليلاً، ولو طبع الرومان على مقدار من التسامح وعلو النفس أكثر قليلاً، لما دعت حاجة إلى تجديد النضال. بيد أن روما كانت قاهرا لا يرحم. فاستولت على قورسيقا وسردينيا بغير وجه حق. وزادت التعويض بمقدار ١٢٠٠ تالنتوم وجعلت من نهر الإبرو حدا أقصى للتوغل القرطاجي في إسبانيا. وكان في قرطاجة حزب قوي يتزعمه هانو، يدعو إلى استرضاء روما. على أن من البدهي أن الكثير من القرطاجيين أصبحوا ينظرون إلى خصمهم الطبيعي نظرة الحاقد اليائس.

والحقد أحد الشهوات التي قد تتسلط على حياة فرد من الأفراد، وإن هناك لطرازا من الأمزجة أشد ما يكون تعرضا له. وهذا المزاج على أتم استعداد للنظر إلى الحياة نظرة تقوم على الميلودراما الانتقامية العنيفة، كما أنه على أتم أهبة لالتماس الدافع المثير وشفاء الغليل في صورة المظاهر الرهيبة للعدالة وروح الانتقام. وما برحت مخاوف المجثم والكهف تثمر في حياتنا حتى اليوم زاهراتها السود، فلسنا بعد على مبعدة من العصر الحجري القديم إلا بمقدار أربعمائة جيل. والحروب العظيمة – كما تعلم أوربا بأجمعها – تفسح المجال لهذه الروح "الحقود الشريرة" وتلهب أوارها إلى أقصى حد. وفي ذلك الحين أخذ الشره والكبرياء

والقساوة التي أطلقت لها الحرب البونية الأولى العنان، تنتج ثمارا وفيرة من روح كراهية الأجنبي في إفراط بلغ حد الجنون، وكان أبرز الشخصيات في الجانب القرطاجي قائدا عظيما وإداريا بارعا، هو هاملكار بارقا، الذي نصب نفسه آنذاك للكيد لروما وتمزيقها إربا. كان حما لهاسدروبال، وأبا لغلام هو هانيبال، وهو الـذي قدر له أن يكون أخطر الأعداء الذين أرعبوا مجلس السناتو الروماني أبد الدهر. وكان أوضح طريـق أمـام قرطاجة هو إعادة بناء أسطولها وإدارتها البحرية واستعادة قوتها في البحر. على أن هاملكار لم يستطع تنفيذ ذلك فيما يبدو. فاعتزم أن يستعيض عنه بتنظيم إسبانيا، وجعلها قاعدة لهجوم بري على إيطاليا. فذهب إلـى إسبانيا واليا (٢٣٦ ق. م.). ويقص هانيبال بعد ذلك أن أباه جعله – وهو إذ ذاك غلام في الحادية عشـرة – يقسم أغلاظ الأيمان على العداء الأبدي للدولة الرومانية.



١٠٦ ــ عملة قرطاجية

وإن تركيز أسرة بارقا لمواهبها ولأرواحها وتوفرها على الانتقام على مثل هذا النحو شبه الجنوني إن هو إلا مثال واحد لما كان يقض مضاجع الناس من مرارة العيش وتضييق على الحياة، بثهما في أفئدتهم ويـلات ذلك الكفاح العظيم والشعور العام بعدم الطمأنينة. فإن ربع قرن من الحرب خلّف العالم الغربي برمته تعسـا متسما بالخشونة. وبينما هانيبال الغلام ذو الأحد عشر عاما يقسم يمينه تلك بالكره المقيم لروما، كان يـدرج حول بيت ريفي في توسكولوم [1] طفل في الثانية من عمره صغير السن، إلا أنه بغيض كريه فيما يحتمـل، اسمه ماركوس بوركيوس كاتو. عاش هذا الغلام حتى بلغ الخامسة والثمانين، ولعل أعظم العواطف سـلطانًا عليه، بغضه لكل سعادة يصيبها أي إنسان إلا شخصه هو. كان جنديا ماهرا، كما كـان موفقًـا فـي حياتـه السياسية أيما توفيق. وعقد له لواء القيادة في إسبانيا، فذاع صيته بما أظهره من ضروب القساوات. واتخـذ

(١) مدينة بإيطاليا.

لنفسه موقف المتظاهر بحماية الديانة والأخلاق العامة. ثم قضى بقية أيام حياته يشن – وهو مستتر تحت ثيابه الزاهية تلك – حربا عوانًا على كل شيء يرى فيه الفتوة أو السماحة أو الجمال. وكلما استثار غيرته أحد من خصومه تعرض لسخطه واستنكاره في سلوكه نحوه. وكان جم النشاط في سن وتنفيذ جميع القوانين المكافحة لأزياء السيدات والمضادة لزينتهن، والمناهضة للملاهي والمناقشات الحرة. ومن حسن حظه أنه تولى منصب الرقيب (السنسور)، وهو أمر أتاح له سلطة عظيمة على الحياة الخاصة للرجال العموميين. وبهذه الوسيلة تمكن من القضاء على خصومه في الحياة العامة عن طريق التشهير بفضائحهم الخاصة. فطرد مانليوس من مجلس السناتو لأنه قبل امرأته نهارا بمرأى من ابنتهما. واضطهد الأدب الإغريقي الذي ظل على جهل مطبق به حتى بلغ سنًا متأخرة. ثم قرأ ديموستنيز وأعجب به. وألف باللاتينية عن الزراعة وعن "القديم الضائع من فضائل روما". وتلقي كتاباته ضياء كاشفًا يظهرك على صفاته. ومن أمثاله المأثورة قوله: إذا لم يكن العبد نائما وجب أن يكون قائما يعمل. وثمة مثلٌ آخر هو: إن الثيران والعبدان المسنة يجب أن تباع. وقد ترك وراءه يوم عاد إلى إيطاليا جواد الحرب الذي حمله إلى النصر في حملاته الإسبانية توفيرا لنفقة نقله. وكان يكره وجود الحدائق عند غيره من الناس، لذا قطع عن الناس مدد الماء الذي كان يروي الحدائق بروما. وإنه ليخرج بعد الانتهاء من تناول العشاء والاحتفاء بمدعويه وبيده سوط من الجلد ليصلح ما عساه أن يكتشفه في خدمه من إهمال. وكان يعجب بفضائله الذاتية أيما إعجاب ويشيد بها في كتاباته. ودارت معركة في ثرموبيلاي بين الرومان وبين أنطيوخوس الأكبر، وكتب عنها يقول متحدثًا عن نفسه: "إن من رأوه يهاجم العدو ويطارده ويقتفي أثره، أعلنوا أن دين كاتو لأهل روما أقل من دين أهل روما لكاتو" [1]. ثم إن كاتو أصبح، وقد طعن في السن، داعرا خليعا، ند عن قويم الأخلاق مع امرأة من الإماء. وفي النهاية لما أن احتج ابنه على هذه الفوضى في دارهما المشتركة، بلغ به الأمر أن تزوج من فتاة صغيرة، هي ابنة سكرتيره، الذي لم يكن في مركز يسمح له أن يرفض طلبه. (ولسنا ندري شيئًا عما آل إليه أمر تلك الأمة؛ ولعله باعها). ومات هذا الرجل الذي جمع في شخصه صفوة الفضائل الرومانية القديمة بأكملها في سن متقدمة، والناس يحترمونه ويخشونه. ويكاد يكون آخر أعماله العامة تحريضه على إشعال الحرب البونية الثالثة وعلى تدمير قرطاجة نهائيا. ذلك أنه ذهب يوما إلى قرطاجة مندوبا ليسوي بعض الخلاف بينها وبين نوميديا، فهاله بل أرعبه ما في ذلك القطر من بعض دلالات الرخاء بل وأمارات السعادة.

ومنذ تلك الزيارة أصبح كاتو يختم كل خطاب يلقيه في مجلس السناتو بأن ينعق قائلاً "يجب أن تدمر قرطاجة – Delenda est Carthago.

على هذه الحال كان طراز الرجل الذي ارتقى إلى ذروة الرفعة في روما أثناء الحروب البونية، وعلى تلك الشاكلة كان خصم هانيبال، وعلى هذا المنوال كان استعداد قرطاجة للانتقام. وبواسطة كاتو وهانيبال نستطيع أن نحكم على طبيعة ذلك العصر وندرك كنهه وروحه.

---

(1) "حياة كاتو" لبلوتارك.



١٠٧ — كاتو

كانت الدولتان الغربيتان العظيمتان مجهدتين مكدودتين عقليا وخلقيا لما لحقهما من أهوال الحرب الأولى، ولعـل روما أشدهما إجهادا وتوترا. لقد كان جانب الشر هو الأعلى في معترك الحياة. ومن الجلـي أن تـاريخ الحـربين البونيتين الثانية والثالثة (من ٢١٨ إلى ٢٠١ ق. م، ثم من ١٤٩ إلى ١٤٦ ق. م) تاريخ شعوب ليست مستكملة تماما لتوازنها العقلي. ومن سخف القول أن يتحدث المؤرخون عن "الغرائز السياسية" لدى الرومان أو القرطاجيين.

فإن غرائز أخرى مضادة لهذه على خط مستقيم هي التي أطلق لها العنان. إذ غلب الحقد علـى العقـل، واحمرت الحدق كأنما عادت إلى هذا العالم عينا السلف القرد الحمراوان. ذلك زمان كـان خصـوم عقـلاء الرجال يهاجمونهم بالعواء سبا وتشهيرا أو يقتلونهم قتلاً. ولا أدل على الروح الحقة لذلك العصر المظلم مـن تلهف القوم فاحصين عن النذُر في تلك الأكباد الإنسانية التي أخرجوها من الضحايا البشرية حارة مختلجـة، وهي الضحايا التي ذبحوها في روما قربانًا يوم شملهم الرعب قبيل معركة تيلامون. فالعـالم الغربـي كـان مسود الصحيفة بتلك الرغبة الجنونية في القتل. فقد اختصم شعبان عظيمان، كلاهما شديد اللزوم لتطور العالم وتقدمه، ونجحت روما آخر الأمر في إهلاك قرطاجة والقضاء عليها.

٦- الحرب البونية الثانية

لسنا بمستطيعين في هذا المقام إلا أن نوجز القول في تفاصيل الحربين البونيتين الثانيـة والثالثـة. ولقـد أخبرناك منذ هنيهة كيف شرع هاملكار في تنظيم إسبانيا وكيف حظر عليه الرومان أن يتخطى نهر الإبـرو. ومات هاملكار (٢٢٨ ق. م) وعقبه زوج ابنته هاسدروبال، الذي اغتيل (٢٢١ ق. م)، وخلفه هانيبال، وكان إذ ذاك في السادسة والعشرين. وقد عجل الرومان شبوب الحرب الفعلية بنقضهم الشروط التـي وضـعوها بأنفسهم وبتدخلهم في شئون جنوبي نهر الإبرو. ومن ثم سار هانيبال قدما مخترقًا جنوب بـلاد الغـال (أي فرنسا)، ثم عبر جبال الألب (٢١٨ ق. م.) وهبط إيطاليا.

والسنوات الخمس عشرة التالية تحوي قصة أشد الغزوات في التاريخ شهرة وأقلها طـائلاً. فقـد اسـتمر هانيبال صامدا في إيطاليا خمسة عشر عاما وهو منصور لم يغلب. ولم يكن القـواد الرومـان كُفْـوا لـذلك القرطاجي، فكلما التقوا به حلت بهم الهزيمة. على أن قائدا رومانيا واحدا هو ب. كورنيليوس سـكيبيو (P. Cornelius Scipio) أوتي من الإدراك الاستراتيجي ما جعله يختط لنفسه خطة فوتت على خصمه كل ثمار انتصاراته. فإنه كان عند ابتداء شبوب الحرب قد أرسل بحرا إلى مرسيليا ليصـد هانيبـال ويقطـع عليـه الطريق؛ غير أنه وصل متأخرا ثلاثة أيام، ولكنه بدلاً من تعقبه دفع بجيشه إلى إسبانيا ليقطع عن هانيبال كل مئونة أو مدد. وفي كل ما عقب ذلك من حرب ظل ذلك الجيش الروماني في إسبانيا حـائلاً بـين هانيبـال وقاعدته. فأصبح الرجل "معلقًا في الهواء"، لا يستطيع القيام بالحصارات ولا تعزيز الفتوح.

وكلما التقى هانيبال بالرومان في قتال وجها لوجه غلبهم. فأحرز عليهم نصرين عظيمين في شمال إيطاليـا. وظفر بضم الغال إلى جانبه. ثم كمن لجيش روماني وأحـاط بـه ودمـره تـدميرا عنـد بحيـرة ترازيمينـي (Trasimene). وفي ٢١٦ ق. م. هاجمته عند كاني (Cannae) قوة رومانية تفوقه تفوقًا هائلاً تحت قيادة فارو فقضى عليها قضاء تاما. ويقال إن خمسين ألفًا من الرجال قتلوا في تلك المعركة، وإن عشرة آلاف رجل أخـذوا أسرى. على أنه لم يستطع مع ذلك أن يواصل الزحف إلى روما ويستولي عليها، إذ لم تكن لديه معدات الحصار.

غير أن معركة كاني أثمرت ثمارا أخرى. فإن قسما كبيرا من جنوب إيطاليا انحاز إلى هانيبال، بما فـي ذلك كابوا (Capua)، أكبر مدن إيطاليا بعد روما. ثم تحـالف معـه المقـدونيون. هـذا إلـى أن هيـرون السيراقوزي حليف روما المخلص كان قد مات، وانضم خلفه هيرونيموس إلى القرطاجيين. وواصل الرومان الحرب مع ذلك بعزم أكيد وشدة مكينة لا تعرف الكلال. فرفضوا أن يعقدوا صلحا مع هانيبال بعد كاني. ثـم ضربوا على كابوا حصارا بحريا طويل الأمد كلل بالنجاح آخر الأمر. ثم أخذ جيش روماني نفسه بإخضـاع سيراقوزا. وحصار سيراقوزا مشهور بصفة خاصة بسبب المخترعات الرائعة التـي اسـتحدثها الفيلسـوف "أرشميدس"، والتي أوقفت الرومان موقف الحرج وصدتهم طويلاً. ولقد ذكرنا من قبل أرشميدس هذا بوصفه أحد تلاميذ مدرسة المتحف الإسكندري ومراسليها. وقتل أثناء فتح المدينة عنوة. ثم انتهى الأمر بعد سيراقوزا (٢١٢ ق. م) بأن سقطت تارنتم (٢٠٩ ق. م)، وهي مرفأ هانيبال الرئيسي وسبيل تموينـه مـن قرطاجـة، وكابوا (٢١١ ق. م)، فاضطربت على أثر ذلك مواصلاته.

وكذلك انتزعت إسبانيا من قبضة القرطاجيين جزءا فجزءا. ولما أن وصلت إلى إيطاليا الأمداد المرسلة لهانيبال تشق طريقها كفاحا تحت قيادة أخيه هاسدروبال (ويجب ألا يخلط اسمه باسم صهره هاسدروبال الذي اغتيل)، دمرها الرومان في معركة متاوروس (Metaurus) (٢٠٧ ق. م.)، وكانت أول أخبار وصلت إلى هانيبال عن الكارثة، هي رأس أخيه المفصول عن جسمه يلقى في معسكره.

وبعد ذلك حصِر هانيبال في كالابريا (Calabria) وهي عقب الحذاء الإيطالي. ولم تكن لديه قوات يستطيع بها القيام بعمليات حربية ذات جرم كبير، فعاد آخر الأمر إلى قرطاجة في الوقت المناسب لكي يتولى قيادة أبناء وطنه في آخر معركة في الحرب.

حدثت هذه المعركة الأخيرة وهي معركة زاما (Zama) (٢٠٢ ق. م) على مقربة من قرطاجة نفسها.

كانت أول هزيمة أصابت هانيبال؛ ولذا فمن المستحسن أن نوجه بعض عنايتنا إلى شخصية قاهره سكيبيو الأفريقي الأسن، الذي خلد التاريخ اسمه إنسانًا دمث الأخلاق وجنديا عظيما ورجلاً كريما. ولقد ذكرنا من قبل شخصا معينًا اسمه ب. كورنيليوس سكيبيو، كان ينزل الضربات بقواعد هانيبال في إسبانيا. فهذا هو ابنه؛ وكان هذا الابن إلى ما بعد معركة زاما يحمل اسم "ب. كورنيليوس سكيبيو" ثم منح لقب الأفريقي. (فأما سكيبيو الأفريقي الأصغر وهو (Scipio Africanus Minor) الذي قدر له فيما بعد أن ينهي الحرب البونية الثالثة، فهو الابن المتبني لابن سكيبيو الأول الأفريقي الأسن ذاك). وكان كل ما في سكيبيو الأفريقي يثير في نفس كل روماني من الطراز القديم – من مدرسة كاتو وأضرابه – نوازع المعارضة والكراهية وعدم الثقة. ذلك أنه كان صغير السن وكان سعيدا تام الكفاية، جوادا، ينفق المال بسخاء، وكان واسع الاطلاع على الأدب الإغريقي، ويكاد يكون من ناحية آرائه الدينية أميل إلى "البدع" الفريجية منه إلى آلهة روما الجامدة. ولم يكن ممن يؤمنون بالتروي المسرف الذي كان يتسلط على خطط قواد الرومان الاستراتيجية في عصره.

حدث بعد الهزائم الأولى التي حلت بالرومان في الحرب البونية الثانية، أن تسلطت على العمليات العسكرية الرومانية، شخصية قائد هو فابيوس (Fabius)، الذي أخذ ينادي بضرورة تجنب الالتحام مع هانيبال حتى جعل من ذلك نوعا من المبدأ المقدس. وغلب "فن التكتيك الفابي" على إيطاليا مدة عشر سنوات. راح الرومان في أثنائها يحصرون خصومهم بحرا ويقطعون الطريق على القوافل البحرية المعادية، ويهاجمون الشاردين من أعدائهم، فإذا لاح لهم شبح هانيبال ولوا الأدبار. ولا ريب أن الحكمة كانت تقضي عليهم. عقب هزائمهم الأولى، أن ينتهجوا مثل هذه الخطة إلى حين. بيد أن الواجب كان يقضي على الدولة الأشد قوة – وكانت روما هي الدولة الأقوى طوال الحرب البونية الثانية – بألاّ تسمح باستمرار حرب لا نهاية لها، بل تسعى في تعويض الخسائر، واكتشاف القواد المقتدرين، وتدريب جيوش أفضل، وتدمير قوة العدو. والعزم أهم واجبات القوي وألزم صفته.



١٠٨ — سكبيو الإفريقي

كانت الخطة الفابيانية وما تتصف به من مكر ومخاتلة غير مجدية، وهي التي كانت تستنزف ببطء دماء إيطاليا وقرطاجة معا حتى الموت، - بغيضة ممقوتة عند أمثال سكيبيو من الرجال. لذلك أخذ ينادي مطالبا بالهجوم على قرطاجة نفسها.

وعلى أن فابيوس ملأ المدينة عند ذلك ذعرا، كأنما كانت الجمهورية مقبلة على أشد الأهوال وأعظم المحن على يد شاب أهوج غير متزن. وموجز القول إنه لم يتورع عن أن يأتي أي عمل أو يقول أي شيء يرى فيه وسيلة لحمل مواطنيه على العدول عن قبول الاقتراح وتأييده. فظفر بأمنيته في مجلس السناتو. على أن الناس اعتقدوا أن معارضة فابيوس لسكيبيو ترجع إما إلى حسده إياه على نجاحه، وإما إلى إضماره الخوف من قيام هذا البطل الصغير بمأثرة باهرة ممتازة تضع للحرب حدا، أو تبعد شبحها على الأقل عن إيطاليا، وعندئذ يظهر للملأ أن تصرفاته البطيئة التي امتدت خلال هذا العدد الجم من السنين لا يمكن أن تعزى إلا إلى التواني والخور. فلجأ إلى كراسوس (Crassus) زميل سكيبيو في القيادة محاولاً أن يقنعه بألا

يدع هذه الولاية لسكيبيو بل يذهب بنفسه إلى هناك للعمل ضد قرطاجة إذا رأى من الصواب أن يقوم بالحرب على تلك الشاكلة. ولم يكتف بهذا، بل أعاق عملية تدبير المال اللازم لتلك الحملة، حتى لقد اضطر سكيبيو أن يدبر ما يلزم الحملة من مال جهد طاقته. ثم حاول أن يثني الشبان الذين تقدموا للتطوع في الحملة عن تقييـد أسمائهم، وصرح بأعلى صوته في كل من مجلس السناتو والفوروم "إن سكيبيو نفسه لم يكن يتجنب هانيبـال فحسب، بل يرمي أن يحمل معه كل ما تبقى لدى إيطاليا من قوة، بإقناعه الشـبان بـالتخلي عـن والـديهم وزوجاتهم ومدنهم، بينما لا يزال عدو قوي لم يقهر بعد مرابطًا على الأبواب". بمثل هذه الترهات بث الرعب في النفوس إلى حد جعل القوم لا يأذنون لسكيبيو إلا بالكتائب التي كانت في صقلية وثلاثمائـة مـن أولئـك الرجال الذين عاونوه بإخلاص عظيم في إسبانيا.. وسرعان ما وردت من سكيبيو إثر نزوله بأفريقيا أخبـار تبشر روما بما قام به من جلائل الأعمال وعجائبها. ثم تلا ذلك وصول غنائم ثمينة أكدت البشرى. وأخذ ملك نوميديا أسيرا؛ وأُحرق معسكران ودمرا وبهما عدد ضخم من الرجال والسلاح والخيل؛ فأرسل القرطـاجيون الأوامر إلى هانيبال أن يتخلى عن آماله العقيمة في إيطاليا، وأن يعود إلى بلاده ليدافع عن وطنه وبينما كـان كل لسان في روما يلهج بالثناء على مآثر سكيبيو هذه، اقترح فابيوس ضرورة تعيين خاف له دونما سبب أو مبرر معقول اللهم إلا ما يتضمنه هذا المثل الشهير القائل بأن: من الخطر أن نستودع حظ رجل واحد شـئونًا على مثل تلك الدرجة من الأهمية، لأنه ليس من المحتمل أن يستمر النجاح حليفًا له على الدوام. كلا بـل إن فابيوس حتى عندما أبحر هانيبال بجيشه مغادرا إيطاليا، لم ينقطع لحظة عن تكدير صـفو السـرور العـام والتوهين من روح روما، ذلك أنه سمح لنفسه أن يؤكد "أن الجمهورية قد وصلت إلى أقصى محنتها وأسوئها عاقبة وأن لديها كل سبب يدعوها أن ترهب جهود هانيبال عندما يصل إلى أفريقيا ويهاجم أبناء روما تحـت أسوار قرطاجة؛ وأن سكيبيو سيضطر إلى أن يلتحم بجيش لا تزال يداه مخضبتين دفيئتين بدماء هـذا العـدد الكبير من القواد والدكتاتوريين والقناصل الرومان". وانزعجت المدينة لهذه التشهيرات الحماسـية، ومـع أن ساحة القتال انتقلت إلى أفريقيا، فقد أحس الناس أن الخطر أقرب إلى روما منه في أي وقت آخر " [1].

وحدثت قبيل معركة زاما هدنة وجيزة ومفاوضات، انقطعت بغلطة من القرطاجيين. وكما كان الحال فـي معركة إربيل (أربيلا)، يمكن تحديد يوم معركة زاما بالضبط بكسوف حدث في هذه المرة أثناء القتال. وكان قد انحاز إلى الرومان النوميديين، وهم الشعب الذي يسكن ما يلي قرطاجة من أرض أفريقيا، انضموا إلـيهم تحت إمرة ملكهم ماسينيسا Massinissa، فأكسبهم ذلك لأول مرة تفوقًا عظيما على هانيبال فـي الفرسـان. فتزحزح جناحا هانيبال من الفرسان عن مراكزهما، على حين استطاع مشاة سكيبيو بما لهم من نظام أصلب وأسلم أن يفسحوا بين صفوفهم دروبا تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاجية دون أن يضطرب نظـام هـؤلاء المشاة. وحاول هانيبال أن يمد خط مشاته لكي يحيطوا بكتلة المشاة الرومانية، بيد أنه على حين كانت لجنوده بمعركة كاني كل ميزات التفوق في التدريب وكانت القدرة على المداورة هنالك تبعا لذلك في جانبه، فاستطاع آنذاك أن يحيط بحشد من المشاة وأن يعمل فيهم السيف ذبحا وتقتيلا، فإنه وجد الآن أمامه خط مشـاة يفـوق

([1]) بلوتارك (كتاب السير).

خط مشاته صلابة وقوة. فانقطع خطه أثناء امتداده، وهجمت الكتائب الرومانية في الصميم وخسـر هانيبـال يومه. وعاد الفرسان الرومانيون من ملاحقة جواد هانيبال لكي يحيلوا الهزيمة التي مني بهـا القرطـاجيون بالفعل إلى كارثة تشتيت مروعة.

عند ذلك خضعت قرطاجة وسلمت دون مزيد من كفاح. وكانت الشروط قاسية، بيد أنها تركت لها المجال في أن تأمل في مستقبل كريم. فأجبرت على التخلي عن إسبانيا لروما، وأن تتنازل عن كل أسطولها الحربي إلا عشر سفن، وأن تدفع عشرة آلاف تالنتوم (٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه)، وثمة شرط آخر هـو أصـعب شـروط الحرب قاطبة وبه توافق على ألا تخوض غمار حرب دون إذن من روما. ثم أضيف آخر الأمر شرط يقضي بتسليم هانيبال عدو روما اللدود بيد أنه كفى مواطنيه هذا الإذلال، بأن فر إلى آسيا.

كانت هذه شروطًا جائرة، كان يجدر بروما أن تقنع بها. بيد أن من الشعوب من بلغ من الجـبن حـدا لا يجترئون معه على مجرد قهر عدوهم؛ فلا بد لهم إذن من إعمال القتل فيهم وإفنائهم. فإن ذلك الجيـل مـن الرومان الذي كان يرى العظمة والفضيلة في رجل مثل كاتو الرقيب، خليق أن يجعل من وطنه حليفًا دنيئًـا ومنتصرا جبانًا.

٧- الحرب البونية الثالثة

إن تاريخ روما في السنوات الثلاث والخمسين التي انقضت فيما بين معركة زاما والفصل الأخير من المأساة، وهو الحرب البونية الثالثة، لينبئنا عما أصابته روما من نفوذ وسلطان خارجي واسع تتجلى فيه قسوة وخسة، وينبئنا كذلك عما أحدثه ربا الأغنياء وشرههم من تدمير بطيء لعنصر الزراع الأحرار من سكان إيطاليا.

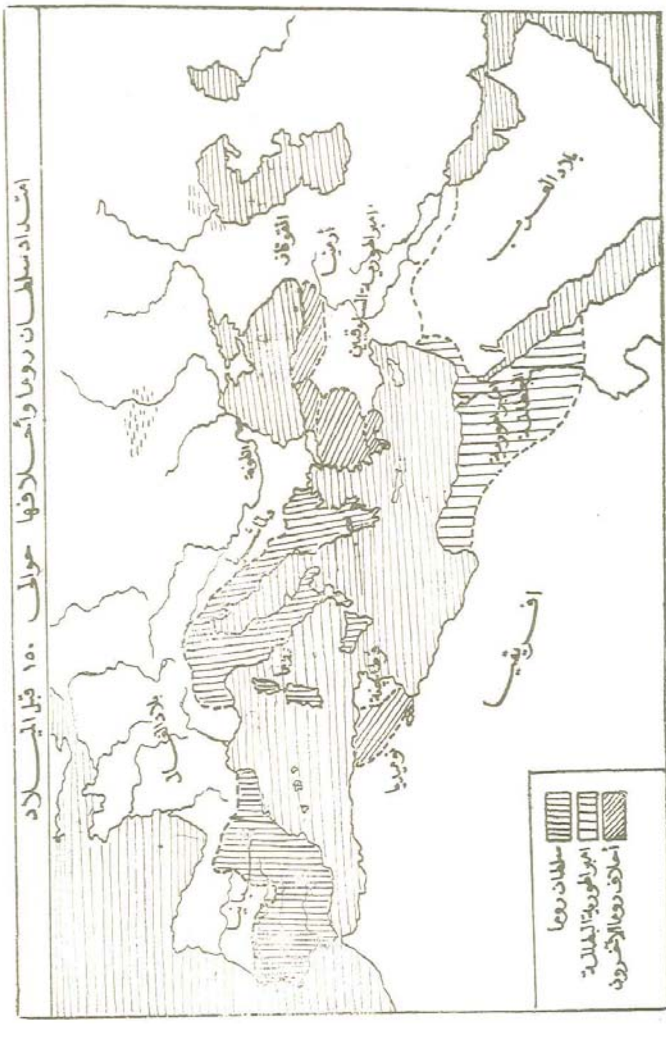
وكانت روح الشعب قد صارت إلى الخشونة والوضاعة. ولم يعد هناك توسع جديد في منح حقوق المواطنية، ولا أي محاولات سمحة أخرى ترمي إلى إدماج عناصر السكان من الأجانب بحكم مولدهم. وكان نظام الحكم الروماني في إسبانيا شيئًا معيبا واستبطانها بطيئًا شديد العسر. وأفضت التدخلات المعقدة إلى إنزال إلليريا ومقدونيا من روما منزلة الولايات الدافعة للجزية. ولم يكن يخفى على أحد أن روما تنهج في سياستها إذ ذاك نحو "تكليف الأجنبي بالضرائب" وإعفاء سكانها بأرض الوطن من كل ضريبة، فبعد عام ١٦٨ ق. م.، لم تعد الضريبة القديمة على الأراضي تجبى في إيطاليا، وكان مورد الدخل (الإيراد) الوحيد المتحصل من إيطاليا، هو المتحصل من ممتلكات الدولة والأراضي العامة ومن المكوس المفروضة على الواردات الخارجية. وكانت الإيرادات الآتية من ولاية "آسيا" تقوم بنفقة الدولة الرومانية. وكان رجال من طراز كاتو يحتازون المزارع بأرض الوطن بإقراض الأموال عليها وحرمان الراهن من حق فكاك الرهن، وكثيرا ما كانت هذه المزارع ملكًا لرجال حلّ بهم الفقر والعوز بسبب أدائهم الخدمة العسكرية. وكان هؤلاء المرابون يطاردون المواطنين الأحرار ويخرجونهم من أراضيهم، ويديرون مزارعهم بواسطة العمال الأرقاء الذين كانوا يسوقونهم سوقًا لا رحمة فيه والذين أصبحوا زهيدي الأجور وفيري العدد. وكان مثل هؤلاء الرجال يعدون السكان الأجانب في الخارج عبيدا لهم وإن لم يجتلبوا إلى روما. وسلمت صقلية إلى ملتزمي الضرائب الشرهين يستغلونها ويستنزفون دماءها. وكان الأغنياء يستخدمون الأرقاء هناك في زراعة القمح الذي كان يصدر بعد ذلك إلى روما فيدر عليهم الربح الوفير، وبذلك أصبح في المستطاع تحويل الأراضي الزراعية في إيطاليا إلى مراعي للماشية والأغنام. ومن ثم شرع الإيطاليون الذين نزعت منهم أراضيهم يهرعون زرافات إلى المدن والحواضر وبخاصة إلى روما.

وليس لدينا ها هنا غير القليل ندلي به عن المنازعات الأولى بين قوة روما الناهضة وبين دولة السلوقيين ولا كيف أبرمت روما مع مصر تحالفًا، كذلك ليس لدينا ما نقوله عن الأساليب الملتوية والتقلبات التي ألمت بحظ المدن الإغريقية منذ أن خيم عليها ظل روما أثناء توسيعها رقعة أملاكها حتى تردت تلك المدن في هوة الخضوع الفعلي [1]. وحسبنا الآن خريطة لتوضيح امتداد إمبراطوريتها في ذاك الزمان.

---

(1) عن تفاصيل هذا النزاع وتاريخ الحقبة التي أعقبت وفاة الإسكندر حتى ظهور أوكتافيوس – انظر للمترجم كتاب "الحضارة الهللينستية" تأليف تارن مكتبة الأنجلو. (المترجم).

ولم يخل ذاك العصر على ما يشوبه من وضاعة كريهة وخسة مرذولة، من صـوت يجـأر بالاحتجـاج ويجهر بالتذمر. وقد أسلفنا إليك كيف وضعت قوة نفوذ سكيبيو الأفريقي حدا لداء الحرب البونية الثانية الوبيل المضني الذي أصاب تلك الدولة، وكان يخلق رجالاً أثرياء أشحاء هم أشبه ما يكونون بالقرح والبثور تطفـح في أديم الجسد السقيم. ولما أن ساوره بعض الشك أن يسمح له مجلس السناتو بـأن يتـولى قيـادة الجـيش الروماني هدده بأن يلجأ إلى الشعب فيحتكم إليه. ومنذ ذلك الحين أصبح رجلاً مرهوب الجانب تحذره عصبة السناتو الدائبون على تحويل إيطاليا من أرض مزارعين أحرار إلى أرض مراع واسعة للماشية يشتغل فيهـا الأرقاء. فحاولوا أن يقضوا عليه قبل أن يصل إلى أفريقيا، وكان أن أعطوه من القوات ما لا يكفـي – فيمـا يؤملون – لإحراز النصر؛ ثم حالوا بعد الحرب بينه وبين تولي أي منصب في الدولة. وقـد انبـرى كـاتو لمهاجمته مدفوعا بعامل المصلحة الشخصية والنزعة الشريرة الفطرية.



(١٠٩) امتداد سلطان روما وأحلافها حوالي ١٥٠ ق.م.

ويبدو أن سكيبيو الأفريقي الأسن كان سمح النفس قليل الصبر بمن يحيطون به، لا يميـل بفطرتـه إلـى استغلال تذمر الشعب مما حوله من النزعات الخبيثة السائدة واستثمار محبة الشعب العظيمة جدا له لمصلحته الخاصة. فعمل تحت رياسة أخيه لوكيوس سكيبيو (Lucius Scipio) عندما قاد الأخير أول جيش رومـاني عبر البحر إلى آسيا وهناك في ماجنيزيا من أعمال ليديا لقي على يديهما جيش عظيم مخاط بقيادة أنطيوخوس الثالث (Antiochus III) الملك السلوقي (عام ١٩٠ ق. م.)، - نفس الهزيمة التي لقيتها الجيوش الفارسـية المخاطة قبل ذلك بمائة وأربعين سنة. وأثار هذا النصر عداوة مجلس السناتو ضد لوكيوس سـكيبيو، فـاتهم باختلاس النقود التي تلقاها من أنطيوخوس. فغضب "الأفريقي" لهذا الاتهام غضبة الرجل الشـريف. وبينمـا لوكيوس ماثل في مجلس السناتو يحمل بين يديه وثائق حساباته وهو مستعد للرد على نهشات متهميه، خطف الأفريقي الوثائق من يديه ومزقها وألقاها على الأرض، قائلاً إن أخاه قد دفع في خزانة الدولة مـائتي ألـف سسترتيا [1] (sestertia) وهو ما يساوي مليونين من الجنيهات. فهل هم يريـدون أن يكـدوا صـفو أيامـه ويسقطوه لمثل هاته أو تلك من التفاصيل؟ وعندما رفعت الدعوى فيما بعد على لوكيوس وحكم بإدانته أنقـذه أخوه الأفريقي بالقوة. فلما أن قدم للمحاكمة ذكر الشعب أن ذلك اليوم هو يوم ذكرى موقعة زامـا، وتحـدى الساطات بين تهليل جموع الشعب وهتافه.

ويلوح أن الشعب الروماني كان يحب سكيبيو الأفريقي ويعاضده، ولا بد أن يحبه الناس اليـوم ويعطفـوا عليه بعد انقضاء ألفين من السنين. فإنه استطاع أن يلقي بالورق الممزق في وجه مجلس السـناتو، وعنـدما هوجم لوكبوس مرة ثانية، تدخّل أحد ترابنة الشعب بما له من حق النقض والاعتراض وأحبط الإجـراءات. على أن سكيبيو الأفريقي كانت تعوزه صلابة العود، التي تجعل من الرجال زعماء ديمقراطيين عظماء. فإنه لم يكن كقيصر. وكان يعوزه الكثير من صفات الرجل السياسي التي تجعله يستسلم لما تمليه عليه ضرورات الحياة السياسية على ما فيها من ضعة. ولم يلبث أن تقاعد بعد هذه الحوادث مشـمئزا وغـادر رومـا إلـى مزارعه، حيث توفي عام ١٨٣ ق. م.

وفي نفس تلك السنة مات هانيبال، إذ تجرع السم يائسا. فإن خشية مجلس السناتو الروماني الراسخة له ظلـت تتعقبه من بلاط إلى بلاط. وكانت روما طلبت من قرطاجة أثناء مفاوضات الصلح أن تسلمه إليها على الرغم من احتجاجات سكيبيو الحانقة الغاضبة، ثم استمرت تطلب هذا الطلب من كل دولة تئويه. وعندما تم إبرام الصلح مع أنطيوخوس الثالث، كان تسليم هانيبال أحد شروط ذلك الصلح. وفي بيثينيا قبض عليه في مخبئه واعتقله ملكهـا لكي يرسله إلى روما، بيد أن هانيبال كان يحمل منذ أمد طويل في خاتمه السم اللازم له وبه قضى على نفسه.

ومما يزيد اسم سكيبيو شرفًا، أن فردا آخر من أسرته، هو سكيبيو ناسيكا (Scipio Nasica) كـان هـو الذي يسخر من عبارة كاتو "يجب أن تدمر قرطاجة" بأن يختم كل خطبة له في مجلس السناتو بقوله" يجب أن تبقى قرطاجة". إذ بلغ من حصافة رأيه أن كان يرى أن وجود قرطاجة حافز عظيم لروما له فضل كبير في رخائها العام.

---

[1] السترتيا – عملة رومانية قدرها عشرة جنيهات. (المترجم)

ومع هذا شاءت الأقدار أن يكون سكيبيو الأفريقي الثاني، وهو حفيد متبنى لسكيبيو الأفريقي الأسن، هـو فاتح قرطاجة ومدمرها. وكانت جريرة القرطاجيين الوحيدة التي سببت الحرب البونية الثالثة والأخيرة، هـي أنهم استمروا يتجِرون وينجحون. ولم تكن تجارتهم مما ينافس تجارة روما. ولذلك فإن قرطاجة لما أن دمرت مات بموتها الشيء الكثير من تجارتها، ودخل شمال أفريقيا في دور تدهور اقتصادي. ولكن ما نعمت به قبل تدميرها من رخاء كان يثير في نفوس الرومان حسدا عنيفًا متقد الأوار كان من الواضح أنه أقوى حتى مـن الجشع الذي ملأ نفوس طراز "الرومان القديم". ذلك أن طبقة الفرسان الأغنياء كانت تضيق بأي ثـراء فـي العالم إلا ثراءها. وقد أثارت روما الحرب بتحريضها النوميديين على الاعتداء على قرطاجـة، حتـى هـب القرطاجيون للحرب ثائرين مستيئسين. وعند ذلك انقضت روما على قرطاجة. وأعلنت أنها خرقت المعاهدة! لأنها دخلت حربا بلا استئذان.

وأرسل القرطاجيون الرهائن الذين طلبتهم روما، وسلموا أسلحتهم واستعدوا لتسليم أراضي من بلادهم. على أن الخضوع لم يكن ليزيد روما إلا تجبرا وعتوا ولم يكن ليزيد نفوس طبقة الفوارس الغنية إلا شراهة وجشعا، وهم الذين لا تعرف الشفقة إلى قلوبهم سبيلاً، والذين كانوا متسلطين على أداة الحكم فيها. هنالك طلبت روما أن يخرج أهالي قرطاجة من ديارهم، وأن يرحل السكان إلى بقعة تبعد عن البحر مسافة لا تقل عن عشرة أميـال. وقد طلب هذا المطلب إلى قوم يكادون يعتمدون اعتمادا كليا في معاشهم على التجارة فيما وراء البحار!.

وأثار هذا المطلب غير المعقول اليأس في نفوس القرطاجيين. فاستدعوا المنفيين منهم واستعدوا للمقاومة. وكانت الكفاية العسكرية عند الرومان في تدهور مستمر خلال نصف قرن قضوه في ظل حكومة قصيرة النظـر ضـيقة الأفق، وكادت الهجمات الأولى على المدينة سنة ١٤٩ ق. م. أن تبوء بكارثة. ولم يتميز سكيبيو الصغير خلال هذه العمليات إلا بمقدرة ضئيلة. وكانت السنة التالية سنة فشل أيضا يرجع إلى عجز رجال السناتو. وعند ذلك انتقل ذلك المجلس الجليل من حالة التحدي والوعيد الصاخب إلى حالة رعب مفرط. وانذعر الشعب الروماني انـذعارا أشـد وأكبر، فانتخب سكيبيو الصغير قنصلاً لا لسبب إلا اسمه، على الرغم من أنه كان دون السن القانونية، كما كان من نواح أخرى غير أهل لذلك المنصب، فحزم متاعه ورحل إلى أفريقيا لينقذ وطنه الغالي.

وابتدأ على أثر ذلك أشد صنوف الحصارات عنادا وفظاعة، وبنى سكيبيو جسرا عبر مينـاء قرطاجـة، وقطع عنها كل المدد برا وبحرا. فقاسى القرطاجيون من الجوع آلاما ذريعة. بيد أنهم صمدوا حتـى فتحـت المدينة عنوة. واستمر القتال في الشوارع ستة أيام، ولما سلمت القلعة آخر الأمر كان الأحياء من القرطاجيين خمسين ألفًا من سكان يقدر عددهم الأصلي بنصف مليون نسمة. وأخذ هؤلاء الأحياء أرقـاء، ثـم أحرقـت المدينة بأسرها، وأعمل المحراث في الأنقاض تعبيرا عن التدمير النهائي، واستنزلت اللعنات في حفل دينـي رهيب على كل من تحدثه نفسه بأن يعيد بناءها.

وفي نفس تلك السنة (١٤٦ ق. م.) قضى مجلس السناتو الروماني وطبقة الفرسان الرومان علـى مدينـة عظيمة أخرى أحسوا أنها تحد من احتكاراتهم وتجارتهم، هي كورنثة. وكان لهم في ذلك مبرر، لأن كورنثـة كانت شهرت السيف في وجوههم، على أنه كان مبررا غير كاف.

٨- كيف قوضت الحروب البونية الحرية الرومانية

ينبغي أن نلحظ هاهنا في موجز من القول تغييرا لحق نظام روما الحربي بعد الحرب البونية الثانية، وكانت له أهمية هائلة فيما تلا ذلك من تطوراتها. فحتى ذلك الوقت، كانت الجيوش الرومانية تؤخذ من مجندين من المواطنين الأحرار. فكانت القوة المحاربة والقوة الناخبة مرتبطين ارتباطًا وثيقًا. وكان مجلس الأحرار في وحداته المئوية يتخذ مظاهر التعبئة العسكرية ويتقدم وعلى رأسه الوحدات المئوية من الفرسان إلى ساحة الإله مارس. وكان هذا النظام شديد الشبه بنظام البوير قبل شبوب الحرب الأخيرة بجنوب أفريقيا. وكان المواطن الروماني العادي فلاحا مثله مثل البويري العادي؛ فإذا "نُفخ في البوق" لبى النداء وانخرط في سلك الجندية. وكان البوير يبلون في القتال بلاء فائقًا، بيد أنهم كانوا يضمرون في أنفسهم رغبة ملحة في العودة إلى المزارع. فإذا استدعى الأمر القيام بعمليات مطولة من أمثال حصار فياي، كان الرومان يرسلون إمدادات تعزيزا لجيوشهم ويستبدلون بها أخرى تحل محلها. وعلى نفس هذه القاعدة جرى البوير ينهجون في حصار ليدي سميث.

وكانت الحاجة إلى قهر إسبانيا بعد الحرب البونية تنادي بضرورة إنشاء جيوش من طراز آخر. إذ كانت إسبانيا أبعد شقة من أن تسمح بموالاة العمل عن طريق هذا التبادل فضلاً عن أن الحرب كانت تتطلب تدريبا أوفى ومرانًا أكمل مما كان يستطيعه هؤلاء الجنود الغادون والرائحون. ومن ثم قيدت أسماء الرجال لمدد أطول ودفعت لهم الأعطيات والرواتب. وبذا بدأ ظهور الجندي المأجور في الحياة الرومانية. وأضيفت الأسلاب إلى الأعطيات. فوزع كاتو كنوز الفضة على من تحت إمرته من الجنود في إسبانيا. ومما هو مأثور عنه أيضا أنه هاجم سكيبيو الأفريقي لأنه وزع الأسلاب على جنوده في صقلية. وأدى إدخال نظام الأعطيات للعسكر آخر الأمر إلى نشوء جيش محترف، كما أدى هذا بعد ذلك بقرن إلى نزع السلاح من المواطن الروماني العادي الذي أخذ ينساب إذ ذاك إلى روما والمدن الكبرى وهو في حالة عسر وإملاق. وكانت الحروب الكبرى كللت بالنصر ووضعت أسس الإمبراطورية وضعا وطيدا بفضل جهود فلاحي روما الذين حملوا أعباء الحروب وخاضوا غمارها قبل (٢٠٠ ق. م.). واختفى في أثناء هذه العملية الجديدة العدد الأكبر من فلاحي روما المقاتلين. على أن ذلك التغيير الذي ابتدأ بعد الحرب البونية الثانية لم يتم إلا عندما أشرف القرن على نهايته حين أعاد ماريوس تنظيم الجيش كما سيلي ذكر ذلك في موضعه. وبعد عصر ماريوس سنشرع في الكلام عن "الجيش" ثم عن "الكتائب"، وسنجد أنفسنا نعالج نوعا جديدا تماما من الجيوش، لم تعد تضمه بعضه إلى بعض رابطة المواطنية. وإذ تنفصم عرى هذه الرابطة لا تلبث أن تهتدي الكتائب إلى نوع آخر من الترابط هو روح التشيع للطائفة والإخلاص للجماعة "esprit de corps" يكتشفونه فيما يشتركون فيه من اختلاف عن المجتمع العام ومن مصلحة مضادة لمصلحته. ولا يلبث الجنود حتى يداخلهم المزيد من الاهتمام والتعلق الأشد بقوادهم، الذين أباحوا لهم الأرزاق والسلب. وكان ذوو الأطماع من الرجال نازعين في روما قبل الحروب البونية إلى استرضاء العامة والتملق إليهم؛ ولكنهم بعد ذلك الزمان أخذوا يترضون الكتائب ويخطبون ودها.

٩- مقارنة الجمهورية الرومانية
بدولة عصرية

إنا لنتنسم من تاريخ الجمهورية الرومانية حتى ذاك الحين نفحات تذكرنا من كثير من الوجـوه بـالروح العصرية أكثر من أية دولة أخرى سبقتها، وليس هناك من هو أشد إدراكًا لهذه النفحات من القارئ الأمريكي أو الأوربي الغربي. فإنا نلمس لأول مرة نوعا من "أمة" تحكم نفسها بنفسها، ومجتمعا أكبر من مجرد "دولـة مدينة" يحاول أن يتحكم في مصائره. ولأول مرة نجد قطرا زراعيا فسيح الأرجاء يتفيأ فكـرة واحـدة مـن القانون. ونشهد في مجلس السناتو ومجلس الأحرار نضالاً بين الجماعات والشخصيات، ومنهجا في تصريف الأمور وضبطها يقوم على الجدل والنقاش، ولكنه أرسخ قدما وأطول أمدا من أية أوتوقراطية، وأكثر مرونة وقابلية للتكيف من أية كهانة. ولأول مرة كذلك نواجه منازعات اجتماعية تماثل من بعض النواحي منازعاتنا. وقد حلت النقود محل المقايضة، وأصبح رأس المال النقدي سيالا حرا لا يعرف الجمود. أجل ربما لم يصـل في سيولته وحريته إلى ما هو عليه اليوم، بيد أنه بلغ عند ذاك درجة لم يبلغها من قبل قط. ثم إن الحـروب البونية كانت حروبا بين الشعوب، وهي ظاهرة لم تسبقها إليها أية حروب أخرى سـجلناها حتـى الآن. ولا مراء أن الخطوط العريضة التي يقوم عليها عالمنا الراهن أي ما به من فكرات أساسية وخلافـات رئيسـية، كانت آخذة في الظهور في تلك الأيام.

غير أن روما إبان الحروب البونية كانت تعوزها كما أسلفنا أنواع معينة من التسهيلات الأولية، كمـا أن بعض الأفكار السياسية السارية في زماننا هذا كانت تنقصها. فلم يكن هناك صحف، ولم يكن هناك في الواقع أي استخدام لنظام الممثلين المنتخبين في مجالس الأحرار الشعبية. وقد أمر يوليوس قيصر (٦٠ ق. م.) بنشر محاضر جلسات السناتو وقراراته بكتابتها على الأبيض "in Albo" أعني على ألـواح النشـرات. وكانـت العادة قد جرت بنشر المرسوم السنوي للبرايتور [١] (Praetor) (أي صاحب القضاء برومـا) علـى هـذه الشاكلة. وكان هناك قوم يحترفون كتابة الرسائل، فيرسلون الأخبار بوساطة الرسل والسعاة الخصوصيين إلى مراسلين أغنياء من سكان الريف، وكان هؤلاء الكتاب ينسخون المكتوب على "اللوح الأبـيض" (Album). وعندما كان شيشرون حاكما على كيليكيا، كان يتلقى الأخبار الجارية عن مراسل من هذا النوع، وهو يشـكو في أحد رسائله أنها لم تكن مما يبغي. فإن مجموعة الأخبار التي أرسلها إليه مراسله قد أسهبت فـي أخبـار سباق العجلات وغيرها من أنباء الألعاب، على حين فات المراسل أن يقدم أي فكرة عن الموقف السياسـي. وواضح أن هذه الطريقة في نقل الأخبار بالرسائل كانت في متناول الرجال العموميين الميسري الحـال دون غيرهم.

---

(١) البرايتور هو موظف قضائي اختص بأعمال القضاء ومعاونة القنصل في هذا المجال. (المترجم).

وثمة نقص كبير آخر في النظام الديمقراطي للجمهورية الرومانية وهو نقص فهمه علينا اليوم يسير جدا، وإن كان أبعد من أن يتطاول إليه فكر أي إنسان عند ذاك – ذلك هو انعدام كل أثر لمبادئ التعليم السياسي العام على الإطلاق. ولقد أظهر العامة في روما بارقة من الإدراك لفكرة أنه بغير العلم والمعرفة لا يتسنى للأصوات الانتخابية أن تجعل الرجال أحرارا، وذلك يوم أصروا على نشر قانون "الألواح الاثنا عشر". بيد أنهم لم يستطيعوا قط أن يتصوروا أن في الإمكان توسيع مجال انتشار المعرفة بحيث يتطرق بها إلى كتلة الشعب إذ كان ذلك فوق إمكانيات العصر. ولم يبدأ الناس إلا في هذه الأيام أن يدركوا تماما الأهمية السياسية للقول المأثور: "المعرفة قوة". فإن اتحادات ونقابات العمال البريطانية مثلاً، أنشأت حديثًا كلية العمال تسد حاجات الأكفاء منهم في علم التاريخ وفي العلوم السياسية والاجتماعية وما إليها. على أن التعليم في روما الجمهورية كان نزوة تلم بآحاد الآباء، وكان من امتيازات ذوي الثروة والفراغ. وكان معظمه في أيدي الإغريق الذين كانوا في الكثير الغالب من الأرقاء. وكان هناك جدول ضحضاح من العلوم الرفيعة والتفكير الممتاز تواصل فيضه وانسيابه حتى القرن الأول من عصر الملكية (أو الإمبراطورية)، يشهد على ذلك لوكريتيوس (Lucretius) وشيشرون (Cicero) بيد أنه لم يمتد إلى كتلة الشعب. ولم يكن الروماني العادي جاهلا فقط بتاريخ الجنس البشري جهلاً مطبقًا، بل بأحوال الشعوب الأجنبية كذلك. ولم يكن لديه أية معرفة بالقوانين الاقتصادي ولا بالإمكانيات الاجتماعية. بل إنه لم يكن حتى ليفهم مصالحه الخاصة فهما واضحا.

وبدهي أنه في دول المدن الإغريقية الصغيرة، وفي تلك الدولة الرومانية الأولى التي ذرعها أربعمائة ميل مربع، كان الرجال يكتسبون عن طريق الحديث والملاحظة قدرا من المعرفة يكفي للقيام بواجبات المواطنية العادية، ولكن الأمر عند ابتداء الحروب البونية كان تضخم وتعقد حتى أضحت المعلومات فوق طاقة الأميين من الرجال. ومع ذلك فلم يبد على أحد أنه لحظ الثغرة التي أخذت تباعد بين المواطن وبين دولته، وعلى ذلك خلت السجلات من كل إشارة إلى أية محاولة ترمي إلى "توسيع" عقلية المواطن بالتعليم حتى يواجه اتساع واجباته. وإنك لترى الناس جميعا منذ القرن الثاني قبل الميلاد وما بعده يبدون ملاحظاتهم ويعلقون على جهالة المواطن العادي وضآلة حظه من الحكمة السياسية. وكان كل شيء في الدولة يعاني من انعدام التماسك السياسي الناشئ عن هذه الجهالة؛ ولكن أحدا من الناس لا يخطو بالأمر حتى يصل به إلى ما نعده اليوم النتيجة الحتمية له، فما من إنسان يقترح القضاء على الجهالة الضاربة أطنابها وإزالة سبب الشكوى. لم تكن هناك أية وسيلة البتة لتعليم جماهير الشعب في نطاق مثل عليا مشتركة ذات طابع سياسي واجتماعي. ولم يحدث إلا يوم تطورت الديانات الكبرى التي تقوم على الدعاية في العالم الروماني – وأهمها وأبقاها جميعا المسيحية – أن لمس الناس ما يحتمل أن ينتج من آثار لمثل هذا التعليم المنظم لجماهير عظيمة من الناس ورأوا ثماره بارزة في العالم. وكان الإمبراطور قسطنطين الأكبر، ذلك العبقري العظيم أول من أدرك بعد ذلك بستة قرون تلك النتيجة المحتملة، وأول من حاول أن يستخدمها في سبيل الإبقاء على تماسك المجتمع العالمي الذي كان يحكمه ونسجه سدى ولحمة من الناحيتين العقلية والخلقية.

على أن اختلاف نظام روما السياسي عن نظامنا ليس مقصورا على قيام هاته النقائص المتمثلة في وسيلة نقل الأخبار ونشر التعليم وفي صلاحية نظام الحكومة التمثيلية. أجل إنها كانت بالدول العصرية الممدنة أشبه كثيرا منها بأي دولة أخرى تقدم ذكرها، على أنها كانت في بعض الأمور بدائية بصورة عجيبة و "منحطـة دون مرتبة الحضارة". وإن قارئ التاريخ الروماني حين يقرؤه متنبها إلى ما فيه مـن أسـاليب المجـادلات والتدابير والسياسات والحملات الحربية وينظر إليه من وجهة نظر رأس المال والعمل، ليعثر فيه بين الفينـة والفينة على شيء يشيع في نفسه قسطًا وافرا من ذلك الفزع الذي يتمشى في مفاصل من نزل يستقبل في بيته طارقًا مجهولاً، ومد يده فلقي كف الإنسـان الأول النيانـدرتالي (Homo Neanderthalensis) الشـوهاء المغطاة بالشعر، ثم رفع رأسه فرأى وجها وحشيا بشعا عديم الذقن. ولقد أشرنا من قبل إلى تقديمهم الأضاحي البشرية في القرن الثالث ق. م، وفوق هذا فإن كثيرا مما نعرفه عن ديانة روما في العصر الجمهوري يرجع بنا شوطًا بعيدا إلى ما قبل أيام الآلهة المحترمين اللائقين أعني إلى عصر العقيدة الشـامانية [1]. والسـحر. فنحن نتكلم عن الهيئات التشريعية فينطلق بنا الذهن فورا إلى "وستمنستر" (دار البرلمان الإنجليزي)، ولكـن ماذا يكون شعورنا لو أننا ذهبنا نشهد افتتاح إحدى أدوار انعقاد مجلس اللوردات، فوجدنا يد قاضـي القضـاة (Lord Chancellor) مخضبة بالدماء، وهو يعبث بها في اهتمام بالغ بين أحشاء شاة حديثة الذبح باحثًا فيها عن نبوءة بما يكنه المستقبل، عند ذلك يكر الفكر راجعا من وستمنستر إلى عادات بنين [2] المتوحشة كـذلك كان الاسترقاق في روما وحشيا، أدنى مرتبة تماما من الاسترقاق في بابل. ولقد أتيح لنا أن نلقي لمحة إلـى كاتو صاحب الصلاح والفضيلة إذ ينتقل بين عبدانه في القرن الثاني ق. م. وفوق ذلك فإنه في القرن الثالـث ق. م. حالما كان الملك أسوكا يحكم بلاد الهند في جو يفيض ضياء ورقة، كان الرومان يبعثون مـن جديـد رياضة إترورية وحشية، وهي تحريشهم العبدان بعضهم ببعض ليستنقذوا حياتهم جلادا وقتالاً، مما يعيد إلـى الذاكرة ثانية صورة أفريقيا الغربية كمنبت لهذه التسلية الهمجية. ذلك أنها نشأت عن عادة قديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ وهي إعمال السيف ذبحا في الأسرى عند دفن أحد الرؤساء. ولهذه التسلية عندهم مسحة دينيـة، فإن العبيد الذين كانوا يسحبون جثث الموتى من المجتلد بالخطاطيف كانوا يلبسون أقنعة تمثـل إلـه العـالم السفلي وهو خارون (Charon) المعداوي الجهنمي.

وفي ٢٦٤ ق. م. وهي نفس السنة التي بدأ فيها أسوكا حكمه والتي ابتدأت فيها الحرب البونيـة الأولـى، حدثت في سوق المدينة "الفوروم" بروما أولى ما يذكره التاريخ من مصارعات المجالـدين احتفـالاً بجنـازة عضو من أعضاء أسرة بروتس (Brutus) الرومانية العريقة. كان ذلك عرضا متواضعا تشترك فيه ثلاثـة أزواج، ولكن سرعان ما أصبح المجالدون يتقاتلون بالمائة. وأخذ الإقبال على تذوق هذه المصارعات يـزداد بسرعة، وأمدتهم الحرب بالعدد الوفير من الأسرى. فأما الأخلاقيون الرومان القدماء الذين كانوا على غايـة

---

(١) الشامانية: ممارسات دينية بدائية لشعوب آسيا الشمالية تقوم على الاعتقاد بأن في الإمكان الهيمنة بالسـحر علـى الأرواح الطيبة والشريرة. (المترجم).

(٢) بنين (Benin) مدينة في غرب إفريقية تقع على الساحل الشمالي لخليج غانة. (المترجم).

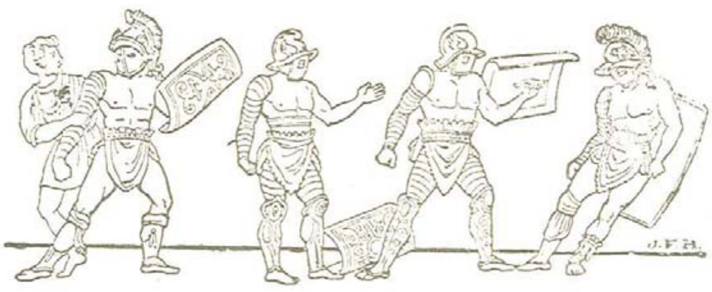
الصرامة ضد التقبيل وزينة النساء والفلسفة الإغريقية، فلم يكن لديهم ما يقولونه عن هذا التطور الجديـد إلا كل خير؛ ولقد يلوح أن الأخلاق الرومانية كانت تطمئن راضية مرضية مـا شـهدت النـاس يلقـون الآلام والعذاب!!...

ولئن كانت روما الجمهورية أول المجتمعات القومية العصرية المتمتعة بالحكم الذاتي، فلقد كانت ولا ريب أول شكل بدائي "نياندرتالي" لتلك المجتمعات.

نمت حفلات المجالدين في روما نموا هائلاً في خلال القرنين أو الثلاثة التالية. وابتدأ الأمـر بـأن كـان المجالدون يؤخذون من أسرى الحرب يوم كانت الحروب كثيرة متلاحقة. وكان كل مجالـد يتقـدم بأسـلحته المميزة له ما بين بريطان ذوي وشم أو مغاربة أو إسكيذيين أو زنوج ومن إليهم، وربما كانت لهذه الحفلات بعض القيمة العسكرية. على أنهم عمدوا بعد ذلك إلى استخدام المجرمين من الطبقات الدنيا، ذلـك أن العـالم القديم لم يكن ليدرك أن المجرم المحكوم عليه بالإعدام لا يزال شخصا له حقوقه. وأيا ما كان، فإن اسـتعمال المجرم كمجالد لم يبلغ من السوء الدرجة التي بلغها استعماله "مادة" للتشريح وهو حي في متحف الإسكندرية. ولكن لما زادت أرباح هذا الصنف من الحفلات، وزاد الطلب على الضحايا، صار العبدان العاديون يبـاعون لمدربي المجالدين. لذا كان كل عبد يستغضب سيده عرضة لأن يجد نفسه في أحد المعاهد الخاصة بتـدريب المجالدين وتأجيرهم. وكان كل خليع فاسق من الشبان الذين بددوا ثرواتهم وكل ذوي النفـوس الوثابـة مـن الغلمان يحترفون تلك المهنة متطوعين فترة معينة من الزمان معتمدين في بقائهم أحياء على بسالتهم وحسـن بلائهم.

ولما تطورت تلك الحرفة ونمت وجد للمجالدين عمل جديد باستخدامهم أتباعا مسـلحين؛ فكـان الأغنيـاء يشترون الجوقة منهم ويستخدمونها حرسا خاصا لهم أو يؤجرونها في الحفلات طلبا للربح.

وكانت حفلات العرض تبدأ بموكب استعراضي رسمي (Pompa) وبقتال زائف (Proelusio). ثم يعلن بدء القتال الحقيقي بالنفخ في الأبواق. فأما المجالدون الذين يرفضون أن يقاتلوا لأي سـبب مـن الأسـباب فيدفعون دفعا بالسياط والحدائد المحماة. وربما التمس الجريح منهم الرحمـة برفـع إصـبعه السبابة. وعندئذ فإما أن يلوح النظارة بمناديلهم دلالة على الرحمة، أو يقضوا بإعدامـه بمـد أيديهم مقبوضة مع وضع الإبهام في هيئة مـا معناها الموت. ويختلف الثقات هنا في حقيقـة أمر هذه العلامـة بالضـبط. فيقـول مـايور "Mayor" إن رفع الإبهام إلى الصدر معناه الموت، وإن خفض الإبهام إلى أسفل معنـاه: "أن أنـزل هـذا السيف". ولكن جمهرة الرأي السائد أن وضع الإبهام إلى أسفل معناه الموت. وكان الصرعى والذين أشـرفوا على الموت يسحبون إلى مكان خاص يسمى "الإسبولياريوم " (١) حيث يجردون من أسلحتهم وممتلكاتهم، فمن لم يكن مات منهم آنفًا أجهزوا عليه.



١١٠ – المجالدون

وهذا الوضع الذي ينظم القتل ويعد الموت رياضة وتسلية يساعد على تبيان مقدار الثغرة العظيمـة التـي تفصل بين المعايير الخلقية عند كل من المجتمع الروماني ومجتمعنا. ولا شك أن كثيرا من ألوان القسـاوات وانتهاك حرمة الكرامة الإنسانية بمثل هذه الوحشية الفظيعة، لا تزال تحدث في العالم. بيد أنها لا تحدث باسم القانون، ولا دون أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض عليها وإنكارها. فالحق، إنا لم نعثر حتى زمان "سـنيكا Seneca" (القرن الأول الميلادي) على أي أثر يسجل احتجاجا صريحا على ذلك الأمر. فلقد كـان ضـمير الإنسانية أضعف آنذاك وأقل فطنة مما هو الآن. ثم جرت إرادة المقادير أن تنشأ في الضمير الإنساني فـور ذلك قوة جديدة تولدت عن انتشار المسيحية. فإن روح يسوع المنبعثة في المسيحية، أصبحت في عصر تـال من الدولة الرومانية الخصم اللدود لكل هذه الحفلات العنيفة القاسية والعدو العنيد للرق، ولـم يـزل هـذان الشران يتناقصان بانتشار المسيحية، حتى أصبحا أثرا بعد عين. ويضيف العلامة جلبرت موراي إلـى ذلـك قوله: "كان الإغريق يرون في حفلات المجالدين سببا يدللون به على اعتبارهم الرومان برابـرة متوحشـين (Barbaror)، وقد حدثت بعض الاضطرابات عندما حاول نائب القنصل الروماني (proconsul) أن يدخلها في كورنثة." من هنا يتبين أن معارضة هذه القساوة القديمة لم تكن إذن مسيحية محضة. وواضح أن خيـار الرومان كانوا يبغضونها، بيد أن ضربا من الخشية والحياء قد حال بينهم وبين التنديد بقسوتها علنا. مثال ذلك أن شيشرون عندما كان يضطر أن يحضر لمشاهدة ساحة الألعاب (٢) كان يأخذ معه ألواحه وسكرتيره، ثم لا ينظر إلى شيء منها قط. وإنه ليعبر عن اشمئزاز خاص لمقتل أحد الفيلة. وقد استنكرت الفلسفة الإغريقيـة هذه الألعاب ولم تتردد في الطعن عليها، وذهبت أرواح اثنين من الكلبيين ومسيحي واحد ضحية المجتلـد (٣) في أوقات مختلفة فقضوا نحبهم وهم يجأرون بالاحتجاج عليها وذلك قبل أن يتقرر إلغاؤها.

---

(١) الإسبولياريوم spoliarium – مكان في الملعب المدرج تنزع فيه ملابس المجالدين الذين خروا صرعى. (المترجم).

(٢) Cireus ساحة الألعاب، وهي في روما الساحة الكبرى التي كانت تقام فيها الألعاب ويجري فيها السباق وفي بعض الأحيان كانت تجري بها الاستعراضات العسكرية. (المترجم)

(٣) المجتلد (Arena): الجزء الأوسط المكشوف للعيان من الملعب، المدرج الروماني (Amphitheatre) حيث كان يصطرع المجالدون (Gladiatora) . (المترجم).

الفصل السادس والعشرون

من تيبريوس جراكوس
إلى الإمبراطورِ المُؤَلَّهِ في روما

١- منهج الوقوف في سبيل الرجل العادي.
٢- المالية في الدولة الرومانية.
٣- آخر العهد بالسياسة الجمهورية.
٤- حقبة القواد المغامرين.
٥- نهاية الجمهورية.
٦- ظهور الزعيم أو الأمير الحاكم [١].
٧- لماذا فشلت الجمهورية الرومانية؟

---

(١) الأصل في معنى كلمة Princeps هو الزعيم الأول أو الرئيس المقدم على غيره ثم اتخذت معنى اصطلاحيا للدلالة على أباطرة الرومان. (المترجم).

١ - منهج الوقوف
في سبيل الرجل العادي

سبق لنا مرتين، أن شبهنا لك المجتمع الروماني الذي يتمتع بحكم نفسه بضرب "نيانـدرتالي" مـن الدولـة "الديمقراطية" العصرية الممدنة، وها نحن نعود مرة أخرى إلى هذه المقارنة. فمن حيث الشكل، كان الوضعان: وهما المحاولة البدائية العظيمة الأولى في روما، وضريباتها التي ظهرت فيما بعد حتى عصرنا هذا، متشابهين تشابها خارقًا للمعتاد؛ على أنهما يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافًا عميقًا من حيث الروح. فإن الحياة الرومانية السياسية والاجتماعية ولا سيما تلك الحياة السياسية والاجتماعية في القرن المحصور بين سقوط قرطاجة وبـين قيام قيصر والقيصرية، ذات مشابهة عامة واضحة جدا بالحياة السياسية والاجتماعية فـي أقطـار كالولايـات المتحدة الأمريكية، أو الإمبراطورية البريطانية اليوم. ويزيد في قوة التشابه ما درج عليه الرومان والمحـدثون على السواء من استعمال ألفاظ من أمثال "مجلس السناتو والديمقراطية والبروليتارية" وما شابهها على درجـات من عدم الدقة تتفاوت بين حالة وأخرى. بيد أن كل شيء في الدولة الرومانية كان يتسم بما لكـل بـدائي مـن سذاجة وخشونة وفجاجة. وكانت نار المظالم أشد تأججا، والمنازعات أبلغ خشونة وعنفًا. وكان حظ العالم مـن العرفان ضئيلاً نسبيا ومن الفكرات العامة قليلاً. ولم يشرع الناس في روما في قراءة مؤلفات أرسطو العلمية إلا إبان القرن الأول ق. م. حقًا أن فريرو [١] (Ferrero) يدعي لقيصر الإلمام بكتاب السياسة لأرسـطو وينسـب إليه الحلم بإنشاء "روما بريكليسية"، وكأني بفريرو يهيم حين يقول ذلك في غيبوبة من الأحلام الرائعـة يرخـى فيها لخياله العنان وهذا لعمري مبعث سعادة كتّاب التاريخ وترديهم في الزلل على السواء.

ولقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى ما ينهض بين الأحوال الرومانية والعصرية من فـروق عميقـة بسـبب انعدام الصحافة، وعدم وجود أي تعليم شعبي ولا فكرة التمثيل النيابي في مجلس الأحرار. ولا يبرح عالمنـا اليوم بمنأة عن حل مشكلة التمثيل النيابي وعن ابتكار جمعية عمومية تلخص حقًا فكـرة المجتمـع وإرادتـه وتبلورها وتعبر عنها بشكل صادق. إذ لا تنفك انتخاباتنا في جل شأنها سخرية بارعة بالناخب العادي، الـذي يجد نفسه عاجزا مغلول اليدين حيال التنظيمات الحزبية التي تحيل حريته في اختيار ممثليه إلى عملية اختيار لأقل المأجورين السياسيين المرشحين أمامه سماجة وأهونهما ضررا ومع ذلك كله فإن صوته يعتبر بالمقايسة إلى صوت أي مواطن روماني عادي، أداة فعالة ذات أثر. ومن عجب أن الكثرة الغفيرة من كتـب التـاريخ التي تعالج هذا العصر من التاريخ الروماني تتحدث عن "حزب الأحرار" وعن أصوات الشعب وما إلى ذلك من عبارات، كأنما كانت تلك الأشياء عند ذلك حقائق واقعة كما هي اليوم. على أن أعضاء السناتو وسياسيي روما عملوا على ألا يكون لمثل هذه الأوضاع أي وجود كحقائق خالصة صحيحة التكوين. لـذا فـإن هـذه العبارات العصرية تقتادنا إلى أبلغ الضلال ما لم نحددها ببالغ العناية.

---

(١) في كتابه: "عظمة روما وانحلالها "Greatness & Decline of Rorre" الكتاب الأول – الفصل الحادي عشر.

ولقد وصفنا لك من قبل اجتماعات مجلس الأحرار؛ بيد أن ذلك المجلس القبيح الذي كان يزج بالرومان في أماكن أشبه بحظائر الأغنام لا يصور لنا مبلغ ما كان يجري في روما من العبث بالتمثيل الشـعبي بتقسـيم البلاد تقسيما يكفل الأغلبية لأحد الأحزاب. فكلما منحت طائفة جديدة حقوق المواطنية في إيطاليا، لجأ بعـض القوم إلى محكم الألاعيب، وبادر البعض الآخر إلى ألاعيب أخرى متقنة مضادة لتلك، هذه ترمي إلى تـدوين المصوتين الجدد في أقل أو أكثر عدد ممكن من "القبائل" الثلاثين القديمة، وتلك تنزع إلى إدراجهم في أقل ما يمكن من القبائل الجديدة. وإذ إن الأصوات كانت تؤخذ بعدد القبائل، فمن الجلي أنه مهما بلغ عـدد الأفـراد الجدد الذين يضافون فلن يمكن أن يعد رأيهم إلا صوتًا قبليا واحدا إن جمعوا كلهم في قبيلة واحـدة. وكـذلك يكون الحال لو أنهم حشدوا في بضع قبائل قليلة فقط سواء منها الجديد أو القديم.

ولو أنهم دونوا – من الناحية الأخرى – في عدد عظيم جدا من القبائل، فربما كان تأثيرهم فـي أيـة قبيلـة خاصة غير جسيم، وهنا يقوم نوع العمل الذي يستهوي ويجتذب إلى غمرته كل نذل مخاتل من أنذال السياسـة. وكان من المستطاع في بعض الأحيان أن تُستصدر من المجلس القبلي (Comitia Tributa) قرارات مناقضة للشعور العام تماما. وكما سبق أن لاحظنا كانت الكثرة العظمى من الأفراد الأحرار في إيطاليا معطلة حقوقهـا الانتخابية أيضا بسبب بعد الشقة. وقد حدث قرابة منتصف مدة الحروب القرطاجية (البونية) أن ارتفـع عـدد الناخبين حتى تجاوز ٣٠٠,٠٠٠ مواطن. وفي حوالي ١٠٠ ق. م.، كان هناك أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ منهم، ولكن كان تصويت مجلس الأحرار في واقع الأمر قاصرا على بضع عشرات قليلة من الألـوف تقـيم فـي رومـا وبالقرب منها معظمهم رجال من طراز وضيع. وفوق هذا كان الناخبون الرومان "منظمـين" تنظيمـا محكمـا يجعل ما اشتهرت به الإدارة المركزية للحزب الديمقراطي في نيويورك من فساد الأداة الانتخابية، يبدو سـاذجا شريفًا بالقياس إليهم. فإنهم كانوا ينتسبون إلى أندية (Collegia sodalicia) تستتر فـي العـادة وراء بعـض مدعيات دينية أنيقة. وكان السياسي الناشئ – وهو يشق طريقه نحو المناصب – يذهب بادئ بدء إلى المرابين، ثم ينقلب بالمال المقترض إلى هذه النوادي. فإذا أثارت مسألة من المسائل اهتمام الأفراد الأحرار في غير روما إلى حد أن يهرعوا إلى المدينة حاشدين، كان في الإمكان دائما تأجيل التصويت بإعلان عدم مواءمة النذُر. فإن حضروا إلى المدينة غير مسلحين، كان من المستطاع إرهابهم. وإن أحضروا معهم أسلحتهم، علت الصيحة بأن هناك مؤامرة لقلب الجمهورية؛ وعند ذلك تعد العدة لإعمال الذبح فيهم.

وليس هناك من مرية أن كل إيطاليا وكل الإمبراطورية كانت جياشة بالسخط والقلق والتذمر طوال القرن الذي عقب تدمير قرطاجة. وكان عدد قليل من الرجال قد أخذ يغتني غنى فاحشًا. ووجدت غالبية الناس نفسها غارقـة في أحابيل عجيبة من الأسعار غير الثابتة والأسواق المتقلبة والديون الباهظة. ومع هذا لم تكن هناك قط أية وسيلة للإعراب عن التذمر العام وإزالة أسبابه. ولم يسجل لنا التاريخ محاولة واحدة لجعل مجلس الأحـرار أداة عامـة قويمة ذات أثر فعال. ومن دون المظاهر السطحية للشئون العامة، كان جبار صامتٌ هو الـرأي العـام والإرادة العامة يكافح جاهدا، وكان يبذل في بعض الأحيان مجهودا سياسيا عظيما واندفاعا إلى التصويت وما إلى ذلك، أو يخوض غمار دور من أدوار العنف الفعلي. وطالما لم يبد من الناس شيء من مظاهر العنف الفعلي، كان رجال السناتو والماليون يواصلون سياستهم الضارة المدمرة. ولم يكن هناك إلا الإخافة الشديدة سبيلاً يمنع به الشعب تلك المناسر الحاكمة أو الأحزاب من انتهاج سياستها الشنعاء ويرغمها أن تذعن للمصلحة العامة.

ولم يكن المجلس القَبلي هو السبيل الحق الذي يعبر به الشعب في إيطاليا آنذاك عن رغباته تعبيرا صادقًا، بل كانت الوسيلة إلى ذلك هي الإضراب والعصيان، وهي أصلح الطرق وألزمها لكل الشعوب التـي تمنـى بالغش أو الظلم والقمع. ولقد رأينا في زماننا هذا في كثير من دول أوربا ما اعترى الحكومة البرلمانية مـن نقص في هيبتها، ومن لجوء الجماهير إلى الطرق غير الدستورية لنفس هذا السبب عينه، أعني جنوح بعض السياسيين إلى التلاعب بالأداة الانتخابية وحرمان طائفة معينة من الناس من حـق الانتخـاب، حتـى يـدفع المجتمع إلى الانفجار دفعا.

على أن السكان المتذمرين يحتاجون في عصيانهم إلى زعيم يتزعمهم. ومن ثم فإن تاريخ روما السياسـي في القرن الختامي للنظام الجمهوري الروماني، إنما يدور حول زعماء ثورات، وآخرين يناهضون الثـورة. وواضح أن معظم الأولين مغامرون لا شرف ولا ضمير لهم ممن يحاولون الإفادة من الضـرورات الملحـة والتعاسة الفاشية بين الناس في رفع شأن أنفسهم. ويظهر الكثيرون من مؤرخي تلك الحقبة ميلاً إلى التخرب، فهم إما أرستقراطيون في نزعاتهم أو ديمقراطيون متطرفون. ولكن الواقع أن أحدا من الطرفين المشتبكين في هذه المنازعات الدقيقة المعقدة التركيب ليس له تاريخ يشهد له بسمو الغايات أو نقاء اليـدين. فـإن مجلـس السناتو والفرسان الأغنياء كانوا ذوي نفوس خسيسة شرهة معادية للجمهور المسكين محتقرة له. وكان العامة جهلة لا يستقر لهم حال، يعادلون الأولين في الشراهة على أقل تقدير ويتلألأ اسم أسرة سكيبيو بالمقارنة إلى غيرها في كل هذا السجل بوصفها مجموعة من السادة الشرفاء. وربما جاز لنا أن نحسن الظن قليلاً بـدوافع هذا الشخص أو ذاك من رجال ذلك العصر فنبسط عليه شيئًا من المزية الحسنة التي يتيحها الشك، شأننا مـع تيبريوس جراكوس مثلاً. أما الباقون فهم قوم لا يتبدى لنا منهم إلا ما هم عليه من الدهاء والمكـر والمـدى البالغ الذي بلغوه من الخبث والبراعة في المنازعات، ومقدار الذكاء في الادعاء ومبلغ ما كان يعوزهم مـن الحكمة ورشاقة الروح. ولست أجد عليهم في هذا المقام تعليقًا أبلغ من قول بعضهم وأظنـه السـير هـاري جونستون حين وصف الإنسان النياندرتالي بقوله: "هو مخلوق مضطرب المشية، أشعر، وحشي، وإن كـان فيما يرجح شديد المكر المنبعث من مخ كبير وراءه".

ولا يسعنا إلا أن نستعمل إلى يومنا هذا ألفاظا مشابهة لهذه في وصف روح رجل السياسة. فمـا أحـوج رجل الدولة أن يطرد السياسي من عرينه ويسلبه أكوام أسلحته. وما أحوج التاريخ أن يصبح سجلاً للكرامـة الإنسانية!!!

٢- المالية في الدولة الرومانية

هناك ناحية أخرى كان فيها النظام الروماني صورة بدائية وتسلقًا فجيجا لنظامنا، ومختلفًا عن كل ما تأملناه من النظم السياسية السابقة، ذلك أنه كان نظاما يستخدم طريقة الائتمان والدفع نقدا. ولم تكن العملة عرفت في العالم إلا قبل ذلك بقرون قليلة ليس غير. بيد أن استعمالها كان آخذا في النمو؛ لأنها كانت تزود الناس بأداة سيالة سهلة تعينهم على ما يقومون به من أسباب التجارة والمشروعات، وباتت تحدث في الأحوال الاقتصادية تغييرا عميقًا. وشرع رجل المال وفائدة رأس المال يلعبان في روما الجمهورية دورا بارزا بادي الشبه بالأدوار التي يلعبانها في الوقت الحاضر.

ولقد أسلفنا إليك فيما كتبناه عن هيرودوت، أن من أوائل آثار النقود أن أتاحت من حرية الحركة والفراغ، ما مكن عددا من الناس لم يكونوا ليستطيعوا من دونها أن يستمتعوا بهاتين الميزتين، وهنا تقوم القيمة الخاصة للنقود لدى الجنس البشري. فبدلاً من أن يدفع أجر العامل أو المساعد عينًا وبطريقة تغل استمتاعه قدر ما تقيده في عمله، تتركه النقود حرا في أن يفعل ما يشاء، وتدع أمامه مجال الاختيار واسعا للحصول على ما يشاء من منافع يستعين بها ومن راحة يستجم بها ومن لذات يستمتع بها. وهو قد يستهلك نقوده بتناولها طعاما أو احتسائها شرابا أو يعطيها لمعبد من المعابد، أو ينفقها في تعلم شيء أو يدخرها لمناسبة متوقعة. ذلك فضل النقود ونقطة الخير فيها، وهو حرية قابليتها للتحويل وتداولها. بيد أن الحرية التي تمنحها النقود للرجل الفقير لا تعد شيئًا بالموازنة إلى الحرية التي منحتها للثري. فإن الأثرياء قد كفوا بفضل النقود عن أن يكونوا مرتبطين بالأرض والمنازل والمخازن والقطعان والرعائل. وصاروا يستطيعون أن يغيروا طبيعة ممتلكاتهم وموضعها بحرية لم يسمع الناس بمثلها من قبل. وفي القرنين الثالث والثاني ق. م كان ما ترى من إطلاق سراح الثروة وفكاكها من الأغلال قد أخذا يؤثران في الحياة الاقتصادية العامة للعالم الروماني والمهلّن (المصطبغ بالصبغة الهلينية)، فشرع الناس يشترون الأرض وما إليها لا ابتغاء النفع الذي يفيدونه منها، بل لبيعها ثانية بشيء من الربح. وصار الناس يقترضون ليشتروا، وتطورت المضاربات. وكان هناك لا محالة رجال مصارف في بابل عام ١٠٠٠ ق. م.، بيد أنهم كانوا يقرضون في نطاق يتسم بالضيق والجمود إلى أبعد حد قضبانًا من المعدن ومخزونات من السلع. فقد كان ذلك العالم العتيق عالم مقايضة يجري فيه الدفع عينًا، وكان لهذا السبب يسير سيرا بطيئًا بل وأكثر اتزانًا وثباتًا. وعلى تلك الحالة ظلت مملكة الصين الهائلة حتى الزمن الحاضر تقريبا.

وكانت المدن الكبيرة قبل روما مدنًا تجارية وصناعية. وعلى هذه الشاكلة كانت كورنثة وقرطاجة وسيراقوزة. بيد أن روما لم تنتج قط سكانًا صناعيين وفيري العدد ولم تنافس مخازنها قط مخازن الإسكندرية. وكانت ميناء أوستيا على صغرها تفي على الدوام بكل مطالبها. وإنما كانت روما عاصمة سياسية ومالية. وكانت من هذه الناحية الأخيرة على الأقل نوعا جديدا من المدن. إذ كانت تستورد الأرباح والجزيات، ولا يخرج منها مقابل ذلك إلا أقل القليل. وكانت أرصفة ميناء أوستيا مشغولة بنوع خاص بتفريغ قمح صقلية وأفريقيا والأسلاب من العالم أجمع.

وقد جن جنون الخيال الروماني بعد سقوط قرطاجة، بما سنح له من فرص الإمكانيات المالية التـي لـم يعرف الناس لها حتى ذلك الحين نظيرا. إذ إن الصدفة أظهرت الجنس البشري على النقود كما أظهرته على معظم مخترعاته الأخرى. وكان لا يزال لزاما على الناس أن يطوروا علم النقد وأصوله الأخلاقية، كمـا لا يزال عليهم اليوم أن يبلغوا بهما مرتبة الكمال. وإن المرء ليرى تلك الأداة الصغيرة (النقود) وهـي "ترسـي جذورها" فيما سطر من ترجمة كاتو الرقيب وفيما تواتر إلينا من كتاباته. ذلك أنه كان في مستهل حياته شديد الورع مرير العداوة للربا؛ غير أنه قضى ما تلا ذلك من أيام حياته في استنباط أبرع الخطط وأسلمها عاقبـة للربا.

وإنك لترى الناس على مر هذا القرن الممتع العجيب من عصور التاريخ الروماني يتساءلون رجلاً بعـد رجل "ماذا جرى لروما؟" وتسمع عن ذلك أجوبة متنوعة: "إنه الانحطاط في الدين – أو التدهور عن مستوى فضائل السلف الأول من الرومان – أو إنها تلك "السموم العقلية" الإغريقية، وما إلى ذلك من إجابات!!. ونحن الذين ننظر إلى المسألة وأمامنا – بتراخي الدهور – أفق رحيب، نستطيع أن نحكم أن ما حاق بروما مـن النوازل إنما جلبه عليها "المال أو النقد"، وما أتاحه ذلك المال من حريات جديدة وفرص سانحة. وقـد أثـر طوفان النقود في الرومان فهاموا على متنه سابحين، ومادت الأرض الثابتة من تحت أقدامهم. فإن كل إنسان في الدولة أخذ يقبض على النقود بكلتا يديه، فاحتازتها الغالبية بالوسيلة البسيطة، وسيلة الاستدانة. وما كـان امتداد الإمبراطورية شرقًا في معظم أمره إلا تصيدا للكنوز التي تحتويها الحجرات الحصينة والمعابد، وذلك ابتغاء مسايرة تلهف الناس إلى تلك الطلبة الجديدة. وأصبحت طبقة الفوارس على الأخص هي صاحبة القـوة المالية. وكان كل فرد يزيد في ممتلكاته، وكان الفلاحون يهجرون القمح والماشية، إذ يقترضـون الأمـوال ويشترون الرقيق ويبدءون في زراعة الزيتون والكروم على نطاق واسع وإنتاج وفير.

كانت النقود حدثًا صغير السن في خبرة البشر وكانت ضارية متوحشة. فلم يكن أحد قد استطاع بعـد أن يكبح جماحها، وكانت تتأرجح تأرجحا عظيما. فهي آونة وفيرة وآونة نادرة. وكان الناس يـدبرون الخطـط الماكرة الفجة لاصطيادها وتضييق الخناق عليها واكتنازها، وكانوا يعمدون إلى رفع الأسعار بإطلاق المعادن المكتنزة. وأخذت طائفة صغيرة من أشد الناس دهاء تثرى ثراء فاحشًا. وكان الكثيرون من النبلاء (البطارقة) قد أخذ الفقر يعضهم وأخذ الغيظ بمجامع نفوسهم فلم يعودوا يستمسكون بمبدأ ولا ضمير. وكان من بين أفراد الطبقة الوسطى كثيرون تمتلئ قلوبهم بحرارة الأمل، وآخرون توفروا على الأخطار والمغامرة، وآخرون قد شاعت خيبة الآمال في نفوسهم. فأما من نزعت منهم أملاكهم وهم جمهرة نامية متزايدة فقد تدسس إليهم ذلك الشعور المبهم المربك الذي فقد المرء معه كل أمل ويحس بأنه أصبح مغلوبا على أمره وأن الكوارث تدهمه بغير ما علة ظاهرة، وهي الحالة التي تمهد السبيل لكل الحركات الثورية العظيمة.

٣- آخر العهد بالسياسة الجمهورية

كان أول زعيم بارز التجأ إلى الشعور الثوري المتجمع في إيطاليا هو تيبريوس جراكوس (Tiberius Gracdchus) وهو يبدو أقرب رجال ذلك العصر إلى النزاهة، لا نستثني منهم أحدا إلا سكيبيو الأفريقي الأسن. كان تيبريوس جراكوس في مبدأ الأمر مصلحا معتدلاً من طراز يكاد يكون رجعيا. وكان شديد الرغبة في أن يعيد إلى طبقة صغار المزارعين أملاكهم، لاعتقاده الراسخ بأن تلك الطبقة هي العمود الفقري للجيش. وقد وقرت في نفسه خبرته العسكرية في إسبانيا قبل تدمير قرطاجة وبعده، ما أصاب الكتائب الرومانية من انحطاط في كفايتها. فكان تيبريوس بذلك أحد من قد نسميهم في هذه الأيام "دعاة العودة إلى الريف". ولم يكن يدرك – مثله في ذلك مثل الكثيرين من الناس في أيامنا هذه – أن نقل السكان من الأرض إلى حضر المدينة أيسر كثيرا من إعادتهم إلى الأشغال الرتيبة في الحياة الزراعية المضنية البسيطة. فأراد أن يبعث القوانين الليسينية، التي سنت عند ما بني كاميلّوس معبده المسمى معبد الوفاق منذ نحو قرنين ونصف من الزمان (راجع الفصل الخامس والعشرين القسم ٢)، مع قصر أثر تلك القوانين على تجزئة المزارع العظيمة والحد من استخدام الرقيق في العمل.

ولطالما بعثت هاته القوانين الليسينية مرارا وتكرارا، ثم أهملت مرارا وتكرارا وعفى عليها النسيان. ولم يحدث إلا عندما اعترض كبار ملاك الأراضي في مجلس السناتو على ذلك المقترح – أن تحول تيبريوس جراكوس إلى الشعب وشرع يحدث اضطرابا عنيفًا مطالبا بقيام حكومة شعبية. فأنشأ لجنة للبحث في حق الملاك كافة في ملكية الأراضي. وبينما تيبريوس في أوج نشاطه حدثت حادثة من أشد حوادث التاريخ خرقًا للمألوف. ذلك أن أتالوس ملك برجامة ذلك القطر الغني في آسيا الصغرى مات (١٣٣ ق. م.) موصيا بمملكته للشعب الروماني.

ومن العسير علينا أن نفهم السر في تلك المنحة. فإن برجامة كانت قطرا متحالفًا مع روما، وبذلك أصبحت في مأمن من الاعتداء نوعا ما. وكانت النتيجة الطبيعية لمثل هاته الوصية هي إثارة جشع مناسر مجلس السناتو إلى عنيف التخاطف والتدافع وإضرامها نار النزاع بينهم وبين الشعب على مغانم تلك القنيصة الجديدة. والواقع أن أتالوس نزل عن مملكته لتنهبها أيدي الناهبين. وكان بتلك البلاد – لا جرم – كثير من رجال الأعمال الإيطاليين الذين استوطنوها واستقروا بها، وحزب قوي من الأهالي الأصليين ذوي اليسار لهم علاقة وثيقة بروما. وكان الانضمام إلى النظام الروماني أمرا مقبولاً لديهم ولا مراء. ويشهد يوسيفوس [1] بوجود مثل هاته الرغبة في التبعية لروما والانضمام إليها لدى أغنياء سوريا. وهي رغبة كانت على غير هوى من كل من الملك والشعب فيها. وهذه الوصية التي تهب مملكة برجامة لروما إن كانت مدهشة في حد ذاتها، فقد كانت لها إلى ذلك نتيجة أدهش منها كثيرا وهي أنها أصبحت قدوة تحتذيها أقطار أخرى. ففي (٩٦

(١) يوسيفوس (Josephus) مؤرخ يهودي عاصر الإمبراطور فسبازيان، ولد في أورشليم ٣٧ ميلادية وتوفي في ١٠٠ م. وأهم مؤلفاته كتاب "تاريخ اليهود القديم" في عشرين جزءا وهو يسرد تاريخهم منذ بدء الخليقة حتى عام ٦٦ م. (المترجم).

ق. م.) وهب بطليموس أبيون (Ptolemy Apion) بلاد برقة في شمال أفريقيا للشـعب الرومـاني. وفـي (٨١٢ ق. م) اتبع الإسكندر الثاني ملك مصر نفس الطريقة فأوصى بمصر وهي تراث أكبر من أن تتحملـه شجاعة أعضاء مجلس السناتو إن لم يكن أكبر من أن تستسيغه أفهامهم، فرفضوا قبول هذه الهبة. وفـي (٧٤ ق. م.) أوصى نيقوميدس ملك بيثينيا ببلاده بعد وفاته لروما. ولن نزيدك في هذا المقـام حـديثًا عـن هـذه الوصايا الأخيرة الشاذة. ومن هنا يتضح عظم الفرصة التي أتاحتها هبة أتالوس لتبريوس جراكوس فشرع من فوره يتهم الأثرياء بالشره، وألح في طلب إصدار المراسيم بإعطاء كنوز أتالوس للشعب عامة. واقتـرح أن تستخدم هذه الثروة الجديدة في إمداد الناس بالبذور والماشية والأدوات الزراعية حتى يعـودوا إلـى المقـام بالريف والاستقرار في أراضيه.

على أن حركته سرعان ما اشتبكت في أحابيل النظام الانتخابي الروماني المعقدة. وذلك أن كل الحركـات الشعبية إن لم يكن لها واقٍ من نظام انتخابي بسيط قويم، فلا مناص لها في كل العصـور مـن أن تصـاب بالاضطراب والاختلال، ويمسها مما يخالطها من المعقدات الدستورية مس من الجنون ثم توشك الضرورة أن تؤدي بها إلى سفك الدماء. وكان من اللازم لتيبريوس جراكوس – إن شاء لعمله دواما – أن يظل في وظيفة التريبيون، ولم يكن القانون يبيح له أن يصبح تريبيونًا مرتين متعاقبتين. ولذا تجاوز حدود القـانون، وأخـذ يطالب بأن يعين للمرة الثانية في وظيفة التريبيون. وحضر الفلاحون الذين جـاءوا مـن الريـف ليعطـوه أصواتهم مسلحين. فتعالت في مجلس السناتو الصيحات القائلة بأنه يرمي إلى جعل نفسه طاغية، وهي تلـك الصيحات التي قضت منذ زمن طويل على مايليوس ومانْليوس، فذهب أنصار "القانون والنظام" إلى الكابيتول بهيئة رسمية يصحبهم زعانف من الأتباع مسلحين بالعصي والهراوات. وحدث بين الطرفين نـزاع، أو قـل مذبحة في الثوار، قتل فيها ما يقرب من ثلاثمائة شخص، وضرب تيبريوس جراكوس حتى قضـى نحبـه، ضربه اثنان من أعضاء مجلس السناتو بحطام مقعد مكسور.

وعند ذلك حاول أعضاء السناتو أن يقوموا بثورة مضادة، وأهدروا دماء كثيرين مـن أتبـاع تيبريـوس جراكوس وصادروا أملاكهم. بيد أن الرأي العام كان غاضبا متوعدا بحيث أهملت هذه الحركـة، واضـطر سكيبيو ناسيكا الذي كان له ضلع في مقتل تيبريوس أن يرحل إلى الخارج اتقاء للشر وإن كان يشغل وظيفـة الحبر الأعظم (Pontifex maximus) وكان لزاما عليه أن يبقى في روما من أجل تقديم القرابين العامـة، وهي التي كانت قوام واجبات منصبه.

وبعد ذلك بقليل ثارت نفس سكيبيو الأفريقي الأصغر لما كان يشهده في إيطاليا من دلائل القلق فاقترح منح كل إيطالي الحرية المدنية. غير أنه مات موت الفجاءة قبل أن يخرج اقتراحه إلى حيز التنفيذ.

ثم أعقبه كايوس جراكوس (Caius Gracchus) وسيرته مبهمة وهو أخو تيبريوس، فاتبع "سياسة" ملتوية، لا تزال تحير عقول المؤرخين. فإنه زاد في أثقال الضرائب الملقاة على عاتق الولايات، ويظن أنه كان يرمي بذلك إلى إثارة الماليين الحديثين أعني الفرسان (Equites) على أصحاب الأراضي من أعضاء السناتو. وأعطى الأولين التزام جباية الضرائب في ولاية آسيا الموهوبة للدولة حديثًا، وأدهى من ذلك وأمر أنه أعطاهم حق الرقابة على المحاكم الخاصة المعينة لمنع الابتزاز. ثم شرع يقوم بأعمال عامة هائلة وبخاصة إنشاء الطرق الجديدة، واتهم بأنه يستغل العقود لخدمة مآربه السياسية. ثم بعث من جديد الاقتراح الخاص بمنح إيطاليا كلها الحقوق المدنية. وزاد في مقدار القمح الرخيص الموزع إعانة للمواطنين الرومان... ولسنا بمستطيعين محاولة تفسير خططه، ولا نحن بقاضين فيه برأي. ولكن لا يخالجنا أدنى شك أن سياسته قد أساءت إلى الجماعات التي كانت تتحكم في مجلس السناتو. فذبحه أنصار "القانون والنظام" ومعه قرابة ثلاثة آلاف من أتباعه في شوارع روما (١٢١ ق. م.). وحمل رأسه المفصول عن جسده إلى السناتو على رأس حربة.

(ويقول بلوتارك: إن القاتل منح جائزة تعادل وزن الرأس ذهبا مقابل ما أحرز من أمارات النصر؛ وأن هذا السفاك قد تصرف أليق التصرفات وأجدرها بنصراء الشرف والنزاهة "وجلائل الأعمال" فملأ (تجويف الجمجمة بالرصاص وهي في طريقها إلى الميزان!!..).

وعلى الرغم من هذه التدبيرات السريعة الحازمة لم تكتب الأقدار للسناتو أن يستظل لواء السلام وينعم بمزايا التحكم في موارد الإمبراطورية زمانًا طويلاً، فلم تنقض عشر سنوات حتى ثار القوم ثانية.

ففي (١١٨ ق. م.) تملك عرش نوميديا وهي المملكة شبه الهمجية التي نشأت في أفريقيا الشمالية على أنقاض الدولة القرطاجية الممدنة، ملك قدير اسمه يوجورثا (Jugurtha)، سلفت له الخدمة العسكرية مع الجيوش الرومانية في إسبانيا، فكان أعرف الناس بالخلق الروماني. وقد سببت بعض تصرفاته تدخل روما العسكرية. على أن الرومان وجدوا أن قوتهم العسكرية في ظل سناتو مكون من الماليين وملاك الأراضي مختلفة جد الاختلاف عما كانت عليه حتى في أيام سكيبيو الأفريقي الأصغر." واشترى يوجورثا ذمم المندوبين المرسلين لمراقبته وأعضاء السناتو الذين عهد إليهم بمحاكمتهم، والقواد أصحاب الإمرة على الجيوش المسيرة إليه. "[1] وهناك مثل روماني هذا نصه: المال لا يأسن "Pecunia non olet". ولكنه مثل خاطئ ذلك أن نقود يوجورثا أَسِنَتْ وفاحت رائحتها حتى في روما. فثار ثائر القوم؛ وفي أثناء موجة الغضب العام رفع إلى منصب القنصلية جندي مقتدر وضيع الأصل اسمه ماريوس (١٠٧ ق. م.). ولم يحاول ماريوس أن ينسج على منوال آل جراكوس بأن يعيد للريف طبقة صغار الملاك الذين هم عماد الجيش وعموده الفقري. كان جنديا محترفًا على درجة عالية من الكفاية وميل إلى سلوك أقصر السبل. فاكتفى بأن جمع الجنود من بين طبقات الفقراء، سواء أكانوا من أهل الريف أم من الحضر وأجزل لهم العطاء ونظمهم تنظيما كاملاً. ثم أنهى في (١٠٦ ق. م.) حرب السنوات السبع مع يوجورثا بإحضاره ذلك الزعيم إلى روما

([1]) انظر فريرو في المرجع السابق.

مكبلاً بالسلاسل والأغلال. ولم يخطر ببال إنسان أن ماريوس قد قام أيضا بمحض الصدفة بإنشاء جيش محترف ليس له من مصلحة تجمع شتاته إلا أعطياته. ثم أقام في وظيفة القنصلية سنوات عدة لا يبالي أكان بقاؤه فيها قانونيا أم غير قانوني، وفي (١٠٢، ١٠١ ق. م.) صد حركة هجوم خطرة قام بها الجرمان (الذين يظهرون بذلك في تاريخنا لأول مرة)، والذين كانوا يغيرون مخترقين بلاد الغال في طريقهم إلى إيطاليا. فأحرز نصرين، أحدهما على الأرض الإيطالية. فهلل له الناس وأكبروه كمنقذ لوطنه، وشبهوه بكاميلّوس (١٠٠ ق. م.).

ولطالما سخرت التوترات الاجتماعية في ذلك الزمان من تشبيهه بكاميلّوس، وقد اجتنى السناتو أكبر الفوائد بما تم من النشاط الكبير في الشئون الخارجية ومن الكفاية العسكرية المتزايدة التي وضع ماريوس أسسها. بيد أن التذمر القبيح المرير الذي يملأ نفس الجمهور كان لا يزال يبحث عن منقذ فعال ينفّس عنه ما به. وازداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا. وكان من المحال مواصلة استخدام الأحابيل السياسية إلى الأبد في القضاء على نتائج هذه الحال. فإن الشعب الإيطالي كان لا يزال محروما من حقوقه المدنية. وقد اغتيل اثنان من الزعماء الديمقراطيين المتطرفين. هما ساتيرنيوس (Saturninus) وجاوكيا (Glaucia). بيد أن هذا العلاج المألوف الذي اعتاده مجلس السناتو باء بالفشل في تهدئة الشعب في هذا الظرف. وفي (٩٢ ق. م.) حاول موظف أرستقراطي هو روتيليوس روفوس أن يضع حدا لابتزازات الماليين في آسيا الصغرى، فاتهم بالفساد والرشوة – وكان ذلك اتهاما مفتعلاً لم ينخدع له أحد – ثم قضى بإدانته. وفي (٩١ ق. م.) اغتيل ليفيوس دروسوس (Livius Drusus) وهو تريبيون للشعب حديث الانتخاب، حاول أن يستغل محاكمة روتيليوس روفوس، واقترح منح الحقوق المدنية للإيطاليين عامة. ولم يكن ظهوره نذيرا فحسب بسن قانون آخر للأراضي بل ومؤذنًا بإلغاء عام للديوان. ومع ذلك فعلى الرغم من هذه الشدة التي كان يبديها رجال السناتو المرابون ومتصيدو الأراضي ومحتكرو الأسواق، لم ين الجياع والقلقون عن ملاحقتهم بالتمرد والعصيان. وكان مقتل دروسوس آخر قطرة في كأس العامة؛ فإن إيطاليا اضطرمت بنار عصيان مستيئس.

ونشبت في أعقاب ذلك حرب مدنية مريرة دامت سنتين، هي الحرب الأهلية، وهي صراع بين فكرتين إحداهما تنادي باتحاد إيطاليا والأخرى تقول بحكم السناتو الروماني وسيادته. ولم تكن تلك الحرب حربا "اجتماعية" بالمعنى العصري، وإنما هي حرب بين روما وأحلافها (Socii) [1] من الإيطاليين. "وطفق القواد الرومان المدربون على تقاليد الحروب الاستعمارية يذرعون إيطاليا بكل قسوة طولاً وعرضا: يحرقون المزارع وينهبون المدن ويحملون الرجال والنساء والأطفال أسرى لكي يبيعوهم في السوق علنًا أو يسخروهم في العمل جماعات في مزارعهم الكبيرة [2] ".

---

(1) Socii ومفردها Socius هو الحليف. (المترجم).

(2) فيريرو المصدر نفسه.

وكان يقود جيوش روما ماريوس ومعه قائد أرستقراطي هو سلاّ (Sulla)، وقد كان يعمل معه في أفريقيا كما كان منافسا لدودا له، ومع أن الثوار كابدوا كثيرا مما لاقوا من هزائم وما فقدوا من أسلاب، فإن واحـدا من هذين القائدين لم يستطع وضع حد للحرب. على أنها انتهت بشكل ما (٨٩ ق. م.) بأن سلم السناتو عمليا بفكرة الإصلاح فسلبت الثورة روحها بقبول مطالب الثوار "من ناحية المبدأ". وما إن تفرق الثوار حتى عـاد زعماء السناتو إلى ما ألفوه من تلاعب بالناخبين الجدد قائم على نفس الأساليب التي شرحناها في القسم الأول من هذا الفصل.

وما وافت السنة التالية (٨٨ ق. م) حتى كانت الجولة القديمة ابتدأت من جديد. وكان يشـوبها ويخالطهـا المؤامرات الشخصية التي يأتمر فيها كل من ماريوس وسلا بصاحبه. ولكن الكفاح اتخذ لونًا جديدا. بسـبب إصلاحات ماريوس في الجيش، التي أنشأت طرزا جديدا من الكتائب المكونة من جند محترفين لا أرض لهم ولا مصلحة في الحياة غير الأعطيات والأسلاب، ولا شعور عندهم بالولاء إلا نحو قائـد موفـق. وظهـر ريبيون شعبي اسمه سلْبيكيوس (Sulpicius) أخذ يسن بعض قوانين جديـدة تتصـل بالـديون، بينمـا راغ القنصلان من العاصفة بإعلان إيقاف الأعمال العامة. ثم جاء الدور المعتاد من اللجوء إلى العنـف، فطـرد أتباع سلبيكيوس القنصلين من سوق المدينة (الفوروم). وعند ذلك ظهرت القوى الجديدة التي قوامها الجـيش الجديد وتقدمت للعمل. فإن مثريداتس (Mithridates) ملك بنطش المطبوعة بالطابع الهلّيني والواقعة علـى شواطئ البحر الأسود الجنوبية والمتاخمة من الناحية الشرقية بيثينيا، أخذ يتحرش بروما ويسـتدرجها إلـى الحرب. وكان من بين مشروعات القوانين التي اقترحها سلبيكيوس قانون يقضي بأن يقود ماريوس الجيـوش التي أرسلت إلى ذلك الملك. وعند ذلك زحف "سلاّ" على روما بالجيش الذي كان تحت إمرته طوال الحـرب الأهلية، ففر ماريوس وسلْبكبيوس، وابتدأ عصر جديد هو عصر الإعلانات والتصريحات العسكرية الثورية.

ولسنا بمستطيعين أن نبين لك في أي تفصيل كيف جعل سلاّ من نفسه قائدا للحملة على مثريداتس ثم رحل عن البلاد، ولا كيف أن الكتائب الموالية لماريوس قبضت عند ذلك على زمام الحكم، ولا كيف عاد ماريوس إلى إيطاليا وتشفّى من خصومه السياسيين بمذبحة رهيبة، ثم مات بالحمى بعد أن روى غلّته انتقاما. غير أن هناك تدبيرا واحدا أبرم في أثناء حكم الإرهاب الذي أقامه ماريوس وكان له فضل كبير في تخفيـف التـوتر الاجتماعي، ذلك هو إلغاء ثلاثة أرباع الديون المستحقة. ولسنا بمستطيعين أيضا أن نبين لك كيـف أن سـلاّ عقد صلحا مخزيا مع مثريداتس (الذي سبق له أن أعمل السيف في مائة ألف إيطالي بآسيا الصـغرى (لكـي يرجع بكتائبه إلى روما، ويهزم أنصار ماريوس عند معركة بوابة كولين (Colline Gate) بروما، ويـنقض كل ما أبرمه ماريوس من تنظيمات. واستعاد سلاّ النظام والقانون بأن أهدر دماء أكثر من خمسة آلاف إنسان أعدمهم وصادر أملاكهم. وخرب أجزاء كبيرة من إيطاليا فأصبحت قاعا صفصفًا، وأعاد إلى السناتو سلطانه، ونقض كثيرا من القوانين الحديثة العهد، وإن لم يستطع أن يرجع أعباء الديون الملغاة، حتى إذا داخله الملـل من السياسة وقد جمع ثروة طائلة، فإنه اعتزل العمل يحوطه جو من الكرامة، وما لبث أن استسـلم لأبشـع الملذات. وسرعان ما قضى نحبه، وقد أكل جسده مرض وبيل مما يسببه الفسوق.

٤- حقبة القواد المغامرين

لم يكن ما طرأ على الحياة السياسية في إيطاليا بعد ذلك من السكون هدوءا قدر ما كان ذهولاً مما استهدفت له على يد ماريوس وسلا من ذريع المذابح والمصادرات. ولا يسمح لنا النطاق الذي وضع على أساسه هذا الكتاب بأن نتكلم هاهنا عن كبار المغامرين الذين سرعان ما أخذوا يدبرون خططا ودسائس يرمون من ورائها إلى إقامة الديكتاتورية في روما معتمدين اعتمادا متزايدا على نصرة الكتائب لهم. وفي (٧٣ ق. م.) ذعرت إيطاليا بأجمعها بثورة الأرقاء وبخاصة المجالدين منهم بقيادة مجالد تسالي اسمه سبارتاكوس. كان هرب ومعه سبعون آخرون من "ضيعة" للمجالدين في كابوا (Capua). وحدثت ثورات مشابهة لهذه في صقلية. وأصبحت القوات التي تحت إمرة سبارتاكوس عصبة مخلطة تجمعت حوله من كل حدب وصوب، وليس بينها من رابط أو فكرة مشتركة إلا فكرة التفرق والعودة إلى الأوطان. ومع ذلك فإنه صمد في جنوب إيطاليا مدة سنتين، متخذًا من فوهة بركان فيزوف التي كانت خامدة آنذاك خمودا ظاهريا قلعة طبيعية تحصن بها حينًا من الدهر. وبالرغم من حب الإيطاليين لحفلات المجالدين، فإنهم كرهوا تحويل كل البلاد إلى مجتلد عام، وتوصيل سيف المجالدين إلى أبواب المنازل. فلما أن غلب سبارتاكوس وأصحابه على أمرهم آخر الأمر، انقلب رعب الرومان منهم إلى قساوة جنونية، فصلب ستة آلاف من أتباعه الذين أسروا – وامتدت الضحايا الذاوية المرفوعة على الأعواد مسافة أميال طويلة على طول الطريق الأبياني.



١١١ — پمپی العظيم

ولسنا بقادرين هنا أن نسهب الحديث في لوكولّوس (Lucullus) الذي اجتاح بنطش وحارب مثريـداتس، وجاب شجرة الكريز لتزرع لأول مرة في أوربا. ولا كيف استطاع بومبي العظيم (Pompey) أن يغتصـب بمهارة وحذق معظم ما فاز به لوكولّوس في أرمينية وراء بنطش من نصر وهيبة وسلطان. وتقاعد لوكولّوس كما فعل سلاّ فعاش عيش الثراء واليسار يحوطه جو أكثر لياقة وكرامة من صاحبه حتى انتهى إلـى نهايـة أشرف وأكرم. ولسنا كذلك بمفصلين القول في كيف أن يوليوس قيصر حاز في الغرب الشهرة البالغة بغزوه بلاد الغال وهزيمته القبائل الجرمانية على نهر الراين، ثم بتوجيهه حملة تأديبية عبـر مضـيق دوفـر إلـى بريطانيا. وتزايدت الكتائب أهمية يوما بعد يوم بقدر ما تناقصت قيمة السناتور والمجالس في روما. على أن قصة كراسوس يحيط بها من الفكاهة المرة جو لا نستطيع تلقاءه أن نغفلها كلية.

كان كراسوس هذا مرابيا عظيما ومحتكرا كبيرا، فكان نموذجا لطراز الفرسان بوضعهم الجديـد. وهـو يعادل من الناحية الاجتماعية رجال السوق السوداء المستغلين لأسعار المؤن والذخائر في العصر الحـديث. وقد أثرى في أول أمره بأن اشترى أملاك أولئك الذين أهدر سلاّ دماءهم وصادر أملاكهم. وكانت أول جهوده الحربية في الميدان حملته ضد سبارتاكوس، فاستطاع آخر الأمر أن يقضي عليه بدفع المبالغ الطائلة وبـذل المجهودات الشاقة بعد حملة طويلة الأمد باهظة النفقة. ثم استطاع بعد ذلك أن يتولى القيادة في الشرق نتيجة لمساومات وصفقات معقدة، ثم تهيأ لمنافسة ما ناله لوكولّوس من مجد، وهو الذي تقدم من برجامـة وبيثينيـا شرقًا إلى بنطش، كما تأهب لمطاولة مجد بومبي الذي كان أتم نهب أرمينية.

ويساعدنا ما حاق به من محن على تبيان الجهل المطبق الذي كان الرومان يسيرون به أمورهم في ذلـك الزمان. فإن عبر نهر الفرات متوقعا أن يجد في بلاد فارس مملكة مهلّنة تشبه بنطش [1]. ولكن حقيقة الأمـر كما سبق أن أشرنا هي أن المستودعات الكبرى للشعوب المترحلة التي كانت تمتد من الدانوب عبر الروسـيا إلى آسيا الوسطى، أخذت تفيض ثانية في الأراضي المحصورة بين بحر قزوين ونهر السند وهـي المنطقـة التي غزاها الإسكندر وضمها للنفوذ الهلليني. وما لبث كراسوس أن وجد نفسه من جديد أمام "الإسـكيذيين"، أمام قبائل سريعة الحركة من الفرسان يقودهم ملك في ثياب ميدية. وكان من لقيهم من "الإسـكيذيين" شـاكلة خاصة تسمى بالبارثيين (Parthians). ويحتمل أن البارثيين كان يخالط دماءهم عنصر مغولي (طـوراني) ممتزجا بالسلالة الآرية. ومن غرائب الاتفاق أن حملة كراسوس وراء الفرات تشبه حملة دارا وراء الدانوب شبها عجيبا. إذ حدث في هذه كما حدث في تلك أن قذف القائد قذفًا ثقيلاً بقوة من المشاة ضـد راكبـة مـن الفرسان مراوغة خفيفة الحركة. بيد أن كراسوس. كان أبطأ من دارا إدراكًا لضـرورة الانسـحاب، وكـان البارثيون ناشبة يفوقون الإسكيذيين الذين لقيهم دارا براعة ومقدرة. ويبدو أنه كان لديهم نوع ما من القـذائف الرنانة لها شدة وقوة غير عاديتين، وتختلف عن السهم العادي. ويقول الأستاذ ج. ل. مـايرز (Myres)، إن هذا القوس كان فيما يرجح هو القوس المركب، المسمى كذلك لأنه كان مصنوعا من لوحات عديدة من القرن

---

(1) إن شئت توسعا في تاريخ هذه المنطقة هي وبلاد الإغريق ومصر وسوريا في تلك الأيام وقبلها بقليل أي بعد الإسكندر فاقرأ للمترجم كتاب و. تارن "الحضارة الهللينستية" الألف كتاب ومكتبة الأنجلو.

تبلغ الخمس أو نحو ذلك، على هيئة زمبركات (سوستات) العربات. وهو يقذف سهما عالي السرعة له طنين. وكان هذا هو القوس الذي كانت المغول تستعمله. فهذا القوس المركب – ولم يكن بالطويل – قديم العهد جدا في الخبرة الإنسانية. فهو قوس أوديسيوس (Odysseus). وكان لدى الأشوريين على هيئة معدلة. وقد اندثر من بلاد الإغريق ولكنه ظل معروفًا لديهم باسم القوس المغولي. كان قصيرا تمام القصر، صـلبا جـدا فـي جذبه، وله خط سير منبسط ومدى طويل عجيب وضجة عظيمة (نقلاً عن إشارة هـوميروس إلـى طنـين القوس). ولكنه زال من البحر المتوسط، لأن المناخ هناك لا يناسبه، ولأنه لم تكن هناك حيوانات كافية لتقديم ما يلزم لصنعه من القرون.

وبلغت الحملة أقصى ذروتها في تلك المذبحة المعروفة باسم معركة كاراي (Carrhae)(٥٣ ق. م.)، التي استمرت يومين أعمل العدو فيهما الذبح في الفرق الرومانية وقد أعياها الحـر وأنهكهـا العطـش والجـوع وأضناها التعب. لقد ظلوا يكدحون في الرمال الحارة مهاجمين عدوا لا يبرح يروغ منهم، ثم يدور من خلفهم راكبا ويعمل فيهم بالقسي حتى يمزقهم أشتاتًا. فقُتل منهم في المعركة عشرون ألفًا، وواصـل عشـرة آلاف المسير شرقًا بعد أن أخذوا أسرى وأصبحوا أرقاء في إيران.

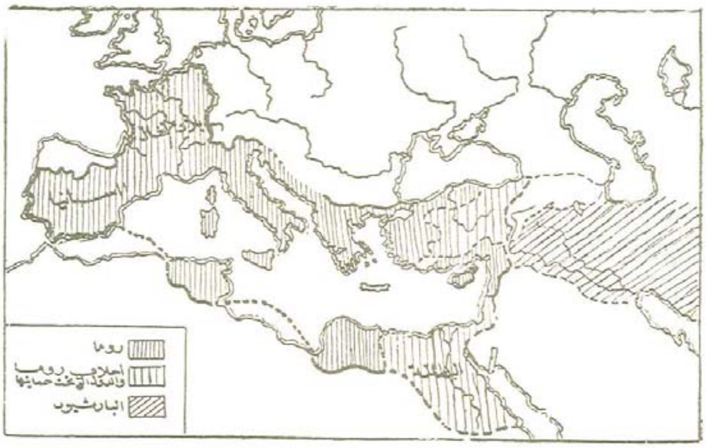
وإن أحداط لا يدري على وجه الدقة ماذا جرى لكراسوس. وهناك قصة، ربما حبكت لتكون عظة خلقيـة لنا وربما أوحى بها اشتغاله بالربا تقول: إنه وقع حيا في أيدي البارثيين، فقتل بأن صب فـي فيـه الـذهب المصهور.

والحق إن لهذه الكارثة دلالة عظيمة الأهمية في هذا التاريخ العام للإنسانية. فإنها تساعد على تذكيرنا، أنه من الراين إلى الفرات وعلى الأرض الممتدة بينهما، إلى شمال جبال الألب ونهر الدانوب والبحر الأسـود – كانت تمتد سحابة واحدة متصلة من الشعوب المترحلة وشبه المترحلة الذين لم يستطيع دهاء روما السياسـي والاستعماري أن يكبح جماحهم ويبعث فيهم السكينة ويبث المدنية بينهم كما لم تتمكن فنونها العسـكرية مـن إخضاعهم. ولقد استرعينا النظر قبل هذا إلى خريطة تبين كيف رقدت الإمبراطورية البابلية الثانيـة (وهـي الإمبراطورية الكلدانية)، رقدة الحمل بين ذراعي الدولة الميدية. وعلى نفس هاته الشاكلة بالضـبط، رقـدت الإمبراطورية الرومانية رقود الحمل بين ذراعي هذا الهلال العظيم من البرابرة النازلين بأوطـانهم النائيـة خارج حدودها. ولم تثبت روما فحسب عجزها التام عن دفع ذلك الهلال المتراكب حول كاهلها، وعن تمثلـه في كيانها، بل إنها لم تستطع قط أن تنظم طرق المواصلات في البحر المتوسط وتجعـل لهـا فيـه نظـام مواصلات مضمونًا مأمونًا محكما بين مختلف أجزاء إمبراطوريتها. وكانت روما لا تزال تجهل كل شـيء عن قبائل المغول في شمال شرق آسيا وهم الهون وذوو قرباهم، ممن دأبت أسرتا تسي وهـان علـى صـد تيارهم عن الصين بإقامة السور ومطاردتهم بالقوة، فأخذوا يزحفون غربا مخالطين البارثيين [1] والإسكيذيين والتيوتون ومن إليهم أو دافعين إياهم أمامهم.

---

[1] البارثيون: هم سكان بارثيا وهو الاسم الذي كان يطلق قديما على بلاد خراسان وشـمال إيـران وعاصـمتها إكتيسـفون. (المترجم).

ولم يحدث مطلقًا أن نجح الرومان في توسيع حدود إمبراطوريتهم إلى ما وراء أرض الجزيرة، ولم تكن قبضتهم على أرض الجزيرة مكينة قط. وقبل نهاية عهد الجمهورية أخذت مقدرتهم على التمثل تلك التي كانت فيما سلف سر نجاحهم تزول وتذوى ويحل محلها حال من الاعتزال أو العزلة "الوطنية" والشراهة "الوطنية". وقد نهبت روما آسيا الصغرى ومملكة بابل، ثم دمرتهما وهما القاعدة اللازمة للتوسع شرقًا نحو الهند، تماما مثلما دمرت ونهبت قرطاجة، وبهذا حرمت نفسها من موطئ قدم تمتد منه أملاكها في أفريقيا، وكما فعلت بالضبط في تدميرها. كورنثة، فقطعت بذلك على نفسها طريقًا سهلاً يوصلها إلى قلب بلاد الإغريق. وكثيرا ما يميل كتّاب الغرب الأوربيون لتأثرهم بما فعلته روما فيما بعد من صبغ بلاد الغال وجنوب بريطانيا بالصبغة الرومانية وبث المدنية فيهما وتعويض إسبانيا عما أنزلته بها في البداية من الإتلاف والتخريب يسرا ورخاء، - كثيرا ما يميل هؤلاء الكتّاب إلى التغافل عن أنها وجهت نفوذها في مناطق أخرى أعظم كثيرا تقع إلى الجنوب والشرق، إلى إضعاف تلك الأراضي المترامية الأطراف المنتزعة من يد المدنية الهلينية وإلى ردها ثانية إلى مرتبة الهمجية.



خريطة سلطان روما حوالى ٥٠ ق . م

(١١٢)

٥- نهاية الجمهورية

لم يكن لدى سياسي إيطاليا في القرن الأول قبل الميلاد خرائط لألمانيا والروسـيا ولا أفريقيـا ولا آسـيا الوسطى، ولم يكن فيهم من وهب القدر الكافي من الذكاء لدراستها لو أنها وجدت. ولم تبعث روما في النفوس قط ذلك النوع الدقيق من حب الاستطلاع الذي ساق هانو وملاحي الفرعون نخاو إلى ارتياد سواحل أفريقيا. وعندما حدث في القرن الأول (ق. م) أن وصل مبعوثو أسرة هان إلى الساحل الشرقي لبحـر قـزوين، لـم يجدوا إلا أقاصيص متناثرة عن مدنية بادت وعفت آثارها. وكانت ذكرى الإسكندر لا تزال باقية فـي تلـك البلاد، أما روما، فلم يكن الناس يعرفون عنها إلا أن بومبي وصل إلى شواطئ بحر قزوين الغربية ثم عـاد أدراجه وأن كراسوس هلك وقضى نحبه. وكانت روما مشغولة بشئونها الداخلية. ذلك أن البقية الباقيـة مـن طاقة المواطن الروماني الذهنية بعد الذي ينفقه منها في محاولاته الوصول إلى موفور الثراء والعيش بسلامة الشخص وعافية البدن، كانت تستنفدها شدة انشغال باله بما يجري من خطط ومكائد وضربات تُكال وضربات أخرى مضادة يقوم بها شتى المغامرين الذين كانوا يتخاطفون إذ ذاك السيادة العليا والسلطان جهارا.

وقد درج المؤرخون على أن يعالجوا هذه المنازعات باحترام مفرط. فهم يصورون لنا شخص يوليـوس قيصر بصفة خاصة كما لو كان نجما بلغ في تاريخ الإنسانية ذرا التألق والأهمية. ومع ذلك فإن نظرة تأمـل مجردة من الهوى وفاحصة للحقائق المعروفة عنه لا بد أن تُمنى بالفشل التام في تبرير تلك النظريـة التـي تجعل من قيصر نصف إله. بل إن الإسكندر الأكبر نفسه، ذلك الغرير المخيب لكل ما نيط به من آمال كبار وما تهيأ له من إمكانيات جسام، قد فخم وعظم شأنه وأسبلت عليه ثياب رائعـة تسـترعي إعجـاب القـراء السطحيين العاجزين عن النقد. وهناك طراز من العلماء يقصر همه – وأقولها صـريحة واضـحة – علـى القعود للتقول واختراع سياسات عالمية عجيبة ينحلونها أبرز شخصيات التاريخ بانين ذلـك علـى مبـررات أوهن من خيط العنكبوت أو على غير مبرر إطلاقًا.

أولئك يخبروننا مثلاً أن الإسكندر كان يزمع فتح قرطاجة وروما، وكان يبغي إخضاع الهند إخضاعا تاما، وأنه لم يقض على هذه الخطط سوى وفاته. وكلّ ما نعرفه على وجه التحقيق هو أنه غـزا الإمبراطوريـة الفارسية ولم يتجاوز حدودها أبدا إلى مدى بعيد. وأنه يوم كان الاعتقاد سائدا أنه يدبر هذه الخطـط الهائلـة النبيلة، كان في حقيقة الأمر يستمرئ أمورا بالغة حد البشاعة والسخرية مثل حزنه على حظية هيفايسـتيون، ويجعل شغله الشاغل أن يحتسي الخمر حتى يغيب عن وعيه. وعلى هذا النحو ينسب البعض إلـى يوليـوس قيصر أنه أزمع الإقدام على نفس ذلك الأمر الوحيد الذي لم يكن من المستحيلات والذي كان كفـيلاً بإنقـاذ الإمبراطورية الرومانية من انهيارها النهائي – وأعني به فتح أوربا فتحا منظما حتى بحر البلطيـق ونهـر الدنيبر وطبعها بطابع الحضارة. ويقول بلوتارك، إنه كان يأمل أن يزحف على ألمانيا مخترقًا بارثيا وإسكيذيا عن طريق شمال بحر قزوين والبحر الأسود.

ومع ذلك فإن الحقيقة التي نحن ملزمون أن نوفق بينها وبين ذلك المشروع الحكيم الواسع النطاق تقول بأن قيصر وهو في أوجه قوته وقد أصبح رجلاً أصلع وجاوز منتصف العمر وتخطى رشاقة الحب الفتي الحـارة ودوافعه الجامحة – قضى الردح الأكبر من عام بمصر يقيم الولائم ويسلي نفسه ويرفه عنها بتبادل كئـوس الغرام والملذات مع الملكة المصرية كليوباترة. ثم استصحبها معه بعد ذلك إلى روما، حيث ضـاق النـاس ضيقًا مريرا بسلطانها عليه. وإن وقوعه في حبائل امرأة على هذا النحو ليبين فيه شهوة الشـيخ المسـن أو عاطفته – إذ إنه كان في الرابعة والخمسين عند ابتداء هذه العلاقة – أكثر مما يظهره في صورة السيد الآمر القاهر للرجال.

ولزام علينا – إبرازا لحجج نظرية وضع قيصر فوق مصاف البشر وإنزاله منزلة السوبر مان – أن ندخل في تقديرنا ذلك التمثال النصفي لقيصر الموجود في متحف نابولي. وهو يمثل وجها ممتازا سامي المـدارك شديد النبل في تعبير قسماته، وفي إمكاننا أن نقرن هذا بالقصة القائلة بأن رأسه كان حتى في يوم مولـده، ذا ضخامة غير عادية، كما كان ممتاز الشكل. ولكن ليس هناك في الحقيقة دليل مقنع بأن هذا التمثال النصـفي الشهير يمثل قيصر فعلاً. ومن العسير أن نوفق بين ما يتجلى فيه من صفاء النفس واطمئنـان شـديد وبـين اشتهار قيصر بالدوافع العنيفة وسوء النظام. وهناك تماثيل نصفية أخرى تمثل رجلا مختلفًا وهي تنسب إليـه مع أرجحية أعظم.

ولا يخالجنا أقل شك أنه كان في صباه رجلاً فاسقًا خليعا ومسرفًا مبذرا – وتترادف الفضائح حول اسـمه أثناء إقامته في بيثينيا التي لجأ إليها فرارا من سلاّ؛ وكان قرينًا للخليع الفاجر كلوديوس والمتـآمر كاتيلينـا، وليس في سيرة حياته السياسية أي شيء يدل على وجود أي هدف له يعلو أو يبعد عن رغبته في رفع نفسـه إلى مرتبة القوة والسلطان وإلى كل ما تيسره القوة من المجد الشخصي والمتعة الذاتية. ولسنا بمحـاولين أن نخبرك هاهنا عن أساليب حياته والدورات التي ألمت بها. وهو وإن كان ينتمـي إلـى أسـرة عريقـة مـن البطارقة، فإنه دخل ميدان السياسة بوصفه معبود الشعب وبطله المتألق. فأنفق مبالغ طائلة واسـتدان ديونًـا باهظة ليقيم ولائم عامة على أعظم ما يكون السخاء والإسراف. ولقد عارض تقاليد سـلاّ واعتـز بـذكرى ماريوس، الذي كان زوجا لخالته. وأقام زمانًا يعمل في ألفة ووفاق مع كراسوس وبومبي، ولكن دبيب الشقاق دب بينه وبين بومبي بعد وفاة كراسوس.

وما وافت سنة (٤٩ ق. م.) حتى كان يقتتل هو وبومبي ويتنازعان علنًا على السلطان في الدولة الرومانية تؤيد كلا منهما كتائبه، فقيصر من الغرب وبمبي من الشرق. وقد خالف القانون بإحضاره كتائبه عبـر نهـر الروبيكون الذي كان الحد الفاصل بين ما تحت إمرته وإيطاليا نفسها. وشتت شمل جيش بومبي في معركـة فارسالوس في تساليا (٤٨ ق. م)، وفر بومبي إلى مصر، فقتل بها تاركًا في يد قيصر من السيادة على العالم الروماني ما لم يبلغه سلا أبدا.

وعند ذلك عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات (٤٦ ق. م.)، وفي أوائل (٤٥ ق. م.) عين دكتـاتورا مـدى الحياة. وكان هذا هو الملكية بعينها. ولئن لم تكن وراثية، فلقد كانت على الأقل انتخابية مدى الحياة. وكانـت تلك فرصة لا حد لها يؤدي فيها خير ما في مستطاعه لخدمة العالم. ونحن ملزمون أن نحكم عليه مـن كنـه وروح استخدامه لهذه السلطة الدكتاتورية في أثناء تلك السنين الأربع. فأعاد تنظيم الإدارة المحلية شيئًا مـا. ويلوح أنه تصدى لموضوع كانت الحاجة إليه في تلك الأيام واضحة نوعا ما، وهو مشروع إعـادة مرفـأي كورنثة وقرطاجة الصريعتين اللتين نتج عن تدميرهما تحطيم الحياة البحرية في البحـر المتوسـط. بيـد أن سلطان كليوبطرة ومصر كانا أبلغ أثرا في ذهنه. والظاهر أن فؤاده هفا كما هفا فؤاد الإسكندر من قبل إلـى فكرة الملك الرب، وكان تزلف تلك الربة الوراثية الفاتنة كليوبطرة إليه عونًا دون ريب على زيادة تلك الفكرة في حالته قوة ورسوخًا. وإنا لنجد من الشواهد ما يدل على أنه نشب بينه وبين أصدقائه الشخصيين فيما يتعلق بموضوع تلك الادعاءات الإلهية نفس ذلك النزاع الذي سجلناه من قبل في حالة الإسكندر: وتقـديم مظـاهر الإكبار والتقديس للحكام كان فكرة مألوفة في الشرق المهلّن لا جرم. بيد أنها كانت لا تزال بغيضة لدى مـا كان باقيا عند روما من روح آرية.

وكان أنطونيوس – وهو تاليه في الرتبة في فارسالوس ومساعده في القيادة من أشد المتملقـين المتـزلفين إليه. ويصف بلوتارك مشهدا حدث في الألعاب العامة، حاول فيه أنطونيوس أن يجبر قيصر على قبول تاج، فرفضه قيصر بعد تمنع قليل وبعدما أظهره الجمهور من عدم الاستحسان. غير أنه اتخذ لنفسـه الصـولجان العاجي والعرش اللذين كانا شارتين تقليديتين لملوك روما القدامى وحمل تمثاله بين تماثيل الآلهة في موكـب افتتاح المجتلد، ونصب تمثاله في أحد المعابد، وقد خطت من تحته العبارة الآتية: "إلى الإله الذي لا يقهـر!". بل لقد عين بعض الكهنة سدنةً لعبادته. وليست هذه الأمور من دلائل رجاحة العقل ورحابة الأفق بـل هـي تشير إلى جنون العظمة يمس عقل رجل عادي. وإن ما يسجله التاريخ على قيصـر مـن تـدبيره الخطـط الرخيصة الرامية إلى أشد مساخر العبادة الشخصية ابتذالاً وخسة لأمر سخيف مخجل. وهو لا يسـتقيم مـع الفكرة الذاهبة إلى أنه كان فوق مستوى البشر وأنه كان حكيما رائعا يوجه العالم نحو الخير والحق.

ثم انتهى أمره بأن اغتالته عصبة من نفس أصدقائه ومناصريه (٤٤ ق. م.)، بعد أن ضاقوا ذرعا بتلـك الأماني والأطماع القدسية. فحاصروه في مجلس السناتو، وطعنوه في ثلاثة وعشرين موضعا من جسمه فخر صريعا تحت قدمي تمثال خصمه المهزوم بومبي العظيم. ويدلك هذا الحادث على مبلغ الانحطاط الخلقي التام لدى الهيئة الرومانية القديمة الحاكمة. وكان بروتس زعيم عصابة القتلة يود لو قام في أعضاء السناتو خطيبا، لولا أن الأعضاء حين صدمتهم هذه الملمة هبوا يفرون في كل صوب. وظلت روما غالب نهارها وهـي لا تدري كيف تتصرف في هذا الحادث. وسار القتلة بأسلحتهم ملوثة بالدم بين ظهراني مدينة مترددة لم تسـتقر بعد على رأي، دون أن يعترضهم أحد ودون أن ينحاز إليهم إلا نفر قليل. ثم انقلب الـرأي العـام علـيهم، فهوجمت بيوت بعضهم، واضطروا أن يختبئوا وأن يفروا طلبا للنجاة وخشية على حياتهم.

٦- ظهور الزعيم أو الأمير الحاكم (Princeps)

بيد أن تيار الحوادث كان متجها نحو الملكية بشكل واضح جارف. واستمر النضال بين الشخصيات ثلاثة عشر عاما أخرى. وهناك فرد واحد هو شيشرون [1] خليق بأن ننوه به بوصف كونه رجلاً حبتـه المقـادير بالفكر الرحيب وألهمته طموحا يكاد يبرأ من الأنانية. كان رجلاً متواضع الأرومة أكسبته فصاحته وقوته في الأدب مكانة مبرزة في مجالس السناتو. وقد انتقلت إليه من ديموستنيز عدوى الهجاء وإن بقدر طفيف، ومـع ذلك فإنه يبرز بين الناس شخصية نبيلة لا تأثير لها مع الأسف، وهو يدافع عن المثل العليا للجمهورية مجادلاً مجلس سناتو تلك الأيام وقد ساءت سيرته وبلغ من الانحطاط والوضاعة والجبن حدا عظيما. كان شيشـرون كاتبا مجيدا ممتازا، وإن الخطب والرسائل الخاصة التي تركها لنا لتجعله في نظر القارئ العصري واحدا من أشد شخصيات ذلك العصر صدقًا وخلودا. وقد أهدر دمه وأعدم عام ٤٣ ق. م. وهي السـنة التاليـة لمقتـل يوليوس قيصر، ثم سمرت رأسه ويداه في الفوروم الروماني. ويلـوح أن أوكتـافيوس (Octavian) الـذي أصبح آخر الأمر عاهل روما، بذل جهدا لإنقاذ شيشرون. فلا مراء أن ذلك القتل لم يكن مما جنت يداه.

وما نحن ها هنا بمستطيعين أن نتعقب ألوان الاتفاقات والخيانات التي انتهت بتألق نجم أوكتافيوس هـذا، وهو وريث يوليوس قيصر المبني. ومما يجدر ذكره هنا ارتبـاط مصـير الشخصـيات الكبـرى بمصـير كليوبطرة.

فإنها جعلت شغلها الشاغل بعد مقتل قيصر أن تتسلط على مشاعر أنطونيوس وغروره وهو رجل أحـدث سنًا من قيصر بكثير، ولعلها كانت تعرفت إليه من قبل. وظل أوكتافيوس وأنطونيوس وشخص ثالـث هـو ليبيدوس (Lepidus) ردحا من الزمن يقتسمون العالم الروماني بينهم مثلما كان قيصر وبومبي يقتسمانه قبل نزاعهما النهائي. فاختص أوكتافيوس بالغرب الأصلب عودا، ثم ثبت فيه سلطانه؛ وكان لأنطونيوس الشـرق الأكثر بذخًا وأبهة – ومعه كليوبطرة. وكان نصيب ليبيدوس تلك العظمة النخرة التي أصبحت حطاما باليـة وهي أفريقيا القرطاجية. وهو يلوح رجلاً طيب النفس حميد السيرة بين الناس متجها بكل فؤاده إلـى تعميـر قرطاجة من جديد أكثر منه إلى الثراء والغرور الشخصي. فأما أنطونيوس فقد رانت على عقله تلك الفكرات القديمة فكرات الملكية الإلهية المقدسة التي كانت أكبر من أن يتحملها اتزان يوليوس قيصر العقلي. وما لبث أن استسلم في ظلال كليوبطرة للهوى والملذات ولحام من المجد الحسي، حتى جاء وقت شعر فيه أوكتافيوس، أنه قد آن له أن يقضي على هذين الإلهين المصريين.

---

(1) شيشرون: أفصح خطباء الرومان قاطبة ولد ١٠٦ ق.م. وشايع بومبي معارضا قيصـر وأنصـاره وقتـل فـي ٤٣ ق.م. (المترجم).

وفي (٣٢ ق. م.) حمل أوكتافيوس السناتو على خلع أنطونيوس من إمرة الشرق، ثـم مضـى يهاجمـه. ودارت بينهما رحى معركة بحرية عظيمة في أكتيوم (٣١ ق. م.) كان العامل الفاصل فيها تخلي كليـوبطرة عنه على غير انتظار وفرارها بستين سفينة حين حمى وطيس القتال. ومن المحال علينا الآن تماما أن نفصل في هل كان هذا التخلي عن خيانة مدبرة من قبل، أم هو نتيجة لنزوة فجائية أطافت برأس امرأة فتانة. علـى أن رحيل هذه السفائن الستين قد ألقى بأسطول أنطونيوس في حالة من الحرج والارتباك قطعت عليـه كـل أسباب الرجاء، وتفاقم الخطب عندما عجل ذلك العاشق المثالي الولهان بالهرب في أثر معشوقته. إذ انطلـق من خلفها في سفينة سريعة دون أن يخبر قواده. وبذا ترك أتباعه يقاتلون ويموتون حسبما يتراءى لهم، فظلوا زمانًا لا يصدقون أنه قد ولّى. أما ما تلا ذلك من لقاء العاشقين وصلحهما فهو أمر نتركه لبلوتارك يتمعن فيه بروحه التهكمية.

وأطبقت شباك أوكتافيوس على مهل حول منافسه. وليس مستبعدا أنه كان هناك نوع ما من التفـاهم بـين أوكتافيوس وكليوبطرة، كما لعله كان في زمان يوليوس قيصر، تفاهم بينهـا وبـين أنطونيـوس. واستسـلم أنطونيوس للشيء الكثير من مظاهر الأسى الفاجع التي نوعت أشكالها مناظر الحب المختلفة أثناء المرحلـة الأخيرة من درامته الصغيرة. فقد أقام دهرا على حالة تحاكي مسلك تيمون الكلبي، حين فقد كـل ثقـة فـي الجنس البشري، وإن كنا نرى أن بحارته الذين تخلى هو عنهم في أكتيوم كانوا أولى منه بهذا الموقف!! ثـم ألفى نفسه وكليوبطرة آخر الأمر يحاصرهما أوكتافيوس في الإسكندرية. وقام المحصورون بهجمات عديـدة ونالوا من النجاح قسطًا محدودا، وطفق أنطونيوس يجهر بالتحدي لأوكتافيوس أن يفصل في الأمر بـالنزال الشخصي. ثم ألقى بعضهم في روع ذلك النجم الولهان أن كليوبطرة قد انتحرت، فطعن نفسه طعنة غير قاتلة جعلته يقضي نحبه على مهل ثم حمل إليها ليلفظ أنفاسه الأخيرة في حضرتها (٣٠ ق. م.).

وإن ما كتبه بلوتارك عن أنطونيوس، وأغلبه مستقى من الشهود الذين رأوه وعرفوه، يصفه بأنـه كـان رجلاً باسلا مقداما. ويقارنه بهرقل (Hercules) نصف الإله، (وكان في الواقع يـدعي الانتسـاب إليـه)، ويشبهه كذلك بباكخوس الهندي. ويورد بلوتارك عدا ذلك حادثة تغشى لها النفوس وإن ألقـت علـى أخلاقـه ضياء مرشدا، إذ يصف حادثة وقعت له في مجلس السناتو وهو يحاول أن يخطب وهو ثمل فلاحقه زميل من أخس قرنائه في معاقرة الشراب وأقلهم كرامة.

وقد ظلت كليوبطرة فترة وجيزة وهي لا تزال متعلقة بالحياة. ولعلهـا كانـت تعلـل الـنفس بإخضـاع أوكتافيوس لنفس ذلك الدور القدسي، الذي مثله من قبل يوليوس قيصر وأنطونيوس. وجـرى بينهمـا وبـين أوكتافيوس مقابلة تقدمت إليه فيها كحسناء مهيضة الجانب كسيرة الفؤاد تلم بها محنة قاسية، وكانت في ثياب شفافة. بيد أنه لما اتضح لها أن أوكتافيوس كانت تنقصه الشرارة الربانية، وأن عنايته براحتها وسعادتها لـم يكن يمليها عليه بوجه خاص إلا الرغبة في عرضها في موكب نصر يجتاز شوارع روما، قضت على نفسها منتحرة. إذ دست إليها أفعى مخبأة في سلة من التين دون أن يشعر بها الحراس الرومـان، فماتـت ضـحية أنيابها.

ويكاد أوكتافيوس أن يخلو فؤاده تماما من كل ما داخل يوليوس قيصر وأنطونيوس من التطلع إلى التقديس والألوهية. فهو لم يكن بالإله ولا بالبطل الغرامي؛ بل كفاه أنه كان رجلاً أوسع أفقًا وأكثر مقدرة من أي ممثل آخر في هذا الفصل الأخير من مسرحية الجمهورية في روما. وإذا نحن قدرنا كل الاعتبارات فلربما وجـدنا أن ظهوره كان خير ما قد تحبو به الأقدار روما في ذلك الزمان. فإنه تنازل راضيا عـن السـلطات غيـر العادية التي ظل يتولاها منذ (٤٣ ق. م.)، أو كما عبر هو عن ذلك بنفسه حين قال: "إنه سـلم الجمهوريـة ليتولى السناتو وشعب روما الإشراف عليها" وبذا دبت الحركة من جديد في الأداة الدستورية القديمة؛ وعـاد مجلس السناتو ومجلس الأحرار والموظفون إلى تولي اختصاصـاتهم وهلـل النـاس لأوكتـافيوس "معيـد الجمهورية ونصير الحرية".

"لم يكن من اليسير تحديد العلاقة بينه – وهو لعمري السيد الفعلي للعالم الروماني – وبين تلك الجمهورية التي بعثت من جديد. فلو أنه تنحى عن الرياسة فإن تنحيه – بأي معنى حقيقي أيا كان – لم يكن ليحدث مـن نتيجة إلا العودة بكل شيء إلى الفوضى. فإن مصلحة السلام والنظام كانت تقضي عليه أن يحتفظ على الأقل بالقسم الجوهري من سلطته. وقد تمت له تلك الغاية حقًا، وتم تأسيس حكم الأباطرة، على طريقة ليس لها من ضريب في التاريخ. وكان إحياء الملكية وألقابها أمرا لا يصح التفكير فيه. وقد رفض أوكتافيوس نفسه وظيفة الدكتاتورية قصدا. كذلك لم تخلق له أية وظيفة أخرى ولا أنشئ من أجله أي لقب رسـمي جديـد. بيـد أن السناتور والشعب منحاه وفقًا للأوضاع الدستورية القديمة سلطات معينة، كما منح مواطنون كثيرون من قبله، وبذلك تبوأ مقعده بجوار موظفي الجمهورية العموميين المعينين وفق الأصول القانونية. وإظهـارا لمرتبتـه الرفيعة بوصفه كبيرهم جميعا، أصدر السناتو مرسوما يقضي بأن يتخذ لنفسه لقبا إضافيا هو "أوغسـطوس" (Augustus)، على حين أطلق الناس عليه في كلامهم العادي منذ ذلك الحين لقب الزعيم أو الأمير الحـاكم (Princeps)، وهو مجرد لقب مألوف في الاستعمال الجمهوري العادي أطلق عليه من قبيـل التكـريم، ولا ينطوي على أية فكرة أخرى عدا فكرة الأولية المعترف بها، والأسبقية على كل زملائه المواطنين.

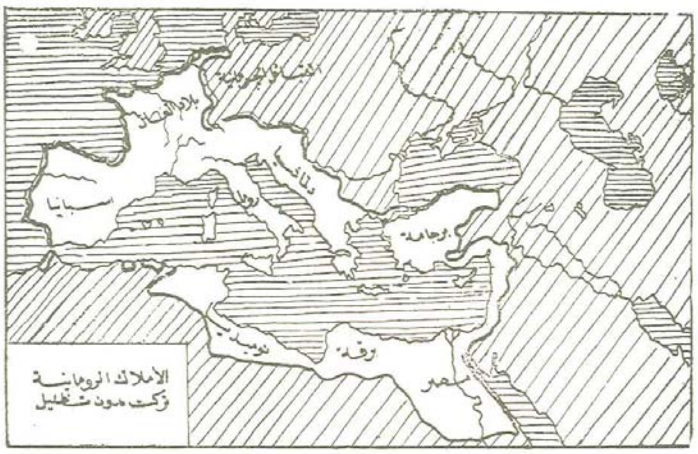
"وبذا تحققت تحققًا ظاهرا فكرة المثل الأعلى الذي رسمه شيشرون في كتابـة "عـن الجمهوريـة" (De Republica)، لرئيس دستوري يتولى الأمر في جمهورية حرة؛ بيد أن ذلك كان أمرا لا يتجاوز الظـواهر. إذ الواقع أن الامتيازات والحقوق الخاصة التي خُولت لأوكتافيوس أعادت إليه جـوهر السـلطة الاسـتبدادية (الأوتوقراطية) التي تنازل عنها، فأما توازن القوى بين الجمهورية التي أعيد بعثها وبين أميرها الجديد، فكان شديد الجنوح ناحية الأخير بدرجة جارفة " [1].

([1]) نقلاً عن هـ. س. جونز H. S. Jones في الموسوعة البريطانية مادة "روما".

٧- لماذا فشلت الجمهورية الرومانية

على هذه الشاكلة انتهى النظام الجمهوري بظهور زعيم أو أمير حاكم، وانهارت وبـاءت بالفشـل أولـى التجارب العظيمة في مجتمع يتمتع بالحكم الذاتي ويقوم على نطاق أوسع من القبيلة أو المدينة.

وسر فشلها أنها لم تستطع أن تدعم الوحدة وترسخ قدمها في البلاد. ففي مراحلها الأولى، كان لمواطنيها، سيان منهم البطارقة (النبلاء) أو العامة (البلبيان)، تقاليد معينة تقوم على العدالة وطيـب الثقـة وعلـى ولاء المواطنين جميعا للقانون، وعلى أن القانون يهدف إلى خير المواطنين جميعا. وتعلقت رومـا بأهـداب هـذه الفكرة، فكرة أهمية القانون واحترامه، والخضوع له حتى قرابة القرن الأول (ق. م.). بيد أن اختراع النقـود وتطورها بدرجة لم تكن في الحسبان، وما ترتب على التوسع الاستعماري من مغريات وتفكك عـرى، ومـا عرفته روما من تعقيد في الأساليب الانتخابية، - كل هذه أمور أضعفت هذه التقاليد وأغرقتها فـي لججهـا بإظهار الخلافات القديمة في أثواب جديدة عز على من تصدوا للحكم عليها أن يتبينوها من دونها، وبتهيئتهـا للرجال أسباب الإخلاص لحرفة المواطنية لا لروحها. وكانت الرابطة بين الشعب الرومـاني علـى الـدوام رابطة أخلاقية أكثر منها دينية. وكانت ديانتهم تقوم على القرابين والخرافات؛ ولم تتضـمن أيـا مـن تلـك الفكرات العظيمة كفكرة الزعيم المقدس والرسالة المقدسة من أمثال ما كانت تنادي به اليهودية. فلما أن فشلت فكرة المواطنية واضمحلت تلقاء الظروف الجديدة لم تعد لهم أية وحدة داخلية، أو بالأحرى لـم تعـد تجمـع شتات نظامهم أية وحدة حقيقية على الإطلاق. فتزايد بالناس النزوع إلى أن يفعل كل منهم ما يراه صوابا.



خريطة الإمبراطورية الرومانية عند وفاة أوغسطس ١٤ ميلادية

(١١٣)

وفي مثل تلك الظروف لم يكن هناك خيار بين الفوضى الشاملة وبين الرجعة إلى النظام الملكي أي إلى قبول فرد مختار ليكون رمزا لإرادة واحدة عاملة على توحيد الدولة. وبدهي أن يكمن وراء تلك العودة على الدوام توقع الناس أن يستحيل العاهل إلى شيء يشبه السحر – كما قد يقولون؛ وأن يكف عن أن يكون مجرد كائن بشري ضئيل القدر، وأن يشرع في التفكير والشعور بأنه شيء أعظم وأكثر نبلاً، بوصفه – كما هو الواقع – شخصية تمثل الدولة. وبدهي أن الملكية تفشل على الدوام في أن تحقق ذلك الأمل. وسوف نلقي نظرة سريعة على مبلغ هذا الفشل في العرض الوجيز الذي سنستعرض فيه من تونا أباطرة روما. ولسوف نجد آخر الأمر واحدا من أشد هؤلاء الأباطرة تجديدا وإنشاء هو قسطنطين الأكبر، فإنه وقد أدرك عجزه عن أن يكون قوة عاملة على توحيد الدولة، شخص ببصره إلى عقيدة وإيمان ونظام وخيوط التعاليم التي تقوم بها إحدى الحركات الدينية الجديدة في الإمبراطورية، لتمده بنفس ذلك العامل الذي يتغلغل في عقول الرجال ويربطها بعضها ببعض، والذي كان من الواضح جدا أن العالم في أمس الحاجة إليه.

وبظهور قيصر عادت حضارة أوربا وآسيا الغربية إلى الملكية، وتهيأ لهذه الحضارة عن طريق الملكية بفضل ما لقيته من المسيحية المنظمة من تأييد عاجل، أن تسعى في سبيل السلام والعدالة والحق والسعادة والنظام العالمي طوال مدة تقارب الثمانية عشر قرنًا. ثم شرعت على حين بغتة تقريبا في التحول إلى النظام الجمهوري، مبتدئة بأحد الأقطار ثم مثنية بالآخر. وإذ كان في عونها قوى جديدة من الطباعة والصحافة والتعليم العام المنظم وكانت مستندة إلى الفكر الدينية العالمية التي انغمس فيها العالم أجيالاً عدة، فإنها لتبدو الآن كأنما قد عادت من جديد إلى بذل الجهد في سبيل إقامة دولة جمهورية عالمية ووضع خطة شاملة لكل أرجاء العالم قوامها العدالة والحق الاقتصادي الذي كان الرومان أرادوا أن يفرضوه قبل أوانه والذي فشلوا فيه ذلك الفشل التام الذريع.

وعندي أننا أخذنا ندرك الآن أن هناك شروطًا معينة لا مندوحة من توافرها لتحقيق مثل هذا الخلق والابتداع؛ وهي شروط ليس من المعقول أن أي روماني سابق للمسيحية كان يراها ممكنة. ولعلنا لا نزال نرى الوصول إلى هذه الشروط عملاً يكتنفه الكثير من المتاعب والصعوبات والشكوك. بيد أنا ندرك أن بذل المحاولة واجب حتمي، إذ ليس هناك في المستقبل بارقة أمل أخرى تبشر بمنحنا حتى مجرد الوعد بالسعادة أو احترام الذات أو حفظ نوعنا البشري. وأول هذه الشروط هو أنه يجب أن تقوم في عقول جميع الناس فكرة سياسية واحدة، وهي الفكرة التي تعد "الدولة" المِلْك الشخصي لكل فرد على حدة وتعتبرها الحقيقة الأساسية والعمود الفقري لمنهج واجباته. ففي أيام روما الأولى، عندما كانت دولة مغمورة قليلة الشأن ذرعها عشرون ميلاً، كان في الإمكان بث هذه الأفكار في الأطفال في بيوتهم وتطويرها في عقولهم بالتلقين وبواسطة ما كانوا يرون ويسمعون من حياة آبائهم السياسية؛ فأما في قطر كبير الرقعة كالذي بلغته روما قبل حربها مع بيروس، فكانت هناك حاجة إلى خطة منظمة لتعليم التاريخ والقوانين الرئيسية والنوايا العامة للدولة نحو كل إنسان، إن كان يراد الإبقاء على هذه الوحدة الأخلاقية. غير أن هذه الحاجة لم تتحقق قط، ولم تبذل أية محاولة للقيام بأي ضرب من هذا التعليم. إذ لم يكن ذلك العمل مستطاعا في ذلك الزمان، بل ليس معقولاً أن القيام به كان أمرا ميسورا. فإن المعرفة كانت تعوزهم، ولم تكن ثمة طبقة يمكن أن يؤخذ منها المعلمون

المطلوبون لهذه المهمة ولا كان لدى الناس أية فكرة عن هيئة تتولى مثل تلك التربية النظامية الخلقية الفكرية التي قدمتها على الفور هيئة التعليم عند المسيحية، بما كان لها من عقائد وتعليم لأصول الدين بالحوار وما احتوته من مواعظ وتلقين وتأكيدات باتباع الصلاح والتقوى.

هذا إلى أنّا نعرف اليوم أنه حتى التربية العامة التي من هذا النوع تعد قاصرة، فهي لا تمدنا إلا بمجرد الأساس اللازم لإقامة دولة جمهورية سليمة. ويجب أن يلي التربية العمل على نشر أنباء وفيرة سريعة صادقة لما يجري في الدولة، وتهيئة فرص تجري فيها مناقشة صريحة حرة لكل ما يعرض للناس من موضوعات الساعة. ولا تتم هذه الخدمات حتى في هذه الأيام إلا على حال من النقص والقبح بواسطة ما لدينا من صحافة وعلى يد من لدينا من الصحفيين والمحررين والسياسيين. وهي وإن كانت سيئة التنفيذ والأداء فحسبنا أن تتم على أي حال، وحسبك في مجرد القيام بها الآن إشارة إلى إمكان الوصول بها في النهاية إلى مرتبة الجودة والإتقان. ومهما يكن من شيء فإن أحدا في الدولة الرومانية لم يبذل في هذا السبيل أية محاولة. فكان المواطن الروماني يحصل على الحقائق السياسية من الشائعات أو خطيب عرضي. وكان يقف في الفوروم كالخشب المسندة، يستمع في غير استبانة واضحة لصوت خطيب بعيد. والراجح أن أي أحدٍ منهم لم يكن يحسن فهم أي موضوع يؤخذ عليه الرأي.

ولقد أسلفنا إليك القول فيما عليه نظام التصويت الروماني من قصور فظيع.

ليس عجيبا أن تتجه الغرائز السياسية في العقل الروماني نحو الملكية بعد أن أعياها التغلب على تلك العوائق أو إزالتها من السبيل للوصول إلى نظام حكم شعبي سليم فعال. بيد أنها لم تكن ملكية من الطراز الأوربي في العصر المتأخر، ولم تكن الملكية التي أقيمت إذ ذاك في روما وراثية، أجل كان "الأمير الحاكم" في الحقيقة شبيها برئيس أمريكي في وقت الحرب، ولكنه لم يكن مثله منتخبا لمدة أربع سنوات وإنما لمدى الحياة. وكان في مكنته أن يعين أعضاء مجلس السناتو بدل أن يحد من سلطته مجلس سناتو منتخب، وكان إلى جانبه مجلس شعبي من الغوغاء بدلاً من مجلس نواب. وهو أيضا الحبر الأعظم (Maximus Pontifex) أي كبير كهنة القرابين وهي وظيفة غير معروفة في واشنطن. وقد درج بحكم الممارسة على تعيين خلفه وتدريبه وأن ينتخب لذلك المنصب الرفيع ابنًا أو ولدا متبنى أو ذا رحم وقربى يستطيع أن يثق به. كانت سلطات الأمير هائلة في ذاتها وأعظم من أن توضع في يد رجل واحد دون أن يقوم إزاءها من الضوابط ما يكفل الحد منها، بيد أن تقاليد عبادة الملك زادته قوة على قوة، حيث انتشرت عند ذاك من مصر وبسطت ظلالها في جميع أرجاء الشرق المهان، وكانت تفد على روما مستكنة في ذهن كل عبد ومهاجر شرقي. ولم تلبث فكرة الإمبراطور الرب حتى أصبحت على درجات ومراحل طبيعية غير محسوسة، متسلطة على العالم بأسره المصطبغ بالصبغة الرومانية.

ولم يبق إلا شيء واحد يذكر الإمبراطور الرب أنه فانٍ غير مخلد، ذلك هو الجيش. فإن الإمبراطور الإله لم يكن قط بمأمن فوق الأوليمبوس القائم على التل البالاتيني [1] بروما. فهو لا يطمئن إلى سلامته حتى يكون قائدا محبوبا من كتائبه. ونتيجة لهذا فليس بين الأباطرة من دام له الحكم طويلاً إلا المجدون في أعمالهم الذين دأبوا على تشغيل جنودهم وجعلهم على اتصال وثيق بأنفسهم. فكان السيف مسلطًا أبـدا علـى الإمبراطـور يحفزه على النشاط الذي لا يفتر. فلو أنه ترك الأمور لقواده، لحل أحد هؤلاء القواد محله من فـوره. وكـان ذلك الحافز فيما يحتمل الظاهرة المعوضة التي تُكفر عن مساوئ النظام الإمبراطوري الرومـاني. علـى أن الإمبراطورية الصينية، وهي أكبر حجما وأشد تماسكًا وأكثر أمنةً واطمئنانًا، لم تكن بها نفس الحاجـة إلـى الكتائب. وبذا لم يلق الملوك الكسالى أو الخليعون أو الأحداث هناك نفس النهايات السريعة التي كانت تحـل بأمثالهم في روما.

(1) الأوليمبوس مثوى الآلهة، والتل البالاتيني أحد التلال السبعة المحيطة بروما، - فكأن الإمبراطور الرب لم يكن بمأمن على الرغم من ربوبيته. (المترجم).

الفصل السابع والعشرون

القياصرة بين البحر والسهول العظيمة

١- ثبت موجز بالأباطرة.
٢- المدنية الرومانية في أوجها.
٣- خصائص الفن في ظلال الإمبراطورية الرومانية.
٤- قدر معين من الركود في الخيال الروماني.
٥- حركة السهول العظيمة.
٦- الإمبراطورية الغربية (الرومانية الحقة) تتصدع.
٧- الإمبراطورية الشرقية (الهلّينية المبتعثة).

١- ثبت موجز بالأباطرة

يجنح كتاب الغرب متأثرين بما توفر في نفوسهم من ميول وطنية إلى المبالغة فيما أسدته الملكية المطلقة التي استقرت في روما بعد اعتلاء أوغسطس قيصر العرش من تنظيم وبث للحضارة ونشر للأمن والطمأنينة. فنحن إنما نقتبس عن روما التقاليد السياسية التي نراها ببريطانيا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا. وإن هذه الأقطار لتتراءى ضخمة في أبصار الكتّاب الأوروبيين. على حين يتجاهلون ما دمرته روما في الشرق.

وإذا قيست الدولة الرومانية بمعيار التاريخ العالمي، لم تعد تبدو بتلك الأهمية الجارفة التي تنسب إليها. فإنها لم تعمر إلا قرابة أربعة قرون فقط قبل أن تتمزق وتتحطم تماما. ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية استمرارا حقيقيا لها؛ بل كانت استئنافًا مشوها لإمبراطورية الإسكندر الهلّينية. وكانت تتكلم اليونانية. أجل إن لعاهلها لقبا رومانيا ما في ذلك ريب. ولكن كذلك كان شأن قيصر بلغاريا السابق. وقد تطورت أرض الجزيرة في معظم أمرها وفقًا لأساليب خاصة بها في أثناء فترة الحكم الروماني. فكل كسب هليني مستحدث تناولته عبقرية الشعوب الفارسية والبارثية بالتعديل الشامل، فأما في بلاد الهند والصين، فإن نفوذ روما كان ضئيلاً ضآلة لا نهاية لها.

ومرت إمبراطورية روما في أثناء عمرها البالغ أربعة قرون في أدوار من الانقسام والفوضى الشاملة. فلو جمعت سنوات الرخاء فيها وحسبت، لم تصل كلها إلى قرنين من الزمان. ولو قورنت بما كان للإمبراطورية الصينية المعاصرة لها من الأمنة والاتساع الهادئ المتواصل وما قامت به من جهد في بث المدنية أو لو أنها ووزنت بمصر بين ٤٠٠٠، ١٠٠٠ ق. م.، أو بسومر قبل الغزو السامي، لنزلت بها هذه المقارنات إلى مجرد حدث تافه في التاريخ. كذلك بلغت إمبراطورية فورش الفارسية، التي امتدت من الهلسبونت (الدردنيل) إلى السند، شأوا عاليا في الحضارة يعادل في رفعته شأوها. وظلت أرضها الأصلية بعيدة عن منال الفاتحين وفي حال لا بأس بها من الرخاء مدة تربو على قرنين. وكانت سابقتها الإمبراطورية الميدية قد استدامت نصف قرن من الزمان. وبعد أن غشيها الإسكندر الأكبر فترة وجيزة، نهضت من جديد باسم الإمبراطورية السلوقية التي استمرت بضعة قرون. وانكمشت الأراضي السلوقية آخر الأمر إلى غرب نهر الفرات، ثم أصبحت جزءا من الإمبراطورية الرومانية. ولكن بلاد فارس وقد ابتعثها البارثيون ثانية بوصفها إمبراطورية فارسية جديدة تحت حكم الأرشكيين [1] (Arsacids) أولاً، ثم تحت الساسانيين (Sassanids) ثانيا عمرت طويلاً بعد إمبراطورية روما. وأصبحت ملاذ العلْم اليوناني من الاضطهاد الغربي، وأضحت مهدا دفيئًا تكتّن فيه الفكرات الدينية.

([1])الأرشكيون: دامت دولتهم بفارس من ٢٥٥ ق. م. إلى ٢٢٦ ق. م. وتنسب إلى أرشك (أرساكيس Arsakes) زعيم البارثيين وهم جيل مختلط من الإسكيذيين.

وقد شن الساسانيون الحرب مرارا في صميم الإمبراطورية البيزنطية، واستمسكوا ثـابتين بخـط دفـاع الفرات. وفي (٦١٦ ميلادية) تحت حكم كسرى الثاني (أبرويز) (Chosroes) كانت في يدهم دمشق وبيـت المقدس ومصر وهددوا الهلسبونت. على أن الساسانيين لم تكن لهم تقاليد تصون لهم ما أحرزوا من مجد. وقد ازدهرت شهرة روما بسبب ما أصابه ورثتها من رخاء ونجاح. ولذا فإن تقاليد روما وتراثها تتراءى أعظـم بكثير من حقيقتها. ذلك أنه حدث بين المدنيات الأعرق منها ائتلاف وامتزاج وانتشرت المدنية غربا. فاختلط الساميون والآريون في لجات تطور كان يهدر حول حوض البحر المتوسط دون أن يمتزجوا بعضهم ببعض، وكان نظام الحكم الروماني أشبه الأشياء بشبكة لا تبرح خيوطها تتقطع ثم تتصل ثانية، حتى انتهى أمرها إلى التمزق النهائي في جميع أرجائها.

ويميز التاريخ مجموعات عدة من الأباطرة الرومان الذين كانوا رجـالاً إداريـين أكفـاء وعلـى رأس المجموعة الأولى يأتي:

أوغسطس قيصر (من ٢٧ ق. م. إلى ١٤م) وهو أوكتافيوس الذي ورد ذكره في القسم السـابق؛ والـذي دأب عملاً في تنظيم حكومات الولايات وفي الإصلاح المالي. فاستن في حكومته البيروقراطية سنة طيبة من النزاهة واحترام القانون، ثم ضيق الخناق على المفاسد والظلم المتفشي بدرجة مخيفة في الدولة بأن أعطـى المواطنين في الأقاليم حق اللجوء إلى قيصر. بيد أنه ثبت الحدود الأوربية للإمبراطورية على امتداد الـراين والدانوب، وبذا ترك ألمانيا التي هي الدعامة الضرورية والعمود الفقري الذي يكفل لأوربا الأمنـة والرخـاء نهبا لهمجية البرابرة؛ ثم أقام في الشرق حدا مشابها لهذا عند نهر الفرات تاركًا أرمينية مستقلة، مما ترتـب عليه أن أصبحت مثار نزاع لا يفتر بين الدولة الرومانية وبين الأرشكيين والساسانيين. والناس من أمره فـي ريب وشك فهل تراه كان يعتقد أنه يثبت حدود الإمبراطورية نهائيا على امتداد هذه الخطوط؟ أم تراه قدر أن من المرغوب فيه أن يوطد أجزاء دولته ويوثق الروابط بينها لبضع سنين ريثما يقـوم بمحـاولات أخـرى للتوسع؟

كذلك يوصف تيبريوس (Tiberius) (١٤ إلى ٣٧ م) بأنه حاكم قدير، بيد أنه أصبح يلقى من الشعب في روما كراهية شديدة، ويروى أنه كان منغمسا في رذائل منكرة مستبشعة. على أن انغماسه في هذه الرذائـل وطغيانه الشخصي وقساواته في محيطه الخاص لم تحل دون تمتع الإمبراطورية في عهده بالرخـاء العـام. ومن العسير على الإنسان أن يقضي فيه برأي؛ لأن كل المصادر التي في متناولنا تكاد تجمع علـى العـداء الصريح له.

وكان كاليجولا (Caligula) (٣٧ إلى ٤١ م) معتوها، غير أن الإمبراطورية واصلت سيرها في طريـق التقدم في السنوات الأربع التي قضاها على رأسها في شذوذه وتقلب أهوائه. وأخيرا قتله خدمه في قصـره، ويبدو أن قد بذلت محاولة لاستعادة حكومة طبقة أعضاء السناتو؛ ولكن سرعان ما قضت كتائـب الحـرس الإمبراطوري على هذه المحاولة.

أما كلوديوس (Claudius) (٤١ إلى ٥٤ م) وهو عم كاليجولا الذي وقع عليه اختيار الجند؛ فكان غليظ الطبع، ولكن يبدو أنه كان مجدا قديرا إلى حد ما في تدبير شئون الحكم. فمد التخوم الغربية للإمبراطورية بضم النصف الجنوبي من بريطانيا. ثم قتلته بالسم أجريبينا (Agrippina)، أم ولده المتبنى نيرون (Nero)، وهي امرأة أوتيت حظًا عظيما من الفتنة وقوة الشكيمة.

وتنسب إلى نيرون (٥٤ إلى ٦٨ م) – شأن تيبريوس – رذائل وقساوات بشعة، بيد أن الإمبراطورية كانت أحرزت من القوة الذاتية الدافعة ما كفل مواصلتها التقدم في أثناء حكمه الذي امتد أربعة عشر عاما وليس من ريب أنه قتل أمه المحبة المخلصة والمكدرة لصفوه أيضا!! كما قتل زوجته، (قتلها إظهارا لشغفه بسيدة أخرى هي بوبايا (Poppaea) التي تزوجته عند ذاك). على أن ما يكتنف حياة القياصرة المنزلية من تعس واضطراب ومتاعب ليس مما يدخل في نطاق قصتنا هذه. وما على القارئ التواق إلى التفاصيل الإجرامية إلا أن يرجع إلى المرجع القديم وهو المؤرخ سوتونيوس (Suetonius). ولعل هؤلاء القياصرة وأعقابهم ونساءهم لم يكونوا بالضرورة أسوأ خلقًا من معظم الكائنات الإنسانية الضعيفة الخلق والخاضعة للشهوات، ولكنهم لم يكونوا على أي دين حقيقي، إذ كانوا هم أنفسهم آلهة يعبدون. ولم تثقف عقولهم بالمعرفة الواسعة يبنون عليها المطامح السامية، واتصفت نساؤهم بشراسة الطباع وكثيرا.



خريطة الإمبراطورية الرومانية في عصر تراجان
(١١٤)

ما كن أميات، ولم يكن يحد من تصرفاتهن أي حدود من القانون أو العرف. وكان يحيط بهـم فئـة مـن المخلوقات ديدنها التحفز لاستثارة أهون رغباتهم ووضع أتفه نزعاتهم موضع التنفيذ. فكل ما قد يدور بخلـد الناس من أفكار شيطانية عابرة ودوافع غضب وغيظ كانت لديهم بناء على ذلك أفعالاً نافذة لا مرد لها. وقبل أن يحكم أي إنسان منا بإدانة نيرون ويحكم عليه بأنه نوع آخر من الكائنات يختلف عن شخصه، يجب عليـه أن يبدأ بنفسه فيختبر أفكاره الخفية اختبار إمعان وعناية. وقد اشتد كره الناس في روما لنيرون، وإنـه لمـن الشائق أن نلحظ أنه لم يصبح مكروها لأنه كان يقتل أقاربه الأقربين ويدس لهم السم، بل لأنه حدث في زمانه عصيان في بريطانيا تحت قيادة ملكة اسمها بواديكيا (Boadicea) فأصيبت من جرائه القـوات الرومانيـة بكارثة عظيمة (٦١ م)، ولأن زلزالا مدمرا حدث في جنوبي إيطاليا. وكان شعب روما المحافظ على الروح الأترورية المتمشية في عروقه والمتجلية في ضعف عقيدته الدينية وفي اعتقاده الدائم في الخرافات، لا يبالي أن يتولى أموره قيصر خبيث شرير، ولكنه يعترض اعتراضا شديدا على أن يحكمه قيصر يرى فيه الشـؤم وسوء الطالع. فثارت الكتائب الإسبانية تحت قيادة قائد مسن بلغ الثالثة والسبعين هو جالبا (Galba) فنادوا به إمبراطورا. وزحف على روما وهو محمول في محفة. فقضى نيرون على نفسه منتحرا ليأسـه مـن عـون الناس له (٦٨ م).

على أن جالبا لم يكن إلا واحدا من مجموعة من المتطلعين منصب الإمبراطور والساعين إليه. فإن القواد الذين كانوا على إمرة كتائب الراين والقوات المعسكرة على التل البالاتيني والجيوش الشرقية، حاول كل منهم أن يظفر بالسلطان. وشهدت روما أربعة أباطرة فـي سـنة واحـدة: جالبـا وأوتـو (Otho) وفيتيليـوس (Vitelius) وفسبازيان. وكان الأخير منهم، أعني فسبازيان (٦٩ – ٧٩م) وهو من ذوي الإمرة في الشرق، أشدهم قبضة على أزمة الأمور، فقبض على الغنيمة واحتفظ بها. بيد أن سلسلة القياصـرة بحـق المولـد أو التبني انتهت بمقتل نيرون فلم يعد اسم قيصر يطلق على أفراد أسرة الأباطرة الرومان، بل أصبح لقبـا هـو قيصر الإله (Divus Caesar). وتقدمت الملكية خطوة أخرى في سبيل اتخاذ الطـابع الشـرقي بإظهارهـا المزيد من الإصرار على عبادة الحاكم. وبذا انتهت أول مجموعة من القياصرة واقتصر عهدهم على خمـس وتسعين عاما فقط.

ويكون فسبازيان (٦٩ – ٧٩ م) وابناه تيتوس (Titus) (٧٩ م) ودوميتيان (٨١ م) على – حد قـولهم – أسرة ثانية هي الفلافية (Flavian) ثم جاءت بعد مقتل دوميتيان مجموعة من الأباطرة يتصل أحدهم بالآخر لا صلة الرحم بل صلة التبني، وهم الأباطرة المتبنون. وكان نيرفا (Nerva) (٩٦ م) أول هذه المجموعـة، وتراجان (Trajan) (٩٨ م) هو الثاني. وتبعهما هادريان (١١٧م) الذي لا يكل، وأنطونينوس بيـوس (١٣٨ م) وماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) (١٦١ – ١٨٠ م)، وقد اتسعت حدود الإمبراطورية وخطت إلى الأمام من جديد تحت ظل كل من الفلافيين والأنطونينيين (Antonines). فضم شمالي بريطانيا (٨٤ م) إلى أملاك الدولة الرومانية، وامتدت حدودها وراء زاوية التقاء الراين بالدانوب، وجعل ما يسمى الآن باسـم ترانسلفانيا ولاية جديدة هي داكيا (Dacia). كذلك غزا تراجان بارثيا وضم أرمينية ومملكة آشـور وأرض الجزيرة. ووصلت الإمبراطورية تحت حكمه إلى أقصى اتساعها.

وكان خلفه هادريان حذرا يميل بطبعه إلى الانكماش. فتخلى عن هذه الفتوحات الشرقية الجديدة التي فتحها الإمبراطور تراجان، كما تخلى أيضا عن شمال بريطانيا. واقتبس الفكرة الصينية القائلة بإقامة سور يصد البرابرة ويحد من جماجمهم، وهي فكرة بديعة ما دام ضغط السكان في الناحية الإمبراطورية من السور أقوى من الضغط الخارجي، فأما فيما عدا ذلك من حال فإنه يصبح عديم الجدوى. فبنى سور هادريان عبر بريطانيا [1] وأقام حاجزا بين نهري الراين والدانوب. وكان أوج التوسع الروماني قد فات، وكانت الحدود الأوربية الشمالية إبان حكم خلفه متخذة خطة الدفاع النشيط ضد اعتداء القبائل التيوتونية والسلافية.

وماركوس أوريليوس أنطونينوس هو أحد تلك الشخصيات التاريخية التي يختلف في أمرها رأي الناس اختلافًا بينًا حادا. فهو يلوح في نظر بعض النقاد شخصا مغرورا صلفًا. كان يشغل نفسه بالأديان والعبادات، وكان يجد سرورا لا يعدله سرور في أن يرأس الحفلات الدينية في ثياب كهنوتية – وهي نزعة لا يرضى عنها عامة الناس – وهم يستنكرون ما يقال عنه من عجز عن وضع حد لشذوذ وجماح زوجته فوستينا (Faustina) وآثامها. على أن الأقاصيص التي تدور حول تعاسة حياته المنزلية لا تستند مع ذلك إلى أي أساس قوي، وإن كانت فظاعة ابنه كومودوس (Commodus) مما لا يتناسب وأبناء البيوت الكريمة. على أنه من الناحية الأخرى كان، ولا مرية، إمبراطورا شديد الكد والإخلاص حافظ على شتات النظام الاجتماعي خلال سلسلة من سني الكوارث الحافلة بالملمات: من جو سيء وفيضانات عظيمة ومحاصيل ضئيلة ومجاعات، فضلاً عن غارات البرابرة وثوراتهم، ثم أصاب البلاد آخر الأمر وباء عام جائح. وتقول الموسوعة البريطانية نقلاً عن ف. و. فارر (F. W. Farrar) "لقد كان يعد نفسه في الحقيقة خادم الجميع. وكان تسجيل المواطنين والقضاء على التشاحن والتنابذ ورفع مستوى الأخلاق العامة والعناية بالقُصر والأحداث وتقليل النفقات العامة والحد من حفلات المجالدين واستعراضاتهم والعناية بالطرق ورد امتيازات مجلس السناتو إلى سابق عهدها وقصر التعيين في الوظائف العامة على الأكفاء القادرين حقًا، بل حتى تنظيم حركة المرور في الطرقات، بالإضافة إلى واجبات أخرى لا عداد لها، - تستنفد عنايته تمام الاستنفاد إلى حد أنه بالرغم من اعتلال صحته نوعا ما، كانت هذه الأعمال تثقل كاهله بالشغل القاسي من الصباح الباكر إلى ما بعد منتصف الليل بكثير. حقًا إن منصبه كان يحتم عليه في الغالب الحضور لمشاهدة الألعاب وحفلاتها. بيد أنه كان في تلك المناسبات يشغل نفسه إما بالمطالعة أو الاستماع إلى قارئ يقرأ له أو بكتابة المذكرات. كان أحد أولئك الذين يرون أنه يجب ألا يتم أي شيء في عجلة وأنه قل أن كانت هناك جريمة أسوأ من إضاعة الوقت".

ولكن قلما ذكره الناس اليوم لهذا العمل المتواصل المضني. بل يذكرونه لأنه كان من أحسن شراح الفلسفة الرواقية. وهو في كتابه "التأملات" التي سطرها في المعسكر والبلاط على السواء، قد سجل من خطرات إحدى النفوس الإنسانية قدرا كبيرا ينشئ له في كل جيل مجموعة جديدة من الأصدقاء والمعجبين.

([1]) السور الروماني: كان يمتد من مدينة نيوكاسل إلى مدينة كارليل عبر بريطانيا وهو حائط ضخم البناء حفرت الخنادق من أمامه ومن خلفه وأقيمت على طوله المعسكرات الرومانية. (المترجم)

وبموت ماركوس أورليوس انتهى هذا الدور من أدوار الوحدة والحكومة الصالحة نسبيا، وكان حكم ابنـه كومودوس فاتحة عصر من عصور الفوضى. ظلت الإمبراطورية من الناحية العملية في سلام داخلي استمر مائتي سنة. والآن يجب على دارس تاريخ الرومان في المائة سنة التالية أن يجلـو أمـام ناظريـه الجـرائم المتنوعة التي ارتكبها عدد من الأباطرة الضعاف، على حين كانت الحدود تتهاوى وتتراجع تحـت ضـغط البرابرة، ويبدو أنهم ليس فيهم غير واحد أو اثنين فقط مـن ذوي المقـدرة أمثـال سـبتيميوس سـيفيروس (Septimius Severus) وأوريليان (Aurelian) وبروبوس (Probus). وكـان سـبتيميوس سـيفيروس قرطاجيا، ولم تستطع أخته قط أن تتقن اللاتينية. فكانت تدير دارها الرومانية وما يحيط بها باللغـة البونيـة (الفينيقية)، وهو أمر لا بد أنه جعل عظام كاتو الأسن تتقلب في قبره تململاً. أما سائر أباطرة ذلـك العصـر فكانوا في معظم الشأن مغامرين أقل وزنًا من أن تسمح لنا الخطة العامة لهذا الكتاب بالالتفات إليهم. وكـان يظهر بين الفينة والفينة آحاد من أباطرة كانوا يحكمون في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية الممزقة. ولـيس هناك من هو جدير بالملاحظة من وجهة نظرنا الحالية سوى الإمبراطور ديكيوس (Decius) الـذي هـزم وقتل في أثناء غارة القوط العظيمة على تراقيا (٢٥١ م) والإمبراطور فاليريان (Valerian) الذي وقع فـي قبضة شاه فارس الساساني وسقطت معه مدينة أنطاكية (Antioch) العظيمة عام (٢٦٠ م)، ومـا ذلـك إلا لأنهما يسجلان ما لحق النظام الروماني جميعه من التقلقل وعدم الأمان، كما يـدلان علـى طـابع الضـغط الخارجي عليه. وهكذا أيضا كان شأن كلوديوس "قاهر القوط"، لأنه فاز بنصر عظيم على هؤلاء القـوم فـي نيش ببلاد الصرب (٢٦٩ م)، ولأنه مات بالطاعون كما مات بريكليس به من قبل.

وفي كل هاته القرون كانت الأوبئة المغِبة [1] تلعـب دورا فـي إضـعاف الشـعوب وتغييـر الأحـوال الاجتماعية: وهو دور لا يزال لزاما على المؤرخين أن يوفوه حقه من الدرس. فقد حدث مثلاً طـاعون عـم أرجاء الإمبراطورية بين سنتي (١٦٤، ١٧٠ م) إبان حكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس. والراجح أن قـد كان له أثر كبير في إفساد نظام الحياة الاجتماعية، فمهد الطريق للفتن التي عقبت اعتلاء كومودوس العرش. وهذا الوباء نفسه هو الذي عاث في الصين خرابا كما سنبين ذلك في القسم الخامس من هذا الفصل. وألمـت بالمناخ كذلك تقلبات جسيمة في أثناء القرنين الأول والثاني ترتب عليها شيوع الويلات بين الناس وانتقـالهم من مواطنهم، وهي أمور لا يزال على المؤرخين أن يقدروا آثارها.

على أنه لزام علينا قبل الانتقال إلى الكلام في غزوات البرابرة ومحاولات أولئك الأباطرة المتأخرين مـن أمثال دقلديانوس (Diocletian) (٢٨٤ م) وقسطنطين الأكبر (٣٠٦ م) أن يحـافظوا علـى كيـان الدولـة المترنحة المتناثرة الحائرة في مهب الرياح - أن نعرج على وصف شيء من أحـوال حيـاة النـاس فـي الإمبراطورية الرومانية في أثناء قرني رخائها.

(1) المغبة (بضم الميم وكسر الغين) هي التي تجيء دهرا وتنقطع دهرا. (المترجم)

٢- المدنية الرومانية في أوجها

ربما نزع قارئ التاريخ المتعجل أن يعد قرني النظام والاستقرار (بين ٢٧ ق. م. و١٨٠ م) من بين ما ضاع على الجنس البشري من فرص. كان عصر إنفاق لا عصر خلق وابتداع، عصر عمارة وتجارة، كان الغني فيه يزداد غنى ويزداد فيه الفقير فقرا، وتنحل فيه روح الإنسان ونفسه. فلو نظرنا إليه نظرة سطحية شاملة كما ينظر إليه محلق بطائرة تعلو عن الأرض ألفي قدم، لوجدنا الرخاء في ازدهار بالغ. ولرأينا في كل أرجاء الدولة من يورك إلى برقة (Cyrene) ومن لشبونة إلى أنطاكية مدنًا كبيرة متينة البناء بها المعابد والمسارح والمدرجات والأسواق وما أشبهها. أجل كنا نجد الآلاف من أمثال هاته المدن مزودة "بسقايات الماء Aqueducts" (وهي القنوات المشيدة على قناطر مرتفعة لجر مياه الشرب) وتربطها طرق عامة ممتازة، ولا تزال أطلالها تدهشنا بفخامتها وروعتها حتى يومنا هذا. ولا بد أن يلاحظ المرء زراعة وفيرة وخيرات كثيرة، وإن لم يدرك في تحليقه العالي أن هذه الزراعة إنما هي من عمل أرقاء مكرهين حاقدين. وإنه لا بد مبصر في البحر المتوسط والبحر الأحمر حركة مرور للسفن عظيمة. وقد لا يستطيع الطيار وهو على مثل ذلك الارتفاع الشاهق أن يتبين عند مرآه سفينتين متجاورتين أن إحداهما سفينة قرصان تنهب الأخرى.

بل لو أن المشاهد هبط إلى مسافة دانية تساعده على الفحص وتدقيق النظر لشهدت عيناه قدرا كبيرا آخر من التحسينات جديرا بالملاحظة. إذ لانت الأخلاق كثيرا وتهذبت آداب السلوك بوجه عام منذ أيام يوليوس قيصر. وصحب هذا التحسن والرقي زيادة ملموسة في الشعور الإنساني. وقصارى القول إن روما كانت تصعد إلى مستوى المدنية الذي سبقتها إليه بلاد الإغريق وبابل ومصر منذ زمن مديد.

وفي زمان الأنطونيين ظهرت قوانين لحماية الأرقاء من شطط القساوات المفرطة، فلم يعد مسموحا لأحد ببيعهم إلى مدارس المجالدين. ولم يقتصر أمر المدن من حيث هيئتها الظاهرة على تجلي المزيد من الفخامة والأبهة في مبانيها، بل حدث في داخل منازل الأثرياء رقي عظيم في فن الزخرفة. وداخلت القوم بعض التهذيبات التي خففت من غلوائهم في مآدبهم الضخمة ومتعهم الحيوانية وتظاهرهم السوقي في أيام رفاهة روما الأولى. وأصبحت الثياب أفخر وأرق وأكثر جمالاً. وقامت بينهم وبين بلاد الصين القاصية تجارة عظيمة في الحرير، لأن شجرة التوت ودودة القز لم تكونا بدأتا بعد في الانتقال غربا. فإذا انتهى الحرير إلى روما بعد رحلته الطويلة بالبر والبحر بات يساوي وزنه ذهبا. ومع ذلك كان إقبال الناس عليه عظيما وكان فيض المعادن الثمينة الميمم نحو الشرق. كبديل له فيضا لا ينقطع له معين.

وأصاب التأنق في المأكل والمشرب وأساليب الضيافة وفنون إقامة الولائم قسطًا جسيما من التقدم والرقي. ويصف بترونيوس (Petronius) وليمة أقامها رجل من الأثرياء أيام حكم القياصرة الأول تتعاقب فيها ألوان الأطعمة تعاقبا رائعا فمنها ما هو لذيذ شهي ومنها ما هو ممتع يأخذ بالألباب ويفوق كل ما تستطيع أن تقدمه حتى أناقة نيويورك الحديثة وفخامتها وخيالها؛ ويتخلل الوليمة عزف الموسيقى وعرض للرقص على الحبل المشدود وألعاب الحواة وإلقاء قطع من هوميروس وما إلى ذلك.

ويتجلى في أرجاء الإمبراطورية كافة قدر كبير مما قد نصفه بأنه "ثقافة الموسرين". وباتت الكتب أوفـر عددا مما كانت عليه قبل زمان القياصرة. ولكم كان الرجال يفاخرون بمكتباتهم، حتى عندما شـغلتهم هـموم الثروة ومسئولياتها شغلا لا يسمح لهم بأن يوجهوا إلى كنوزهم الأدبية أكثر مـن نظـرة عـابرة. انتشـرت المعرفة بالإغريقية شرقًا وانتشرت المعرفة باللاتينية غربا، فلئن أعوزت أحد الرجال المبرزين في هـذه أو تلك من المدن البريطانية أو الغالية أي ثقافة إغريقية عميقة، كان في ميسوره دائما أن ينقلب إلى أحد العبدان – ممن يضمن النخّاس له حسن إلمامه بالعلوم – ليمده بما يعوزه.

ومن أعظم المحال أن نعالج أدب روما أو فنها بوصفهما شيئًا مستقلاً بذاته. فإن كلا منهما استمرار وحلقة من الثقافة الهلّينية الأعظم منه شأنًا والأطول منه عمرا. ذلك بأن الفن الهلّيني والآداب الهلّينية أنبتـت فرعـا لاتينيا. وكان الجذْع الأصيل موجودا قبل أن ينبت الفرع، ثم استمر الجذع ينمو بعد أن ذوى الغصن. وكـان العقل اللاتيني يجنح من حيث التعبير الأدبي قبل أن يتأثر بالنماذج الإغريقية إلى شكل أدبي هـو السـاتورا (Satura) [١] إن صح أن يطلق عليها لفظ شكل أدبي، وهي أسلوب يشبه في روحه "التمثيلية الاستعراضية " في الوقت الحاضر، وهي خليط من التنديد والتقليد والموسيقى. وكانت طائفة من الشـعراء هـم الفـاتس [٢] (Vates) تنشد كذلك على مسامع الفلاحين أشعارا تهكمية هي الأشعار الفسكنينية [٣]. وكانت هنـاك أيضـا خطب ومراث وابتهالات دينية. وتطورت "الساتورا" مع تقدم الكتابة إلى هيئة كشكول مخلـط مـن الشـعر والنثر، ثم تطورت هذه مرة أخرى إلى قصص نثري أكثر تسلسلاً. وقد ضاع الكثير من الأدب اللاتينـي، إذ كان معظمه لأمر ما، لا يروق الرهبان المسيحيين ولا يرونه جديرا بالحفظ والاستبقاء، ولكـن لمـا عمـت القراءة وتكاثر إنتاج الكتب، انتشرت القصص النثرية على الراجح انتشارا واسعا جدا، ولكن لم يبق منهـا إلا قصاصات وأجزاء قليلة.

ولا مراء أن الشعب الروماني في العهد المتأخر من الجمهورية وصدر عصر الإمبراطورية كان جمهورا محبا لقراءة القصص الخيالية. فإن كتاب الساتيريكون [٤] الذي ألفه بترونيوس والذي يرجع إلى زمان نيرون، من أشد الآثار الأدبية الباقية توضيحا لهذا الرأي. فما من أحد مارس فن كتابة القصة قط بمستطيع أن يقـرأ تلك القطعة الزاكية دون أن يدرك امتيازها بالصنعة الفنية العالية. ولا بد أن قد كانت توجد مئات مـن تلـك الكتب، ولا بد أن عشرات من الرجال كانوا يشتغلون بفن الكتابة قبل أن يصير إنتاج الساتيريكون في حيـز الإمكان. وثمة منحى آخر كان فيه الشعر التهكمي (Satire) لهوراس وجوفينال مـدينًا لـروح "السـاتورا" بالكثير، وكان أيضا طرازا واسع الانتشار من مادة القراءة، بيد أنه منذ القرن الثالث ق. م. وما يليـه، كـان النفوذ الإغريقي فَرض على العقل اللاتيني الأشكال التي كانت استقرت عليها فيما سلف الكوميديا الإغريقية.

(١) Satura كلمة لاتينية معناها الهجو والقدح المصوغ في قالب شعر تهذيبي. (المترجم)

(٢) Vates كلمة لاتينية معناها شاعر أو منشد ملهم. (المترجم).

(٣) نسبة إلى مدينة في إتروريا تسمى فسكنينا Fescennina والشعر الفسكنيني هو الشـعر الروائـي الغنـائي أو الهجـائي الرخيص. (المترجم).

(٤) الساتيريكون قصة تشبه الرواية الهزلية، فيها خلاعة وتتخللها اللذعات من الهجو القارص. (المترجم).

والكوميديا (الملهاة) اللاتينية توشك أن تكون صورة إغريقية ذات صبغة لاتينية أكثر منهـا تطـورا محليـا محتفظًا بطابعه القومي الخاص. وما على القارئ الذي قد يرغب في أن يرى نموذجا لما كانت عليـه إلا أن يلقي نظرة إلى مسرحيات بلوتوس (Plautus) وتيرينس (Terence) وهي في متناول يده في طبعات حديثة.

وكان هناك أيضا تراث لاتيني مستقل من النثر الواضح البين الذي بذل كاتو الرقيب كثيرا من الجهد فـي مناصرته. ومن الشائق الممتع أن يقارن المرء كتاب قيصر "عن الحـرب الغاليـة" (De Bello Gallico) وبين مؤلفات ثوسيدياس (Thucydides). فمن حيث سهولة مدخله وقوة تماسكه، لو جاز لنا أن نصدم العالم المدقق الميال إلى الجد والرزانة بتشبيه عصري ولكنه مناسب، فإن الأول للثاني أشبه شيء بحقيبـة الزينـة المجهزة بكامل أدواتها إلى جوار منضدة المزدان (التسريحة).

كانت منزلة العلوم الإغريقية ذات الطراز الذي تعارف الناس على قبوله وإقراره تعادل في رفعتها بروما أثناء عصر أنطونينوس بيوس المقام الذي تبوأته في أكسفورد وكمبريدج بإنجلترة إبان حكم الملكة فيكتوريـا. وكان العالم بالأدب الإغريقي يلقى من الاحترام المقترن بالغباء والاحتقار العملي نفس المزيج الذي كان يلقاه علماء اليونان القديمة إذ ذاك. وبرز قدر ضخم جدا من الدراسات الإغريقية الضليعة كما ظهر قدر جسيم جدا من مدونات النقد والتعليق. وفي الحق لقد بلغ الإعجاب بالآداب الإغريقية حدا كـاد يقضـي علـى الـروح الإغريقية قضاء تاما. وكانت مشاهدات أرسطو المدونة تلقى من عالي التقدير ما يحبط أية محاولة لتقليد مـا سنه من نظام لموالاة البحث العلمي. وطاول شيشرون كلا من ديموستنيز وسالّوست (Sallust) المـؤرخين الإغريقيين. وتعلم كاتولّوس من خير النماذج الإغريقية كيف يهتك الستر عن خفايا قلبه. وكمـا كـان لـبلاد الإغريق ملاحمها وما إليها من أدب، أحس الرومان أنهم كذلك يجب أن تكون لديهم ملاحمهم، وكان عصـر أوغسطس عصر زيف باهر. فأخذ فرجيل نفسه – في تواضع وعزم توجا بالنجـاح والرشـاقة – بمطاولـة الأوديسيا والإلياذة بملحمته الإنيادة. ويتحدى كلا من أوفيد (Ovid) وهوراس خير شـعراء الإغريـق فـي الأشعار الغنائية (Lyric) والمراثي..

على أن فيض الأدب الإغريقي ظل يدارج هذا "العصر الذهبي" للأدب اللاتيني، متـدارك التيـار عريضـا زاخرا. حتى إذا انقضى على هبوط قوة الدفع اللاتينية زمان طويل، كان العالم الإغريقي لا يزال غنيا بالإنتاج. بل لقد واصل مسيره بلا انقطاع حتى تداخل في الأدب المسيحي المبكر. ولقد أسلفنا لك القول عـن البـدايات الفكرية الزاكية في الإسكندرية وعن تدهور أثينا النسبي. فلئن كانت العلوم في الإسكندرية سرعان مـا ماتـت وذوت، فإن الفيض الأدبي لم يكفّ عن منافسة روما منافسة وسطا بين بين. وكان إقبال الناس هائلاً على نسـخ الكتب التي لم يكن منزل أي موسر يعد وافيا كاملا بدونها. واستمر تدوين التاريخ وكتابة التراجم. وقد تحـدث بوليبيوس (Polybius) – (حوالي ٢٠٤ – ١٢٢ ق. م) عن غزو روما لبلاد الإغريق. وأنشأ بلوتارك (حوالي ٥٠ – ١٠٠ م) دراساته المقارنة عن عظماء الرجال. وظهر عدد لا يحصى من القصص والمحاورات، وقـد ضاع الآن معظمها مرة ثانية. وكان لوكيان (Lucian) (١٢٠؟ - ٢٠٠ م) كاتبا قديرا واسع الخيـال مبتكـرا وهو لا يزال موضع تقديرنا وإعجابنا. وكانت حركة النقل والترجمة بين الإغريقية واللاتينية عظيمة جسـيمة. فلقد كان الأدبان يكتنفهما جو فكري واحد ويكادان يتدانيان شأن الأدبين الإنجليزي والأمريكي اليوم.

كل هاته الثقافة الواسعة الانتشار التي كانت بين يدي السراة من أرباب البيوتات، تعتبـر مـن حسـنات ومفاخر الإمبراطورية الرومانية في صدرها الأول. ويستفيد منها جيبون أكبر الفائدة في استعراضه المشرق الرائع لعصر الأنطونينيين، الذي يفتتح به كتابه "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسـقوطها" [1]. وكانـت خطته التي اختطها لذاك السفر الجليل تستلزم مقدمة قوامها الفخامة والسكينة والوقار. ولكنه كـان أحصـف وأمهر من أن يفوته أن يقيد من استحسانه الظاهر للأحوال التي يصفها، فيقول إنه "في ظلال الإمبراطوريـة الرومانية، كان مجهود شعب مجد ذكي منصرفًا بطرق شتى ولكن من غير انقطاع إلى خدمة الموسرين. فقد كان الذين اصطفاهم الحظ وآثرهم بالثراء يضمون في ثيابهم وموائدهم ومنازلهم ورياشهم أشتات كـل رقـي أصابته الكماليات ووسائل الراحة وكل ألوان الرشاقة وكل فنون البذخ وكل شـيء مـن شـأنه أن يرضـي كبرياءهم أو يشبع شهواتهم. ولقد حمل الأخلاقيون في كل عصر على مثل هذه الكماليات ونعتوهـا بـالترف ذلك الاسم البغيض الشنيع. وربما كان أجدى وأدعى إلى الفضيلة لدى الجنس البشري وأدنى إلى سـعادته أن يمتلك الكل ضروريات الحياة، ولا يحصل أحد على ما يزيد عن حاجته من الكماليات. ولكن الذي نشهده فيما يكتنف الجماعة الإنسانية اليوم من أحوال يعتورها النقص، أن الترف وإن كان يصدر عن رذيلة أو سـفاهة وحماقة، إلا أنه يبدو الوسيلة الوحيدة التي في طوقها أن تصلح من عدم المساواة في توزيع الأمـلاك. فـإن العامل الميكانيكي المجد والفنان الحاذق اللذين لم يحصلا على نصيبهما من الأرض، يستوليان مـن مـلاك الأراضي على ضريبة اختيارية. ويحس هؤلاء الأخيرون بدافع المصلحة الذاتية بضرورة الاهتمام بتحسـين هاته المزارع حتى يتسنى لهم أن يحصلوا على ملذات إضافية عن طريق منتجاتها. فهذه العملية التي تلمـس آثارها الخاصة في كل مجتمع كانت أبعد أثرا وأقوى نشاطًا وأوسع مدى في العالم الروماني منهـا فـي أي مجتمع آخر. فلو أن صناع سلع الترف وتجارها، لم يستردوا بطريقة غير محسوسة إلى الرعايـا المجـدين المبالغ التي كانت تفرضها عليهم جيوش روما وسلطانها لاستنزفت كل ثروة المقاطعات في وقـت قصـير". وعلى هذا الحال استمر جيبون يتكلم في تهكم لاذع يتمشى في ثنايا ذلك الوصف الزاهر.

ولو أنا نظرنا نظرة أوسع من تلك التي تتهيأ لطائرة محلقة، إلى حركة الشعوب على ظهر البسـيطة، أو نظرة أدق مما تستطيع أن تصل بنا إليه مشاهدة ما في الطرقات والمدرجات والولائم، نظرة تنفذ إلـى أرواح الناس وأفكارهم، فإنا سنجد أن ذلك المظهر الرائع للرخاء المادي إنما هو مجرد ثوب براق لتنظـيم سياسـي (Polity) قد عميت عيناه عن كل ما في الخارج والداخل من الأمور كما عميت عن المستقبل. فلو أنا مـثلاً وازنّا بين قرني عظمة روما والفرص الطيبة التي سنحت فيهما، وهما القرنان الأول والثاني الميلاديان، وبين قرني الحياة الإغريقية والهلينية المبتدئين قرابة (٤٦٦ ق. م.) بعهد عظمة بريكليس وسـيطرته فـي أثينـا، لأذهلنا ما نراه مما لا سبيل إلى تسميته نقصا وانحطاطًا لأنه كان انعداما تاما للعلوم. فإن صدوف الرومـاني الغني عن حب الاستطلاع وإعراض الحكام الرومان عن البحث والتنقيب كان ظاهرة تفوق في ضخامتها كل شيء لديهم حتى فنهم المعماري.

---

[1] Gibbon: Decline & Fall of the Roman Empire.

وهناك مجال واحد من مجالات العلم والمعرفة، ربما حق لنا أن نتوقع من الرومان أن يظهروا فيه شيئًا من النشاط واليقظة والإقدام بصفة خاصة، وأعني به علم الجغرافيا. فإن مصالحهم السياسية كانت تقتضيهم درسا وبحثًا متواصلاً في الأحوال السائدة فيما وراء حدودهم من أقاليم، ومع ذلك فإن ذلك الدرس والبحث لم يتم قط. وليس هناك بالفعل أي مصنفات دون الرومان فيها قيامهم برحلات وكشوف وراء حدود الإمبراطورية. وليست هناك أية بيانات شائقة عجيبة كالتي يذكرها هيرودوت عن الإسكيذيين والأفريقيين ومن إليهم. وليس في اللاتينية شيء تستطيع أن تقارنه بالأوصاف الأولى للهند وسيبيريا مما هو وارد في اللغة الصينية. ولقد ذهبت الكتائب الرومانية يوما إلى اسكتلندة، ومع ذلك فلم يخلفوا أي وصف يتجلى فيه الذكاء الحق لقبائل البكْت (Picts) أو الإسكُتش (Scots) فضلاً عن أي وصف لما وراءهم من بحار. ويبدو أن أمثال تلك الكشوف التي قام بها هانو أو الفرعون نخاو كانت مما لا يخطر للخيال الروماني ببال.

والراجح أنه بعد تدمير قرطاجة هبط عدد السفن التي كانت تخرج إلى المحيط الأطلسي مارة بمضيق جبل طارق إلى قدر لا يكاد يذكر. وأكثر من هذا استحالة في ذلك العالم عالم الثروة السوقية والذكاء المستعبد والحكم البيروقراطي، وجود أي مزيد من التطور في علمي الفلك والجغرافيا الطبيعية الإسكندريين. بل ليس يبدو أن الرومان بحثوا أي نوع من الرجال كان أولئك الذين ينسجون الحرير ويجهزون التوابل والأفاوية أو يجمعون الكهرمان أو اللآلئ التي كانت ترد إلى أسواقهم. ومع ذلك فإن سبل البحث كانت مفتحة ميسرة. فأما أن السبل العديدة كانت تمتد في كل اتجاه مؤدية إلى أنسب "نقط الوثوب" لكل من أراد استكشافًا، فأمر لا يعسر على القارئ تصوره.

وكانت أشد أقطار العالم القديم بعدا تنهب لكي تمد روما بألوان الأبهة والملذات. فغابات إسكيذيا تقدم نوعا من الفراء الثمين. ويؤتى بالكهرمان بطريق البر من شواطئ البلطيق إلى الدانوب، وكان البرابرة يعجبون للأسعار التي كانوا يتسلمونها في مقابل هذه السلعة عديمة الفائدة. وكان الطلب على الأبسطة البابلية والمصنوعات الشرقية الأخرى جسيما. بيد أن أهم فرع للتجارة الأجنبية كان مع بلاد العرب والهند. ففي كل سنة قرابة زمن الانقلاب الصيفي، كان أسطول مكون من مائة وعشرين سفينة يبحر من ميوس هورموس (Myos Hormos)، وهي ميناء مصرية على البحر الأحمر، ويقطع المحيط بمساعدة الرياح الموسمية الدورية فيما يقرب من أربعين يوما. وكان ساحل مالابار أو جزيرة سيلان هدف رحلتهم البحرية في العادة، فإذا وصلوا إلى هذه الأسواق وجدوا التجار الوافدين من أقطار آسيا القصية ينتظرون مقدمهم. وكان موعد عودة الأسطول إلى مصر هو شهر ديسمبر أو يناير، وما إن تنقل حمولته الثمينة على الجمال من البحر الأحمر إلى نهر النيل، فتنساب في ذلك النهر إلى الإسكندرية حتى تفيض على الفور إلى عاصمة الإمبراطورية [1] ".

وكانت هناك مستودعات رومانية ومخازن للتجارة في جنوب الهند. وفصيلتان من الجيش الروماني ترابطان في كرانجانور (Cranganore) على ساحل مالابار، حيث أقيم هناك أيضا معبد لأوغسطس.

---

(1) نقلاً عن جيبون.

ومع ذلك فإن روما قنعت بأن تأدب المآدب وتحتم أداء الأموال وتثري وتشاهد حفلات مجالديها، دون أن تبدي أدنى محاولة لتتعلم شيئًا عن الهند أو الصين أو فارس أو إسكيذيا أو بوذا أو زرواستر (زرادشـت) أو عن الهون أو الزنوج وسكان إسكندناوه أو شيئًا من أسرار البحر الغربي.

وإذا نحن أدركنا الجو الاجتماعي الموات الخالي من الإلهام الذي أذن بقيام مثـل هـذا الجمـود وعـدم الاهتمام، استطعنا أن نتعرف الأسباب التي جعلت روما إبان عصر الفرصة السانحة لها تفشل في أن تنهض بأي علم فيزيقي أو كيمياوي، وألا تحصل نتيجة لهذا على زيادة في الهيمنة على المادة والتحكم فيها. وكـان غالب الأطباء في روما من الإغريق وكان الكثير منهم عبدانا أرقاء – ذلك أن أثرياء الرومان قد غاب عنهم أن العقل البشري المشترى بالمال إنما هو عقل اعتراه الفساد. ومع ذلك فإن هذا الحال لم يكن راجعـا إلـى قصور في النبوغ الطبيعي لدى الشعب الروماني؛ بل كان راجعا إلى أي قصور في النبوغ الطبيعـي لـدى الشعب الروماني؛ بل كان راجعا في كليته إلى ظروفهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية.

وآية ذلك أن إيطاليا أخرجت منذ العصور الوسطى حتى أيامنا هذه عددا كبيرا من رجـال العلـم الأذكيـاء اللامعين. وكان من بين أحصف الكتاب والعلمـاء وأنفـذهم بصـيرة، إيطـالي ملهـم يـدعى لوكريتيـوس (Lucretius) – عاش بين زمن ماريوس ويوليوس قيصر – (من قرابة ١٠٠ إلى قرابة ٥٥ ق. م). وكان هذا الرجل العجيب من طراز ليوناردو دافنشي (وهو إيطالي كذلك) أو من طراز نيوتن الإنجليـزي. فكتـب عـن أساليب الطبيعة وتطورها قصيدة لاتينية عصماء طويلة تسمى "في طبيعة الأشـياء" (De Rerum Natura)، تنبأ فيها ببصيرة مدهشة عن تكوين المادة والتاريخ الأول للجنس البشري.. ويقتبس أسبورن في إعجاب عظـيم في كتابه "العصر الحجري القديم" فقرات طويلة من كلام لوكريتيوس عن الرجل البدائي، لا تزال حتـى اليـوم جيدة ومطابقة للحقيقة. بيد أن هذا كان مظهرا فرديا، وكان بذرة لم تؤت ثمارها. فكان العلم الروماني يولد ميتًا خامدا في جو خانق من الثراء والاضطهاد العسكري. والشخص الحقيقي الذي يمثل موقف الروماني القديم مـن العلم ليس هو لوكريتيوس، وإنما هو ذلك الجندي الروماني الذي قطع أرشميدس إربا عند فتح سيراقوزة عنوة.

وإذا كانت ضويت العلوم الفيزيقية والبيولوجية، ضويت واضمحلت وماتت وسط الرخاء في تربة روما الحجرية الصلدة، فإن بذور العلوم السياسية والاجتماعية لم تتح لها البتة فرصة تساعد على إنباتها. فكانت المناقشة السياسـية تعد خيانة للإمبراطور، وكان البحث الاجتماعي أو الاقتصادي يعد تهديدا للأثرياء. ولذا فإن روما حتى نزلت بهـا الكارثة، لم تتبين قط مبلغ سلامة بنيانها الاجتماعي بالفحص والتمحيص ولم تبحث البتة في القيمة القصوى لتمسكها بالروح الحكومية الجامدة وتقاليدها المتزمتة. وبناء على هذا فإن واحدا من الناس لم يدرك خطورة فشلها في إقامـة صرح أي خيال فكري ترتبط به أجزاء إمبراطوريتها بعضها ببعض، ولا أي تعليم عام يقوم على فكرات مشـتركة تجعل الرجال يقاتلون ويعملون في سبيل الإمبراطورية كما يقاتل الرجال ويكدون من أجل تراث عزيز عليهم. على أن حكام الإمبراطورية الرومانية لم يكونوا يرغبون في أن يحارب مواطنوهم بأية روح مهما يكن ما يحاربون مـن أجله. كان الأغنياء قد أكلوا قلب الشعب عامة، وقنعوا بالوجبة التي طعموها. وكانـت الكتائـب مليئـة بالألمـان والبريطان والنوميديين ومن إليهم. وكان أغنياء الرومان يظنون حتى أحاطت بهم النهاية بقضها وقضيضها، أنهـم يستطيعون أن يواصلوا شراء البرابرة ليدفعوا عنهم غائلة العدو في الخارج والفقراء المتمردين في الداخل.

وبحسبك هذا البيان التالي بما أتمه الرومان من التعليم لإظهار كم كان ما أتموه ضئيلاً. إذ يقـول مسـتر هـ. ستيوارت جونز "منح يوليوس قيصر حقوق المواطنية الرومانية لمعلمي الفنون الحرة؛ وأسبغ فسبازيان الهبات على وظائف أساتذة الخطابة الإغريقية واللاتينية بروما. وبسط من تلاهمـا مـن الأبـاطرة وعلـى الخصوص أنطونينوس بيوس تلك المزايا نفسها إلى الأقاليم والولايات. كذلك وجهت بعض الجهود المحليـة وشيء من السخاء بالأموال نحو التعليم. وإنا لنعلم من مراسلات بليني (Pliny) الأصغر أن المدارس العامة أنشئت في بعض المدن بشمال إيطاليا. ومع أن العرفان انتشر انتشارا كبيرا إبان حكم الإمبراطورية فلم يكن ثمة تقدم فكري حق. حقًا إن أوغسطس جمع من حوله أذكى كتّاب زمانه وألمعهم، واتفـق أن جـاء مطلـع الملكية الجديدة مع العصر الذهبي للأدب الروماني. بيد أ، هذا العصر كان قصير الأجل. وشـهدت بـواكير الحقبة المسيحية انتصار الروح القديمة (الكلاسيكية) كما شهدت أولى مراحل التـدهور الـذي ينتظـر كـل الحركات الأدبية التي تتجه إلى الماضي أكثر منها إلى المستقبل".

وقد دبج كاتب إغريقي لعله لونجينوس فيلولوجوس (Longinus Philologus) مقالاً عن الأمجاد الرفيعة شخّص فيه حالة الانحطاط الذهني التي يرسف فيها عصره – وهو يقع في زمن ما من القرن الثاني أو الثالث أو الرابع الميلادي – مبينًا بغاية الوضوح عاملاً واحدا ظاهرا يرجع إليه السقم العقلي في العالم الرومـاني. وينقل عنه جيبون فيقول: "إن لونجينوس الرفيع القدر الذي عاش في زمان متأخر بعض الشيء وفـي بـلاط ملكة سورية (وهي زنوبيا) واحتفظ بروح أثينا القديمة، استرعى انتباهه وأثار أشجانه انحـلال معاصـريه، الذي حط من عواطفهم وأوهن من شجاعتهم وفتّ في عضدهم وضيق الأفق أمام مواهبهم. ثم هو يقول بنفس هذه الطريقة "وعلى هذه الشاكلة نفسها فكما أن بعض الأطفال يظلون على الدوام أقزاما إذا ضغطت أطرافهم في طفولتها ضغطًا شديدا، فكذلك عقولنا اللينة حين يغلها ما يملؤها من التحامل والتحزب وما يتعوده النـاس وينشئون عليه من عبودية حقة، إذ تصبح تلك العقول غير قادرة على بسط نفسها أو الوصـول إلـى تلـك العظمة وذلك التناسق والتناسب الحسن اللذين نكبرهما في القدماء الذين كانوا يكتبون بكامل الحرية التي بهـا يتصرفون لأنهم يعيشون في ظل حكومة شعبية".

بيد أن هذا الناقد لم يدرك سوى وجه واحد من أوجه القيود التي كانت تغل النشاط العقلي. فإن أهم الخيوط التي غلت العقل الروماني وجعلته في حالة مستديمة من الطفولية، كانت تتضمن استعبادا مزدوجا، أحـدهما اقتصادي والثاني سياسي. والبيان الذي يدلي به جيبون عن حياة رجل اسمه هيروديس أتيكوس (Herodes Atticus) كان يعيش في زمان هادريان، يبين تماما كم كان نصيب المواطن العـادي مـن أبهـة الزمـان الخارجية ضئيلاً لا يذكر. كان هذا الأتيكي من أرباب الثراء الطائل، وكان رأس ما يتسلى به تقديمـه منحـا خيرية ضخمة من المباني لمدن متنوعة. فمنح أثينا ميدانًا للسباق وأقام هناك مسرحا من خشب الأرز محفورا حفرا عجيبا تخليدا لذكرى زوجته. وبنى مسرحا في كورنثة، ووهب لدلفي ميدانًا للسباق وأنشـأ الحمامـات بثرموبيلاي وبنى بكانوزيوم (Canusium) سقاية حجرية لجر المياه وهكذا دواليك. وإن لسان المرء لينعقـد ذهولاً لرؤيته عالما كهذا مكونًا من أرقاء وعامة لا يستشارون ولا يقام لرأيهم وزن يستشرف على رءوسهم دون مشاركة من جانبهم، ذلك الرجل الغني مستمتعا بتجلية "مزاجه وذوقه". ولا تزال كتابات عديدة في بلاد

الإغريق وآسيا تخلد اسم هيروديس الأتيكي "النصير والمحسن" الذي كان يتجول في أرجـاء الإمبراطوريـة تجول من يتنزه في حديقته الخاصة فخلد ذكراه على الأيام بهذه الزخارف والحليات التي زين بها المدن. ولم يقتصر على العناية بالمباني الفاخرة. بل كان أيضا فيلسوفًا، وإن لم يبق الزمن لنا من حكمته شيئًا. كانت لـه فيلا كبيرة بالقرب من أثينا، وهناك ينزل الفلاسفة ضيوفًا كراما ما داموا يستطيعون إقناع نصيرهم بصـحة مدعياتهم كفلاسفة، وأن يتلقوا حديثه باحترام ولا يكدروه بالخصومة الوقحة.

ومن الجلي أن العالم لم يصب شيئًا من التقدم في أثناء هذين القرنين من الرخاء الذي بلغته روما. ولكـن هل كان العالم سعيدا في ركوده هذا؟ إن هناك من الدلالات التي لا يتطرق الخطأ إليها مـا يشـير إلـى أن الأغلبية العظمى من الكائنات البشرية في الإمبراطورية، وهي كتلة من الناس يتراوح عددها بين مائة مليون ومائة وخمسين مليونًا، لم تكن بالسعيدة، بل الراجح أنها كانت جد شقية شقاء حادا بالغًا يتوارى تحت سـتار خارجي من فخامة الإمبراطورية وعظمتها. حقًا إنـه لـم تحـدث حـروب عظيمـة ولا غـزوات داخـل الإمبراطورية ولم يحل بالجنس البشري إلا الشيء الطفيف التافه من المجاعة أو الحريق أو المذابح. ولكـن كان هناك من الناحية الأخرى، تضييق شديد من جانب الحكومة وتضييق أشد من جانب المـلاك للأغنيـاء يحدان من حرية نشاط كل إنسان تقريبا. لذا فإن الحياة لدى الغالبية العظمى التي لم تكن بالغنية ولا الموظفة، ولا هي من عنصر النساء والطفيليين الذين يلوذون بالأغنياء والموظفين، لا بد أن كانت حافلة بالكد المضني والكدح الشديد، يعوزها الأمل والجدوى وتنقصها الحرية إلى حد لا يكاد يتصوره عقل حديث.

وربما جاز لنا أن نذكر بصفة خاصة ثلاثة أمور تدعم الرأي القائل بأن هذا العصر كان عصـر تعاسـة وبؤس شامل: أولها جمود السكان وموت إحساسهم العجيب حيال الأحداث السياسـية. فلطالمـا رأوا مـدعيا لعرش الإمبراطورية من محدثي النعمة يخلف مدعيا آخر، دون أن يبدو عليهم أي اهتمام أو مبالاة. إذ لـيس يلوح أن مثل هذه الأمور، ما كانت تعنيهم. فقد زال الرجاء من النفوس. فلما أن تدفق البرابرة بعيد ذلك على الإمبراطورية. لم يكن هناك من يواجههم إلا الكتائب. فلم يحدث يوما أن هب الشعب لمقاتلتهم. ولـيس مـن ريب أن عدد البرابرة في كل مكان كان أقل من عدد الرومان لو خف الأهالي لمقاومتهم. بيد أن الأهالي لـم يقاوموا! وواضح أن الدولة الرومانية لم تكن تبدو في نظر كتلة سكانها شيئًا يستحق أن يحارب المـرء مـن أجله. ولعل الرقيق وعامة الشعب كانوا يرون في البرابرة مؤذنا بقدر من الحرية والكرامة الإنسانية أكبر مما كان يمنحهم إياه حكم موظفي الإمبراطورية الفاخر واستخدام الأغنياء لهم ذلك الاستخدام المضني الطـاحن. ولم يكن نهب القصور وإحراقها وحدوث مذبحة من وقت إلى آخر مما تنزعج له الطبقـة الـدنيا الرومانيـة انزعاج الأغنياء والمثقفين الذين نحن لهم مدينون بكل ما لدينا من أخبار عن تحطم النظـام الإمبراطـوري. والراجح أن عددا كبيرا من الأرقاء والعامة انضموا إلى البرابرة الذين لم يكونوا يعرفـون إلا القليـل مـن التحزب العنصري أو الوطني، والذين كانت أيديهم مبسوطة للترحيب بكل جندي تتبدى فيه أمارات الاقتدار. ولا ريب أن السكان وجدوا البرابرة أشد وبالا حتى من جامع الضرائب ومن النخاس في كثير من الأحـوال. بيد أن هذا الاكتشاف جاء بعد فوات فرصة المقاومة أو استعادة النظام القديم.

وإنا لنجد ظاهرة ثانية تشير إلى نفس هذه النتيجة الذاهبة إلى أن الحياة في أعين الفقراء والعبدان وغالبية الناس أثناء عصر الأنطونيين لم تكد تكون جديرة بأن يحياها الإنسان، تلك الظاهرة هي التناقص المطرد في عدد سكان الإمبراطورية. فكان الناس يأبون أن يكون لهم عقب وذرية. وأغلب الظن أنهم كانوا يفعلون ذلـك لأن منازلهم لم تكن في أمان من الاضطهاد والظلم، ولأنه لم يكن هناك في حالة العبدان أي ضمان يضمن ألا يفرق السيد بين الزوج وزوجه، ولأن الآباء لم يكونوا يعقدون على أولادهم أي أمل أو فخار. وغنـي عـن البيان أن المسرح الأعظم لإنتاج النسل والأبناء في الدول الحديثة هو على الدوام أرض الريـف الزراعيـة، حيث يعيش الريفيون في ظلال أمن واطمئنان يتفاوتان قدرا. بيد أنه في ظلال الإمبراطورية الرومانية كـان الفلاح والزارع الصغير في ريفه بين مدين قد أرهقه الدين وأقلقه وبين شخص تُضيق عليه شبكة حرجة من القيود تجعل منه مولى أرض (Serf) لا روح فيه، أو كان يطرد طردا تاما ويحل محله في العمل والإنتـاج عصبات من الأرقاء.

ثم تتكشف لنا أيضا دلالة ثالثة على أن هذا العصر المزدهر في ظاهره كان عصر تعاسة عميقة ومحنـة عقلية لدى جماهير غفيرة، وتتجلى هذه الدلالة في انتشار حركات دينية جديدة بين جميع السكان. ولقد رأينـا كيف أنه أمكن في حالة قطر صغير كبلاد اليهودية، أن يصاب شعب بأكمله بعدوى الاقتناع بأن الحياة خاطئة غير مرضية، وأنه لا بد لها من شيء يقوم ما اعوج منها. ومن ثم تبلرت عقلية اليهود كما نعرف حول فكرة الوعد، وعد الإله الأحد الحق ومجيء مخلّص أو مسيح. وثمة فكرات أخرى تكاد تخالف هذه، أخذت تنتشـر في الإمبراطورية الرومانية. وهي لم تكن غير أجوبة متنوعة على سؤال واحد يتردد على ألسنة الناس عامة: "ماذا يجب علينا أن نفعل للوصول إلى الخلاص؟". فإن النتيجة الطبيعية المألوفة للتبرم بهذا الضـرب مـن الحياة على ما هي عليه تطيح بالخيال إلى حياة بعد حياتنا هذه، تعوض على الناس كل ما يلقونه فـي هـذه الحياة الدنيا من التعاسات والمظالم. والاعتقاد بمثل هذا الجزاء إنما هو مسكّن عظـيم للشـعور بالتعاسـات الحاضرة. وكانت الديانة المصرية من قديم الزمان مشبعة بفكرة الخلود، وقد رأينا كيف أن هذه الفكرة كانت محورية أساسية في نحلة سيرابيس وإيزيس بالإسكندرية. وقد انتعشت الأسرار العتيقة: أسرار عقيدة "ديميتر" [1] و "أورفيوس"، وهي الأسرار الخوافي لجنس البحر الأبيض – وكونت بينها وبين هـذه العقائـد الجديـدة ضربا من الثيوكرازيا [2]، "أي اتحاد الآلهة".

---

(1) ديميتر: ربة الزراعة عند قدماء اليونان . (المترجم).

(2) الثيوكرازيا (Theocrasia) هي المزج بين عبادة آلهة مختلفة، وقد أسميناها أيضا بالمزج اللاهوتي. (المترجم).

وكانت الحركة الدينية العظيمة الثانية هـي الميترائيـة [1] (Mithraism) وهـي تطـور للزرادشـتية (Zoroastrianism)، وهي ديانة ذات أصل آري عريق في القـدم، يمكـن تقفـي أثرهـا حتـى الشـعب الهندوإيراني قبل أن يتفرع إلى فرس وهندوس. ولسنا بمستطيعين أن نفحص هنا أسرارها في أي تفصل [2]. وكان ميترا ربا للنور، وشمسا للبر والتقوى، وكان يمثلُ دائما في مقاصير ملته وهو يذبح عجلاً مقدسا يسيل دمه فيكون إلى الإمبراطورية الرومانية قرابة زمان بومبي العظيم مختلطة بعناصر كثيـرة مضـافة إليهـا، وبدأت تشيع شيوعا واسعا جدا إبان حكم القياصرة، والأنطونينيين. وكانت شأن عقيدة إيـزيس تعـد النـاس بالخلود. وكان أتباعها على الأخص من العبيد والجنود ومن ألمت بهم عوادي الزمان. وهـي فـي طرائـق عبادتها وفي إيقاد الشموع أمام المذبح إلى غير ذلك، تحمل ضربا معينًا من المشابهة السـطحية بـالتطورات الأخيرة لطقوس الحركة الدينية الكبرى الثالثة التي ظهرت في العالم الروماني وأعني بها المسيحية.

والمسيحية أيضا عقيدة خلود وخلاص، وانتشرت في بادئ الأمر هي الأخرى كذلك بين مصاف الطبقـات الدنيا والتعساء. وقد هاجم الكتاب الحديثون الديانة المسيحية ووصموها بأنها "ديانة أرقاء". وكذلك كان حالهـا فإنها ضمت الأرقاء والمدوسين بالأقدام المهيضي الجانب، فمنحتهم الأمل وردت إليهم احترام الـذات، حتـى أصبحوا يناصرون البر والهدى مناصرة الرجال، وواجهوا ألوان الاضطهاد والتنكيل والتعذيب. فأما أصـل المسيحية وكنهها، فإننا سنتكلم عنهما بمزيد من الإسهاب في فصل تال.

([1]) ميترا: إله الإيرانيين والهنود. ومعنى الكلمة عندهم النور أو الضياء أو الحب. (المترجم).

([2]) راجع كتاب (Forerunners and Rivals of Christianity) لمؤلفه ليجي Legge .

٣- خصائص الفن
في ظلال الإمبراطورية الرومانية

قلنا آنفًا إن ثقافة روما الفنية والأدبية ليست سوى مجرد فرع من الثقافة الهلينية العظيمة، ورث كـل مـا كانت تستطيع بلاد الإغريق وغرب وآسيا وبابل ومصر أن تمنحه إياه. بيد أن هناك اتجاهات بعينها، نحا فيها الجانب الروماني وجهات محددة جدا اختص بها وحده، ولـم يكـن ذلـك إلا فـي فـن العمـارة خاصـة. والإمبراطورية الرومانية تؤذن بدور جديد من أدوار التاريخ أي بتغير في المعيار، انعكس فيما لمبانيها مـن الضخامة العظمى والحجم الأكبر. وأهم هبات روما لفن العمارة هي الأسمنت واستعمال العقْد (الباكية) بحرية ووفرة. وحيثما ذهبت الكتائب الرومانية، ظهر العقد وظهر الأسمنت. وبفضل الأسمنت صار فـي الإمكـان إقامة القباب والأقبية الهائلة الضخمة، كما أصبح من اليسير تبطينها بالرخـام. واقتـبس الرومـان العمـود الكورنثي الغني بالنقوش ثم غيروه وأتقنوه، واستعملوه مع العقود. وإنما الممرات ذات العقود فكرة رومانيـة أصيلة؛ وكذلك أيضا ذلك الميل إلى إقامة المباني المستديرة، وإلى وضع العقود (البواكي) بعضها فوق بعض في طوابق المباني المختلفة. وأينما ذهب الرومان خلفوا المدرجات، وأقواس النصر والشـوارع ذات العقـود والسقايات المائية المبنية والقصور الفاخرة. كذلك أنشئوا طرقات ذات تدريج معقول وكباري بديعة وسـقايات متقنة. ولا يزال الإيطالي حتى يومنا هذا خير من ينشئ الطرق في العالم.

ولم يحدث لفن العمارة الروماني أي تطور منظم كالذي حدث للمصري والإغريقي. وكانت جهوده الأولى تحذو حذو النماذج الإترورية وهي من خشب مكسو بالفخار. ثم ما لبث الحجر أن حل محل الخشب تدريجيا. ولكن بقيام الإمبراطورية انتقل المهندس المعماري الإغريقي إلى روما واستخدم من فوره الفـرص الجديـدة التي أتيحت له والمواد التي وجدها ميسرة في متناوله. ففن العمارة الروماني لم يتطور بمقدار ما تفجر فجـأة ولكنه إذا تفجر ساد بقوة وعم انتشاره.

وقد صحب نسور الألوية الرومانية فن نحت قوي إغريقي كذلك في جوهره. وإن مجتمعا مكونًا من رجال أثرياء كبار، لمجتمع لا تكاد تكون له مندوحة عن الإنتاج في فن التصوير، ثم إن الصورة المحفورة تمثـالاً نصفيا والتمثال الكلي اللذين يصوران خصوصية صاحبهما في مماثلة ذاتية دقيقة، قد وصلا إلى أعلى منزلة لتطوراتهما في ظلال العصر الأخير من الجمهورية وصدر عصر القياصرة. وبقي التصـوير أيضـا مليئًـا بالحيوية. وهناك حادثة سعيدة هي حادثة تدمير بركان فيزوف لمدينتي بومبياي (Pompeii) وهركولانيـوم مع الإبقاء عليهما مطمورتين، مكنت العالم الحديث أن يقدر ما كان عليه فن التصوير لـديهم مـن الـوفرة والتنويع والجمال في القرن الأول الميلادي. وكانت هاتان المدينتان منتجع الأغنياء، وإن لم تكونا بأي حـال ملتقى أرفع الأغنياء شأنًا، ويحمل إلينا ما تحتويان من ثروة من الطرف والمواد الممتعة أبرز معيار لما ضاع علينا من روائع الفنون وبدائعها.

والفسيفساء طراز آخر من الإنتاج الذي برزت فيه الإمبراطورية الرومانية في عصرها الأول أي دور سابق من أدوار المدنية. كذلك وصلت صناعة الزجاج إلى مستويات عالية في الجمال على يد عمال من الإغريق والشرقيين على الأخص.

وقد أصيب الفن بحلول النوازل والفوضى التي أطبقت على الإمبراطورية الرومانية الغربية في نهاية القرن الثاني الميلادي، بتوقف في الكثير من نواحي هذه القوة الإنتاجية الفنية. واستمر فن عمل الصور وانتعش فن العمارة من جديد. بيد أنه بعد القرن الثالث تصلبت الروح الطلقة الفياضة في كثير من النحائت بتأثير المؤثرات الشرقية.

٤ - قدر معين
من الركود في الخيال الروماني

أسلفنا إليك بيان الأسباب التي حملتنا على تقرير أن النظام الإمبراطوري الروماني كان في واقـع الأمـر تطورا سياسيا جد غير سليم. ومن السخف أن يتناول المرء بالحديث ما كان ينطوي عليه مـن فـن الحكـم والتدبير. إذ لم يكن لديه فن حكم ولا تدبير. كانت له في خير أحواله إدارة بيروقراطية أقامت السـلام فـي العالم فترة من الزمان وفشلت فشلاً تاما في صيانته. فلنسجل هنا أهم العوامل في فشلها.

ومفتاح كل ما أصابه من إخفاق قائم في انعدام كل نشاط عقلي حر وكل تنظيم يؤدي إلـى زيـادة العلـم والمعرفة وتطورهما وتطبيقهما. فكانت تحترم الثراء وتزدري العلم. وكانت تسـلم زمـام الحكـم للأغنيـاء وتتصور أن الحكماء يمكن أن يشروا بالمال وأن يساوم عليهم في أسواق الرقيق عندما تدعو الحاجة إلـيهم. فهي بناء على هذا إمبراطورية جاهلة سقيمة الخيال إلى حد مروع. فلم تكن تتنبأ بشيء ولم تتوقع شيئًا.

ولم تكن من الناحية الاستراتيجية على أي حظ من بعد النظر، لأنها كانت صـفحة بيضـاء فـي جهلهـا بالجغرافيا وعلم السلالات البشرية (الإثنولوجيا). فهي لم تعرف شيئا عن أحوال روسيا ولا آسـيا الوسـطى والشرق. وقنعت بأن تتخذ من الراين والدانوب حدا لها، وألا تبذل أي جهد في سبيل صبغ ألمانيا بالصـبغة الرومانية. وما علينا إلا أن نلقي نظرة إلى خريطة أوربا وآسيا التي تبين الإمبراطورية الرومانية، لكي ندرك أن ضم ألمانيا برضاها وإدماجها فيها كان ضرورة ماسة تقتضيها حياة أوربا الغربية وسلامتها. فلما أن أهمل ضم ألمانيا أصبحت إسفينًا لم يكن ينقصه لكي يحطم النظام كله بددا إلا أن تدفعه مطرقة الهون من الخلف.

وفضلاً عن ذلك فإن هذا التراخي عن توسيع الحدود شمالاً حتى البلطيق، قد جعل منه ومن بحـر الشـمال منطقة تجارب وتدريب على فنون الملاحة بين أهل الشمال من سكان إسكندناوة والدانمارك والساحل الفريزي. بيد أن روما ظلت سادرة في طريقها بغاية الغباء غافلة عن نمو قرصنة في الشمال أحدث عهدا وأشد قوة.

وكان هذا الخيال الكليل نفسه مما دفع الرومان إلى إهمال الطرق البحريـة فـي البحـر المتوسـط دون تطويرها والنهوض بها. فلما تدفق البرابرة بعد ذلك نحو المياه الدفيئة، فلسنا نقرأ في تاريخهم عـن أي نقـل سريع للجيوش من إسبانيا أو أفريقيا أو آسيا لإنقاذ إيطاليا وسواحل الأدرياتي. وعلى النقيض من ذلك نـرى الوندال يصبحون سادة الحوض الغربي للبحر المتوسط دون أن يحدث ما يشبه معركة بحرية.

وقد صد الرومان عند نهر الفرات حشد من الفرسان الرماة وكان مـن الواضـح أن الكتيبـة الرومانيـة – بالطريقة التي نظمت بها، غير ذات جدوى في الأراضي الفسيحة الرحيبة، وكان ينبغي أن يتجلى بنفس الدرجة من الوضوح أن الفرسان الرحل من ألمانيا الشرقية وجنوب الروسيا أو بارثيا لم يكن مفر إن عـاجلا أو آجـلاً من أن يحاولوا تصفية موقفهم مع الإمبراطورية. بيد أن الرومان بعد زمان قيصر بمائتي سنة كانوا لا يزالـون يسيرون في العالم نفس الكتائب المدربة المجلجلة التي لم يداخل نظامها أي تغيير، وهي التي كان من الميسـور الالتفاف حولها ركضا بالجياد وتمزيقها إربا. ولم تتعلم الإمبراطورية أي شيء حتى من معركة كاراي.

وإن ما أظهره الاستعمار الروماني من العجز عن التجديد في وسائل المواصلات لأمر يدعو كذلك إلى الدهشة. إذ كان جليا أن قوة الرومان ووحدتهم تعتمدان على سرعة حركة الجنود وإرسال الإمداد من أحد أجزاء الإمبراطورية إلى الجزء الآخر. أجل شيدت الجمهورية الطرق الفاخرة. ولكن لم تدخل الإمبراطورية عليها أي تحسين. وقبل ظهور الأنطونيين بأربعمائة سنة اخترع هيرون (Hero) السكندري أول آلة بخارية. وكانت المدونات الأنيقة التي تسجل مثل هاته البدايات في العلم من بين الكنوز المهملة التي تضمها مكتبات الأثرياء في كل أنحاء الممتلكات الإمبراطورية، مثلها مثل بذور ألقيت في أرض من الحجر الصلد. وكانت جيوش ماركوس أوريليوس ورسله تكدح في اختراق الطرق على نفس النسق الذي كانت عليه جيوش سكيبيو الأفريقي قبلهم بثلاثة قرون.

ولم ينفك الكتّاب الرومان يندبون على الدوام تخنث العصر. فتلك أنشودتهم المحببة. وذلك أنهم أدركوا أن الرجال الأحرار من سكان الغابات والسهوب والصحارى كانوا مقاتلين أشد بأسا وأكثر استبسالاً من مواطنيهم، غير أن النتيجة الطبيعية الحتمية التي تترتب على تنمية قوة الصناعة لدى مجموعاتهم الضخمة من السكان بدرجة تكفل إنتاج العتاد اللازم لضمان الموازنة بينهم وبين أعدائهم البرابرة لم تخطر لهم قط على بال. بل تراهم على العكس من ذلك يدخلون البرابرة في كتائبهم ويعلمونهم فنون الحرب ويسيرونهم في أرجاء الإمبراطورية ثم يعيدونهم إلى شعوبهم بعد أن أتقنوا الدرس الذي تعلموه.



(١١٥)

فليس عجيبا وهذا حالهم من الإهمال الواضح المتكرر أن يغفل الرومان إغفالاً تاما ذلك الأمر الأشد دقـة وأعني به روح الإمبراطورية، فإنهم لم يبذلوا أي جهد لتعليم أو تدريب عامة الناس فيها أو اكتساب قلـوبهم حتى يندمجوا في حياتها اندماج المشاركة الشعورية الواعية. إذ كان مثل هذا التعليم أو التدريب فـي الواقـع متعارضا مع كل آراء الأغنياء وموظفي الإمبراطورية. وهم قد اتخذوا من الديانة أداة ووسيلة. وتركوا العلم والأدب والتعليم في يد الأرقاء الذين كانوا يربون ويدربون ويباعون كالكلاب والخيل. وكان المغامرون مـن الرومان في ميادين المال والعقار وهم الذين خلقوا الإمبراطوريـة، يسـودونها بأقصـى مشـاعر الأمنـة والاطمئنان، على حين كانت عاصفة تدميرهم قد أخذت تتجمع خارج الإمبراطورية وداخلها.

وما إن حل القرنان الثاني والثالث الميلاديان، حتى كانت أداة الحكم في الإمبراطورية المرهقة بالضرائب والمنهكة إلى أقصى حدود الإعياء قد أخذت بالفعل تترنح نحو الهاوية التي تردت فيها آخر الأمر.

٥- حركة السهول العظيمة

إذا أردنا الآن أن نفهم فهما واضحا مركز الإمبراطورية الرومانية الصحيح، وجـب علينـا أن نشـخص بأبصارنا إلى العالم فيما وراء حدودها الشمالية والشرقية. وهو عالم السهول الذي يمتد امتدادا لا يكاد يكـون له انقطاع من هولندة عبر ألمانيا وروسيا حتى جبال آسيا الوسطى ومنغوليا. وأن نعير بعض التفاتنـا إلـى الإمبراطورية المماثلة لهذه في بلاد الصين، وهي التي كانت آخذة في التماسك والتطور حتى صارت وحـدة أخلاقية وفكرية أصاب كثيرا وأبقى عمرا من تلك التي وصلت إليها الإمبراطورية الرومانية في تاريخها كله.

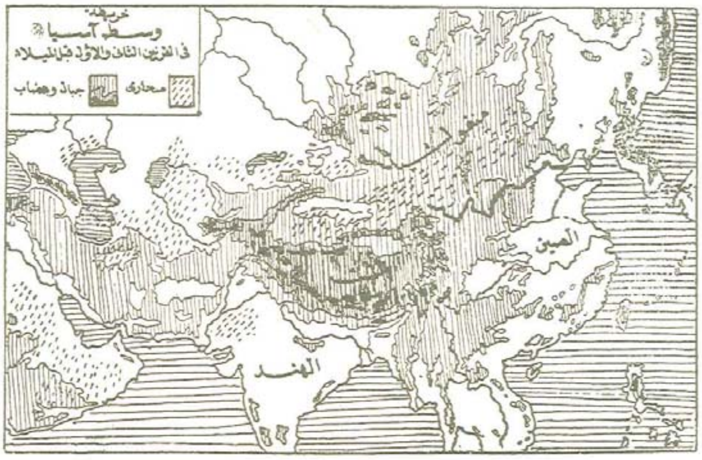
ويقول المستر ا. ز. هـ. باركر: "جرت العادة بالناس جميعا حتى أعلى رجال أوربا تربيـة وثقافـة أن يرسلوا جملاً طنانة يتشدقون فيها بما يسمونه: "السيادة العالمية وإخضاع كل شعوب الأرض للنفوذ والسلطان" إلى غير ذلك. على حين كان الأمر في الحقيقة مقصورا على زاوية أو ناحية من البحر المتوسـط فقـط، أو القيام ببضع هجمات سريعة الزوال في بلاد الفرس أو بلاد الغال. فإن كلا مـن قـورش والإسـكندر ودارا وإجزرسيس وقيصر وبومبي، قد قاموا بحملات شائقة للغاية. ولكن لا شك أنها لم تكن في اتسـاع نطاقهـا واحتفالها بالمصالح البشرية الكبرى تفوق البتة تلك الحملات التي كانت تجري في طرق الآخر من آسيا. كان في متناول المدنية الغربية من ألوان الفن والعلم شيء كثير مما لم تعن به الصين أبدا، غير أن الصينيين من الناحية الأخرى أنتجوا أدبا [1] تاريخيا ونقدا أدبيا وكياسة وأدبا للسلوك وترقًا في الثياب ونظاما إداريـا، لـو أتيحت لأوربا لكانت موضع فخارها وزهوها. وموجز القول إن تاريخ الشرق الأقصى لا يقل فـي أهميتـه وإمتاعه عن تاريخ الغرب الأقصى. وما نحن إلى شيء بأحوج منا إلى القدرة على قراءته. فإذا نفضنا عـن بالنا في شيء من الاحتقار تلك الأحداث الجسام التي مرت على سهول بلاد التتار (Tartary) لكان جديرا بنا ألا نسرف في لوم الصينيين لعدم صرف عنايتهم واهتمامهم في شئون دول كانت تبدو لهم لا وزن لها وتقـع متناثرة كالنقط حول البحر المتوسط وبحر قزوين، وهي التي كانت في ذلك الزمان تمثل كـل العـالم الـذي نعرفه في أوربا [2] ".

ولقد أسلفنا إليك اسم "شي هوانج تي" الذي ربط أجزاء إمبراطورية أصغر في الواقع كثيـرا مـن حـدود الصين الحاضرة ووطد سلطانه بها، وهي مع ذلك في غاية من العظم ووفرة السكان ولا تبـرح تمتـد مـن واديي الهوانج هو واليانج تسي كيانج. أصبح ملكًا علـى "تـس إن Ts'in" فـي (٢٤٦ ق. م.)، وأصـبح إمبراطورا ٢٢٠ ق. م.، واستمر حكمه حتى ٢١٠ ق. م.، فقام خلال حكمه الذي امتد هذا الثلث القرن الذي قضاه في توطيد سلطانه بنفس عملية التماسك التي أتمها أوغسطس قيصر في روما بعد ذلك بقرنين. وحـدث على العرش عند وفاته نزاع استمر أربع سنوات ثم ما لبثت أسرة جديدة هي أسرة هـان أن اسـتوت علـى

(١) يستخدم المؤلف لفظة الأدب هنا كعادته للدلالة على ما ظهر في اللغة الصينية من مؤلفـات وكتـب فـي علـم التـاريخ. (المترجم)

(٢) E.H. Parker: "A Thousand Years of the Tartars"

عرش الإمبراطورية ٢٠٦ ق. م. وحكمت البلاد مدة تسع وعشرين ومائتين من السنين. وقد كدر مغتصب للملك صفو ربع القرن الأول من الحقبة المسيحية. ثم عاد الملك إلى ما يسمى باسم أسرة هان الثانية التي حكمت البلاد قرنًا آخر ونصف القرن من الزمان حتى ظهر في الصين في أوان الأنطونيين وباء دام أحد عشر عاما، أهلك الحرث والنسل وقذف البلاد إلى أحضان الفوضى. ولعلنا نلحظ أيضا أن نفس هذا الوباء ساعد على انتشار الفوضى في العالم الغربي مدة قرن (راجع القسم الأول). على أن الصين الوسطى ظلت حتى حدوث هذا الوباء تستمتع بوجه عام بما يربو على أربعة قرون من السلام وتحظى على الجملة بحكم طيب لا بأس به، فمرت بذلك في كثرة من القوة والرخاء ليس ثمة ما يماثلها في خبرة العالم الغربي وأحداثه.



(١١٦)

ولم ينهج إلا أول ملوك أسرة هان على سياسة "شي هوانج تي" المضادة لرجال العلم والأدب (Literati). ثم أعاد خلفه الدراسات القديمة (الكلاسيكية)، ذلك أنه رأى أن التقاليد القديمة لدعاة الانفصال قد حطمت؛ وأن توثق عرى الوحدة الصينية يقوم على اتساق العلم ووحدته وانتشاره في جميع أرجاء الإمبراطورية. وعلى حين كان العالم الروماني لا يزال غافلاً عن إدراك الحاجة إلى تنظيم للشئون الفكرية، كان أباطرة أسرة "هان" يقيمون للتعليم والدرجات الأدبية في كل أرجاء الصين نظاما متسقًا أبقى حتى العصور الحديثة على التماسك الفعلي لذلك القطر العظيم الذي لم ينقطع يوما عن الاتساع. وكان موظفو الحكومة المركزية البيروقراطيون بروما قوما ينتمون إلى أشد الأصول والتقاليد تفاوتًا وتباينًا. على حين كان بيروقراطيو الصين ولا يزالون، مطبوعين بطابع واحد، وكلهم استقى من تقاليد واحدة. وقد ألمت بالصين منذ أيام أسرة هان تقلبات عظيمة في الحظ السياسي، بيد أنها لم تغير قط من خصائصها الجوهرية. أجل انقسمت على نفسها حينًا، غير أنها كانت على الدوام تسترجع وحدتها. وكثيرا ما تغلب عليها أعداؤها، ولكنها كانت على الدوام تمتص عدوها وتتمثل قاهرها وتستوعبه..

وعندي أن أهم ثمرة هيأها تماسك الصين هذا تحت حكم "شي هوانج تي" وأسرة هان – هي ما أحدثته من رد فعل ومقاومة للقبائل غير المستقرة النازلة على حدود الصين الشمالية والغربية. فإن الهون (الهيونج نو Hiung-nu) كانوا طوال القرون المنكوبة بالفوضى قبل زمان "شي هوانج تي" يحتلون منغوليا وأقساما كبيرة من الصين الشمالية، وكانوا يغيرون على الصين بلا حرج ويتدخلون بملء حريتهم في الأمور السياسية الصينية. على أن القوة الجديدة التي توفرت على تنظيم الحضارة الصينية شرعت في تغيير هذه الأوضاع تغييرا تاما ونهائيا.

ولقد سبق أن أشرنا إلى وجود هؤلاء الهون في بياننا الأول عن البدايات الصينية. فمن الضروري الآن أن نفسر في إيجاز من هم وما هم. فنحن حتى في استعمالنا هذه الكلمة (هون) كمرادف عام لكلمة "هيونج نـو" إنما ندخل في حومة الجدل والنقاش. وقد سنحت لنا ونحن بصدد بياناتنا عن تطور العالم الغربي فرصة لذكر الإسكيذيين، وأن نشرح ما نلقى من الصعوبة في التمييز تمييزا واضحا ما بين الكِمـريين والسـرماتيين أو السرامطة والميديين والفرس والبارثيين والقوط وشعوب أخرى تتفاوت في درجة ترحلها وتتفاوت في مقدار آريتها، كانت تنتقل غدوا ورواحا في قوس عظيم بين الدانوب وآسيا الوسطى. فعلى حين كانت أقسـام مـن الآريين تتجه جنوبا وتحصل على قسط من المدنية وتطورها، كان هذا الفريق الآخر من الشعوب الآرية آخذًا بأسباب التطور في خفة الحركة والترحل. كانوا يتعلمون حياة الخيمة والعربـة والقطيـع وكـذلك شـرعوا يتعلمون أن يستعملوا اللبن أساسا لغذائهم، وأخذوا فيما يرجح يصبحون أقل عناية بالزراعة وأقل ميلا حتـى إلى نوع المحصولات السريعة مما كانوا عليه من قبل. ومما ساعد على تطورهم هذا تغير بطيء ألم بالمناخ وأخذ يستبدل السهوب بالمستنقعات والغابات وبأراضي الأحراش الخفيفة في جنوب الروسيا وآسيا الوسـطى. والسهوب كما هو معلوم أراضي رعي فسيحة تساعد على إنتاج حياة تنقّل صحية وتستدعي حركة سنوية بين مراعي الصيف ومراعي الشتاء.

ولم تنتج هذه الشعوب سوى أحط أنواع النظم السياسية. وكانوا ينقسمون فيما بينهم ويختلطـون بعضـهم ببعض. ولكن تلك الشعوب على تنوعها كانت لها عادات اجتماعية متماثلة تماما. ومن ثم نشأت صعوبة بـل استحالة التمييز الحاد الدقيق بينها. فإذا كر البصر راجعا إلى الصين رأى حالة الشعوب المغولية في شـمال وشمال غربي المدنية الصينية شديدة المماثلة لهذه الحال. إذ لا يخامرنا إلا القليل من الشك أن الهيونج نو أي الهون ومن جاء في أعقابهم من قوم يسمون بالمغول، كانوا جميعا شعبا واحدا، وأن الترك والتتار ما لبثوا أن تفرعوا من نفس هؤلاء القوم المغول الرحل. فأما القلموق (Kalmucks) والبوريات (Buriats) فهم تطور متأخر لنفس النبعة. ونحن ها هنا أميل إلى استعمال كلمة "الهون" بوصفها ضربا من التسمية العامـة لهاتـه القبائل جميعا، مثلما توسعنا في استعمالنا تماما بحرية كلمة "الإسكيذيين" في الغرب.

وكان تماسك الصين أمرا خطيرا جدا على هذه الشعوب الهونية. فإن الفائض من أفراد السكان لديهم كان حتى آنذاك ينساب نحو الجنوب مغامرا في لجات فوضى الصين المنقسمة انسياب الماء في شعاب الإسـفنج. ثم إذا هم الآن يجدون سورا مبنيا يقف في وجوههم وحكومة حازمة وجيوشًا نظامية تصـدهم عـن سـهول الكلأ. ومع أن السور كان يصدهم عن التقدم، فإنه لم يصد الصينيين. ذلك أنهم كانوا يتزايـدون ويتكـاثرون خلال قرون السلم هذه، وكانوا مع زيادتهم وتكاثرهم ينتشرون انتشـارا مسـتمرا دافعـين قـدما بمسـكنهم ومحراثهم حيثما سمحت لهم تربة الأرض. فانتشروا غربا في بلاد التبت وشمالاً، وشـمالاً بغـرب، وربمـا وصلوا إلى حافة صحراء جوبي. ثم انتشروا أيضا في مواطن الهون المترحلين وفـي مـراعيهم وأراضـي صيدهم، على نفس النسق بالضبط الذي اتبعه سكان الولايات المتحدة البيض في انتشارهم غربا في أراضـي الصيد التي يقطنها الهنود الحمر. على أنهم بالرغم من الغارات والمذابح، كانوا والأمريكيين سواء في منعتهم واستحالة قهرهم، إذ كان في جانبهم ضغط الكثرة العددية، ومن ورائهم حكومة قوية تقتص لهم وتأخذ بالثأر.

بل لئن لم يكن معهم حتى العون الأخير، فإن لمدنية الصين الزراعية قوة هائلة وقدرة على التغلغل والتوسـع والامتداد، وقد انتشرت في بطء واطراد مدى ثلاثة آلاف من السنين. وهي تنتشر اليوم في منشوريا وسيبيريا وترسل جذورها عميقًا حيثما انتشرت.

مدن الصينيون الهون جزئيا وتمثلوا بعض عشائرهم. فأما الهون الأبعدون شمالاً فقد صدوا ووجهت غربا طاقاتهم المفرطة القوة. وانغمر الهون الجنوبيون في سكان الإمبراطورية.

ولو أن القارئ تأمل خريطة آسيا الوسطى لرأى أن حواجز جبلية عظيمة جـدا تفصـل شـعوب آسـيا الجنوبيين عن الغربيين والشرقيين. (ولكن يجدر به أن يتحرز من تكوين فكراته من خريطة مرسومة علـى أساس مشروع مركاتور (Mercator) (1) الذي يبالغ مبالغة هائلة في مساحات ومسـافات آسـيا الشـمالية وسيبيريا). وإنه لواجد عند كتل الجبال الوسطى أن ثلاث سلاسل جبلية عظيمة تتفرع شرقًا، فتذهب الهملايا جنوبا بشرق جنوبي بلاد التبت وتذهب جبال الكوين لن شرقًا مارة بشمال التبت، وتتجه التيان شـان شـمالاً بشرق لكي تتصل بجبال آلتاي. وبعد ذلك إلى الشمال يوجد السهل العظيم الذي لا يني جليده يذوب وجفافـه يزداد. وبين التيان شان والكوين لن متسع هو حوض التاريم (وهي التركستان الشرقية على وجه التقريـب)، وبه أنهار لا تصل إلى البحر أبدا، بل تنتهي في مستنقعات وبحيرات متقطعة وكان هذا الحوض أكثر خصـبا في الماضي منه اليوم. والحاجز الجبلي في غربي حوض التايم ذلك مرتفع، بيد أنه لا يمنع المـرور تمـام المنع. وهناك طرق كثيرة مسلوكة تنحدر إلى أسفل متجهة إلى التركستان الغربية. ومن الميسور أن يسـافر الناس إما على امتداد التلال الفسيحة الشمالية لجبال الكوين لن أو بواسطة وادي التاريم في الناحية الغربيـة من الصين إلى قشغر (حيث تلتقي الطرق)، ومن فوق الجبال إلى خوقند وسمرقند وبخارى. فهنا إذن مكـان الالتقاء الطبيعي في التاريخ بين الآريين والمغول. وهو التقاء إما أن يتم هنا أو لا يتم إلا بالدوران بحرا.

ولقد ذكرنا من قبل كيف أن الإسكندر الأكبر وصل إلى أحد جوانب ذلك الحاجز الضخم في عام ٣٢٩ ق. م. وفي أعلى جبال تركستان بحيرة تخلد اسمه. والواقع أن ذكريات غارته العظيمة تخلد اسمه إلى حد أنه لا تكاد توجد أية خرابة من الأطلال الحجرية في آسيا الوسطى إلا نسبت حتى اليوم إلى "إسكندر". وبعـد هـذه البارقة الخاطفة يعود نور التاريخ فيخبو عن هذا الإقليم مرة ثانية. حتى إذا عاد إليه سطوعه كـرة أخـرى كانت عودته في الناحية الشرقية لا في الناحية الغربية.

وهناك في أقصى الشرق نهض "شي هوانج تي" لتشتيت شمل الهون وإبقائهم خارج الصين نفسها فيما وراء السور. فبقي من هؤلاء القوم قسم في شمال الصين، وهي بقية قدر لها أن تندمج في الحياة الصينية فـي أثنـاء حكم أسرة هان، بيد أن قسما عظيما منهم اتجه غربا ثم طاردوا أمامهم (في القرن الثـاني والأول ق. م) شـعبا من ذوي قرباهم اسمه يوويه تشي "Yueh Chi" دافعين إياه من أقصى شرق الكوين لن إلى أقصى غربها، ثم عبر الحاجز نفسه إلى إقليم التركستان الغربية الذي كان يوما ما إقليما آريا. هؤلاء الأقوام من اليوويـه تشـي

---

(1) مشروع مركاتور: طريقة لرسم الخرائط تجعل خطوط الطول والعرض خطوطًا مستقيمة فتبدو المناطق القطبية أكبر مـن حقيقتها. (المترجم).

فتحوا مملكة باكتريا ذات الطابع الهليني الخفيف واختلطوا بشعبها الآري هناك. وأصبح هؤلاء اليوويه تشي فيما بعد آريين، أو انغمروا ومعهم عناصر آرية في شعب يسمى الهندوإسكيذيين انحدر في ممر خيبر وفتح أقـاليم الهند الشمالية حتى وصل بنارس (١٠٠ – ١٥٠م) جارفًا أمامه آخر أثر للحكم الهلّيني في الهند.

والراجح أن هذا الانهمار الكبير للأجناس المغولية نحو الغرب لم يكن أول تلك الحركات، بـل هـو أول انهمار لها يسجله التاريخ. وجاء الهون في أعقاب اليوويه تشي، وكانت أسرة هان القوية الصينية فـي إثـر الهون تدفعهم آنذاك إلى الشمال. وما حل زمان وو تي (Wu – Ti) (١٤٠ – ٧٦ ق. م.) أعظم ملوك أسرة هان إلا وكان الهون قد طردوا شمالاً خارج التركستان الشرقية بأكملها أو كانوا أخضعوا، وحتى كان حوض التاريم يموج بالمستقرين الصينيين، وحتى كانت القوافل تسير غربا تحمل الحرير وطلاء اللاكيه والكهرمـان الأسود لتستبدل بها ذهب أرمينية وروما وفضتهما.

أجل إن حركات "اليوويه تشي" وانسيابهم مدونة في صفحات التاريخ، ولكنه من الواضح إلى حد ما أن الكثير من تحركات شعوب الهون نحو الغرب لم يدون. واستمرت الإمبراطورية الصينية من ٢٠٠ ق. م. إلى ٢٠٠ م، تحافظ على جبهة صلبة قوية التصميم متقدمة إلى الأمام في بلاد الترحل، وكان فائض المترحلين ينسـاب علـى الدوام غربا. وإذن فلم يكن من ناحية الصينيين أي استقرار وراء حدود نهائية كالذي رأيناه في حالة الرومان على نهري الراين والدانوب. وكانت النتيجة أن انتقال المترحلين قبل هذا الضغط الصيني المتواصل قرنًا بعد قرن اتجه في بادئ الأمر جنوبا نحو باكتريا. ولعل دماء البارثيين في القرن الأول ق. م خالطتها عناصر إسكيذية ومغولية. والظاهر أن " السهام الطنانة" التي قضت على جيش كراسوس كان مصدرها في الأصل هو جبال آلتاي وتيـان شان، وبعد انقضاء القرن الأول ق. م. انتقل خط الجاذبية الكبرى والمقاومة الصغرى إلى اتجاه آخر شمالي بحر قزوين حيث بقي فترة من الزمان. وقبل أن ينقضي قرن أو ما يقاربه، أصبح كل القطر المعروف باسم التركستان الغربية مصطبغًا بالصبغة المغولية ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا. وابتدأت طعنة كبيرة ثانية أو زحف من الصين قرابة ٧٥ م فزادت من سرعة انتقال المترحلين جهة الغرب. ففي ١٠٢ م كان "بان تشاو Pan Chau" وهو قائد صيني يرسل من معسكره الأمامي على بحر قزوين (أو على الخليج الفارسي كما يقول بعض الثقات) طلائعـه ليتعرف بواسطتهم مبلغ قوة الرومان. بيد أن تقاريرهم حملته على أن يقرر ألا يواصل المسير.

وما وافى القرن الأول الميلادي حتى كانت بعض الشعوب المغولية المترحلة قد ظهرت على حدود أوربا الشرقية مختلطين بالفعل اختلاطًا عظيما بالنورديين المترحلين وبعناصر نوردية مستأصلة من الإقليم الممتـد بين قزوين وبامير. وكانت هناك شعوب هونية مستقرة بين بحر قزوين وجبال أورال. وإلى الغرب منهم كان الآلان (Alans) وهم كذلك في الراجح شعب مغولي به عناصر نوردية سبق أن قاتلوا بومبي العظيم عنـدما كان في أرمينية عام ٦٥ ق. م. فكان هؤلاء حتى ذلك الحين أشد شعوب الزحف المغولي الجديد توغلا فـي الغرب، ثم لم يقوموا بعدها بأية حركة أخرى نحو الغرب حتى القرن الرابع الميلادي. وفي الناحية الشـمالية الغربية كان الفنلنديون [١] وهم شعب مغولي استقر من زمان طويل في أرض أوغـات غربـا علـى بحـر البلطيق.

([١]) ورد اسم الفنلنديين واللابلنديين في الخريطة رقم ١١٧: مختصرا إلى لفظتي فنيين ولابيين ولذا لزم التنويه. (المترجم).

وإلى الغرب من الهون فيما وراء نهر الدون، نزلت قبائل نوردية خالصة هي القوط. وقد انتشـر هـؤلاء القوط في اتجاه جنوبي بشرق من بلاد أرومتهم في إسكندناوة. كانوا شعبا تيوتونيا، وسبق أن لحظناهم وهـم يعبرون البطليق في الخريطة التي قدمناها عن التوزيع الأول للشعوب الناطقة بالآرية. وواصل هؤلاء القوط حركتهم نحو الجنوب الشرقي عبر الروسيا، وهم يستخدمون الأنهار غير ناسين البتة ما تدربوا عليه في بحر البلطيق من فنون الملاحة. وليس من شك أنهم تمثلوا كثيرا من الإسكيذيين أثناء انتشارهم نحو البحر الأسـود جنوبا. وكانوا في القرن الأول الميلادي في قسمين رئيسيين هما القوط الشـرقيون (Ostrogoths)، الـذين كانوا بين الدون والدنيبر، والقوط الغربيون (Visigoths) في غرب نهر الدنيبر. وساد السـكون السـهول العظمى في أثناء القرن الأول، بيد أن السكان كانوا يتجمعون وكانت القبائل تختمـر وتنضـج. ويلـوح أن القرنين الثاني والثالث شملتهما دورة من فصول ممطرة كثيرة الكلأ نسبيا. ولكن سرعان ما أصبح الجو فـي القرنين الرابع والخامس أكثر جفافًا، وتناقص الكلأ وتحرك المترحلون من جديد.



على أن من الشائق أن نذكر لك أنه في القرن الأول من الحقبة المسيحية كانت الإمبراطورية الصينية على درجة من القوة مكنّها أن تطرد وأن تدفع عن نفسها فائض هذه الشعوب المترحلة المغولية النازلة إلى الشمال منها، فما لبث هؤلاء المترحلون حتى غزوا شمال الهند وأصبحوا ذوي قوة ثم اختلطوا بالمترحلين الآريـين، ثم انقضوا آخر الأمر انقضاض الهيار الجليدي على الإمبراطورية الرومانية الضـعيفة التماسـك المهيضـة الجناح.

وقبل أن نواصل الحديث عن الضربات التي أخذت تكال للإمبراطورية الرومانية، ونتعرض لمجهـودات عظيم أو عظيمين من الرجال لإيقاف الانهيار، نرى أن نذكر بضع كلمات عن عادات وكنه هـذه الشـعوب المغولية المتبربرة المتجهة غربا، والتي كانت عند ذاك تتقدم من حـدود الصـين نحـو البحـرين الأسـود والبلطيق. ولا يزال العرف الأوربي جاريا على الانسياق وراء الكتّاب الرومان في تصوير هـؤلاء الهـون وخلطائهم في صورة قوة هدامة قاسية إلى حد لا يتصوره عقل. بيد أن مثل تلك البيانات التي نسـتقيها عـن الرومان إنما كتبت في عصور يكتنفها الذعر والهلع. وكان في وسع الروماني أن يكذب فـي حـق أعدائـه ويفتري عليهم بجرأة وقوة لا بد أن تستثير حسد عملاء الدعاية العصريين أنفسهم.

فإن الواحد منهم يستطيع أن يتحدث عن "العقيدة البونية" كمرادف للغدر بينما يرتكب هو ضـد قرطاجـة أشنع الخيانات وأبشعها. وكان يجعل من اتهاماته التي يعتبر بها هذا الشعب أو ذاك ويتهمـه بالـدأب علـى أعمال القساوة المنظمة، مقدمة وذريعة في العادة لما يقوم به بعيد ذلك من شنيع المجـازر أو الاسـترقاق أو السرقات. وكان شديد الولع بتبرير نفسه هو وتسويغ تصرفاته كالعصريين سواء. ولا يذهبن عن بالنا أن تلك البيانات التي تنعت الهون بالوحشية والفظاظة المخيفة، صدرت عن شعب كان أهم ما يتسـلى بـه حفـلات المجالدين، وكانت أهم وسيلة لديه للتصرف في أهل العصيان والفتنة دقهم على الصـلبان بالمسـامير حتـى يموتوا. وليس من ريب أن الإمبراطورية الرومانية قتلت منذ بدايتها إلى النهاية مئات آلاف من الرجال على هذه الشاكلة. وكان قسم كبير من سكان هذه الإمبراطورية التي كانت تستطيع أن تتباكى وتتشاكى من بربرية مهاجميها يتكون من عبدان يتعرضون فعلاً لكل ما يثور في صدور سادتهم من هوائج الشـهوات أو ثـوائر النزوات. فمن المستحسن أن نتذكر هذه الحقائق قبل أن نأسى ونحزن على اجتياح البرابـرة الإمبراطوريـة الرومانية، كأنما كان في ذلك قضاء كل ما هو كالح وقبيح على كل ما هو جميل ورفيع في الحياة.

ويبدو أن الحقيقة هي أن الشعوب الهونية كانت النظير الشرقي للآريين البدائيين، وأنهم على الرغم ممـا يفرق بينهم من فروق أساسية في الجنس واللغة، قد وفقوا بغاية السهولة إلى الاختلاط مع البقايـا المترحلـة وشبه المترحلة للشعوب الناطقة بالآرية في شمال الدانوب وفارس. وبدلاً من إعمال التقتيل في الشعوب التي غزوها، كانوا يضمون تحت لواء جيوشهم أفراد الشعوب التي يقهرونها بل ويتزاوجون معهم. وكانت فـيهم تلك الموهبة الضرورية لكل شعب قدر له السيادة السياسية – وهي موهبة التمثل المقترن بالتسامح. ولكـنهم جاءوا في عصر متأخر نوعا ما، وكانت حياتهم الترحلية أكثر تقدما من حياة الآريـين البـدائيين. إذ كـان الآريون البدائيون شعبا يسكن الغابة ويستخدم العربة التي يجرها الثور ثم استهواهم الحصان فيما بعد. علـى

حين درجت الشعوب الهونية في تطورها مع الحصان. ذلك بأنهم في زمان ما يقارب ١٢٠٠ أو ١٠٠٠ ق. م أخذوا يركبون الحصان. وما الشكيمة [1] ولا السرج ولا الركاب بأشياء بدائية، بيد أنها ضرورية إذا كـان لا بد للإنسان والحصان أن يسيروا متلازمين في مساحات مترامية. وخليق بنا أن نتذكر كم ركوب الخيل شيء حديث قريب العهد! فالإنسان لم يمض عليه وهو على صهوات الخيل أكثر كثيرا من ثـلاث آلاف سـنة [2]. ولقد سبق أن لحظنا في هذا الكتاب كيف ظهر على التدريج المركبة الحربية والرجل الفارس، كمـا لحظنـا أخيرا ظهور الخيالة المنظمة. وكان مصدر هذه الأمور أقاليم آسيا المغولية. ولا يزال الرجـال فـي آسـيا الوسطى إلى يومنا هذا يستخدمون السرج في ترحالهم أكثر من انتقـالهم علـى أقـدامهم. ويقـول راتـزل (Ratzel) [3]: "توجد في أرض السهوب خيول قوية طويلة الأعناق في أعداد هائلة. فلـيس الركـوب عنـد المغول والتركمان من الترف في شيء. بل إن رعاة المغول يرعون قطعانهم على ظهـور الخيـل. ويـتعلم الأطفال الركوب وهم بعد أيفاع. وكثيرا ما يتلقى طفل في الثالثة من عمره أول درس له في الركـوب فـي سرج للأطفال أمين ويتقدم تقدما سريعا".

ومحال أن نفترض أن من الممكن أن يختلف الهون والآلان اختلافًا بعيدا في صفاتهم عن مترحلي منطقة السهوب في الزمان الحاضر، ويكاد كل المراقبين يجمعون على وصف هؤلاء الأخيرين بأنهم قوم صـرحاء ظرفاء فهم أمناء أمانة تامة وهم أحرار الروح. ويقول "راتزل": إن خُلُق رعاة آسيا الوسطى عندما يكونـون خُلّصا غير مدخولين ينطوي على الفصاحة الرصينة وطيب العنصر في خشونة وكبرياء، ولكن مع شيء من التكاسل وسرعة الانفعال والميل إلى الانتقام. وتنم وجوههم عما لهم من نصيب جسيم من الصراحة المشوبة بالسذاجة المسلية. وشجاعتهم إنما هي توهج فجائي من الشراسة أكثر منها جرأة طابعها الاتـزان والهـدوء. وليس لديهم أي تعصب ديني، والكرم عندهم أمر شائع". وليست هـذه صـورة مرذولـة أو بغيضـة فـي مجموعها. وهو يقول بعد ذلك إن مظهرهم الشخصي أهدأ سمتًا وأكثر وقارا من أهل المدن فيما وراء ذلـك من التركستان وبلاد إيران. أضف إلى ذلك أن حياة الترحل تمنع أي فروق عظيمة من عدم المسـاواة بـين الطبقات، أو أي تطور كبير في نظام الاسترقاق.

وبدهي أن هؤلاء الشعوب المنطلقين من آسيا كانوا أميين تمام الأمية لم تتطور نفوسهم من الناحية الفنية. ولكن لا ينبغي لنا أن نظن بناء على هذا أنهم كانوا برابرة بدائيين، وأن أحوالهم المعيشية كانت علـى نفـس المستوى الذي نشأت منه المدنية الزراعية منذ زمن بعيد. فإنها لم تكن كذلك. ذلك أنهم تطوروا هـم أيضـا، ولكنهم تطوروا على نسق آخر مختلف، نسقٍ أقل تعقيدا ذهنيا، وربما كان أكبر حظًا من الكرامة الشخصـية، ولكنه على التحقيق أوثق اتصالاً بالريح والسماء.

([1]) الكشيمة: حديدة توضع في حنك الحصان. (المترجم).

([2]) انظر كتاب "الخيل" تأليف روجر بوكوك (Roger Pocock) وهو كتاب شائق ممتع على صغر حجمه.

([3]) The History of Mankind, Book v

٦- الإمبراطورية الغربية (الرومانية الحقة) تتصدع

ابتدأت في القرن الثالث أول الغارات الخطيرة للقبائل الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية مع انحلال قوتها المركزية. ولن نزج بالقارئ ها هنا في ذلك الموضوع الشائك المعقد من أسماء مختلف القبائل الجرمانية المتنوعة وتباين أو تطابق ذاتيتها وعلاقاتها المتبادلة. فالمؤرخون يكابدون أعظم العسر في تمييزها بعضها من بعض. ويزيد في هذه الصعوبات ما حدث من أنهم هم أنفسهم لم يعنوا إلا قليلاً بأن يظلوا متميزين منفصلين.

فإنا نجد في ٢٣٦ م شعبا يسمى الفرنجة (Franks) يقطع الحدود على الراين الأدنى، وشعبا آخر هو الألاماني (Alamanni) ينثال إلى الألزاس. وكانت هجمة القوط جنوبا هجمة أكثر خطورة بكثير. ولقد سبق أن لحظنا وجود هؤلاء القوم في جنوب الروسيا، وانقسامهم حول الدنيبر إلى قوط غربيين وشرقيين. وفي البحر الأسود عادوا من جديد شعبا بحريا. والراجح أن هجرتهم التقليدية من السويد كانت على امتداد الطرق المائية، إذ إنه لا يزال سهلاً على المرء أن يمضي مجدفًا في قارب من بحر البلطيق عبر الروسيا قدما حتى البحر الأسود أو بحر قزوين، ولا يعترض مجدافه إلا مسافات قليلة بين الأنهار يمكن التغلب عليها. ثم انتزع هؤلاء القوط الإمرة في البحار الشرقية من يد روما.

وما لبثوا أن شرعوا يغيرون على شواطئ بلاد الإغريق. كذلك عبروا نهر الدانوب في غزوة برية عظيمة في (٢٤٧ م) وهزموا الإمبراطور ديكيوس (Decius) وقتلوه فيما يسمى الآن باسم بلاد الصرب. واختفت مقاطعة داكيا (Dacia) من التاريخ الروماني. وفي (٢٧٠ م) هزمهم كلوديوس عند مدينة نيش ببلاد الصرب، وفي (٢٧٦ م) كانوا يغيرون على بنطش [1]. ومما يتصل بما جبلت عليه الإمبراطورية من طبيعة رخوة واهية، أن الكتائب المحتلة بلاد الغال وجدت أن أفعل الوسائل في معالجة الفرنجة والألاماني في ذلك الزمان، هي إقامة إمبراطور منفصل في بلاد الغال على أن يتولوا تنفيذ ذلك بأنفسهم.

وعندئذ صدت جموع البرابرة برهة من الزمان، وحارب الإمبراطور بروبوس (Probus) (٢٧٦ م) الفرنجة والألاماني حتى أرجعهم وراء الراين. ولكن مما له مغزاه العميق الدال على جو القلق الذي أوجدته تلك الغارات، أن أوريليان (٢٧٠ – ٢٧٥ م) حصن روما؛ وكانت مدينة مفتوحة آمنة طوال سني الإمبراطورية الأولى.

وفي (٣٢١ م) هبط القوط من جديد على الدانوب ينهبون ما هو الآن بلاد الصرب وبلغاريا. فدفعهم قسطنطين الأكبر إلى الوراء، وسنزيدك عنه بيانًا في الفصل التالي. وفي قريب من نهاية عهده (٣٣٧ م) حصل الوندال وهم شعب تربطهم صلات الرحم والقربى بالقوط الذين كانوا يدفعونهم أمامهم – على إذن بعبور الدانوب إلى بانونيا (Pannonia) وهي الآن ذلك القسم الواقع غربي النهر من بلاد المجر.

---

[1] بنطش كما هو معلوم هي الولاية الواقعة على ساحل البحر الأسود الجنوبية. (المترجم).

بيد أنه عند منتصف القرن الرابع كانت الشعوب الهونية في الشرق قد عادت إلى العـدوان مـن جديـد. وكانوا أخضعوا الآلاني من زمن بعيد، وإذا هم الآن يجعلون القوط الشرقيين من أتباعهم الذين يدفعون لهـم الجزية. وحذا القوط الغربيون حذو الوندال، وأعدوا العدة لعبور الدانوب إلى الأراضي الرومانية. ثم دب بين الطرفين شيء من النزاع على شروط هذه الإقامة، وثارت ثائرة القوط الغربيين فعمدوا إلى خطـة الهجـوم، وهزموا الإمبراطور فالنس (Valens) عند أدرنة، وقد قتل في هذه المعركة. فسمح لهم عند ذاك بالاستقرار فيما هو الآن بلغاريا، وأصبح جيشهم جيشًا رومانيا بالاسم وإن احتفظوا برؤسائهم الذين كان أبرزهم ألاريك (Alaric). ومما يدلك على مبلغ اصطباغ الإمبراطورية الرومانية "بالطابع البربري": اصـطباغًا تامـا، أن أكبر خصم لألاريك القوطي، وهو ستيليكو (Stilicho) كان من وندال بانونيا؛ وأن الكتائب في بلاد الغـال كانت تحت إمرة أحد الفرنجة، وأن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (Theodosius) (الذي تولى العرش من ٣٧٩ إلى ٣٩٥ م) كان إسبانيا تناصره بوجه خاص جنود أجنبية حليفة من القوط.

كانت الإمبراطورية آخذة في الانقسام حينذاك نهائيا إلى نصفين شرقي (ناطق بالإغريقيـة) وغربـي (نـاطق باللاتينية). وقد خلف ثيودوسيوس العظيم على العرش ابناه أركاديوس في القسطنطينية وهونوريـوس فـي رافنّـا (Ravenna). فاتخذ ألاريك من الملك الشرقي ألعوبة في يده، واتخذ ستيليكو ألعوبة من الغربي. وعند ذاك يظهـر الهون لأول مرة داخل الإمبراطورية بوصفهم جنودا أجنبية حليفة تحت قيادة ستيليكو. وفي هذا النزاع بين الشـرق والغرب انهارت الحدود – إن كان لا يزال في طوقنا أن نتكلم عن وجود حدود بين البربري الذي يقف في الخارج دون تفويض من أحد وبين البربري الذي وكل إليه عمل في الداخل – وزحفت غربا جماعة جديدة مـن الونـدال وأفواج أخرى من القوط والآلان والسويفي (Suevi) بملء حريتهم، وهم يعيشون على حساب البلاد. وحدث فـي معمعان هذه الربكة حدث جلل، فإن ألاريك القوطي انحدر في إيطاليا وفتح روما بعد حصار قصير (٤١٠ م).

وحوالي (٤٢٥ م) كان الوندال (الذين رأيناهم أولاً في ألمانيا الشرقية) وجزء من الآلاني (الذين ذكرنـاهم لأول مرة في جنوب روسيا الشرقي) قد اخترقوا بلاد الغال وجبال البرانس واندمجوا بعضهم في بعض ثم استقروا فـي جنوب إسبانيا. وكان هناك هون يسيطرون على بانونيا وقوط في دالماتيا. وهبط إلى أرض بوهيميا ومورافيا شعب صقلبي (سلافي) واستقر هناك هو التشك (Czechs) (٤٥١ م). وكان في بلاد البرتغال وفي شمال الونـدال فـي إسبانيا قوط غربيون وسويفي. وقسمت بلاد الغال بين القوط الغربية والفرنجة والبرجنديين. وكانت تجتاح بريطانيـا قبائل من جرمان السهل المنخفض بألمانيا: (Low German) هم الجوت (Jutes) والأنجل والساكسـون، وكـان البريطاني الكلتي في الجنوب الغربي يفر من أمامهم عبر البحر إلى ما هو اليوم بريتاني بفرنسا. والتـاريخ الثابـت عادة لهذا الغزو هو (٤٤٩ م). بيد أنه حدث فيما يرجح في وقت أبكر من هذا. وحدث نتيجة لمؤامرات دبرت بـين اثنين من السياسيين في الدولة الرومانية أن وندال جنوب إسبانيا تحت إمرة ملكهم جنسـريك (Genseric) عبـروا البحر على بكرة أبيهم إلى أفريقيا الشمالية (٤٢٩ م) وأصبحوا سادة قرطاجة (٤٣٩ م)، وحصلوا على السيادة فـي البحر وغزوا روما واستولوا عليها ونهبوها (٤٥٥ م)، ثم عبروا البحر إلى صقلية، وأقاموا مملكة في غرب صقلية استمرت هناك مائة سنة حتى (٥٣٤ م). ومملكة الوندال هذه كانت تضم أيضا إبان أقصى اتساع بلغتـه (٤٧٧ م) كورسيكا وسردينيا وجزائر الباليار، كما كانت تملك جزءا كبيرا من شمال أفريقية.

هذه المملكة الوندالية تؤثر عنها وقائع وأرقام تبين بغاية الوضوح الطبيعة الحقة لهذه الغزوات البربرية. فإنها لم تكن في الحقيقة فتحا ولا تبدل شعب أو جنس بآخر. بل إن ما حدث كان شيئًا مخالفًا لذلك تماما، إذ كان انقلابا اجتماعيا ابتدأ ثم تقنع بقناع سطحي من الغزو الأجنبي. مثال ذلك أن كل الأمة الوندالية التي انتقلت من إسبانيا إلى أفريقية بما حوت من رجال ونساء وأطفال، لم تكن تزيد في عددها عن ثمانين ألف نسمة. وقد تهيأ لنا العلم بذلك إذ وصلت إلينا تفاصيل نقلهم بحرا. وينبئنا الدكتور شورتز (Schurtz) (١): "لم يظهر السكان أدنى مقاومة جدية. وقد دافع بونيفاس (والي شمال أفريقية الروماني) عن مدينة هيبو (Hippo) بمعونة المرتزقة من القوط، على حين لم يعره الأهالي الأصليون أي مساعدة تذكر، وعلى حين أن قبائل الرحل كانت بين متخذ مسلكًا مريبا وبين منتهز الفرصة للاستفادة من الصعوبات التي أخذت تواجه الوالي الروماني وذلك بالقيام بهجمات والاشتغال في حملات غايتها النهب. وهذا الانحلال الخلقي إنما نشأ من الأحوال الاجتماعية السائدة، التي لعلها تطورت في أفريقية تطورا أسوأ منه في أي جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية. فإن الفلاحين الأحرار كانوا أصبحوا من زمن بعيد موالي أرض لكبار أصحاب الأراضي، وكانت منزلتهم لا تفضل بكثير جماهير الأرقاء الذين كنت تلقاهم أينما حللت. كذلك أصبح كبار ملاك الأراضي بدورهم غنيمة هينة لسياسة الابتزاز التي كان يتبعها ولاة لا ضمير لهم ولا يتورعون عن أية منقصة، بدرجة متزايدة لم يسبق لها مثيل تزداد نسبيا كلما أمعنت هيبة الإمبراطورية سقوطًا وانهيارا. فلم يكن أحد من الناس يملك شيئًا من المال يخاف عليه الضياع ليقبل حين ذاك أن يكون له مقعد في مجلس سناتو المدن الكبيرة، وهو شرف كان في يوم ما هدف الطامحين، ذلك أن أعضاء السناتو كان يطلب إليهم أن يسدوا كل نقص في موارد الدخل. وكان هذا النقص في تلك الأيام متلاحقًا جسيما..... وكانت تقوم في البلاد فتن دموية متكررة، ترجع على الدوام في النهاية إلى فادح عبء الضرائب....... ".

من هنا يتجلى لك أن الوندال هبطوا تلك البلاد بمثابة إنقاذ إيجابي من هذا النظام. فأبادوا طبقة الملاك الكبار، ومحوا كل الديون التي للمرابين، وألغوا آثار الخدمة العسكرية. فوجد الزراع أنفسهم أيسر حالاً. واحتفظ صغار الموظفين بمراكزهم حتى لم يعد الأمر غزوا بمقدار ما كان إصلاحا للأمور وتحريرا للناس مما هم فيه من مأزق لا مخرج منه.

وقد حدث يوم كان الوندال لا يزالون في أفريقية أن ظهر بين الهون زعيم عظيم هو أتيلا (Attila). وكانت قصبة حكومته في السهول الواقعة شرقي نهر الدانوب. فتسلط ردحا من الزمان على إمبراطورية ضخمة من قبائل هونية وجرمانية، وكان سلطانه يمتد من نهر الراين إلى آسيا الوسطى. وكان يتفاوض على قدم المساواة مع إمبراطور الصين. وظل يرهب رافنا والقسطنطينية ويتهددهما عشر سنوات. وحدث أن هونوريا (Honoria) حفيدة ثيودوسيوس الثاني عاهل الإمبراطورية الشرقية وإحدى أولئك الشابات المفتونات اللواتي يجلبن على العالم الكثير من المتاعب لقيت بعض التضييق لاتصالها بتشريفاتي في القصر اتصالاً غراميا، فأرسلت خاتمها إلى أتيلا ودعته ليكون زوجها ومنقذها. كذلك استحثه جنسريك الوندالي أن يهاجم

---

(١) In Helmolt's History of the World

الإمبراطورية الشرقية عندما واجهته محالفة بين الإمبراطورين الشرقي والغربي. فأغار بجيشه جنوبا حتى بلغ أسوار القسطنطينية نفسها مدمرا في زحفه على حد قول جيبون سبعين مدينة تدميرا تاما وهو يتقدم إلى الأمام، وفرض على الإمبراطور صلحا جائرا، لم يكن يحوي فيما يظهر أي بند يقضي بإطلاق سراح هونوريا لتسليمها لبطلها.

ولسنا بقادرين بعد انقضاء هذا الزمن الطويل على تلك الأمور أن نُعمل الحدس لتعرف الدوافع التي دعت إلى إغفال ذلك الموضوع. ولكن أتيلا استمر يدعوها عروسه المخطوبة، ولم يبرح يتخذ من تلك الرابطة تكأة للعدوان. وفي المفاوضات التالية رافق شخص معين اسمه بريسكوس (Priscus) بعثة إلى معسكر العاهل الهوني، والشذرات الباقية من القصة التي كتبها تلقي لمحة من الضوء على المعسكر وتكشف النقاب عن أسلوب حياة ذلك الفاتح العظيم.

وكانت البعثة في حد ذاتها مكونة تكوينًا عجيبا، فكان على رأسها مكسيمين (Maximun) وهو سياسي شريف ذهب وهو حسن النية، فلم يكن يعرف البتة كما لم يكن بريسكوس يدري حينًا من الزمان أن فيجيليوس (Vigilius) مترجم البعثة كان مكلفًا أيضا بمهمة سرية من لدن بلاط ثيودوسيوس ترمي إلى الوصول بطريق الرشوة إلى اغتيال أتيلا سارت البعثة الصغيرة بطريق نيش. فعبرت الدانوب في بعض زوارق الكانو المحتفرة من شجرة واحدة، وكانت تعتمد في غذائها على ما تقدمه إليها القرى التي تمر بها. وسرعان ما استرعى الاختلاف بين ألوان الأطعمة نظر أعضاء البعثة. فيذكر بريسكوس خمر العسل بدل النبيذ ويذكر الدخْن بدل القمح ويذكر شرابا إما أن يكون مستقطرا [1] أو مخمرا من الشعير وإن الرحلة خلال بلاد المجر لتذكر القارئ في كثير من حوادثها برحلات الرحالة في أواسط أفريقية في أثناء العصر الفيكتوري. وقد أبت مكارم الأهالي إلا أن يقدموا لأعضاء البعثة زوجات مؤقتات.

وكانت عاصمة أتيلا أقرب إلى معسكر فسيح وقرية منها إلى مدينة. لم يكن فيها غير بناء واحد من الحجر، وهو حمام مبني على الطراز الروماني. وكانت كتلة السكان تقيم في أكواخ وخيام. وكان أتيلا والشخصيات البارزة في قومه يسكنون في قصور من الخشب أقيمت من حولها السياجات ومن حولهم زوجاتهم العديدات وأعوانهم. وكان هناك استعراض هائل للأسباب والمغانم، بيد أن أتيلا نفسه قد اتخذ بساطة المترحلين ديدنه فكان يتناول شرابه وطعامه في فناجين وصحاف من الخشب. ولم يكن يمس الخبز قط. وكان يشتغل دائبا ويقيم مجلسا علنيا أمام بوابة قصره، وكان في العادة في سرجه على الدوام. وكانت العادة البدائية لدى كل من الآريين والمغول من إقامة ولائم عظيمة في البهو لا تزال مرعية عند القوم يكثرون فيها من معاقرة الخمر. ويصف بريسكوس كيف غنى الشعراء أمام أتيلا: "فألقوا بين يديه أشعارا نظموها هم أنفسهم يشيدون فيها ببسالته وانتصاراته. ويسود البهو صمت عميق، واسترعى التفات الضيفان صوت الرجال وهم يغنون في انسجام صوتي شعرا يشيد بمآثرهم العظيمة ويخلد ذكراها. وينبعث من عيون المقاتلة حمية حربية، تنم عن مزيد تشوقهم إلى القتال. ودموع الشيوخ تعبر عن يأسهم الكريم من عدم تمكنهم أن يأخذوا بنصيبهم

---

(1) عن جيبون.

من أخطار الميدان ومجده. ويعقب هذه التسلية - التي ربما جاز أن تعد مدرسة تلقن فيها الفضيلة العسـكرية - فصل مضحك حط من كرامة الطبيعة الإنسانية، إذ قام مهرجان أحدهما مغربي والآخـر إسـكيذي علـى التوالي باستثارة ضحك النظارة الأفظاظ بشكليهما المشوهين وثيابهما المضحكة وحركاتهما الشاذة وأحاديثهما السخيفة وخلطهما الغريب غير المفهوم بين اللغات اللاتينية والقوطية والهونيـة ممـا جعـل البهـو يـدوي بضحكات عالية ماجنة. وفي وسط هذا الصخب المفرط، لم يكن أحد لا تتغير أسارير سحنته إلا أتيلا وحـده فإنه ظل محتفظًا بوقاره الثابت الذي لا يتغير " [1].

ومع أن أتيلا كان متيقظًا حذرا كما اعترف بذلك من اختير لتنفيذ المهمة السرية التي كلف بها فيجيليوس، فإنه سمح لهذه البعثة بأن تعود في سلام إلى القسطنطينية ومعها هدايا مكونة من خيول عديدة وما إليها. ثـم أرسل إلى ثيودوسيوس الثاني سفيرا ليبلغ ذلك العاهل رأيه فيه. وقال الرسول "إن ثيودوسيوس ينحـدر مـن والد نبيل محترم، وإن أتيلا كذلك ينحدر من سلالة نبيلة، وإنه كان بأعماله معوانًا للكرامـة والمهابـة التـي ورثها عن أبيه مونزوك (Munzuk). ولكن ثيودوسيوس ضحى بشرف آبائه، وإذ قبل أن يدفع الجزية فإنـه حط بنفسه إلى مرتبة العبيد. فمن العدل إذن أن يوقر الرجل الذي وضعته المقادير والجدارة في مرتبة أسمى منه؛ بدلاً من أن يحاول محاولة عبد أثيم آن يتآمر سرا على سيده".



(١١٨)

وقوبل هذا التحدي الصريح بخنوع دنيء. وابتهل الإمبراطور طالبا الغفران ودفع فدية عظيمة.

وفي (٤٥١ م) أعلن أتيلا الحرب على الإمبراطورية الغربية وغزا بلاد الغال. ولعمري لقد كانت الأمور تجري على ما يهوى طالما كان اشتباكه في الحروب بقوات الإمبراطورية، فإنه نهب معظم مدن فرنسا حتى أوليان جنوبا. وعند ذاك اتحد ضده الفرنجة والقوط الغربيون والقوات الإمبراطورية، وحدثت معركة عظيمة شديدة في ترويس (Troyes) (٤٥١ م) قتل فيها من الجانبين ما يربو على مائة وخمسين ألف رجل، فانتهت

([1]) عن جيبون.

بصده وأنقذت أوربا من أن يكون لها سيد أعلى مغولي. وما كانت هذه الكارثة لتستنفد بأي حال موارد أتيلا. فوجه التفاته جنوبا، واجتاح شمال إيطاليا. فأحرق أكويليا وبادوا (Padua) ثم نهب ميلانو، بيد أنه تصالح مع أعدائه تلبية لرجاء البابا ليو الأول، ومات (٤٥٣ م)...

ومنذ ذلك الحين اختفى من التاريخ الهون، وأعني بهم هون أتيلا، من حيث اتصال هذا الاسم بأوربا. فإنهم ذابوا فيمن أحاط بهم من سكان. ولعل دماءهم كانت مخاطة من قبل تخليطًا كثيرا كما كانوا آريين أكثر منهم مغولاً. وهم لم يصبحوا كما قد يظن المرء سكان بلاد المجر، وإن كانوا على الراجح تركوا هنـاك أحفـادا كثيرين. وبعد ذلك بنحو مائة سنة، أتى شعب آخر هوني أو مختلط، هم الآفار (Avars) قادمين من الشـرق إلى بلاد المجر، بيد أن شرلمان دفعهم منها نحو الشرق مرة ثانيـة (٧٩٦ – ٧٩٥ م). وجـاء المجريـون (الماجيار Magyars) وهم الهنغاريون العصريون نحو الغرب بعد ذلك. وكانوا شعبا تركيا فنلنديا (Turko Finnish). والمجرية لغة تنمي إلى القسم الفنلندي الأجرى (Finno Ugrian) من الألسن الأورال آلْتائيـة. وكان المجريون على ضفاف الفولجا قرابة (٥٥٠ م). واستقروا في هنغاريا قرابة (٩٠٠ م)... علـى أننـا نتجاوز الحد في إمعاننا في هذا الحديث. ولا بد لنا من العودة إلى روما [1].

في (٤٩٣ م) أصبح ثيودوريك (Theodoric) وهو من القوط ملكًا على روما، ولكن مضت حتى آنـذاك سبعة عشر عاما وليس هناك إمبراطور روماني. وبذلك انتهت "السيادة العالمية" العظيمة مالكة الرقيق، سيادة القياصرة الأرباب وأثرياء رجال روما، ولفظت آخر أنفاسها وهي في أقصى حـالات الانحـلال والانهيـار الاجتماعي.

---

(1) إن شئت توسعا في هذا الموضوع انظر للمترجم "ميلاد العصور الوسطى" تأليف موص، الألف كتاب ومكتبة عالم الكتـب. (المترجم).

٧- الإمبراطورية الشرقية
(الهلينية المبتعثة)

ومع أن النظام الإمبراطوري الروماني انهار في كل أنحاء أوربا الغربية وأفريقية الشمالية، ومع أن الديون اختفت وإنتاج الترف قد توقف وأخفيت الأموال، ومع أن الدائنين صاروا لا يحصلون على ديونهم وأصبح الأرقاء بلا أسياد، فإن تقاليد القياصرة كانت لا تزال مرعية في القسطنطينية. وقد سنحت لنا من قبل الفرصة لذكر اسم دقلديانوس (٢٨٤ م) وقسطنطين الأكبر (٣١٢ م) بوصفهما شخصيتين بارزتين بين القياصرة المتأخرين. وإنما يدين العالم للثاني بفضل إقامة قصبة جديدة للإمبراطورية هي القسطنطينية.

ففي وقت مبكر جدا من عصر الإمبراطورية أخذ الناس يدركون عدم ملاءمة مركز روما لأن تكون عاصمة عالمية بسبب نكوص الرومان عن استخدام البحر. وقد قضى تدمير قرطاجة وكورنثة على حركة النقل والملاحة التي كانت تجتاز الطرق البحرية الرئيسية بالبحر المتوسط. فإن شعبا لا يستخدم البحر على الوجه الأكمل، لم يكن هناك من معنى لاتخاذه مقره الإداري في روما، إلا أن تضطر كل كتيبة وكل بعثة من الموظفين وكل أمر يصدر – أن تتجه شمالاً مسافة طولها نصف إيطاليا قبل التحول شرقًا أو غربا. ومن ثم يكاد كل الأباطرة المقتدرين يقيمون مقر إدارتهم العليا في مركز من المراكز الثانوية، يمتاز بموقع أكثر ملاءمة. فكانت سيرميوم (Sirmium) (على نهر السيف) وميلانو وليون ونيقوميديا (في بيثينيا) من بين أمثال تلك العواصم الإضافية. ولبثت دورازو ردحا من الزمان هي العاصمة في حكم الإمبراطور دقلديانوس. وكانت رافنا بالقرب من رأس الأدرياتي عاصمة الأباطرة الآخرين من الرومان أيام آلاريك وستيليكو.

وكان قسطنطين الأكبر هو الذي صمم على نقل مركز السلطة الإمبراطورية إلى ضفاف البسفور نقلاً مستديما. ولقد سبق أن لحظنا وجود مدينة بيزنطة التي اختار قسطنطين أن ينهض بها ويجعل منها عاصمة له، والتي مثلت دورا في قصة هستيائيوس المعقدة كما صدت فيليب المقدوني. فلو تأمل القارئ موقعها، لرأى أنها لو قيض لها سلسلة من الأباطرة المقتدرين، وكانت مركزا لشعب له بعض التماسك والروح القوية والفن البحري، (وهما أمران لم يتحققا لها قط – لعاشت في عزة ومنعة. فلقد كانت من حسن الموقع بمنزلة عظيمة خارقة للعادة. ولا تنس أن سفنها كانت تستطيع أن تتوغل في الأنهار حتى قلب الروسيا، وبذلك تضرب من الخلف كل تقدم يقوم به البرابرة. لقد كانت تتسلط على الطرق التجارية المؤدية إلى الشرق. وكانت على مسافة دانية ومعقولة تستطيع منها أن توجه ضربة إلى أرض الجزيرة ومصر وبلاد الإغريق وكل جهات العالم الأكثر رخاء والأوفر حظًا من المدنية والثراء في ذلك الزمان. بلغ بها الأمر أنها رغم وقوعها تحت حكم سلسلة من ملوك عاجزين، وفي ظل ظروف اجتماعية منحلة الأخلاق، فإن بقايا الإمبراطورية الرومانية التي تمركزت في القسطنطينية، صمدت هناك ما يقارب الألف سنة.

وظهرت من قسطنطين الأكبر النية الواضحة على جعل القسطنطينية مركزا لإمبراطورية متماسكة غيـر مجزأة. بيد أنا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى وسائل السفر والنقل التي كانت في متناول ذلك الزمان، رأينـا أن الظروف الجغرافية لأوربا وآسيا الغربية لا تشير إلى أي مركز واحد بالذات يصلح قصبة للحكومـة. فلـئن اتجهت روما صوب الغرب بدلاً من الشرق ففاتها بذلك أن تمـد سـلطانها إلـى مـا وراء الفـرات، فـإن القسطنطينية من الناحية الأخرى كانت بعيدة عن بلاد الغال بعدا تنقطع دونه كل علائـق الأمـل. إن مدنيـة البحر المتوسط الموهنة القوى تركت الغرب في الواقع يفلت منها إفلاتًا تاما، بعد أن بذلت بعض الجهد فـي سبيل الحصول على إيطاليا، ثم تركزت بوجه الخصوص على البقايا المركزية والدعائم الأساسية التي قامت عليها إمبراطورية الإسكندر. واستعادت اللغة الإغريقية سلطانها الذي لم يحدث البتـة أن تقـوض تقوضـا خطيرا بسبب استعمال اللاتينية رسميا. ويشير الناس بوجه عـام إلـى هـذه الإمبراطوريـة "الشـرقية" أو البيزنطية، كأنما كانت استمرارا للتقاليد الرومانية. بينما هي في الحقيقة أقـرب كثيـرا أن تكـون اسـتئنافًا لإمبراطورية الإسكندر.



(١١٩)

وما كانت القوة الفكرية تنهض من وراء اللغة اللاتينية، إذ لم يتوفر لتلك اللغة من الأدب والعلم ما يجعـل منها ضرورة لا يستغني عنها أذكياء الرجال فيطوع لها ذلك استمرار التغلب على الإغريقية. فإن أيـة لغـة مهما بلغ شأن ما يستطيع الحكام أن يفعلوه لها، لا تستطيع أن تفرض نفسها بصورة تمكنها من منافسة أخرى في إمكانها أن تهب الناس ما لديها من مزايا أدب عظيم أو معلومات موسوعية. فاللغات المعتديـة يجـب أن تصاحبها مواهبها ومزاياها، ومواهب الإغريقية أعظم من مواهب اللاتينية عظما لا يدع سـبيلاً للمقارنـة. وكانت الإمبراطورية الشرقية منذ بواكير انفصالها ناطقة بالإغريقية، كما كانت استمرارا للتقاليد الهلّينية، وإن يكن ذلك الاستمرار مقترنًا بالانحلال. ولم يعد مركزها الفكري بعد في بلاد الإغريق بل في الإسكندرية. ولم تعد عقليتها بعد عقلية مواطنين أحرار الفكر صريحي القول؛ عقليـة أرسـطو الإسـتاجيري [1] وأفلاطـون الإغريقي. بل كانت عقليتها عقلية المتحذلقين وعقلية رجال عاجزين سياسيا. وكانت فلسفتها تهربا باهرا مـن

(1) إستاجيرا مدينة في مقدونيا ولد فيها أرسطو الفيلسوف فعرف بارسطو الإستاجيري.

حقائق الأمور وكان حافزها العلمي قد خبا. ومع ذلك فإنها كانت هلّينية على كل حال وما كانت باللاتينية بحال. لقد ظهر الروماني على المسرح هنيهة ثم توارى عن الأبصار مرة أخرى والواقع أنه اختفى إلى حد كبير جدا من الغرب أيضا. ولما حل القرن السادس الميلادي، مست سكان أوربا وأفريقيا الشمالية رجة عنيفة حركتهم حركة العكارة المترسبة في قعر إناء. وعندما تبدأ تلك العكارة أن تستقر من جديد في القرنين السابع والثامن ويشرع مختلف السكان في اتخاذ سمة محددة محلية التكوين، لا يتبقى من الروماني سوى اسمه فقط في المنطقة المحيطة بروما.

فأما لغته اللاتينية فإنها في أجزاء مترامية من إمبراطوريته الغربية قد داخلتها التعديلات وظهرت لها صورة متغيرة أو كانت آخذة بأسباب التغير. حدث ذلك في بلاد الغال حيث كان الفرنجة يتعلمون من اللاتينية صيغة غالية، وبذلك يطورون اللغة الفرنسية في ثنايا تلك العملية. وفي إيطاليا حيث تجلى تأثير المغيرين التيوتون ما بين لومبارد وقوط، أخذت اللاتينية تتحور إلى لهجات إيطالية متنوعة؛ وفي إسبانيا والبرتغال أخذت تتحول إلى الإسبانية والبرتغالية. والجوهر اللاتيني الأساسي في لغات هذه الأقاليم يساعدنا على إدراك انعدام القيمة العددية لمختلف الغزاة من الفرنجة والوندال والآفار والقوط ومن إليهم من الناطقين بالجرمانية كما يساعد على تبرير ما قلناه من أن ما حدث للإمبراطورية الغربية لم يكن فتحا وتبدل سكان بآخرين قدر ما كان انقلابا سياسيا واجتماعيا. كذلك احتفظ إقليم فاليه (Valais) بجنوب سويسرا بلغة لاتينية الأساس، وهكذا كانت حال كانتون جريسون. وأعجب من هذا وأدعى للإمتاع أن داكيا وموبسيا الدنيا (Moesia inferior) التي منها أجزاء كبيرة تقع في شمالي الدانوب والتي أصبحت دولة رومانيا الحديثة قد احتفظت كذلك باللسان اللاتيني. مع أن هذه الأقاليم لم تلحق بالإمبراطورية إلا مؤخرا ولم تلبث حتى ضاعت من يديها سريعا.

فأما في بريطانيا فإن اللاتينية محاها الفاتحون الأنجلوسكسون محوا تاما. ومن لهجاتهم المتنوعة نبتت للفور مادة الاشتقاق الأساسية في اللغة الإنجليزية.

بيد أنه على حين كان تحطيم البناء السياسي والاجتماعي الروماني كاملاً كما ترى، وعلى حين قضت عليه في الشرق التقاليد الإغريقية الأقدم منه عهدا والأشد قوة، وعلى حين تمزق في الغرب إلى أجزاء شرعت تتخذ لنفسها حياة منفصلة بها، - فلقد كان هناك شيء واحد لم يهلك، بل ترعرع ونما، وكان ذلك هو تقاليد إمبراطورية روما العالمية وسيادة القياصرة. فلما قُضي على هذه الحقيقة اتسع أمام الأسطورة مجال الامتداد والتوسع. ذلك أن فكرة السيادة الرومانية العالمية المتسمة بالوقار والعظمة عندما حرمت كل احتمال للتحقيق والخروج إلى حيز التنفيذ، ربت وازدهرت في خيال الجنس البشري ولا تزال ممسكة بزمامه إلى يومنا هذا.

لقد ظلت تطيف بالفكر الإنساني منذ زمان الإسكندر فكرة تبشر بإمكان توحيد الجنس البشري توحيدا سياسيا. ولطالما دار بخلد كل قوي من أقوياء رؤساء البرابرة وزعمائهم وملوكهم الذين كانوا يغيرون في بحران تلك الفوضى الضخمة الناشبة أظفارها في الإمبراطورية المنحلّة المتضعضعة، أن في الإمكان وجود ملك ملوك قوي أعظم منهم جميعا يهب القانون الحقيقي النافذ للناس كافة، ويقيم في العالم قسطاسا مستقيما، وكانوا على أتم استعداد للإيمان بأن قيصر قد جاء في الماضي في موضع وزمان ما، وأنه كان ملك الملوك المنشود ذاك، وأنه قادر على العودة من فوره لمواصلة حمل صولجان سيادته مرة ثانية. من أجل هذا كانوا يبجلون ذلك اللقب القيصري ويغارون منه ويضعونه في منزلة تعظم ألقابهم ورتبهم. وما تاريخ أوربا الدولي منذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا إلا تاريخ ملوك ومغامرين يعملون لمنصب القيصرية والإمبراطورية. ونحن محدثوك عن بعض هؤلاء في الحين المناسب. ولقد بلغ من انتشار هذا "التقيصر" وشموله أجزاء العالم أن الحرب العظمى ١٩١٤ – ١٩١٨ ثلت عروش ما لا يقل عن أربعة من هؤلاء القياصرة، هم قيصر ألمانيا وقيصر النمسا وقيصر الروسيا ثم ذهب الشخص الغريب المضحك قيصر بلغاريا. وكان الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث قد هوى قبل ذلك عن عرشه في ١٨٧١م. ولم يبق في العالم اليوم أحد تهيأ لمواصلة حمل اللقب الإمبراطوري والنهوض بتقاليد قيصر المؤَله (Divus Caesar) غير العاهل البريطاني الذي يسمى قيصر الهند (وهي بلاد لم يرها قط قيصر من القياصرة الحقيقيين). وهو يرث هذا اللقب عن المغول الأعظم الذي سنتكلم عنه في حينه.

تم المجلد الثاني

ويعقبه الثالث حاويًا تاريخ المسيحية والإسلام

والعصور الوسطى

التعريف بالمترجم

حياته:

ولد بالقاهرة، وتخرج في كلية المعلمين العليا الأدبية عام ١٩٢٩، واشتغل بالتدريس حتـى رقـي وكـيلاً لمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥١) فمديرا للمركز الرئيسي للتدريب بمنشية البكـري بـوزارة التربيـة والتعليم (١٩٦٣).

- وشغف بالثقافة وآداب العربية والإنجليزية والفرنسية منذ حداثته.

أعماله:

اهتم في الترجمة بنوع خاص فنقل إلى العربية ما يلي من كتب.

١- **في التاريخ:** "معالم تاريخ الإنسانية" وصنوه "موجز تاريخ العالم" "لولز"

٢- **في تاريخ الحضارات:**

أ- "حضارة الإسلام" جرونيباوم.

ب- "الحضارة البيزنطية" – رنسيمان.

ج- "الحضارة الهلينستية" – تارن.

د- "ميلاد العصور الوسطى" - هويزنجا.

٣- **في علم النفس والتربية:** "مدخل إلى علم النفس" زانجويل، ثلاثية آرنولد جزل في تربية الأطفال وسيكولوجيتهم، "الحضين والطفل" – و"الطفل من الخامسة إلى العاشرة" – و "الشباب".

٤- **كتب في السياسة ومتفرقات:**

أ- "آسيا والسيطرة الغربية" – بانيكار.

ب- "حول منع الحرب " – جون استراتشي.

٥- **كتب أخرى:**

أ- "أعلام وأفكار" – هويزنجا.

ب- "كيف يفسرون التاريخ " – ألبان ويدجري.

ج- "التربية عن طريق الفن" – هربرت ريد.

د- "دراسات إنسانية أصيلة " – ألدوس هكسلي.

ه- "الطفولة وما بعدها" – سوزان إيزاكس.